الحاكم بأمر الله

وأسرار الدعوة الفاطمية

تأليف

محمد عبد الله عنان

الطبعة الثالثة

١٤٠٤ هـ = ١٩٨٣ م

الناشر

مكتبة الخانجي بالقاهرة دار الرفاعي بالرياض

مطبعة المدني
المؤسسة السعودية بمصر
٦٨ شارع العباسية - القاهرة - ت : ٨٢٧٨٥١

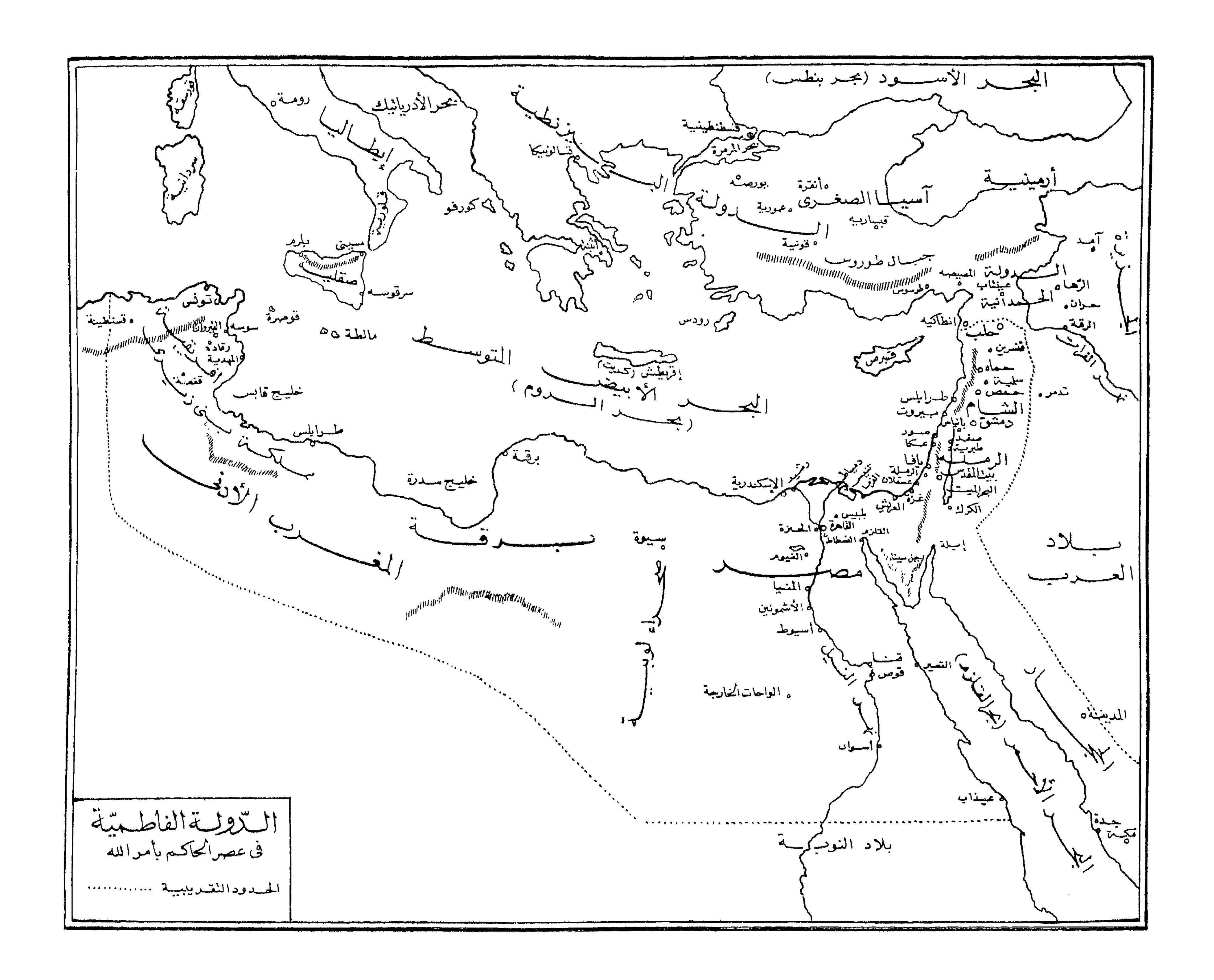
نموذج من صفحات مخطوط « اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء » للمقريزى ، المحفوظ بمكتبة سراى أحمد الثالث باستانبول والمكتوب سنة ٨٤٤ هـ ، قبيل وفاة المؤلف ، وعن نسخة بخطه (ومنه نسخة مصورة بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية)

ولا قوة الا بالله العلي العظيم فانتم ايها
الغافلون ان يصيبكم ما اصاب من كان قبلكم من اصحاب
الأيكة وقوم تبع. الم تسمعون قول الله تعالى
الم تر كيف فعل ربك بعاد ارم ذات العماد
الذين طغوا في البلاد فاكثروا فيها الفساد فصب عليهم
ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد. وقوله
تعالى الم نهلك الاولين ثم نتبعهم الآخرين كذلك
نفعل بالمجرمين. ومثل هذا كثير في كتاب الله عز
وجل مما اصاب اهل العناد والخلاف والمنافقين
والمفسدين في الارض فقد عصى الله تعالى
ومولانا امير المؤمنين سلام الله عليه من [illegible]

اليه اجمعين. وكذلك خرج من اوساطكم من قال الله ذو الجلال
والاكرام. وما كان الله ليعذبهم وانت فيهم وعلامة
سخط ولي الله تدل على سخط الرب تبارك وتعالى.
فمن ذلك ابطل عصا الامام وغلق باب دعوته ورفع مجالس
حكمته ونقل جميع دواوين اوليائه وعبيده من قصره
ومنعه عن الكافة سلامه. وقد كان يخرج اليهم
من حضرته. ومنعهم عن الجلوس على مساطب
[illegible] ومناعة عن الصلاة بهم في الاعياد
و[illegible] رمضان. ومنعه المؤذنين ان يسلموا عليه
[illegible] الاذان ولا يذكروه. ومنعه جميع الناس
ان يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب وذلك مفترضا

نموذج من صفحات مخطوط قديم به رسائل حمزة بن علي ، ويحفظ بدار الكتب رقم ٣٧ عقائد النحل ؛ والصفحتان من « السجل المعلق »

نموذج من صفحات المخطوط الكنسى المسمى « بسير البيعة المقدسة » المحفوظ بدار الكتب رقم ٦٤٣٤ ح


البحر الأسود (بحر بنطس)
أرمينية
آسيا الصغرى
الدولة البيزنطية
قسطنطينية
بحر المرمرة
تسالونيكا
أنقرة
بورصة
عمورية
قيسارية
قونية
جبال طوروس
آمد
الرها
حران
الرقة
الدولة الحمدانية
عينتاب
المصيصة
طرسوس
انطاكيه
حلب
قنسرين
حماه
سلمية
حمص
تدمر
طرابلس
بيروت
الشام
دمشق
بانياس
صور
عكا
صفد
طبرية
يافا
الرملة
بيت المقدس
عسقلان
غزة
العريش
الكرك
رودس
قبرص
إقريطش (كريت)
البحر الأبيض المتوسط
(بحر الروم)
رومة
بحر الأدرياتيك
إيطاليا
قلورية
كورفو
مسيني
بلرم
صقلية
سرقوسه
سردانية
تونس
قسنطينة
سوسه
القيروان
رقادة
المهدية
قفصة
قوصرة
مالطة
خليج قابس
طرابلس
برقة
خليج سدرة
المغرب
برقة
سيوة
الإسكندرية
رشيد
دمياط
تنيس
بلبيس
القاهرة
الجيزة
الفسطاط
القلزم
الفيوم
مصر
المنيا
الأشمونين
أسيوط
قنا
قوص
القصير
الواحات الخارجة
أسوان
عيذاب
بلاد النوبة
إيلة
جبل سيناء
بلاد العرب
المدينة
جدة
مكة
الدولة الفاطمية
في عصر الحاكم بأمر الله
الحدود التقريبية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

كانت الدولة الفاطمية ، بين الدول الإسلامية التى استقرت بمصر ، أوفرها بهاء ، وأبقاها أثرا ؛ وما زال الجامع الأزهر ، غرس الدولة الفاطمية اليانع ، يقوم منذ ألف عام أثرا خالدا ، ورمزا باهرا لهذا العصر الزاهر ، وهذه الدولة المستنيرة الباذخة ؛ وربما كان العصر الفاطمى ، بين عصور مصر الإسلامية ، أجدرها بالدرس والعناية ، وأحفلها بالمواقف الشائقة ، وأكثرها سحرا وفتنة ، وأبعثها الى التأمل والعطف ؛ ذلك لأن الخلافة الفاطمية ، بالرغم مما يحيق بأصولها وإمامتها من الريب ، كانت بنظمها الطريفة ، ورسومها الفخمة ، وخلالها الباهرة ، تنثر من حولها فيضا من العظمة والبهاء ، وتطبع العصر بطابع عميق من روحها الباذخ . وإذا كان للعصر الفاطمى سحره الخاص ، فإن عصر الحاكم بأمر الله هو بلا ريب أغرب مراحله وأعجبها ؛ وقد غاض بهاء العصر الفاطمى فى تلك الفترة نوعا ، ولكن ما تمتاز به تلك الفترة من الأحداث العجيبة ، والنوادر الشائقة ، وما يمازجها من الخفاء والغموض ، وما تمتاز به شخصية الحاكم من الأطوار والخواص المدهشة ، والنزعات والأهواء المروعة ، والنواحى الفلسفية والإنسانية أحياناً ، مما يسبغ على تلك المرحلة أهمية خاصة ، ومن ثم كان اختيارنا لهذا العصر ، وكانت عنايتنا بدراسة نواحيه الخفية .

ومن الأسف أن معظم مصادر العصر الفاطمى المعاصرة ، قد دثر ولم يصل إلينا . فسيرة المعز لابن زولاق ، وتاريخ مصر للمسبّحى ، ومؤلف القضاعى فى الخطط ، وتاريخ ابن الطوير ، وتاريخ ابن المأمون وغيرها ، مما كتب خلال العصر عن مشاهدة ودراسة مباشرة ، واتصال وثيق بالأشخاص والحوادث والشؤون ، قد غاض ودثر ؛ بيد أنه مما يدعو الى الغبطة أن المؤرخين

المتأخرين الذين ظفرنا بآثارهم ، مثل النويرى والقلقشندى والمقريزى ، وابن تغرى بردى والسيوطى ، قد انتفعوا بهذه المصادر الفاطمية المعاصرة ، ونقلوا الينا منها كثيراً من الفصول والشذور الهامة ، ولا سيا عن نظم الدولة الفاطمية ، ورسومها ومواكبها ، ومظاهر قوتها وعظمتها وبذخها .

وقد انتهت إلينا فى الوقت نفسه ، بعض المصادر والآثار المعاصرة ، مثل تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ، وعيون المعارف للقضاعى ، وجزء من تاريخ ابن الصابى ، وكتاب سير البيعة المقدسة . ولتاريخ الأنطاكى ، وهو مؤرخ وطبيب نصرانى معاصر مصرى فيما يظهر أهمية خاصة ، وقد كتبه لأول مرة بمصر فى نهاية القرن الرابع تتمة لتاريخ سعيد بن بطريق ، بطريرك الملكية بالإسكندرية ، الذى انتهى فيه الى سنة ٣٢٦ هـ ، واستأنفه حيث وقف سلفه ؛ وأعاد كتابته حسبما يقول لنا فى مقدمته سنة ٤٠٥ هـ عام انتقاله إلى مدينة أنطاكية ، واستمر فى تدوين الحوادث حتى أواخر عهد الظاهر ؛ ويعنى الأنطاكى بالحاكم وعصره عناية خاصة ، وذلك لما لأحداث العصر ، وسياسة الحاكم إزاء الذميين من صلة وثيقة ، بما أصاب الكنيسة والمجتمع النصرانى ، من المحن يومئذ ؛ ويبدى الأنطاكى فى استعراضه لحوادث العصر اعتدالا واتزانا ودقة ، تجعل لروايته قيمة خاصة . كذلك يتضمن الأثر الكنسى المخطوط المسمى بسير البيعة المقدسة ، الذى حصلت دار الكتب المصرية على نسخة مصورة منه ، نقلا عن مخطوط مكتبة باريس ، والذى هو ذيل الكتاب ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى « سير الآباء البطاركة » حسبما بينا فى موضعه ، عدة أقوال وروايات هامة ، عن أيام المعز والعزيز والحاكم ، وضعها بعض الأحبار المعاصرين . وإذا كانت هذه الروايات والأقوال الكنسية ، تطبعها فى الغالب نزعة خاصة من التحامل والإغراق أحيانا : فإن لها مع ذلك قيمتها الخاصة فى شرح موقف الكنيسة ، وطبيعة العلائق بينها وبين الدولة ، وأحوال المجتمع النصرانى فى ذلك العصر .

أما تاريخ القضاعى المسمى « عيون المعارف » ، فهو استعراض سريع لأخبار الخلفاء حتى سنة ٤٢٢ هـ ؛ بيد أنه يحتوى على رواية هامة عن اختفاء الحاكم بأمر الله ومصرعه ؛ وقد كتب القضاعى هذا التاريخ فى أوائل عهد

المستنصر ، قريباً من العصر الذى نعنى به ؛ وكان راوية وفقيها ثقة ، ذا صلة بالقصر وشؤونه .

وإلى جانب هذه الروايات المعاصرة توجد عدة آثار قيمة ، كتبت بعد ذهاب الدولة الفاطمية بقليل ، منها كتاب « أخبار الدول المنقطعة » للوزير جمال الدين المصرى المتوفى سنة ٦٢٣ هـ ، وبه رواية دقيقة ضافية عن الحاكم وأطواره وبعض أحداث عصره ؛ وكتاب « مرآة الزمان » لشمس الدين يوسف بن قزأوغلى المتوفى سنة ٦٥٤ هـ ، وبه أقوال وملاحظات قيمة عن الحاكم ؛ و « تاريخ الإسلام » للحافظ الذهبى المتوفى سنة ٦٧٣هـ ، وبه أيضاً آراء وتعليقات نفيسة عن الحاكم ؛ وكتاب « الوفيات » لابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وبه تراجم للخلفاء الفاطميين ، وتراجم عدة أخرى لكثير من رجالات العصر ، تمتاز جميعا بدقتها وتحقيقها . وربما كان أخص ما تمتاز به هذه الروايات التى كتبت بعد ذهاب الدولة الفاطمية بنحو قرن أو بعضه ، أنها أدركت الروايات المعاصرة ، واستطاعت أن تمحصها وأن تنتفع بها .

وتوجد روايات نصرانية كتبت أيضاً فى تلك الفترة ؛ منها تاريخ أبى صالح الأرمنى المتوفى فى أواخر القرن السادس ؛ وهو تاريخ الكنائس والأديار المصرية ، بيد أنه يحتوى على روايات وأقوال كثيرة تتعلق بالحاكم والخلفاء الفاطميين ، وسياستهم نحو النصارى ؛ وتاريخ المكين ابن العميد المسمى « بتاريخ المسلمين » ، وتاريخ ابن العبرى المسمى « بمختصر تاريخ الدول » ، وقد كتب كلاهما فى أواخر القرن السابع ؛ ولهذه الروايات النصرانية عناية خاصة بأخبار الحاكم وشخصيته .

أما المصادر المتأخرة فلدينا منها عدة هامة ، فى مقدمتها « نهاية الأرب » للنويرى المتوفى سنة ٧٣٣ هـ ، و «صبح الأعشى » للقلقشندى المتوفى سنة ٨٢١ هـ ، و « الخطط » و « اتعاظ الحنفاء » للمقريزى المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، و « النجوم الزاهرة » لابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ . وأهميتها جميعاً فى أنها تنقل الينا الشذور الضافية عن الآثار الفاطمية المعاصرة . ويقدم الينا النويرى رواية ضافية عن الحاكم والخلفاء الفاطميين ، وينقل إلينا نصوص « الدعوة السرية الفاطمية » كاملة . ويعنى القلقشندى عناية خاصة بالحديث عن النظم والرسوم

والمواكب الفاطمية ، ويقدم الينا مجموعة نفيسة من الوثائق الرسمية الخلافية والديوانية ، وهى أتم وأقيم مجموعة من نوعها . أما المقريزى فهو بلا ريب أهم وأنفس هذه المراجع المتأخرة ، فهو فضلا عما ينقله إلينا فى الخطط من أقوال معاصرى الدولة الفاطميـــة ، مثل ابن زولاق والمسبحى والقضاعى وابن الطوير وابن المأمون وغيرهم ، يقدم الينا روايات ضافية محققة عن الحاكم بأمر الله ، وعن جميع رجال الدولة والقصر المعاصرين ، وعن جميع الأحداث السياسية والاجتماعية والدينية ، ويقدم الينا عدة فصول رائعة عن الدولة الفاطمية وعن عظمتها وقوتها وبذخها ، وشرحاً وافياً « للدعوة السرية الفاطمية » ومراتبها وتطوراتها ؛ ثم يقدم الينا فى كتابه « اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء » رواية قوية ضافية عن نشأة الدولة الفاطمية ، وقيامها بالمغرب ثم فتحها لمصر ، وصراعها مع القرامطة ، وينقل الينا فى كتابيه كثيراً من النصوص والوثائق الهامة . ومن حسن الطالع أن أتيح لنا — ونحن نعنى بإعداد هذه الطبعة الجديدة من الكتاب — أن نطلع على نسخة مخطوطة من « اتعاظ الحنفاء » ، أتم وأوفى بكثير من النسخة المطبوعة ، إذ تقف المطبوعة عند أخبار القرامطة وخطاب المعز لدين الله الى زعيمهم الحسن الأعصم ، ونبذة يسيرة من أحداث عصر الحاكم ، ولكن هذه النسخة المخطوطة تمضى بعد ذلك فى سرد تاريخ الحاكم والخلفاء الفاطميين من بعده بإفاضة ، وتقع فى نحو خمسة أضعاف النسخة المطبوعة . وقد عنينا عناية خاصة بمراجعة القسم الخاص منها بعصر الحاكم بأمر الله ، وهو يشتمل على ثمانية وأربعين صفحة كبيرة ، حافلة بالتفاصيل والحوادث والوثائق الهامة ، ومنها نقلنا الكثير مما لم يكن واردا فى أى مصدر آخر[1] . وهذا الى ما يقدمه الينا المقريزى فى « الخطط » من أخبار الكنيسة والمجتمع النصرانى أيام الحاكم بأمر الله ؛ والخلاصة أن المقريزى يبدى عناية خاصة بكل ما يكتبه عن الدولة الفاطمية والخلفاء الفاطميين ؛ وقد قيل

---

(١) تحفظ هذه النسخة المخطوطة الكاملة من « اتعاظ الحنفاء » بمكتبة سراى أحمد الثالث باستانبول ، وهى تقع فى ١٧٢ ورقة كبيرة ؛ وكتبت فى سنة ٨٤٤ هـ عن نسخة بخط المؤلف ، وقبيل وفاته ، وقد حصل معهد المخطوطات بالجامعة العربية أخيرا منها على فلم مصور ، وعنه نقلت كلية الآداب بجامعة الإسكندرية نسخة مصورة ، وهى التى أتيح لى بمعاونة صديق الدكتور جمال الدين الشيال ، أن أطلع منها على اللوحات الخاصة بعصر الحاكم .

فى ذلك إن المقريزى ينتمى إلى الفاطميين ، ويرجع نسبته اليهم . بيد أنه مهما كان السبب فى هذه العناية والإفاضة ، فإن كتابات المقريزى عن العصر الفاطمى هى بلا ريب أنفس الروايات المتاخرة وأوثقها .

هذا بيان لأهم المصادر التى رجعنا إليها فى دراسة شخصية الحاكم بأمرالله، واستعراض أحداث عصره . ومن حسن الطالع أن دار الكتب المصرية تحتفظ بمعظم الآثارالمخطوطة من هذه المصادر ؛ وقد أشرنا إلى ذلك فى مواضعه من الكتاب ، ثم ذكرنا المصادر جميعها مخطوطة ومطبوعة ، شرقية وغربية ، فى ثبت خاص بها فى نهاية الكتاب .

* * *

أما القسم الثانى من الكتاب وهو « الدعوة السرية الفاطمية » ، فقد رجعنا فيه الى مجموعة منوعة أخرى من المصادر الكلامية والمذهبية . وقد كان أهم مصادرنا فى هذا القسم، حينما صدرت الطبعة الأولى من الكتاب فى سنة ١٩٣٧ ، الى جانب المصادر التاريخية ، هو رسائل الدعاة التى تحتفظ دار الكتب المصرية منها بعدة مجموعات خطية ثمينة . وقد كانت هذه المجموعة التى توفرنا على دراستها ، عمادنا فى دراسة الدعوات السرية المختلفة ، أصولها ، ونظريات دعاتها ، ولا سيما تلك التى تتصل بعصر الحاكم بأمر الله . ومن حسن الطالع أن هذه المجموعة الخطية تضم جميع الرسائل السرية الأساسية، ولا ينقصها سوى طائفة أخرى من رسائل ثانوية ، توجد فى مجموعة المكتبة الوطنية بباريس . وقد أتيح لنا أيضاً أن نطلع عليها أيام زياراتنا لباريس قبل الحرب العالمية الثانية .

بيد أنه قد ظهرت منذ صدور الطبعة الأولى من الكتاب ، طائفة كبيرة من الآثار والمصنفات الإسماعيلية ، تاريخية ومذهبية ، ومنها عدة منقولة عن مخطوطات إسماعيلية ، يوجد معظمها فى اليمن والهند . وقد بذلت « الجمعية الإسماعيلية » بالهند[1] ، بالأخص ، فى هذا الميدان ، فى الأعوام

---

(١) أسست « الجمعية الإسماعيلية » The Ismaili Society فى بومباى سنة ١٩٤٦ ، وجاء فى بيان تأسيسها أنها ترمى « إلى تشجيع البحث النقدى المستقل فى جميع الأمور المتعلقة بالمذهب الإسماعيلى ، أو بعبارة أخرى كل نواحى الحركة الإسماعيلية فى الإسلام ، أدبها وتاريخها ، وفلسفتها ، وما إلى ذلك ؛ وأن الجمعية تستبعد من برنامجها كل دعاية أو جـدل يمس الدين أو السياسة ، ولا تقصد أن تؤيد وجهة نظر أية مدرسة من المدارس الإسماعيلية » .

الأخيرة نشاطاً ملحوظاً ، ونشر برعايتها ، وعلى نفقتها ، فى الهند ومصر ، كثير من هذه المؤلفات والمخطوطات . وبالرغم مما ينطوى عليه هذا المجهود من قيمة علمية لا ريب فيها ، فإنه من الواضح لمن يعنى بدراسة هذه الآثار الإسماعيلية الجديدة ، أنها تهدف بالأخص إلى غايتين جوهريتين : الأولى إثبات صحة نسب الخلفاء الفاطميين إلى آل البيت ، وإثبات شرعية إمامتهم ؛ والثانية دحض الروايات التاريخية الذائعة عن « الدعوة السرية الفاطمية » ، ونفى ما ينسب اليها من عناصر المروق والإلحاد . وقد عمل بالأخص لتحقيق هاتين الغايتين المذهبيتين ، تحت رعاية « الجمعية الإسماعيلية » ، المستشرق الروسى ، الأستاذ ڤلاديمير إيڤانوف ، فنشر كثيراً من النصوص الإسماعيلية المتعلقة بذلك ، وأصدر بالإنجليزية عدة كتب تطبعها حماسة واضحة ، أكثر مما يطبعها الاتزان العلمى ، والجدل التاريخى المنطقى .

وقد درسنا كثيراً من هذه النصوص والمؤلفات الإسماعيلية الجديدة . ومن الحق أن نقول إن منها ما يلقى أضواء جديدة على بعض النواحى التاريخية والمذهبية الفاطمية . ولكن من الحق أيضاً أن نضيف الى ذلك ، أنها تتضمن الكثير من النصوص والمحاولات السقيمة ، التى يطبعها لون الدعاية المذهبية . وسوف نعرض إليها ونناقشها خلال الكتاب فى مواضعها .

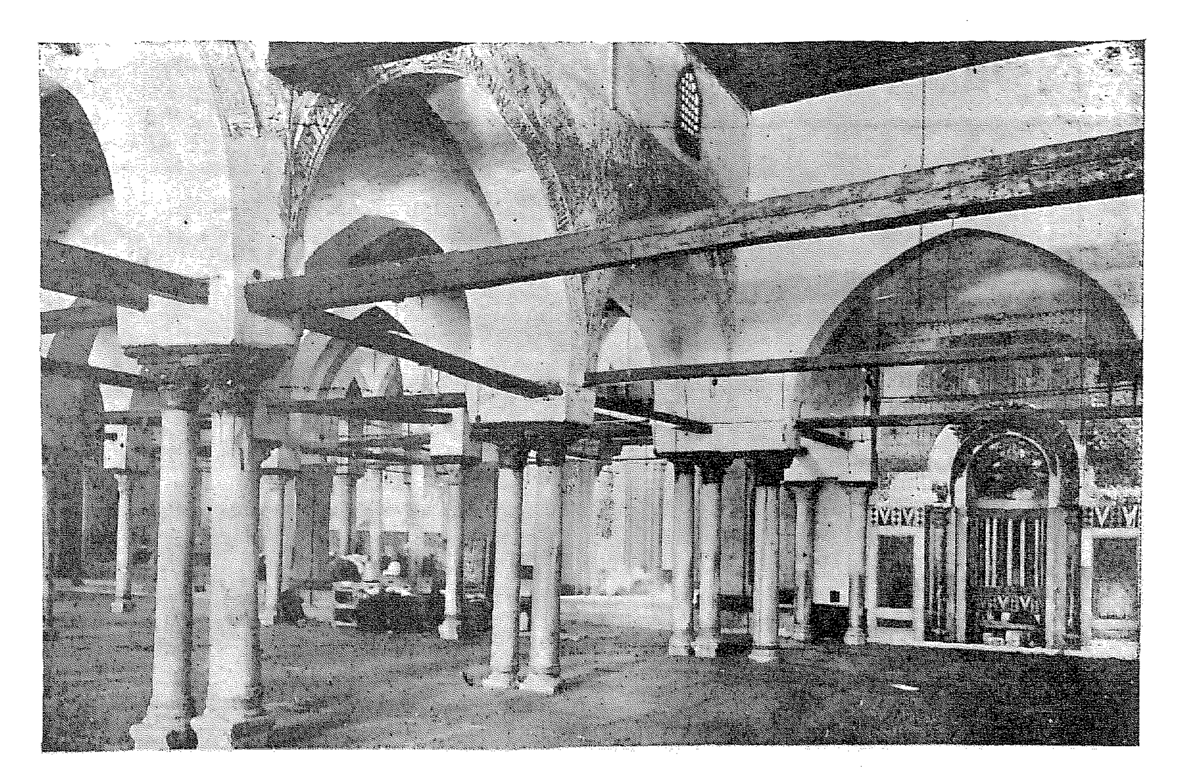
هذا وقد رأينا عدا ما أثبتناه خلال حديثنا ، من الوثائق والسجلات التى صدرت فى مختلف الظروف والمناسبات ، أن نذيل الكتاب بطائفة أخرى من الوثائق والسجلات الفاطمية ، وفى مقدمتها كتاب المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم زعيم القرامطة ، وذلك لما تضمنته من نصوص وحقـــائق تاريخية ودستورية هامة ، ولما تلقيه من ضوء رسمى على بعض نواحى الإمامة الفاطمية وخواص دعوتها ؛ وأثبتنا معها من وثائق الدعاة السريين اثنتين إحداهما « السجل المعلق » نقلناه بنصه الكامل عن مجموعة خطية قديمة بدار الكتب ، لما فيه من شروح وإشارات تاريخية هامة عن اختفاء الحاكم ، ومن مزاعم وآراء غريبة للدعاة فى هذا الاختفاء ؛ والثانية ميثاق ولى الزمان وهو نموذج مدهش من مواثيقهم .

* * *

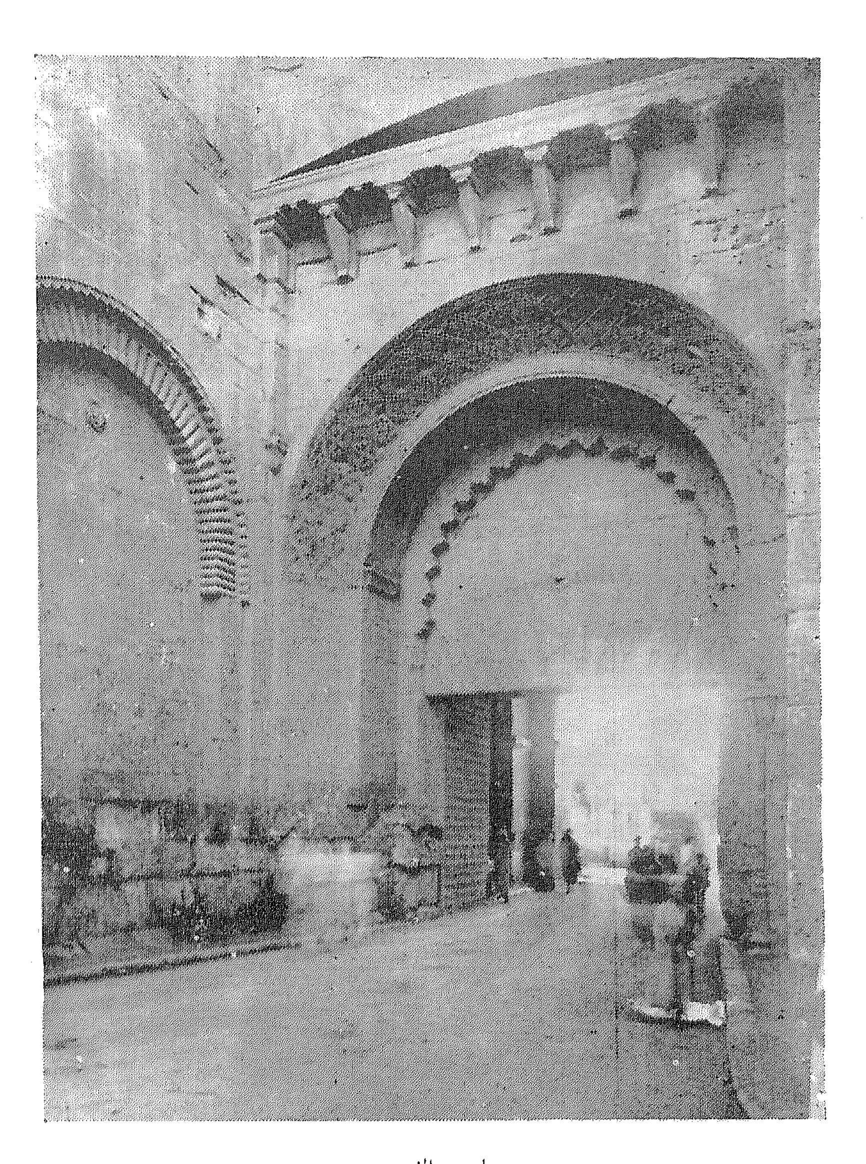
ونرى فى الختام أن ننوه فى هذه الطبعة الجديدة من الكتاب ، بما سبق أن نوهنا به فى الطبعة الأولى ، من حقيقة نرجو ألا تغيب عن الأذهان ، وهى أننا قصدنا بهذا البحث الى غاية علمية خالصة . وقد حرصنا أثناء استعراض المسائل المذهبية ، على أن نبقى ما استطعنا فى دائرة البحث التاريخى ؛ فإذا كانت لنا ثمة آراء أو تعليقات خاصة ، فهى ثمرة البحث والنقد الحر ، لم نتأثر فى إبدائها بأية نزعة أو فكرة مذهبية ؛ وهذه حقيقة نرجو أن تقدر قدرها .

القاهرة فى ربيع الأول سنة ١٣٧٩ هـ
الموافق سبتمبر سنة ١٩٥٩ م

محمد عبد الله عنان

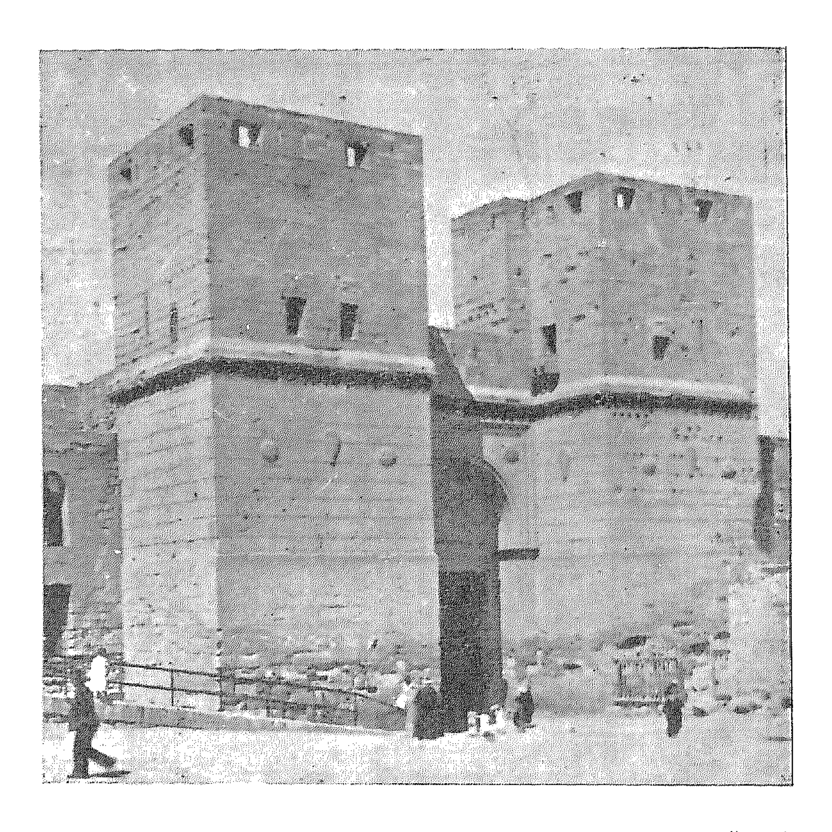


الجامع الأزهر : منظر الفناء الداخلى ، وقد ظهرت به الى اليمين القبلة الفاطمية الأولى التى أنشئت فى عهـده الأول

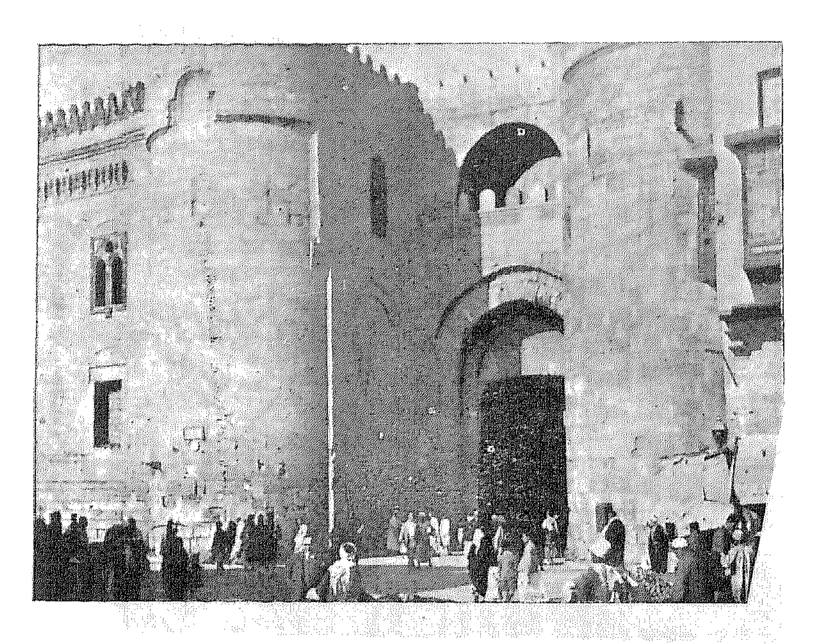


باب الفتوح

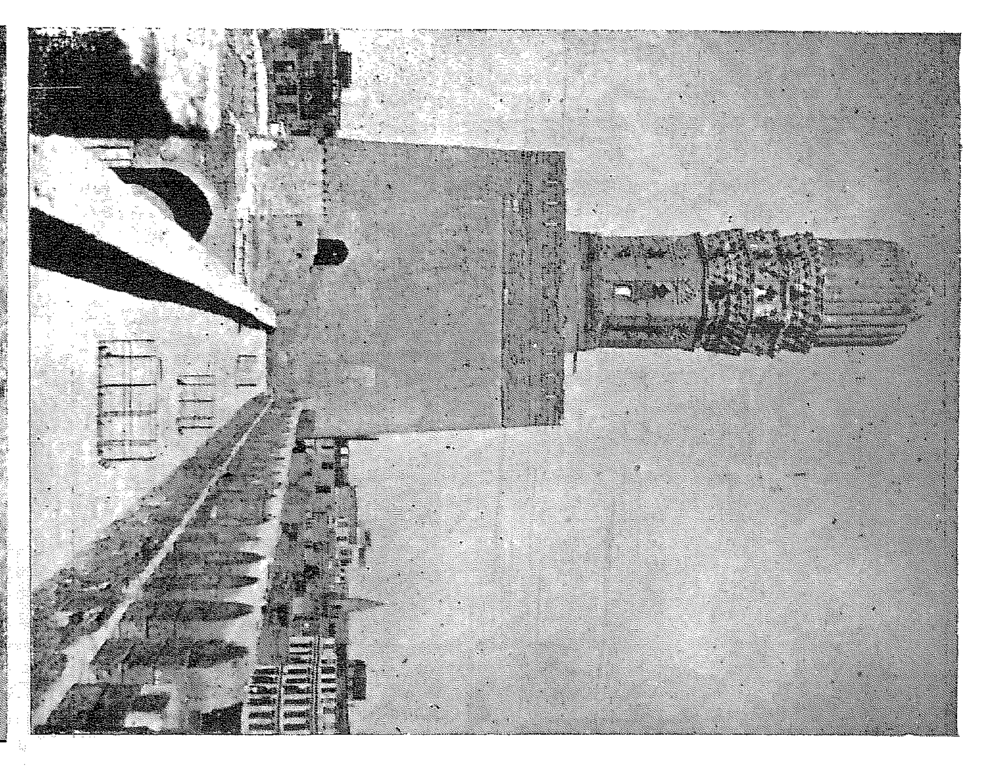
وهو أعظم أبواب القاهرة المعزية من الشمال ويقع داخل السور الفاطمى الكبير الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى ، وهو ملاصق لجامع الحاكم من ناحيته البحرية



باب النصر : وهو من الأبواب الشمالية للقاهرة المعزية ويقع الى يسار باب الفتوح



باب زويلة : وهو الباب الجنوبي للقاهرة المعزية



جامع الحاكم بأمر الله : المنارة البحرية التى أنشأها الحاكم سنة ٤٠١ ﻫ ، وقد كان الجامع عند إنشائه خارج السور الفاطمى ؛ فلما أنشئ السور جاء موقعه بجواره من الداخل



زخارف فاطمية داخل المنارة البحرية لجامع الحاكم

الكتاب الأول

الحاكم بأمر الله

الفصل الأول

مصر وقت الفتح الفاطمى

مركز مصر الممتاز بين ولايات الخلافة . تأثر السياسة الفاطمية بهذه الخاصة . الولاة المتغلبون ونزعتهم الإستقلالية . غلبة الفوضى . فتوة الدولة الفاطمية . طموحها الى فتح مصر . ابن طفج الإخشيد . ولاية كافور . اضطراب شؤون مصر . اتصال الزعماء الناقمين بالفاطميين . أثر الفوضى فى نفسية الشعب . الأزمات والمحن . انحلال المجتمع المصرى . حيوية الدولة الفاطمية وصرامتها وتقشفها . استعداد المعز لدين الله لفتح مصر . روعة الحملة الفاطمية . قصيدة ابن هانئ فى وصفها . التمهيد للفتح . زحف الفاطميين على مصر . مهادنة المصريين للفاتح . الأمان الذى أصدره جوهر الى المصريين . الحرب بين الإخشيدية والفاطمية . دخول جوهر مدينة مصر . إنشاء القاهرة المعزية والجامع الأزهر . قيام الدولة الفاطمية بمصر . صفتها الإمامية والمذهبية .

— ١ —

لبثت مصر منذ الفتح الإسلامى زهاء قرنين ونصف قرن ولاية خلافية ، تتوارثها الخلافة أينما حلت ؛ الخلافة العامة ، فالخلافة الأموية ، فالخلافة العباسية . غير أن مصر كانت منذ الفتح تتبوأ بين الولايات الخلافية مركزاً ممتازاً ؛ فقد اتخذت قاعدة لفتح إفريقية فالأندلس ؛ وكان ولاتها الأوائل ، ولاة لإفريقية ؛ وكانت أيضاً ، بموقعها الجغرافى وثرواتها الطبيعية ، وأهميتها العمرانية ، مطمح الزعماء المتغلبين يرون فيها ملاذاً منيعاً للحركات الاستقلالية ؛ فقد وليها فاتحها عمرو بن العاص ولايته الثانية من قبل معاوية[1] ، ولكنه جعل منها وحدة شبه مستقلة ؛ وربما كان فى اهتمام عمرو بالبقاء فى ولاية مصر ، وسعيه لدى عثمان فى تحقيق غايته ، ثم اقتطاعها بعد ذلك من معاوية

---

(١) ولى عمرو إمارة مصر لأول مرة عقب افتتاحها فى سنة ٢٠ هـ فى خلافة عمر ، ثم وليها المرة الثانية من قبل معاوية سنة ٣٨ — ٤٣ هـ .

ثمناً لحلفه ومؤازرته ، ما يحمل على الاعتقاد بأنه لو ثابت لهذا القائد العظيم والسياسى البارع فرصة ملائمة ، لأنشأ بمصر لنفسه ولعقبه دولة أو خلافة مستقلة . ولما قام عبد الله بن الزبير بثورته على الخلافة الأموية ، ألفى فى انتزاع مصر طعنة قوية يسددها الى صدر الخلافة[١] . ولما تألق نجم بنى العباس وسحقت الخلافة الأموية فى موقعة الزاب ، فر مروان الثانى آخر الخلفاء الأمويين إلى مصر ، ليتخذها قاعدة للدفاع عن ملكه وتراث أسرته ؛ ولعله لم يكن بعيداً عن التفكير فى اتخاذ مصر بعد الشأم معقلا للخلافة الأموية ، وقاعدة لاسترداد تراثها الذاهب ، لو كتب له الظفر على مطارديه .

ولما اضمحل سلطان الدولة العباسية وضعفت قبضتها فى النواحى ، غدت مصر طعمة لطائفة من الحكام الأقوياء ، يحكمونها باسم الخلافة ، ولكن ينشئون بها دولا مستقلة ، لا تكاد تربطها بالخلافة ، أية روابط سياسية أو إدارية ؛ وهم مع ذلك يحرصون على أن يستظلوا بلواء الخلافة وسلطانها الدينى ؛ وكان أسطع مثل لهذه النزعة الاستقلالية قيام الدولة الطولونية ، ثم الدولة الإخشيدية ، تستظل كلتاهما بلواء الخلافة ، ولكن تستأثر دونها بالسلطان والحكم .

كانت مصر تتمتع إذن بمركزها الممتاز بين ولايات الخلافة : ولم يكن تمتعها بذلك المركز الخاص ، الذى يجعلها قبلة مختارة لذوى الطموح والمتغلبين من الولاة ، يسعون الى الامتناع بها والاستقلال بحكمها ، أمراً عرضياً ساقت اليه الحوادث والظروف وحدها ؛ ولكنه يرجع قبل كل شىء الى موقع مصر الجغرافى ، ونأيها عن مركز الخلافة ، ثم الى اتساعها وغناها ، وكونها تصلح بمواردها الخاصة لأن تكون مركز دولة مستقلة ، تستطيع وقت الحاجة أن تناهض السلطة المركزية ، وأن تقاومها للاحتفاظ باستقلالها .

---

(١) لما قام عبد الله بن الزبير بثورته على الخلافة الأموية بالحجاز ودعا لنفسه بالخلافة ، دعا له بمصر جماعة من الخوارج الذين كانوا بها ، وعين من قبله عبد الرحمن بن عتبة بن جحدم والياً على مصر ، فدخلها فى شعبان سنة ٦٤ هـ فى جمع كبير من الخوارج ، واستمر على ولايتها بضعة أشهر ، حتى بعث مروان بن الحكم ابنه عبد العزيز فى جيش الى مصر ، فلقيه ابن جحدم ولكنه هزم وتنازل عن الإمارة ، ووليها عبد العزيز فى جمادى الآخرة سنة ٦٤ هـ .

ولم تخف على الفاطميين هذه الحقيقة ، منذ استطاعوا أن ينفذوا بدعوتهم الى إفريقية ، وأن يشيدوا بها دولتهم الأولى على أنقاض ملك الأغالبة ، فاتجهوا بأنظارهم إلى مصر ، وثابت لهم منذ الساعة الأولى نية فى غزوها وامتلاكها ؛ فغزوها أكثر من مرة ، واستولوا على بعض ثغورها ونواحيها ، ولكنهم ارتدوا يومئذ أمام جند الخلافة وجند مصر . ذلك أن مصر لم تكن يومئذ فريسة هينة للفاتح ، وإن غدت كذلك وقت الفتح الفاطمى ؛ وكان يشرف على مصايرها باسم الخلافة ، جماعة من الجند والزعماء الأقوياء ، ينظمون مواردها الدفاعية حين الخطر الداهم ؛ وكان الفاطميون من جهة أخرى يغالبون فى المغرب خطر الانتقاض المستمر ، ويقوم ملكهم الفتى على بركان يضطرم بعناصر الخروج والثورة ، حتى لقد كادت دولتهم الناشئة تنهار فى المهد تحت ضربات القبائل البربرية الخصيمة ، وذلك فى عهد ثانى خلفائهم القائم بأمر الله[1] .

على أن الخلافة العباسية التى استطاعت فى فورة من القوة فى عهد المكتفى بالله ، أن تسحق الدولة الطولونية الزاهرة ، وأن تسترد مصر منها (٢٩٢ هـ — ٩٠٤ م) ، لم تستطع أن توطد سلطانها الفعلى فى مصر ، وإن كانت قد استعادت سلطانها السياسى والدينى فيها ؛ وكان الزعماء الأقوياء الذين يحكمونها باسم الخلافة مثل تكين الخزرى ، وذكا الرومى ، وابن كيغلغ ، وابن طغج ، يتمتعون بكثير من الإستقلال ، وربما نزع بعضهم إلى انتزاعها من يد الخلافة كما فعل أحمد بن طولون من قبل ، وكما فعل محمد بن طغج (الإخشيد) فيما بعد ؛ وكانت هذه النزعة الإستقلالية ذاتها ، عاملا فى ضعف سلطان الخلافة فى مصر ، وفى المباعدة بينها وبين مصر ، وقلة اهتمامها بشؤون هذا القطر النائى ومصايره ؛ ولكنها كانت من جهة أخرى عاملا فى حرص أولئك الحكام والزعماء الطامحين على الدفاع عن مصر ، وحمايتها من غارات المعتدين عليها والمتطلعين الى امتلاكها . وكان جل اعتمادهم فى ذلك على جند مصر ذاته ؛ ولكن الشعب المصرى لم يكن يعطف دائماً على أولئك الحكام الأجانب ، خصوصاً ومعظمهم من الفرس أو الترك المستعربين ، فكان الزعماء المحليون

---

(١) راجع المقريزى : « اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء » (المنشور بعناية الدكتور جمال الدين الشيال ، القاهرة ١٩٤٨) ص ١٠٩ — ١١٨ ؛ والخطط (الطبعة الأهلية) ج ٢ ص ١٦٣ .

ينزعون دائماً الى منافستهم ومناوأتهم ، وكان الجند كثير التمرد والثورة ، يتبرم بأطماع أولئك الزعماء وجشعهم فى استخلاص أرزاقه [١] ؛ فكان تعاقب الولاة ومنافساتهم فى تلك الفترة ، وثورات الجند المتكررة ، واضطراب الشؤون العامة ، وفقدان الأمن ، وغلبة الفوضى ؛ هذه كلها تزيد مصر على ضعفها ضعفاً ، وتدفعها الى التطلع الى مصير أفضل من هذا المصير .

وبينما كانت الدولة العباسية تجوز مرحلة اضطراب وضعف، ويتعاقب فى خلافتها عدة من الخلفاء الضعاف ، أمثال المقتدر ، والقاهر ، والراضى ، والمتقى ، والمستكفى [٢] ، كانت دولة خصيمة فتية هى الدولة الفاطمية تسير مسرعة إلى النماء والتوطد ؛ وكانت القبائل البربرية التى شدت أزر الفاطميين ، وأقامت ملكهم فوق ملك الأغالبة ، تحتفظ فى هضاب المغرب بخشونتها وبأسها ، بعيدة عن تلك العوامل الرخوة التى تحمل عناصر الهرم والفناء ، إلى دول ومجتمعات يغمرها تيار الحضر والنعماء والترف ؛ ولم تكن المعركة الهائلة التى اضطرمت مدى حين بين الدولة الفتية وبين القبائل الخصيمة ، وكادت تسحقها فى المهد ، إلا لتذكى فيها رغبة الحياة وعزم النضال ؛ وقد خرجت من المعركة ظافرة قوية . ولكنها أدركت فى نفس الوقت فداحة الخطر الذى يهددها من تمرد أولئك الخوارج الأشداء ؛ ومع أن الفاطميين استطاعوا فيما بعد أن يدوخوا قبائل المغرب كله ، وأن ينفذوا بفتوحاتهم فى المغرب الأقصى حتى المحيط ، فإنهم لم يطمئنوا الى البقاء فى تلك الوهاد الوعرة ، ولم يعتبروا أنهم وصلوا بإقامة ملكهم فى إفريقية إلى ذروة الأمانى والغايات .

كانت مصر تلوح لهم خلال هذا القفر النائى درّة خضراء ، وكانت الخلافة الفاطمية تشعر أنها وهى فى مركزها النائى بهذا القفر المجدب ، تبقى بعيدة عن تحقيق غايتها السياسية والمذهبية الكبرى ، أعنى مناجزة الدولة العباسية خصيمتها السياسية والمذهبية ، والعمل على تقويض دعائمها ، وانتزاع زعامة الإسلام منها ؛ وكانت مصر فى نظرها هى ميدان المعركة الحاسمة التى تتوق

(١) راجع الخطط ، ج ٢ ص ١٢٦ و ١٢٧ .

(٢) حكم المقتدر من ٢٩٥ — ٣٢٠ هـ ، والقاهر من ٣٢٠ — ٣٢٢ هـ ، والراضى من ٣٢٢ — ٣٢٩ هـ ، والمتقى من ٣٢٩ — ٣٣٣ ، والمستكفى من ٣٣٣ — ٣٣٤ هـ .

إلى خوضها مع الدولة العباسية ؛ وكانت بموقعها فى موسطة العالم الإسلامى ، وبما اكتمل لها من أسباب الخصب والغنى ، هى أصلح مركز لتحقيق هذه الغاية ، وفيها دون غيرها تستطيع الخلافة الفاطمية ، أن تقيم ملكها السياسى وإمامتها الدينية على أسس قوية باذخة ؛ وقد حاول الفاطميون خوض هذا الصراع الحاسم منذ الساعة الأولى ، فزحفوا على مصر غير مرة كما قدمنا ، وبعث عبيد الله المهدى أول خلفائهم جيوشه لافتتاحها ، فاستولت على برقة والإسكندرية ، ولكنها ارتدت أمام جند مصر وجند الخلافة (٣٠٢ هـ — ٩١٤ م) ؛ ثم غزت مصر ثانية ، واستولت على الإسكندرية والفيوم ، وأشرفت على عاصمة مصر ، ولكنها لم تلبث أن ارتدت الى المغرب كرة أخرى . ذلك أن فرصة الظفر لم تكن قد سنحت بعد ، واستطاعت مصر بجندها وجند الخلافة أن ترد الغزاة ، وشغل الغزاة مدى حين بما يهددهم فى إفريقية ذاتها من خطر الانتقاض والفناء . وفى تلك الفترة تطورت الحوادث فى مصر ، وسارت الى مرحلة جديدة من الاستقرار فى ظل الخلافة أيضا . وانتهت المنافسات والثورات العسكرية المتكررة ؛ بفوز محمد بن طغج الإخشيد بولاية مصر للمرة الثانية فى سنة ٣٢٣ هـ (٩٣٥ م) من قبل الخليفة القاهر ؛ وكان قد وليها لأول مرة قبل ذلك بعامين ، ولكنه لم يدخلها ولم تطل ولايته أكثر من شهر ؛ فلما وليها من قبل القاهر سار اليها من دمشق فى قواته ، فتعرض له أحمد بن كيغلغ حاكم مصر وقتئذ . وحاول رده عن ولايتها بقوة السيف ؛ وقد كان ابن كيغلغ من أولئك الزعماء الأقوياء الذين يطمحون الى الاستقلال بمصر ، ولكن ابن طغج هزمه ودخل مصر ظافراً وتقلد ولايتها ، وأنعم عليه الخليفة بلقب الإخشيد أو (ملك الملوك) .

وكان الإخشيد أميراً طموحاً ، وافر الذكاء والشجاعة والعزم ، فلم تقف همته عند استخلاص الولاية لنفسه على الشأم ومصر ، ولكنه رأى أن ينشئ فيهما لنفسه دولة مستقلة فى ظل الخلافة ، وأسرة ملوكية تتوارث السلطان من بعده ، على مثل ما انتهى اليه ابن طولون بإنشاء الدولة الطولونية . وهكذا قامت بمصر دولة جديدة هى الدولة الإخشيدية تشمل الشأم والحرمين ، واستقرت الأحوال بمصر فى ظل الدولة الجديدة ، وانتظمت قواتها الدفاعية .

ولكن الخلافة الفاطمية الفتية لم تنبذ مشروعها فى فتح مصر؛ وفى سنة ٣٣٢ هـ (٩٤٤ م) بعث القائم بأمر الله ثانى الخلفاء الفاطميين جيوشه الى مصر ، فاستولت على الإسكندرية مرة أخرى ،ولكن جيوش مصر وقفت هذه المرة أيضاً فى وجه الغزاة فارتدوا على أعقابهم ،وشغلتهم الثورة الداخلية مدى حين عن المضى فى مشروعهم الضخم ؛ وسطعت الدولة الإخشيدية بمصر مدى حين ،وكادت تنافس فى القوة والبهاء دولة بنى العباس ذاتها ،ولاح مدى حين أن أمل الفاطميين فى فتح مصر قد خبا . ولكن قوة الدولة الجديدة كانت ترجع بالأخص الى همة منشئها الإخشيد والى قوة خلاله ،فلما توفى الإخشيد (سنة ٣٣٤ هـ)، وخلفه ولده أنوجور على مصر والشأم ، ثم أخوه على بن الإخشيد (سنة ٣٤٩) ، وآل تدبير الأمور فى عهدهما إلى كافور الإخشيدى خادم أبيهما ، أخذ صرح الدولة الجديدة فى التصدع ؛ ولما توفى على بن الإخشيد انتزع كافور الإمارة لنفسه (سنة ٣٥٥) ، وقبض هذا الأسود الخصى مدى حين على مصاير مصر والشام ؛ومع أنه كان كثير الدهاء والعزم ، فإنه لم يستطع أن يحول دون تسرب العوامل المعنوية والإجتماعية الهدامة ، التى كانت تقضم أسس الدولة الإخشيدية ، ولم تطل ولايته مع ذلك أكثر من عامين ؛وخلفه فى الإمارة صبى حفيد للإخشيد هو أحمد بن على بن الإخشيد، وتولى تدبير الأمور وزير مصر القوى جعفر بن الفرات ؛ولكن الأمور كانت قد ساءت يومئذ ، فكثرت الأزمات واضطربت أحوال الجند والشعب ، وظهرت إمارات الذبول والهرم على الدولة الإخشيدية ، ولاح لها شبح الفناء جاثماً فى الأفق .

— ٢ —

وشغلت الدولة الفاطمية فى تلك الفترة بشؤونها الخاصة، فلم تعاود كرة الهجوم على مصر منذ ٣٣٢ هـ ؛ ومع ذلك فقد لبثت ترقب سير الحوادث فى مصر بمنتهى العناية ، وكانت تعتمد فى تنفيذ مشروعها على الشعب المصرى ذاته ، وعلى زعمائه النافمين على بنى الإخشيد ، وعلى تمرد الجند الساخط لانتقاص أعطيته ؛وقد كان فريق من أولئك الجند هم الذين دعوا الفاطميين الى غزو مصر وقت أن غادرها ابن كيغلغ منهزماً أمام الإخشيد، لسحق الدولة

الإخشيدية[١]. ولما توفى كافور، واضطربت أحوال الدولة، وتعارضت الآراء فى مسألة الولاية والحكم، وكثر التنافس على السلطة: وقلت أعطية الجند، كتب بعض زعمائه الى الخليفة الفاطمى المعز لدين الله يدعوه الى فتح مصر[٢]، واشترك فى هذه الدعوة رجل من أكابر رجال الدولة فى عهد كافور، هو يعقوب بن كلّس، وكان الوزير جعفر بن الفرات قد قبض عليه عقب وفاة كافور وزجه الى السجن وصادر أمواله، فما زال يسعى حتى أفرج عنه، وفر من مصر الى المغرب ودعا المعز الى فتح مصر، ووصف له خصبها وغناها، وضعفها واضطراب أحوالها[٣]، وقد كان لابن كلّس هذا فيما بعد أعظم شأن فى الدولة الفاطمية بمصر، فى عهد المعز وولده العزيز.

وقد رأى الفاطميون فى موت كافور، خاتمة لذلك الاستقرار الذى تمتعت به مصر فى عهد بنى الإخشيد، ولم يفتهم أن يلاحظوا عوامل الإنحلال والوهن التى سرت سراعاً الى قوى مصر المادية والمعنوية. والواقع أن مصر كانت تعانى من تقلب الزعماء والدول أسوأ الآثار فى مواردها، وفى نظمها الإجتماعية، وأحوالها المعنوية؛ وكانت تلك القوة التى تسبغها الزعامة المؤقتة على مركز مصر أمراً خلباً، وكان الشعب مطية المتغلب يسوقه إلى الحرب أو السلام وفق أهوائه، ويستنفد موارده وأرزاقه فى بذخه ومشاريعه؛ وكانت العاطفة القومية تتبرم بهذه السيادة الأجنبية، التى تمثلها قصور لا تصطبغ بصبغة قوية من العروبة أو الزعامة الدينية؛ كذلك كانت الأزمات الإقتصادية الخطيرة، التى تنتهى غالباً بالغلاء والوباء، تفعل فعلها، فى إذكاء عواطف السخط والاستكانة واليأس؛ وقد كانت مصر وقت الفتح الفاطمى (سنة ٣٥٨هـ) تعانى مصائب الغلاء والوباء، ويقال إنها فقدت من أبنائها فى تلك المحنة زهاء ستمائة ألف[٤]، وكان ذلك بلا ريب عاملا فى إضعاف قواها الدفاعية وفى زهدها فى النضال والمقاومة. أضف الى ذلك كله ما كانت

(١) الخطط، ج ٢ ص ١٢٧.
(٢) ابن خلكان فى «وفيات الأعيان» فى ترجمة القائد جوهر، ج ١ ص ١٤٨.
(٣) ابن خلكان، ج ٣ ص ٤٤٠.
(٤) ابن خلكان، ج ١ ص ١٣٤.

تعانيه مصر يومئذ من ضروب الإنحلال والفساد الإجتماعى الشامل ؛ وقد انتهت الينا فى ذلك رواية إذا صحت فإنها تمثل ما كان لتلك الظاهرة يومئذ من أهمية فى إذكاء همة الفاطميين لفتح مصر ؛ وخلاصة هذه الرواية أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز) أرسلت الى مصر صبية للبيع ، فعرضها وكيلها فى السوق وطلب فيها ألف دينار ، فأقبلت اليه امرأة أنيقة فتية على حمار وساومته فى ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار ، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هى ابنة الإخشيد محمد بن طغج ، وأنها اشترت الصبية لتستمتع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان ؛ فلما عاد إلى المغرب حدث المعز لدين الله بأمرها ، فدعا المعز شيوخ القبائل ، وروى الوكيل لهم حادث الصبية ، وعندئذ قال المعز : يا إخواننا انهضوا الى مصر فلن يحول بينكم وبينها شىء ، فإن القوم قد بلغ بهم الترف الى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم ، تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها ، فقد ضعفت نفوس رجالهم وذهبت الغيرة منهم : فانهضوا بنا اليهم[١] .

وفى هذه الأقوال التى ينسب قولها عن مصر للمعز لدين الله ، صورة بارزة لما يسود المجتمع المترف الرخو من عناصر الهدم . وقد كان هذا شأن المجتمع المصرى فى خاتمة كل فترة من النهوض والقوة : ففى نهاية الدولة الطولونية انتهى المجتمع المصرى ، بعد فترة قصيرة من الفتوة والبهاء والقوة ، إلى طور من الإنحلال والتفكك مهد لسقوط الدولة الطولونية وعود السيادة العباسية ، وقد كان هذا شأنه فى خاتمة الدولة الإخشيدية ، التى سطعت فى عهد مؤسسها لمدى قصير فقط . وقد نشأت الدولة الفاطمية وترعرت فى قفار المغرب ، وفى مهاد البساطة والخشونة والفتوة ، وانتهت فى هذا الوقت الذى أزمع الخليفة الفاطمى فيه فتح مصر ، الى ذروة القوة والفتوة والرجولة إذا صح التعبير . واليك رواية عن المعز تقدم إلينا صورة مؤثرة ، عن تلك الروح الخشنة الوثابة التى امتازت بها الدولة الفاطمية فى تلك الفترة من حياتها : استدعى المعز فى يوم بارد إلى قصره بالمنصورية عدة من شيوخ كتامة ، وأمر بإدخالهم من باب خاص ، فإذا هو فى مجلس مربع كبير مفروش باللبود وحوله كساء وعليه جبة ، وحوله أبواب مفتحة تفضى الى خزائن كتب ، وبين يديه دواة وكتب ،

---

(١) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ١٦٦ ، واتعاظ الحنفاء (القاهرة) ص ١٤٣

فقال يا إخواننا أصبحت اليوم فى مثل هذا الشتاء والبرد . فقلت لأم الأمراء، وإنها الآن بحيث تسمع كلامى : أترى إخواننا يظنون أنا فى مثل هـــذا اليوم نأكل ونشرب ، ونتقلب فى المثقل والديباج والحرير والفنك والسمور والمسك والخمر والقباء ، كما يفعل أرباب الدنيا ، ثم رأيت أن أنفذ إليكم فأحضركم لتشاهدوا حالى إذا خلوت دونكم ، واحتجبت عنكم ، وإنى لا أفضلكم فى أحوالكم إلا بما لا بد لى منه من دنياكم ، وبما خصنى الله به من إمامتكم ، وإنى مشغول بكتب ترد على من المشرق والمغرب أجيب عنها بخطى ، وإنى لا أشتغل بشىء من ملاذ الدنيا ، إلا بما يصون أرواحكم ويعمر بلادكم ويذل أعداءكم ويقمع أضدادكم ، فافعلوا يا شيوخ فى خلواتكم مثل ما أفعله ، ولا تظهروا التكبر ، فينزع الله النعمة عنكم وينقلها الى غيركم ، وتحننوا على من وراءكم ممن لا يصل الى ، كتحننى عليكم ليتصل فى الناس الجميل ، ويكثر الخير ، وينتشر العدل ، وأقبلوا بعدها على نسائكم ، والزموا الواحدة التى تكون لكم ، ولا تشرهوا الى التكثر منهن ، والرغبة فيهن ، فيتنغص عيشكم ، وتعود المضرة عليكم ، وتنهكوا أبدانكم ، وتذهب قوتكم ، وتضعف نحائزكم ، فحسب الرجل الواحد الواحدة ، ونحن محتـــاجون الى نصرتكم بأبدانكم وعقولكم ، واعلموا أنكم إذا لزمتم ما آمركم به ، رجوت أن يقرب الله علينا أمر المشرق ، كما قرب أمر المغرب بكم ، انهضوا رحمكم الله ونصركم[1] .

— ٣ —

كانت الدولة الفاطمية تضطرم بهذا الروح الوثاب ، وهذه الخلال البدوية النقية ، حينما اعتزم المعز لدين الله فتح مصر ، وكانت هذه الروح والخلال هى دعامة الدولة الجديدة ، نشأت فى مهدها ، كما تنشأ معظم الدول المغامرة التى تجد فى هضاب المغرب خير ميدان لطالعها ونشاطها . وكانت هذه الإسبارطية[2] الصارمة تطبع تصرفات الغزاة منذ البـــداية ؛ وبينما كان أبو عبد الله الشيعى داعية الفاطميين وطليعة دولتهم ، يزحف بعصبته من البربر

(١) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ١٦٤ ، واتعاظ الحنفاء (القاهرة) ص ١٣٧ و ١٣٨ .

(٢) نسبة إلى اسبارطة من حواضر اليونان القديمة ، وقد اشتهرت بنوع من التربية الخشنة الصارمة كانت تفرضه على أبنائها منذ الحداثة حتى يشبوا جنداً أقوياء يغالبون كل ضروب المشاق .

على بنى الأغلب لينتزع ملكهم ، كان زيادة الله بن الأغلب مكباً على لهوه ومسراته[١] ، ولم يك ثمة شك فى مصير ملك يغشاه مثل هذا الإنحلال فى الروح وفى الخلال . ولما تم الظفر لأبى عبد الله ودخل رقّادة عاصمة الأغالبة ، واحتوى على تراث بنى الأغلب ، عرضت عليه جوارى ابن الأغلب وفيهن عدة فائقات الحسن ، فلم ينظر الى واحدة منهن ، وأمر لهن بما يصلح شأنهن[٢] ، وأقام على ما كان عليه من تقشف بالغ وخشونة فى المأكل والملبس ، ولم تزد إقامته فى القصر الأنيق على إقامته فى القفر الساذج[٣] .

ولما اعتزم المعز أن يحقق أمنية أسرته فى افتتاح مصر ، استعد لذلك استعداداً عظيما ، وحشد كل ما استطاع من جند وذخيرة ومال ، وعهد بتلك الحملة الزاخرة الى أعظم قواده جوهر الصقلى .

وكان هذا القائد العظيم ، واسمه الكامل أبو الحسين جوهر بن عبد الله ، من موالى المعز لدين الله ، وأصله كما يدل عليه اسمه من صقلية ، وكانت صقلية منذ افتتحها المسلمون أيام بنى الأغلب فى سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) ، قد غلب عليها الإسلام ، وقام بها مجتمع إسلامى زاهر . وكان كثير من أبناء الجزيرة — وأصلهم من الرومان أو الروم — الذين اعتنقوا الإسلام[٤] ، يعبرون البحر الى تونس للخدمة فى بلاط الأغالبة ، ومن بعدهم فى بلاط الفاطميين . وكان جوهر من أكفأ موالى المعز وقادته وأحبهم اليه ، ومن ثم كان اختياره لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة ، مهمة فتح مصر .

وكان المعز قوى الأمل فى التغلب على مصر ، وكان يعرف من طلائعه وعيونه ، مبلغ ما انتهت اليه من التفكك والضعف عقب موت كافور ، بيد أنه لم يدخر عدة فى الرجال أو المال ؛ واليك رواية توضح لنا ضخامة هذه الأهبة : اســتدعى المعز يوماً أبا جعفر حسين بن مهذب متولى بيت المال ، وهو فى وسط القصر ، وقد جلس على صندوق وبين يديه ألوف

---

(١) اتعاظ الحنفاء (القاهرة) ص ٨٦ .

(٢) اتعاظ الحنفاء ص ٨٨ .

(٣) اتعاظ الحنفاء ص ٨٩ .

(٤) يبدو من اسم جوهر أن أباه كان أول من دخل الإسلام من أسرته .

صناديق مبددة ، فقال له : هذه صناديق مال ، وقد شذ عنى ترتيبها ، قال الحسين ، فأخذت أجمعها حتى رتبت ، وبين يديه جماعة من خدام بيت المال والفراشين . فلما رتبت أمر برفعها فى الخزائن على ترتيبها ، وأن يغلق عليها ويختم بخاتمه ، وقال : قد خرجت عن خاتمنا وصارت إليك ، فكانت جملتها أربعة وعشرين ألف ألف دينار ، وكان ذلك فى سنة ٣٥٧ هـ ، فأنفقت جميعها على الحملة التى سيرها الى مصر[١] . ويقال إن الحملة الفاطمية على مصر بلغت نيفاً ومائة ألف فارس ، غير الجند المشاة[٢] ، وهى قوة زاخرة تقتضى لكى تقطع هذا القفر الشاسع بين إفريقية ومصر بعددها وعُددها جهوداً جبارة ؛ ولقد أذكى منظر تلك القوى الجرارة وأهباتها الهائلة ، وقت خروجها من القيروان الى مصر ، فى يوم من أيام ربيع الأول سنة ٣٥٨ هـ ، خيال شاعر معاصر هو ابن هانئ الأندلسى[٣] فأنشد فى وصفها :

رأيت بعينى فوق ما كنت أسمع ... وقد راعنى يوم من الحشر أروع
غداة كأن الأفق سـد بمثله ... فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذ ودعت كيف أودع ... ولم أدر إذ شيعت كيف أشيع
ألا إن هذا حشد من لم يذق له ... غرار الكرى جفن ولا بات يهجع
إذا حـل فى أرض بناها مدائنا ... وإن سار عن أرض غدت وهى بلقع
تحل بيوت المـال حيث محله ... وجم العطايا والرواق المـرفع
وكبرت الفرسـان لله إذ بدا ... وظل السلاح المنتضى يتقعقع
وعب عباب الموكب الفخم حوله ... ورق كما رق الصباح الملمع
رحلت إلى الفسطاط أول رحلة ... بأيمن فأل فى الذى أنت تجمع
فإن يك فى مصر ظمأ لمورد ... فقد جاءهم نيل سوى النيل يهرع
ويممهم من لا يغار بنعمـة ... فيسلبهم لكن يزيد فيوسع

(١) الخطط ج ٢ ص ١٦٤ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٢٠٥ ، وابن خلكان ج ١ ص ١٤٨ .

(٣) هو محمد بن هانئ ولد بإشبيلية سنة ٣٢٦ هـ ، وظهر منذ الحداثة ببراعة شعره وروعة افتنانه ، ولكنه اتهم بالكفر والزندقة ، فغادر الأندلس ، ولحق بالبلاط الفاطمى بالمهدية والمعز يتأهب عندئذ لفتح مصر ، فأغدق عليه المعز عطفه ورعايته ، ولما سار المعز إلى مصر ، سار ابن هانئ للحاق به ، ولكنه توفى فى طريقه سنة ٣٦٢ هـ .

ولم تمض أسابيع قلائل حتى سرت الأنباء فى مصر بمقدم العساكر الفاطمية ؛ ولم يكن مشروع الفاطميين فى فتح مصر مجهولا ، وكان للمعز بمصر دعاة يبثون دعوته خفية ، ويبشرون بالفتح الفاطمى[1] . ولم يك ثمة ما تخشاه الأمة المصرية من هذا الفتح : خصوصاً بعد الذى شهدته من عسف الجند العباسيين ، وطغيان الولاة المستعربين ، وما انتهت اليه شؤونها أواخر عهد الدولة الإخشيدية من الإضطراب والفوضى ، وما توالى عليها من محن الغلاء والوباء . ولقد كان من سخرية القدر أن يتولى حكم مصر أسود خصى هو كافور ، وكان لهذا الحدث الفذ فى تاريخ مصر الإسلامية ، بلا ريب ، وقع عميق فى جرح الشعور القومى ؛ وكانت الدولة الفاطمية تجذب اليها الأنظار بقوتها وغناها ، وكان سواد الشعب المفكر يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية فتية ، تستظل بلواء الإمامة الإسلامية كالدولة الفاطمية، على الاستمرار فى معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعية ؛ وهكذا ألفى الفاطميون حين مقدمهم الى مصر ، جواً ممهداً يبشر بتحقيق الفتح المنشود على خير الوجوه .

ولما ذاعت الأنباء بوصول العساكر الفاطمية الى الأراضى المصرية ، اشتد الاضطراب فى مصر ، وكثر الخلاف فى الرأى ، فرأى جماعة من الزعماء والجند من أنصار بنى الإخشيد وكافور ، أن يحاولوا رد الغزاة بقوة السيف ، وأخذوا يتأهبون للقتال ، ولكن معظم الزعماء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم ، وقر رأيهم على أن يتقدموا الى جوهر بطلب الأمان والصلح ، واتفقوا مع الوزير جعفر بن الفرات على أن يتولى تلك المهمة ؛ وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبد الله الحسينى أن يكون سفيرهم لدى الفاتح ، فأجابهم الى ذلك ، وسار على رأس جماعة من وجوه مصر الى لقاء جوهر ، فلقيه على مقربة من الإسكندرية ، فى قرية تعرف بأتروجه ، (أواخر رجب سنة ٣٥٨) ، فاغتبط جوهر بمقدمهم ، وأجابهم الى ما طلبوا ، وكتب لهم أماناً يعتبر وثيقة هامة فى الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية ، وفيه ينوه بمزايا الحماية الفاطمية على مصر ويقول لأهلها : « إن أمير المؤمنين لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم

---

(١) اتعاظ الحنفاء ص ١٤٦ و ١٤٧

وحمايتكم والجهاد عنكم ، إذ قد تخطفتكم الأيدى ، واستطال عليكم المستذل ، وألمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة ، والتغلب عليه ، وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه ، واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة ، وبادر بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق ، الذين عمهم الخزى وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصايب وتتابعت الرزايا » .

ثم يشير جوهر الى ما أوعز به أمير المؤمنين « من نشر العدل ، وبسط الحق ، وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام فى الحق ، وإغاثة المظلوم مع الشفقة والإحسان وجميل النظر ، وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقاد الأحوال ، وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم » وما أمر به مولاه « من إسقاط الرسوم الجايرة ، وأن أجيزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية ، وأن أتقدم فى رم مساجدكم ، وتزيينها بالفرش والإيقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم . . » .

ويشير جوهر بعد ذلك إلى المسألة الدينية ، فيقول « إن الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقها الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد ، على ما أمر الله فى كتابه ، ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته ، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه ، ولكم على أمان الله التام العام الدايم ، المتصل الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الأيام ، وكرور الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم ، وأهليكم ونعمكم ، وضياعكم ورباعكم ، وقليلكم وكثيركم . . وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون . . الخ » . ويختتم جوهر أمانه بدعوة

المصريين الى لقائه والسلام عليه ، والتزام الطاعة لأمير المؤمنين[1] .

وفى هذا الأمان الذى أصدره جوهر لأهل مصر ، فضلا عن التنويه بما سرى الى شؤون الحكم من فساد ، وما يعانيه الشعب من مظالم ومتاعب ، وما يزمعه أمير المؤمنين من إقامة العدل ، وتأييد الشريعة وإصلاح المرافق والشؤون ، إشارة ظاهرة الى خطر القرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا الشام يومئذ ، وأخذوا يهددون مصر ؛ وقد كان الخطر حقيقياً لا ريب فيه ، ولولم يبادر الفاطميون الى احتلال مصر ، لسقطت قبل بعيد فريسة هينة فى يد أولئك الغزاة السفاكين ، بل لم يمض على وجود الفاطميين بمصر زهاء عامين ، حتى اضطروا الى لقاء القرامطة فى أرض مصر ذاتها ، ولم يردوهم عنها إلا بعد جهد جهيد .

على أن جوهراً اضطر مع ذلك الى خوض بعض المعارك قبل أن يتم فتح مصر ؛ ذلك أن فلول الإخشيدية والكافورية ومن والاهم من الجند لم يقبلوا الأمان ، وآثروا أن يقوموا بمحاولة أخيرة للدفاع عن سلطانهم الذاهب ، فاختاروا لهم أميراً ، واحتشدوا لقتال جوهر بالجيزة ، ولما وصل الجيش الفاطمى الى الجيزة ألفى القوى الخصيمة تتهيأ لرده عن عبور النيل ، فدفع جوهر بعض قواته فاجتازت النيل خوضاً ،ونشب القتال بين الفريقين ، فانهزم الإخشيدية بعد أن قتل منهم عدد كبير ، ولاذوا بالفرار ، وتم الفتح الفاطمى لمصر (منتصف شعبان سنة ٣٥٨) .

واستجاب جوهر الى رغبة المصريين كرة أخرى ، فجدد لهم الأمان ، وذهب الوزير ابن الفرات ، والشريف أبو جعفر إلى لقائه على رأس العلماء والكبراء ، وسار جوهر فى ركبه المظفر إلى عاصمة مصر ، فى عصر يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨ هـ (٧ يوليه سنة ٩٦٩ م) « وعليه ثوب ديباج مثقل ، وتحته فرس أصفر »[2] ، وشق مدينة مصر (الفسطاط) ونزل فى بسيط شاسع يقع فى ظاهرها من الشمال الغربى ؛ وفى مساء نفس اليوم الذى

---

(١) راجع نص هـذه الوثيقة بأكمله فى اتعاظ الحنفاء ص ١٤٨ — ١٥٣ ، وقد أثبتناه فى نهاية الكتاب .

(٢) ابن خلكان ج ١ ص ١٤٩ .

تم فيه ذلك الفتح العظيم ، وضع جوهر تنفيذاً لأوامر سيده المعز ، فى نفس المكان الذى نزل فيه ، خطط المدينة الجديدة ، التى قرر الفاطميون إنشاءها لتكون لهم فى مصر قاعدة ومعقلا ، وحفر أساس القصر الفاطمى فى وسطها ، واختطت القبائل الشيعية حول القصر كل قبيلة خطة عرفت بها كزويلة وكتامة وبرقة وغيرها ، فكان هذا مولد العاصمة الجديدة التى سميت بالقاهرة المعزية نسبة الى المعز ، وتفاؤلا وتيمناً بالنصر (١٧ شعبان سنة ٣٥٨) وأعدت القاهرة لتكون منزل الخلافة الفاطمية وقاعدة ملكها ، وأقيم حول خططها سور جديد ، ثم اختط بها جوهر الجامع الأزهر بعد ذلك بأشهر قلائل (جمادى الأولى سنة ٣٥٩) ليكون الى جانب العاصمة الجديدة رمزاً للدعوة الفاطمية ، ومنبراً للإمامة الجديدة .

ومما هو جدير بالذكر ، أن الإسراع فى إنشاء العاصمة الفاطمية الجديدة على هذا النحو يرجع بالأخص إلى تفاقم خطر القرامطة ، الذين سادت دعوتهم يومئذ معظم أنحاء الجزيرة العربية ، وزحفوا غير مرة على الشأم ، وأصبحوا خطراً على مصر ذاتها من جهة الشرق . وقد أراد الفاطميون أن تغدو العاصمة الجديدة ، لهم قاعدة ومعقلا لرد هذا الخطر الجديد .

وبعث جوهر البشرى إلى مولاه المعز بالفتح العظيم ، فوصلته فى منتصف رمضان ؛ وأنشد ابن هانئ بهذه المناسبة قصيدة مطلعها :

يقول بنو العباس قد فتحت مصر   فقل لبنى العباس قد قضى الأمر
وقد جاوز الإسكندرية جوهر   تصاحبه البشرى ويقدمه النصر

وفى الحال أمر جوهر بقطع الدعوة العباسية من منابر مصر والشأم ، وحرم لبس السواد شعار بنى العباس ، وبدأت الدعوة للخليفة الفاطمى ، واستمرت حتى انقراض الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ ؛ وعين جوهر فى سائر الأعمال رجالا من المغاربة ، أولياء الدولة الجديدة ، واعتقل كثيراً من أنصار الحكم القديم من الإخشيدية والكافورية ، وشدد فى توطيد الأمن والنظام وقمع الفساد والفوضى[١] . ثم أمر بعد ذلك بتغيير الأذان ، وأن يؤذن « بحى

---

(١) اتعاظ الحنفاء ص ١٦٨ و ١٦٩

على خير العمل » . وكان انقراض الدعوة العباسية بمصر فى عهد الخليفة المطيع لله بعد أن لبثت بمصر زهاء قرنين وربع قرن .

وهكذا حقق مشروع الخلافة الفاطمية فى افتتاح مصر . ومنذ السابع من رمضان سنة ٣٦٢ هـ (منتصف يونيه سنة ٩٧٣) وهو تاريخ مقدم المعز لدين الله الى مصر ، تغدو القاهرة منزل الخلافة الفاطمية ، بدلا من رقّادة والمهدية ، وتغدو مصر معقل الخلافة الفاطمية وملاذها بدلا من المغرب . ولم تكن مصر للفاطميين غنما سياسياً فقط ، ولكنها غدت أيضاً معقلا للدعوة الشيعية ، التى لبث بنو العباس يطاردونها زهاء قرنين ، والتى بدأت ظفرها السياسى بافتتاح اليمن ثم المغرب . وكانت الدولة الفاطمية منذ قيامها بمصر ، تحتفظ بنفس الصبغة الأمامية والمذهبية العميقة ، التى اتشحت بها منذ قيامها بالمغرب ، وكانت هذه الصبغة المذهبية الخاصة عنصراً من أهم عناصر الخصومة السياسية التى نشبت بين الدولتين العباسية والفاطمية . والواقع أن هذه الخصومة ترجع إلى ما قبل الدولة العباسية ، فالدولة العباسية هى وريثه الدولة الأموية فى زعامة الإسلام ، ورياسة الإمبراطورية الإسلامية ؛ وبنو أمية فى نظر الشيعة ، أصحاب على بن أبى طالب وبنيه ، معتدون غاصبون ؛ وإذاً فقد كانت وريثتهم الدولة العباسية مثلهم معتدية غاصبة لإمامة آل البيت . وقد كان الفاطميون ، وهم يرجعون نسبتهم الى فاطمة بنت الرسول ، يختصون إمامتهم بالصفة الشرعية ، ويعتبرون الدولة العباسية على هذا النحو غاصبة للإمامة والخلافة ، ويتخذون من هذه الدعوى دعامة لإمامتهم الدينية وملكهم السياسى ، فهم طبقاً لدعواهم أبناء فاطمة ، وهم ورثة على وبنيه الشرعيون فى إمامة المسلمين ورياسة العالم الإسلامى .

وقد رأينا قبل أن ندخل فى التفاصيل التاريخية المتعلقة بالدولة الفاطمية ، وبعصر الحاكم بأمر الله ، أن نتناول تلك المسألة المذهبية الخطيرة ، أولا فيما يختص بدعوى الإمامة فى ذاتها ، ومبلغ صحتها وشرعيتها ، وثانيا فيما يختص بمسألة انتساب الخلفاء الفاطميين إلى آل البيت ، وهى التى تعتبر دعامة إمامتهم الدينية ، ورياستهم السياسية . ويحفزنا إلى هذا الحديث بالأخص ، ما صدر فى الأعوام الأخيرة من الكتب والبحوث الإسماعيلية التى تتعلق بهذا الموضوع .

الفصل الثانى

نظرية الإمامة الشيعية

اصل النظرية . أسانيد من القرآن والسنة . رأى المعتزلة والرد عليه . الدعوة الى طاعة الأئمة . قولهم بانحصار الإمامة فى آل البيت . بعض شروح الدعاة فى ذلك . الخلفاء الفاطميون وتمسكهم بسمة الإمامة . ما ينسب للأئمة من المعجزات والخوارق . أقوال فى نفى علم الأئمة بالغيب . بطلان نظرية الإمامة حسب تصويرهم . تراث الأمة الإسلامية بعد وفاة النبى . الدولة الأموية مؤسسة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى . المعركة السياسية وقصور آل البيت عن الظفر فيها . الناحية السياسية والناحية العاطفية فى هذه المعركة . نظرية الحق الإلهى .

كانت الإمامة شعار الدولة الفاطمية ، ودعامة رياستها الدينية والزمنية ، تؤكد أهميتها وقدسها فى كل مناسبة ، وتحرص أشد الحرص على رسومها ومظاهرها .

ولا غرو ، فقد كانت الإمامة منذ البداية ، هى أهم مبادئ الدعوة الشيعية ، وأرسخ قواعدها ، وملاذها الذى انضوت تحت لوائه ، وحاولت أن تؤكده ، وأن تدعمه بسائر الوسائل الروحية والمذهبية ، ولم تدخر وسعا فى أن تستمد أسانيدها من القرآن ذاته ، ومن الأحاديث النبوية ، لتسبغ بذلك على مسألة الإمامة ، جوا من الإيمان والقدسية ، يسمو إلى مرتبة النبوة ذاتها .

وقد حاول فقهاء الشيعة ورواتها ودعاتها ، منذ عصر مبكر ، أن يخلقوا هذا الجو القدسى حول الإمامة ، بما وضعوه من الكتب والرسائل العديدة . وسنحاول فى هذا البحث أن نستعرض بعض أقوالهم وشروحهم لنرى مبلغ حججهم وتدليلهم ، معتمدين فى ذلك على طائفة من أهم كتبهم ورسائلهم .

وفى مقدمة أولئك الفقهاء ، فقيه الدولة الفاطمية الأول ، وصديق المعز لدين الله وداعيته الأكبر القاضى أبو حنيفة النعمان القيروانى ، وقد شرح لنا

مسألة الإمامة بطريقة فقهية مذهبية ، منظمة ، وتناولها أولا فى كتابه : « دعائم الإسلام »[1] ، وهو من أهم كتب الفقه عند الشيعة ، بل هو من أجل متونهم ؛ ثم تناولها بعد ذلك فى مؤلف خاص ، هو كتاب « الهمة فى آداب اتباع الأئمة » ، عرض فيه الى أصولها ، وأسانيدها ، وأحكامها ، ورسومها ، وآدابها ، بطريقة مفصلة .

ويقدم إلينا القاضى النعمان فى « دعائم الإسلام » حديثاً طويلا ، عن ولاية الأئمة ، ومنزلتهم ، ووصاياهم ، ويورد لنا طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، التى يستند إليها فى تأييد مسألة الولاية ، أو الإمامة ، وكونها خصت بعلى بن أبى طالب ، وبأبنائه من آل البيت .

وسندهم الأول فى ذلك هو قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ، أطيعوا الله ، وأطيعوا الرسول ، وأولى الأمر منكم » ، ويورد لنا القاضى النعمان أحاديث كثيرة مروية عن أبى جعفر محمد بن على ، وغيره من ولد على بن أبى طالب ، تفيد أن المقصود بهذه الآية هم آل البيت ؛ وقوله تعالى : « إنما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » ، فالمنذر هنا وفقاً لقولهم هو رسول الله ، وأنه يوجد فى كل زمان ، إمام يهديهم ، إلى ماجاء به رسول الله . وأول الهداة هو على بن أبى طالب ، ثم الأوصياء أو الأئمة من بعده واحدا فواحد . ثم يورد لنا بعد ذلك طائفة كبيرة من الآيات والأحاديث ، يفسرها ، ويؤولها بروايات عن النبى ، بأن آل محمد ، هم أهل بيته ، وواجب أن تؤول الإمامة اليهم ، وأن تنتقل فيهم ، وأنهم هم المعنيون بأنهم « أمة محمد » ، وأن

---

(١) هو أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور المعروف بابن حيون التميمى القيروانى ، وكان من أكابر فقهاء الشيعة فى القرن الرابع الهجرى ، وخدم عبيد الله المهدى ، ثم أبناءه الخلفاء بعده . وقدم فى ركب المعز لدين الله الى مصر ، وتولى مرتبة الدعوة والقضاء فى عهده . وكان من أوثق أصدقاء المعز ومستشاريه . وتوفى بالقاهرة المعزية سنة ٣٦٣ هـ . وقد ألف كتبا عديدة ، فى فقه الشيعة ، ويعتبر كتابه « دعائم الإسلام » وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام » هو متن الفقه الشيعى فى ظل الدولة الفاطمية ، بل لا يزال حتى اليوم متن طائفة البهرة بالهند ، وهم الإسماعيلية المستعلية ، وقد نشر الجزء الأول من « دعائم الإسلام » ، وهو المتعلق بشئون العبادات بعناية الأستاذ آصف بن على أصغر فيظى ، سفير الهند الأسبق بمصر (دار المعارف سنة ١٩٥١) . وراجع فى ترجمة القاضى النعمان : ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٩ .

النبي قد أوصى بولاية على بن أبي طالب ، وبايعه على ذلك بالفعل ، وأكد هذه البيعة ؛ وأن مع النبي على ، وأن مع على فاطمة والحسن والحسين « وهم الذين أذهب الله عنهم الرجس ، وطهرهم تطهيرا » . وقد كان رسول الله أمة وحده ، مثل ما كان إبراهيم ، ثم رفده الله بعلى وفاطمة ، وكثره بالحسن والحسين ، كما كثر إبراهيم ، بإسماعيل وسحاق ، وجعل الإمامة التى هى خلف النبوة ، فى ذريته من ولد الحسين بن على ؛ ذلك أن الإمامة انتقلت بعد الحسن الى الحسين ، « وهى جارية فيهم الى يوم القيامة » .

ويحاول القاضى النعمان ، أن يبين بعد ذلك ، أن الأمامة قد استقرت ، بتوقيف رسول الله الناس على إمامة على ونصبه إياه ، وهـذا ما فعله « بغدير خم » ؛ وكذلك فعل على بالحسن ، والحسن بالحسين ، والحسين بعلى ابنه وعلى بابنه محمد ، ومحمد بن على بجعفر ، وكذلك من بعدهم الأئمة . ثم يصف الأئمة بأنهم « خلق من خلق الله ، وعباد مصطفون من عباده ، افترض طاعة كل إمام منهم على أهل عصره ، وأوجب عليهم التسليم لأمره ، وقرن طاعتهم فى كتابه بطاعته ، وطاعة رسول الله ؛ وهم حجج الله على خلقه وخلفاؤه فى أرضه »(١) .

ويورد لنا قولا منسوباً الى على نصه : « أنا وصى الأوصياء ، وأنا من حزب الله ورسوله » . ثم يورد لنا أقوالا منسوبة إلى جعفر بن محمد بن على ابن الحسين جاء فيها : « بنا يُعبد الله ، وبنا يطاع الله ، وبنا يعصى الله ؛ فمن أطاعنا ، فقد أطاع الله ، ومن عصانا فقد عصى الله ، سبقت طاعتنا عزيمة من الله الى خلقه ، أنه لا يقبل عملا من أحد إلا بنا ، ولا يرحم أحداً إلا بنا ، ولا يعذب أحداً إلا بنا ، فنحن باب الله وحجته ، وأولياؤه على خلقه وحفظة سره ، ومستودع علمه ، ليس لمن منعنا حقنا فى ماله نصيب »(٢) ؛ وقوله فى شرح منزلتهم المفضلة على سائر البشر : « إنا مخلوقون ، وعباد مربوبون ، ولكن لنا من ربنا منزلة لم ينزلها أحد غيرنا ، ولا تصلح إلا لنا .

(١) راجع كتاب « دعائم الإسـلام » ج ١ ص ١٩ و ٢٠ و ٢١ و ٢٤ و ٢٥ و ٢٧ و ٢٨ و ٣٢ و ٣٦ وما بعدها . ثم ٤٤ و ٤٥ و ٤٧ و ٤٨ و ٥٤ .

(٢) دعائم الإسلام ، ج ١ ص ٧٢ و ٧٩ .

ونحن نور الله وشيعتنا منه ، وسائر من خالفنا من الخلق ، فهو فى النار »[1] .

ثم يتحدث القاضي النعمان عن العلم والحض عليه ، وفضائل طلابه ، ويورد الآيات المتعلقة به ، ثم يقول إن المقصود بهذه الآيات ، هم الأئمة الطاهرون ، أهل بيت رسول الله « فهم أهل العلم الذين استودعهم الله عز وجل إياه ، وفضلهم به ، وخصهم بنوره ، وجعلهم حفظته وخزنته ، والمستحفظين عليه ، والقائمين به ، والمؤدين له »[2] .

ويرد النعمان على ما ذهبت اليه الخوارج والمعتزلة من قولهم : إن النبى لم يقدم أحدا للولاية من بعده ، ولكنه أمر الناس أن يختاروا من بعده رجلا يولونه ، وأنه لا بد من إمام يقيم الحدود ؛ يرد على ذلك بقوله ، إذا كان الناس هم الذين يقدمون الإمام ، فالإمام مأمور عن أمرهم ، ولم يكن يملك شيئا حتى ملكوه إياه ، فهم الأئمة على ظاهر هذا المعنى ، وهو عامل من عمالهم ، ولهم إذاً عزله كما قالت المرجئة ، وأن ذلك قول ظاهر الفساد[3] .

وهذه لمحة موجزة أوردها القاضى النعمان فى كتابه « دعائم الإسلام » عن الإمامة فى « كتاب الولاية » . بيد أنه يعود فيحدثنا بإفاضة فى كتابه « الهمة فى آداب اتباع الأئمة » عن فضل الأئمة ، والدعوة الى طاعتهم ، واعتبارهم فوق الملوك ، وأن الأئمة هم من آل البيت ، وأن طاعتهم من طاعة النبوة ، وأنه يجب أن يقطع العهد لهم ، والجهاد معهم فى سبيل الله ، ووجوب التسليم لهم فى جميع الأمور ، ووجوب الخوف منهم ، وموالاتهم ، ومعاداة أعدائهم ؛ ثم يقدم الينا فصولا عما يعتبر رسوم الإمامة ، من التواضع للأئمة ، والحث على تعظيمهم ، وأن السجود لهم ليس بمنكر ، وطريقة السلام عليهم ، وتشريف الرعية بالجلوس فى حضرتهم ، وطريقة الكلام معهم ، وكيفية تلقى أحاديثهم ، والسير فى مواكبهم ، والجلوس إلى مآدبهم ؛ ثم يعقب بكلام عن وجوب التسليم بطاعة الإمام ، والتسليم لأمره ، والكف عن مخالفته وانتقاده ، والتعقيب على أفعاله ؛ وبما ينبغى على كل من عهد إليه بعمل من

(١) دعائم الإسلام ج ١ ص ٦٣ .
(٢) دعائم الإسلام ج ١ ص ٩٧ .
(٣) دعائم الإسلام ج ١ ص ٥٣ .

قبل الأئمة ، أن يسير بالعدل فى الرعية ؛ ثم يختتم بفصل فى آداب الدعاة وطرائق بث الدعوة[١] .

ويشير الداعى حميد الدين الكرمانى ، وهو من أعظم أقطاب الدعوة الفاطمية أيام الحاكم بأمر الله ، فى كتابه « راحة العقل » ، إشارات عديدة الى مسألة الإمام والإمامة ، ويرجعها الى أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، والى آل البيت ، ويصف أنفس « النطقاء » ، أى الأنبياء أصحاب الشريعة ، وتسرب الأنوار الى نفوسهم ، وأن الأئمة هم نطقاء وأئمة كلهم شىء واحد . ثم يقول لنا إنه لا يسوغ لأحد أن يعلم شيئاً من الدين ورسوم العبادة والإيمان واليقين ، بغير أمر من القائم مقام النبى ، الذى هو الإمام ، ومن هو من جهته ، ومن فعل ذلك فقد تعدى الأمر ، وهو ضال سالك شعب الأضداد وأولى النفاق[٢] .

وتجرى المصنفات الكلامية والفقهية الشيعية كلها على هذا النمط ، فى عرض مسألة الإمامة ، وكونها من حقوق آل البيت دون شريك ولا منازع ؛ ويستمدون الآيات القرآنية لتأييد نظريتهم ، ويذهبون أحياناً فى تأويلها مذاهب غريبة ، تتفق مع هذه النظرية ، ومن ذلك ما يقوله لنا الداعى ثقة الإمام فى « المجالس المستنصرية » من وصفه على بن أبى طالب « بالوصى » ، « والقائم بالأمر بعد النبى »[٣] ؛ وما ورد فى « المجالس المؤيدية » من تأويل فرائض الإسلام لتأييد دعوة الإمامة ، مثل قوله عند الصلاة ، « والواجب فى باطنها (أى الصلاة) الذى هو دعوة الحق ، ما تقدم القول به من اعتقاد طاعة الإمام ، والحجة فيما تجب الطاعة فيه لكل واحد منها ، فمثل الركوع مثل طاعة الحجة ، ومثل السجود مثل طاعة الإمام ، ومثل ما كان من الصلاة ركعتين مثل الطاعة للإمام والحجة ، كل ركعة بواحد منها ، وما كان فيها أربع ركعات ،

---

(١) راجع كتاب « الهمة فى اتباع الأئمة » المنشور بعناية الدكتور محمد كامل حسين (مطبعة الاعتماد بالقاهرة) ص ٣٥ — ٤٠ ، و ٤٥ ، ٥١ و ٥٣ و ٧٤ — ٧٩ و ٨٢ و ٨٣ و ٨٨ — ٩٢ و ٩٧ و ١٠٤ و ١٠٥ ، و ١٢٧ و ١٣١ و ١٣٦ و ١٣٧ و ١٣٨ .

(٢) « راحة العقل » للداعى حميد الدين الكرمانى ، المنشور بعناية الدكتورين كامل حسين ومصطفى حلمى (القاهرة ١٩٥٢) ص ٢ و ١٩ و ١٤٢ .

(٣) المجالس المؤيدية (فى تعليقات على المجالس المستنصرية) ص ١٨٩ .

فمثل الاثنتين الأولتين ، مثل ما يجب الإمام ، والأخرتين مثل ما يجب للحجة ... » ، وما ورد فى « المجالس المؤيدية » أيضا فى تأويل الآية القرآنية : « مثلهم كمثل من استوقد نارا » بأن ذلك معناه أى من علق بحبل الرسول المؤيد صاحب السلطان ، من عند الله المؤيد ، والمجد المشيد . « فلما أضاءت ما حوله » ، يعنى استفاضت أنوار النبوة ، يمينا وشمالا ، وتفرعت بوصاية الوصى ، وإمامة الأئمة من ذريته ، « ذهب الله بنورهم » يعنى بحظهم من تلك الأنوار ، لما تداخلهم من الحسد والاستكبار[١] .

وللشيعة على اختلاف فرقهم ، كتب عديدة أخرى فى مسألة الإمامة ، والدلالة على أهميتها ، واعتبارها أساساً من أسس العقيدة الدينية ، وانحصارها فى على وبنيه آل البيت ؛ ويبدو منها جميعاً ، أن الإمامة هى دعامة الدعوة الشيعية كلها ، ودعامة دعاويهم فى الرياسة الدينية والزمنية .

وقد قامت الدولة الفاطمية متسمة بسمة الإمامة قبل كل شىء . ولما قدم المعز لدين الله إلى مصر ، كانت سمة الإمامة ، أخص ما يحرص عليه ، فنراه حين مقدمه إلى الإسكندرية ، يقول لوفد المصريين الذى ذهب إلى لقائه : « إنه لم يسر لازدياد فى ملك ولا رجال ، ولا سار إلا رغبة فى الجهاد ونصرة المسلمين »[٢] . ونراه فى مواكبه وشعائره الدينية حريصاً على مظاهر الإمامة ، يبدو إماماً دينياً أكثر منه ملكاً سياسياً . وقد سجل لنا الفقيه الحسن بن زولاق المصرى ، صديق المعز ومؤرخ سيرته ، كثيراً من هذه المظاهر ، يبدو فيها المعز إماماً ، وافر التقى والورع ، يؤم الناس للصلاة ، ويعظهم خاشعاً باكياً[٣] ؛ وقد حرص الخلفاء الفاطميون من بعد المعز ، مع بعض الاستثناءات ، على هذه المظاهر ، فى مواكبهم وأعمالهم الدينية والرسمية .

وكان الخلفاء الفاطميون ، يوسمون فى الدعاء على المنابر ، بما يقرب

---

(١) المجالس المؤيدية (فى تعليقات على المجالس المستنصرية) ص ١٨٩ .

(٢) اتعاظ الحنفاء للمقريزى (طبعة القاهرة ١٩٤٨) ص ١٨٥ .

(٣) اتعاظ الحنفاء ص ١٨٧ و ١٩١ و ١٩٣ و ١٩٤ . وراجع كتابى مصر الإسلامية ص ٨١ و ٨٢ .

من النبوة ، مثال ذلك ما دعى به للمعز لدين الله ، فى أول جمعة رسمية أقيمت فى سنة ٣٦٨ هـ ، عقب الفتح الفاطمى ، فى الجامع العتيق (جامع عمرو) ونصه : « اللهم صل على عبدك ووليك ، ثمرة النبوة ، وسليل العزة الهادية ، عبد الله الإمام معد أبى تميم المعز لدين الله ، أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه الطاهرين ، وأسلافه الأئمة الراشدين »[1] .

بل إن الإمامة لتقرن فى بعض المصادر الإسماعيلية بمرتبة النبوة ذاتها ، وتنسب للإمام ، كما نسبت الى النبى ، معجزات وأعمال خارقة لا يأتيها البشر . فمن ذلك ما رواه الداعى عماد الدين إدريس فى كتابه « زهر المعانى » ، فى حديثه عن إسماعيل بن جعفر الصادق ، من أنه توفى ودفن ، ثم ظهر حياً بالبصرة « وأقبل إليه الناس يهرعون ، وهم يقولون هذا إسماعيل بن جعفر عاد حياً » ، وأنه مسح بيده المباركة على ظهر شيخ مريض ، فبرئ من علته ، وشاهد الخلق ذلك ، وغاب عنهم . يقول الداعى المذكور : « فكان ما أظهره إسماعيل عليه أتم الصلوات من الغيبة والظهور بعد ذلك ، كما فعل جده الناطق المرسل محمد صلى الله عليه . . . . فأظهر الإمام إسماعيل ما أظهره إعجازاً للخلائق ، بظهور القدرة من الله تعالى ، وبقاء الكلمة فى عقبه الطاهرين من بيته » .

ثم يقول : « ومثل هذه المعجزات العظيمة ، التى تقصر عن معرفتها العقول ، ويتيه فيها مع السائل المسئول ، يظهرها العقل الأول ، الذى هو الإبداع الأول بهم ، لتظهر القدرة للعارفين » .

ثم يصف المهدى بأنه « ولى الأمر صاحب المعجزات ، ومبين الآيات ، المهدى بالله ، صلوات الله عليه ، الذى طلع من الغرب ، وقام قيام النبى (ص) مهلكاً لمن ناصبه الحرب ، وذهب الزبد جفاء ، وأشرقت الأرض بنور ربها إنارة وضياء » ، ويقول : « وهذه العلامات والإشارات ظهرت سفره فى ولاة الأمر ، يتوارثها منهم خلف عن سلف ، بظهور المعجزات ،

---

(١) اتعاظ الحنفاء ص ١٦٣ .

وكشف العلوم البينات ، وإخراج المتبعين الى النور من الظلمات »[١] .

ويقدم الينا القاضي النعمان ، فى كتابه « شرح الأخبار » أحاديث كثيرة ، تشير الى معجزات المهدى ، وأعماله ، وصفاته الخارقة[٢] .

بل لقد نسبت هذه الصفات الخارقة الى الحاكم بأمر الله ذاته ، فنرى الداعى عماد الدين إدريس يقول لنا فى كتابه « عيون الأخبار » ، ما يأتى : « وظهرت لأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله ، عليه السلام ، فضائل لم يسمع بمثلها ، ودلائل ظاهر بيان فضلها ، ومعجزات بهرت الألباب ، وآيات لا يشك فيها إلا أهل الزيغ والارتياب ، فغلا فيه صلى الله عليه من غلا ، وسفل بذلك من حيث ظن أنه علا . . . »[٣] .

بيد أنه مما يدعو الى الدهشة حقاً ، أن نرى القاضى النعمان ، بعد ذلك يقدم الينا فى كتابه « الهمة فى آداب اتباع الأئمة » أقوالا أخرى ، ينفى فيها بشدة علم الأئمة بالغيب ، ويصف ذلك بأنه من قول الضالين المبطلين ، الصادين عن أولياء الله ، الدافعين إمامتهم ، الزاعمين أنهم يعلمون غيب الله وما تخفى صدور عباده ، وقد تفرد بعلم ذلك دون خلقه . ثم يقول : « إنما أراد هؤلاء الفسقة بما ينسبوه الى الأئمة صلوات الله عليهم من ذلك ، دفع إمامتهم ، لأنهم لما زعموا أن الأئمة يعلمون الغيب ، والناس يرونهم لا يعلمون ذلك ، وأنهم لا يعلمون من أمور الناس إلا ما ظهر منها لهم ، لم يكونوا أئمة عند أولئك الفسقة » . ونظريته فى ذلك أن الأئمة يعلمون ما غاب عن الخلق سواهم من العلوم ، وينظرون بنور الله جل ذكره ، وأنه يمدهم بتوفيقه ، ويهديهم بهدايته ، ويطلعهم على ما سألوه أن يطلعهم عليه ، بلطف

---

(١) راجع ما نشر من مقتطفات « زهر المعانى » فى كتاب الأستاذ ايڤانوف : Ismaili Tradition concerning The Rise of the Fatimids (الملاحق العربية) ص ٤٨ و ٤٩ و ٥١ و ٥٢ و ٥٤ .

(٢) راجع كتاب ايڤانوف السالف الذكر (الملاحق العربيـــة) ص ٨ و ١٥ و ٢٠ . وراجع النص الإنجليزى ص ١٢٢ .

(٣) وهذا ما نقله الداعى إدريس عن داعية الحاكم بأمر الله ، حميد الدين الكرمانى ، فى رسالته الموسومة « بمباسم البشارات » . راجع كتاب « راحة العقل » للكرمانى — المقدمة ص ١ م .

تدبيره وحكمته ، وفضله عليهم وحكمته[1] .

ويقول لنا بعد ذلك فى كتابه « دعائم الإسلام » : « وهم (أى الأئمة) حجج الله على خلقه ، وخلفاؤه فى أرضه ، ليسوا كما زعم الضالون المفترون بآلهة غير مربوبين ، ولا بأنبياء مرسلين ، ولا يوحى اليهم كما يوحى الى النبيين ، ولا يعلمون الغيب الذى حجبه الله عن خلقه ، ولم يطلع أنبياءه منه إلا على ما أطلعهم عليه ، لا كما زعم المفترون فيهم ، والمبطلون الكاذبون عليهم » .

ثم يورد كلاما للخليفة المنصور الفاطمى ، فى التبرؤ من تأليهه ، ومن نسبته الى معرفة الغيب ، يقول فيه : « إنما نحن عباد من عباد الله ، وخلق من خلقه ، ولكن لنا منزلة أكرمنا بها ، بأن جعلنا أئمة عباده ، وحججه على خلقه »[2] .

ولهذه المسألة بالذات أهمية خاصة ، لما كان ينسب للخلفاء الفاطميين منذ أيام المعز وولده العزيز من مزاعم بمعرفة الغيب ، وشغف بالخفاء ورصد النجوم ، وهو ما سوف نتحدث عنه فى فصل قادم .

ونحن نكتفى بما تقدم من حديث دعاة الشيعة فى الإمامة والأئمة . ونحن لا نبغى أن ندخل حول مسألة الإمامة فى بحوث كلاميه أو مذهبية ، ولا نريد بالأخص أن نناقش « التأويلات » القرآنية ، ولا « الأحاديث » التى أكثر رواة الشيعة وفى مقدمتهم أئمتها الأوائل ، من وضعها وصياغتها بما يوافق أغراضهم ومراميهم : لا نبغى أن نخوض مثل هذا الجدل المذهبى ، الذى لم تعد له أية قيمة دينية أو علمية حقيقية ، وإنما نريد فقط أن نناقش المسألة من الناحية المنطقية والتاريخية .

لقد رأينا من أقوال الدعاة وشروحهم ، أن الإمامة لم تكن فقط مسألة رياسة دينية وسياسية ، يتنازعها فريقان من الأمة الاسلامية ، وإنما كانت بالعكس فى زعمهم إرادة إلهية ، قررها كتاب الله ، وأيدها رسوله ، بما رووه من « أحاديث » لا نهاية لها .

---

(١) الهمة فى اتباع آداب الأئمة ص ٥٣ .

(٢) دعائم الإسلام ص ٥٨ و ٧٠ .

وأن خلاصة نظريتهم ، من الناحية العملية ، هو أن تراث النبي العربى ، لم يكن تراث أمة هداها الله الى الإسلام ، وتراث رياسة معنوية جاءت ثمرة الرسالة النبوية ، وإنما كانت تراثاً شخصياً ، وميراثا خالصا لأسرة النبي ، صاحب هذه الرسالة ؛ وأن النبي أوصى بهذا التراث الى ابن عمه على بن أبي طالب ، زوج ابنته فاطمة الزهراء ، وبنيه من بعده ، أبناء ولديه الحسن والحسين . وهكذا تغدو رياسة الأمة الإسلامية فى نظرهم ، ووفقا لتأويلاتهم ورواياتهم ، ميراثا خاصا ، لا يليها « حتى يوم القيامة » أحد سوى آل البيت .

وهذه نظرية ظاهرة البطلان والإغراق ، ولا تتفق فى شيء مع ما لرسالة النبي الكريم من أفق واسع ، بل من أفق عالمى وإنسانى ، لا يقف عند حدود شخصية أو جغرافية . وإنا لنشعر شعورا قويا ، بأن صاحب الرسالة النبوية ، كان برسالته أعظم وأجل وأسمى ، من أن يعتبر الأمة الإسلامية العظيمة ، التى أنشأتها عبقريته ، يجب أن تغدو بعد وفاته ضيعة خاصة ، يختص برياستها ورعايتها آل البيت من أبناء على ، دون سواهم ، والى الأبد .

وإن ما وضعوه لبعض آيات القرآن الكريم من تأويلات خاصة ينتحلونها تأييداً لنظريتهم ، ويزعمون أنها من المعانى الباطنة التى لا تكشف للكافة ؛ وما وضعوه عن رواتهم ، بل وعن أنفسهم ، من « أحاديث » عديدة ينسبونها الى النبي ، وكلها ترمى الى تأييد قضية الإمامة على الصورة التى يبغونها ، والتى تتجه اليها أمانيهم : كل ذلك لا يمكن أن يتخذ دليلا مقنعا فى قضية لها مثل ما لقضية رياسة الأمة الإسلامية بأسرها ، من خطورة بالغة .

لقد توفى النبي العربى ، والأمة الإسلامية ، ما تزال فى طور التكوين ؛ ولو لم يقيض الله لقيادتها فى تلك الآونة الدقيقة رجلين عظيمين ، هما أبو بكر ، ثم عمر ، لانهارت قواعدها فى المهد ؛ ولكن أولهما استطاع أن يقيها شر التمزق ، وأن يقمع الخارجين والمرتدين بقوة ، واستطاع الثانى أن ينظم فتح فارس والشام ومصر ، وأن يضع بذلك قواعد الإمبراطورية الإسلامية المستقبلة . ثم جاء عثمان فمهد بضعفه وأثرته ، وانحراف سياسته ، الى إذكاء الخلاف والخصومة ؛ وجاء على من بعده فانفجرت الثورة السياسية ، وثورة العصبية ، وظهر الخوارج بمبادئهم المثالية ، من وراء الثورة السياسية ، ووقف

معاوية بن أبى سفيان إزاء على يمثل أطماع الزعامة والرياسة والعصبية ؛ وخسر على المعركة آخر الأمر ، لأنه كان أقل دهاء ، وأكثر ولاء وشهامة وفروسة من خصومه ، ثم انتهى الأمر بمصرعه ، واستتب الأمر لمعاوية ، وخلصت الخلافة لبنى أمية ، بعد تنازل الحسن بن على ؛ وقامت الدولة الأموية ، تتزعم مصاير الاسلام ، وتستأثر برياسته وقيادته .

وقد شاءت العناية الإلهية ، أن تكون الدولة الأموية ، هى منشئة الإمبراطورية الإسلامية الكبرى ، وأن تكون دولة الفتوح الإسلامية العظيمة ، وأن تمتد رقعة العالم الإسلامى ، على يدها ، من السِّنْد شرقا ، حتى المحيط الأطلنطى غربا ، وأن تعبر جيوشها المظفرة الى ما وراء البحر ، فتفتح شبه الجزيرة الإسبانية ، ثم تعبر جبال البرنيه الى قلب فرنسا ، والى ضفاف اللوار . ولم يكن قيام هذه الإمبراطورية العظيمة عفوا ، وإنما كان مرجع الفضل فيه الى عبقرية عدة كبيرة من رجال الدولة الأموية ، من خلفاء ، وحكام ، وقادة ، وبالرغم من أنها لم تعمر طويلا ، وقد ذوت فجأة فى إبان قوتها وعظمتها ، فإنها لم تذهب إلا بعد أن توطدت دعائم الإمبراطورية الإسلامية الكبرى .

ولقد كان الأمر منذ البداية يتلخص فى معركة السلطان والرياسة ، وكان على وبنوه يعتقدون أن أرومتهم الطاهرة ونسبتهم الى آل البيت الموقر ، سوف تضع ميزانها فى المعركة لترجحها الى جانبهم ؛ ولكن تبين مما حدث من الشقاق فى الصفوف ، والتراجع ، وغلبة الأهواء والأطماع الشخصية ، أن هذا العامل الأدبى الرفيع لم يؤت أثره ، وظهر أن آل البيت وشيعتهم ، كانوا أضعف الفريقين من الناحية المادية والعملية . ومن ثم فقد انتقلت الرياسة ، أو بعبارة أخرى ، الخلافة والإمامة ، الى الفريق الأقوى بصفاته السياسية والدنيوية ، وبعصبته وأنصاره ، الى بنى أمية ، ثم الى بنى العباس .

ولا شك أن الأمة الإسلامية الكبرى ، كانت تتطلب لقيادتها ، والسهر على مصايرها ، أولى البأس والحزم والحنكة ، من القادة والساسة العباقرة . وقد ظهر منذ البداية أن عليا ، وبنيه من بعده ، بالرغم مما كانوا يتشحون به من أثواب الهيبة والجلالة المستمدة من نسبتهم النبوية ، لم يكونوا رجال كفاح ،

ولا قيادة دنيوية ، ومن ثم فإنهم بعد أن خسروا المعركة الأولى ، لم يستطيعوا قط ، خلال أكثر من قرنين ، أن يخوضوا مع خصومهم معركة ذات شأن ، وقد عاش معظمهم فى حالة اختفاء وتستر ، ووهنت عزائمهم تباعا لما كانوا يلقون من صنوف الضغط والمطاردة ، وخمدت فيهم روح الثورة والكفاح تباعا ؛ وعلى الرغم من أنهم قاموا مرارا وتكرارا ، بثورات محلية صغيرة ، فى ظل بنى أمية ، ثم فى ظل بنى العباس ، فإنهم لم يستطيعوا قط أن يحرزوا من وراء هذه الثورات ، أى انتصار حقيقى ، ولم يستطيعوا بالأخص أن يكسبوا جماهير الكافة الى جانبهم .

وأنه لما بدأت جهودهم الخفية ، وجهود المبعوثين من دعاتهم ، تحدث أثرها ، فى بعض البيئات والأوساط ، فإن هذا النجاح لم تبد طلائعه إلا فى حدود ضيقة ، وفى بعض النواحى المنعزلة أو النائية ، مثل ثورة القرامطة ، التى أفلتت غير بعيد من قيادتهم ، واتخذت طابعها العنيف الخاص ، وثورة اليمن التى توجت بظفرهم فى أواخر القرن الثالث ، ثم بعد ذلك فى حركة أبى عبد الله الشيعى بالمغرب ، بعيدا عن الشرق الإسلامى ، وهى الحركة التى ترتب عليها قيام الدولة الفاطمية ، التى يحيط الريب بنسبتها الى آل البيت ، والتى تعتبر مع ذلك أعظم ثمرة سياسية للدعوة السرية الشيعية ؛ وقد كان الفضل الأول فى قيامها بالمغرب راجعا الى جهود أبى عبد الله الشيعى ، فهو الذى حارب الأغالبة ، وقضى على دولتهم ، وأتى بالمهدى ليجتنى ثمرة دانية القطوف ، وليتسلم دولة قائمة بالفعل .

ومن ثم فإن حوادث التاريخ تدل دلالة واضحة ، على أن رياسة الأمة الإسلامية ، أو بعبارة أخرى ، أن الإمامة ، قد ذهبت منذ البداية ، إلى مستحقيها من الأكفاء الأقوياء ، وأن العلويين لم يكونوا بصفاتهم الشخصية أو الدنيوية ، قادرين على تولى هذه الزعامة . وقد كانت هذه مشيئة العناية الإلهية أولا ، وثمرة النضال الدنيوى ثانياً . أجل إن ما أورده لنا أبو الفرج الأصفهانى ، مؤرخ محنهم ، فى كتابه « مقاتل الطالبيين » ، من الأخبار والروايات المؤثرة عن مصرع العشرات ، بل المئـــات ، من أبناء على بن أبى طالب ، خلال القرون الثلاثة الأولى من الهجرة ، فى مختلف أنحاء الجزيرة

العربية ، وفى العراق ، وفارس ، وخراسان ، فى عهد الأمويين ، ثم فى عهد العباسيين من بعدهم ، وسقوطهم فوجاً بعد آخر ، بالخنجر أو السم ، أو فى غياهب السجون ، وما فرض على أشخاصهم وحياتهم ، أينما كانوا من صنوف الاضطهاد والرقابة ، والتتبع المستمر : كل هذه الصحف المؤلمة ، تصور لنا قصة الاستشهاد الطويل ، الذى قضى به على آل البيت ، على يد خصومهم السياسيين[١] .

ولا شك أن أرومة آل البيت ، وانتسابهم لبيت النبوة الطاهر ، وسيرهم الزكية العطرة ، وما وقع لهم من هذه المحن المتوالية خلال كفاحهم الطويل فى سبيل قضيتهم ، واستشهاد الكثير منهم على النحو المتقدم ، ولا سيما استشهاد الحسين بن على فى الظروف المؤسية المعروفة ؛ كل ذلك مما يثير أبلغ الإجلال والعطف فى نفوس سائر المسلمين ، السنة والشيعة ؛ ولكنه لا يمكن أن يمحى هذه الحقيقة التاريخية ، وهى أن رياسة الأمة الإسلامية الكبرى ، لم تكن ، وما كانت لتكون قط ، ميراثاً شخصياً لأسرة بعينها ، ولو كان هؤلاء من آل البيت ، وأن هذه الإمامة أو الرياسة ، تذهب فى كل زمان ومكان ، إلى الأكفاء القادرين على الاضطلاع بها .

والواقع أن نظرية الإمامة الشيعية ، حسبما تعرض لنا ، مدعمة بالتأويلات القرآنية ، والأحاديث المروية ، والقول بأنها إرادة الله وإرادة الرسول ، تبدو شبيهة ، بنظرية « حق الملوكية الإلهى » ، التى لبثت عصوراً ، دعامة الملوكية فى أوربا ، والتى تزعم بأن الملوك هم نواب الله فى الأرض ، وأن لهم حق الطاعة على الناس ، ولا يسئلون هم إلا أمام الله . ونحن نعرف كيف كانت هذه النظرية مبعث فورات قوية عنيفة ، ولا سيما فى انجلترا وفرنسا ، وكيف عمد علماء السياسة والاجتماع منذ القرن السابع عشر ، الى نقدها ودحضها ، وكيف أنها أضحت تعتبر اليوم نظرية بالية عتيقة مجردة من كل أساس دينى أو اجتماعى .

---

(١) يراجع ما أورده أبو الفرج فى كتابه المذكور عن « مقاتل الطالبيين » ولا سيما فى عهد المنصور والرشيد والمأمون . وأبو الفرج شيعى النزعة بالرغم من أصله الأموى ومن المؤيدين لآل البيت وقضيتهم ، ولكنه يورد أخباره مجردة من التعليق ، ومستندة إلى رواتها المتعاقبين .

الفصل الثالث

نسب الخلفاء الفاطميين

بين المنكرين والمؤيدين

ما يقوله المنكرون . رواية ابن رزام الكوفى . أقوال عبد القاهر والباقلانى وعبد الجبار البصرى . رواية ابن شداد عن أصل الفاطميين اليهودى . أقوال النسابة ابن حزم الأندلسى . رواية ابن خلكان . أقوال ابن خلدون والمقريزى وابن حجر . روايات الدعاة الاسماعيلية فى تأييد نسب الفاطميين . رواية الحسن ابن نوح . رواية الداعى عماد الدين إدريس . حميد الكرمانى . رواية الداعى جعفر ابن منصور اليمن . صمت القاضى النعمان عن هذا الموضوع . قصة القداح فى الروايات الاسماعيلية . رواية الكرمانى . رواية عماد الدين إدريس . محاولة الأستاذ ايفانوف دحض انتساب الفاطميين الى القداح . قصة القداح كما يصورها ايفانوف . ملاحظات وردود

— ١ —

نعرض بعد ذلك الى تلك المسألة الدقيقة ، مسألة نسب الخلفاء الفاطميين ؛ وأهمية هذه المسألة تبدو واضحة متى ذكرنا ما تقرره نظرية الإمامة الشيعية، حسبما شرحت فيما تقدم ، من أن الإمامة ، أو رياسة الأمة الإسلامية ، هى حق مقدس لآل البيت وعقبهم ، يختصون بها ، وتنحصر فيهم الى يوم القيامة .

وإذاً فلا بد أن يكون الإمام الشرعى ، وفقا لقولهم من عقب آل البيت، وهذه الأرومة هى سنده الجوهرى، ولا عبرة بأية صفات أو مؤهلات قيمة أخرى يتصف بها ؛ وذلك أنه بدون هـذه الأرومة ، يغدو الإمام أفاقا غاصبا .

وهذا ما يدعونا الى أن نتساءل بادئ ذى بدء ، من هم فى الواقع أولئك الفاطميون خلفاء مصر ؟ وهل يرجع أصلهم حقا الى فاطمة وعلى ؟ هذه

مسألة يحيط بها الخفاء والغموض ، ولم يقل فيها التاريخ كلمته الحاسمة ؛ وقد لبثت مدى عصور موضع الخلاف والجدل فى العالم الإسلامى ، والرواية الإسلامية ؛ ففريق من العلماء والمؤرخين يؤيد الفاطميين فى دعواهم وفى شرعية إمامهم ، ويرجع نسبة إمامهم ، ومؤسس دولتهم عبيد الله المهدى الى الحسين بن على وفاطمة بنت الرسول ، وهذا الفريق هو القلة . هذا الى ما تقدم الينا الكتب « الإسماعيلية » من روايات ونصوص مؤيدة لتلك النسبة . ولكن فريقا آخر ينكر عليهم هذه الدعوى ، ويرى أنهم أدعياء لا يمتون بصلة الى على وعقبه ، وأنهم إنما استتروا بالتشيع والإمامة ليكسبوا عطف العالم الإسلامى . وهذا الفريق هو الأغلبية . ويرجع الفريق المنكر نسبة الفاطميين الى عبد الله بن ميمون القداح بن ديصان البونى ، فى أحاديث خلاصتها ، أن عبد الله هذا كان فقيها وافر الذكاء والمعرفة من الأهواز ، يرجع إلى أصل مجوسى ، وداعية من أعظم الدعاة السريين الذين عرفهم التاريخ . وكان يدعو سرا الى مذهب فلسفى إلحادى لإنكار الأديان والنبوة ، صاغه فى تسع مراتب سرية ، ينتهى الداخل فيها ، الى إنكار جميع العقائد والشرائع ، ومن دعوته هذه صيغت دعوة القرامطة ، وبعثت ثورتهم الإباحية المروعة[1] . وكان يستتر بالتشيع ، ويدعو لإمام من آل البيت هو محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، من ولد الحسين بن على ؛ فلما توفى قام بدعوته السرية ولده أحمد ، ومن بعد أحمد ، ولده الحسين ، فأخوه سعيد ؛ واستقر سعيد بسلمية من أعمال حمص ، واستمر فى نشر الدعوة ، وبث الدعاة حتى استفحل أمره وأمر دعوته ؛ وحاول الخليفة المكتفى بالله أن يقبض عليه ، وأن يخمد دعوته ، ففر الى المغرب ، وبشر له هناك دعاته ، وقاتلوا من أجله حتى ظفر بملك الأغالبة ، وتلقب بعبيد الله المهدى ، وادعى أنه من آل البيت ، وانتحل إمامتهم .

وأقدم رواية انتهت الينا عن هذه المسألة ، مسألة نسب الفاطميين ، ورده الى عبد الله بن ميمون ، هى رواية أبى عبد الله محمد بن على بن رزّام الكوفى ؛ وقد وردت فى كتابه الذى يرد فيه على الإسماعيلية ، ونقلها الينا ابن النديم فى كتاب « الفهرست » ، وخلاصتها « أن عبد الله بن ميمون ، ويعرف

---

(١) سنعرض إلى هذا الموضوع بإفاضة فى القسم الثانى من الكتاب .

بالقداح ، كان من أهل قوزح العباس بقرب مدينة الأهواز ، وأبوه ميمون الذى ينسب اليه الفرقة المعروفة بالميمونية ، التى أظهرت أتباع أبى الخطاب محمد بن أبى زينب ، الذى دعا الى الإلاهية على بن أبى طالب ، وكان ميمون وابنه ديصانين . وادعى عبد الله أنه نبى مدة طويلة ، وكان يظهر الشعابيذ ، ويذكر أن الأرض تطوى له ، فيمضى إلى أين أحب فى أقرب مدة ، وكان يخبر بالأحداث الكائنات فى البلدان الشاسعة ، وكان له مرتبون فى مواضع يرغبهم ، ويحسن اليهم ، ويعاونونه على نواميسه . وكان انتقل فنزل « عسكر مكرم » ، فكبس بها ، فهرب منها ، وصار الى البصرة ، فنزل على قوم من أولاد عقيل بن أبى طالب ، فكبس هناك ، فهرب الى سلمية بقرب حمص ، واشترى هناك ضياعا ، وبث الدعاة الى سواد الكوفة ، فأجابه من هذا الموضع رجل يعرف بحمدان بن الأشعث ويلقب بقرمط ، وكان داهية ، فنصب لدعوته عبدان صاحب الكتب المصنفة ؛ وفرق عبدان الدعاة فى سواد الكوفة ، فأقام قرمط بكلواذى ، ونصب له عبد الله بن ميمون رجلا من ولده ، يكاتبه من الطالقان ، وذلك فى سنة إحدى وستين ومائتين . ثم مات عبد الله ، فخلفه ابنه محمد بن عبد الله ، ثم مات محمد ، فاختلف دعاتهم وأهل محلتهم ، فزعم بعضهم أن أخاه أحمد بن عبد الله خلفه ، وزعم آخرون أن الذى خلفه ولد له يسمى أحمد أيضا ، ويلقب بأبى الشلعلع . ثم قام بالدعوة بعد ذلك سعيد بن الحسين بن عبد الله بن ميمون ، وكان الحسين مات فى حياة أبيه . ولم يزل عبد الله وولده ، يدعون أنهم من ولد عقيل ، وكانوا قد أحكموا النسب بالبصرة ، فمن ولد عبد الله انتشرت الدعوة فى الأرض ، وقدم الدعاة الى الرىّ وطبرستان وخراسان واليمن والإحساء والقطيف وقدس . ثم خرج سعيد الى مصر ، فادعى أنه علوى فاطمى ، وتسمى بعبيد الله ، وعاشر هناك النوشرى ، ووجوه أصحاب السلطان ، وتخوق فى الاموال ، وبلغ خبره المعتضد ، فكتب فى القبض عليه ، فهرب إلى المغرب ، وقد كانت دعاته هناك قد غلبت على طائفتين من البربر ووطأ لنفسه ذلك البلد . ثم نظر أن ما ادعاه من نسبه لا يقبل منه ، فأظهر غلاما حدثا ، وزعم أنه من ولد محمد بن إسماعيل ، وهو القائم بالأمر بعد عبيد الله . . . » . ويشير ابن رزّام

بعد ذلك الى ثورة أبي يزيد البربرى الخارجي على القائم ، وحصاره للمهدية ، ووفاته أثناء الحصار ، ثم قيام ابنه معد أبي تميم (المعز) من بعده ، ووفاته بمصر ، ثم قيام العزيز[1] .

وينقل الينا ابن النديم بعد ذلك أقوالا أخرى ، عن جهود الدعاة من بنى القداح ، فى خراسان وطبرستان وأذربيجان ، ومن ذلك أن منهم من كان يتعصب للمجوس ودولتهم ، ويجتهد لردها فى أوقات ، منها بالمجاهرة ، ومنها بالحيلة سرا ، وانهم « أحدثوا لذلك فى الاسلام حوادث منكرة » ؛ وقد قيل أن أبا مسلم هو صاحب هذه الدعوة ، وأنه كان يعمل لتحقيقها ، ولكنه توفى دون ذلك[2] .

ويجب أن نلاحظ أولا أن ابن رزّام كتب روايته ، فيما يبدو فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، أيام الخليفة العزيز بالله ، (٣٦٥ — ٣٨٦ هـ) ، الذى تقف هذه الرواية عند ذكره ، وأن ابن النديم الذى نقل هذه الرواية ، كان معاصراً لابن رزّام ، إذ كتب كتابه كذلك فى أواخر القرن الرابع الهجرى[3] ؛ كما يجب أن نلاحظ أن هذه الفترة بالذات تمتاز بحادثين هامين ، هما توطد قوى الدولة الفاطمية بمصر ، واتساع حركة القرامطة ، وانسيابها نحو الشام ، وتهديدها لمصر ، وأنها تمتاز فى الوقت نفسه ، باضطرام الجدل حول نسب الفاطميين ، وهو الجدل الذى اتخذ منه بنو العباس ، بعد ذلك بقليل ، مادة خصبة للطعن فى نسب الفاطميين ، وفى شرعية إمامتهم .

وهذه أقدم رواية تاريخية فيما يبدو ، يُنكر فيها نسب الفاطميين إلى آل البيت ، ويرد إلى ميمون القداح . ويعتقد الأستاذ إيڤانوف أن رواية ابن رزام كانت مستقى لكل ما كتب بعد ذلك فى الطعن على نسب الفاطميين[4] .

---

(١) كتاب « الفهرست » لابن النديم (القاهرة ١٣٤٨ هـ) ص ٢٦٤ — ٢٦٦ . وقد نقل ابن النديم رواية ابن رزام هذه عن أصل الفاطميين وأصل دعوتهم مع التحفظ فى قوله : « وأنا أبرأ من العهدة فى الصدق عنه ، والكذب فيه » . وربما كان سر هذا التحفظ أن ابن النديم ، كان شيعيا ، حسبما يروى لنا ذلك ياقوت فى ترجمته فى « معجم الأدباء » .

(٢) كتاب الفهرست ص ٢٦٦ و ٢٦٧ .

(٣) كتب ابن النديم كتابه حسبما يذكر لنا فى مقدمته فى سنة ٣٧٧ هـ (كتاب الفهرست ص ٢) .

(٤) راجع Ivanow : The Alleged Founder of Ismailism p. 3 .

بيد أنه توجد روايات بفكرة أخرى، تختلف فى جوهرها عما كتبه ابن رزام ؛ ومن ذلك ما كتبه الشريف العابد المعروف بأخى محسن ، وقد عاش فى أواخر القرن الرابع فى الطعن فى نسب الخلفاء الفاطمين[١]. ومنها ما كتبه عبد القاهر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) ، لمناسبة حديثه عن دعوة الباطنية ، فهو يقدم الينا ميمون بن ديصان القداح ، باعتباره من مؤسسى هذه الدعوة ، ويقول لنا إنه كان مجوسياً من سبى الأهواز ، وكان مولى لجعفر الصادق ، وإنه رحل الى ناحية المغرب (أى فى اتجاه الشأم) ، وانتسب فى تلك الناحية الى عقيل بن أبى طالب ، وزعم أنه من نسله ، ثم ادعى أنه من ولد محمد ابن إسماعيل بن جعفر الصادق ، ثم دخل فى دعوته إلى دين الباطنية ، رجل من سواد الكوفة ، هو حمدان قرمط الذى تنسب اليه القرامطة ، ثم لما تمادت الأيام بهم ، ظهر المعروف منهم بسعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله ابن ميمون بن ديصان القداح ، فغير اسمه ، ولقبه ، وزعم أنه عبيد الله بن الحسن بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق . ثم ظهرت فتنته بالمغرب ، واستولى أولاده على مصر[٢] .

وهناك روايات صريحة فى أصل الفاطميين المجوسى أو اليهودى ؛ فمثلا يقول لنا القاضى أبو بكر الباقلانى ، المتوفى سنة ٤٠٣ هـ « ان القداح جد عبيد الله كان مجوسياً ، ودخل عبيد الله المغرب ، وادعى أنه علوى ، ولم يعرفه أحد من علماء النسب ؛ وكان باطنياً خبيثاً ، حريصاً على إزالة ملة الإسلام ... وكان القداح كاذباً مخترقاً ، وهو أصل دعاة القرامطة » .

وأما عن نسبة المهدى إلى اليهودية ، فيقول لنا القاضى عبد الجبار البصرى ، ان اسم جد الخلفاء المصريين سعيد ، ويلقب بالمهدى ، وكان أبوه يهودياً حداداً بسلمية ، ثم زعم سعيد هذا ، أنه ابن الحسين بن أحمد ابن عبد الله بن ميمون القداح . ويزعم أهل الدعوة أن سعيداً هذا إنما هو من امرأة الحسين المذكور ، وأن الحسين رباه ، وعلمه أسرار الدعوة ، فلما دخل المغرب ، وأخذ سجلماسة ، تسمى بعبيد الله ، وسمى ابنه الحسن ، وكناه أبا القاسم[٣] .

---

(١) كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ و ٢٦٧ و ٢٧٥ و ٢٧٧ .

(٢) راجع اتعاظ الحنفاء (القاهرة) ص ٢٥ .

(٣) راجع النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ج ٤ ص ٧٥و٧٦ .

ويفصل لنا الأمير عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس صاحب تاريخ إفريقية والمغرب هذه الرواية، فيقول لنا إن ميمون بن ديصان، ويكنى أبا شاكر، كان من أعداء الإسلام، الذين حاولوا الطعن عليه، وإفساد صحيحه بالتأويل، والأحاديث الكاذبة، وإن له كتاباً يسمى « الميزان فى نصرة الزندقة » . وكان هؤلاء يظهرون التشيع لآل البيت، ليستروا دعوتهم الإلحادية الإباحية . ثم نشأ لميمون ولد هو عبد الله، وكان مثله بارعاً فى الشعوذة، والتنجيم والكمياء . وكان بنواحى كرخ وإصبهان؛ رجل يعرف بمحمد بن الحسين، ويلقب بدندان، وله هنالك نفوذ عظيم، وكان يبغض العرب ويجمع مساويهم، فاتصل به عبد الله، وسيره إلى الأهواز والبصرة والكوفة، ليعمل على بث الدعوة ونشرها . فلما توفى عبد الله قام من بعده ولده أحمد، ثم توفى وخلفه ولده محمد، وكان هو الذى يكاتبه الدعاة فى البلاد . ولما توفى محمد خلفه أحمد والحسين . فسار الحسين إلى سلمية من أعمال حمص، وله هناك أموال وودائع ووكلاء وغلمان تركها جده عبد الله القداح؛ وكان الحسين يدعى أنه الوصى، وصاحب الأمر، والدعاة باليمن والمغرب يكاتبونه . ووصفت له امرأة يهودية رائعة الحسن، توفى عنها زوجها الحداد اليهودى، فأحبها وتزوجها؛ وكان لها من زوجها الحداد، ولد يماثلها فى الحسن، فأحبه وعلمه وأدبه، فنشأ غزير العلم والمعرفة، كبير النفس والهمة؛ وهنا يروى أن الحسين مات دون عقب . وعهد اليه قبل موته بالدعوة، وعرفه أسرارها، وأعطاه الأموال والعلامات، وتقدم الى أصحابه بطاعته وخدمته، وأنه الإمام والوصى، فكان هو عبيد الله المهدى . وانتحل عبيد الله لنفسه نسباً فى آل البيت، فسمى نفسه عبيد الله ابن الحسن بن على بن محمد بن على بن موسى بن جعفر الصادق . وهنا يبدى ابن الأثير، وهو الذى ينقل الينا هذه الرواية، ريبه فى صحتها، ويقول لنا « إن هذه الأقوال فيها ما فيها، فياليت شعرى، ما الذى حمل أبا عبد الله الشيعى وغيره ممن قام فى إظهار هذه الدعوة، حتى يخرجوا هذا الأمر من أنفسهم، ويسلموه إلى ولد يهودى، وهل يسامح نفسه بهذا الأمر من يعتقده

ديناً يثاب عليه ؟ »[١] . ونحن نشاطر المؤرخ العظيم ريبه وتساؤله ، ونرى فى هذه الرواية مبالغة وإغراقاً .

وينقل الينا ياقوت الحموى فى معجمه الجغرافى ملخص هذه الرواية بمناسبة حديثه عن مدينة المهدية التى أسسها المهدى ، فيقول « واختلف فى نسبه ، فأكثر أهل السير الذين لم يدخلوا فى رعيتهم ، وبعض رعيتهم الذين كانوا يخفون أمرهم ، يزعمون أنه كان ابن يهودى من أهل سلمية الشأم ؛ وتزوج القداح ، الذى كان أصل هذه الدعوة بأمه ، فرباه الى أن حضرته الوفاة ، ولم يكن له ولد ، فعهد اليه وعلمه الدعوة ، وكان اسمه سعيدا ، فلما صار الأمر اليه ، سمى نفسه عبيد الله . وقال قوم قليلون إنه ولد القداح نفسه فى قصص طويلة ، وقال من صحح نسبه ، إنه أحمد بن اسماعيل الثانى بن محمد بن اسماعيل الكبير بن جعفر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب » .

ويبدى الفيلسوف النسابة الأندلسى الكبير ابن حزم ريبه فى نسبة الفاطميين الى آل البيت ، ويذكر لنا أن المهدى ، ادعى أنه من ولد جعفر ابن محمد بن اسماعيل ، وادعى مرة أخرى أنه من ولد الحسين بن محمد بن اسماعيل ، ثم يقول : « وكل هذه دعوى مفتضحة ، لأن محمد بن إسماعيل ابن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين ، وهذا كذب فاحش ، ولأن مثل هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ، ولا يجهل أهله إلا جاهل »[٢] .

ويبدى مثل هذا الريب فى نسبة الفاطميين العلامة المؤرخ ابن خلكان إذ يقول لنا فى ترجمته لعبيد الله المهدى « إن أهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون دعواه فى النسب »[٣] .

ومعظم الروايات المصرية المتأخرة (ويلاحظ أن التواريخ المصرية فى العهد الفاطمى تلزم الصمت إزاء هذه المسألة) وفى مقدمتها رواية النويرى وابن حجر ، تميل الى الشك فى نسب الفاطميين ، ولكن المقريزى يحاول تأييده والدفاع عنه ، وكذا يحاول ابن خلدون إثبات صحته.

---

(١) تاريخ ابن الأثير (مصر) ج ٨ ص ٩ و ١٢ فى حوادث سنة ٢٩٦ ﻫ . وكذلك المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (القاهرة) ص ٤٧ وما بعدها .

(٢) جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم (القاهرة) ص ٥٤ .

(٣) راجع الوفيات ج ٢ ص ٣٤٢ .

ويعتبر ابن خلدون الطعن فى نسب الخلفاء الفاطميين من « الأخبار الواهية » ، وأن الطاعنين يعتمدون فى ذلك على أحاديث لفقت للمستضعفين من خلفاء بنى العباس تزلفا اليهم بالقدح فيمن ناصبهم ، ثم يستعرض قصة فرار المهدى وولده الى المغرب وما كان بعد ذلك من ظهور دعوة الشيعة بالمغرب وإفريقية ، ثم باليمن ومصر والشأم والحجاز ، وكونهم قاسموا بنى العباس فى ممالك الإسلام ، وكادوا يلجون عليهم مواطنهم ؛ يقول : « وكيف يقع هذا كله لدعى فى النسب ، يكذب فى انتحال الأمر » ثم ينعى على القاضى أبى بكر الباقلانى طعنه على الفاطميين ، ويقول : « فإن كان ذلك لما كانوا عليه من الإلحاد فى الدين ، والتعمق فى الرافضة ، فليس ذلك بدافع فى صد دعوتهم ، وليس إثبات منتسبهم بالذى يغنى عنهم من الله شيئاً فى كفرهم » ثم يقول : إن إجماع الأكابر والفقهاء أيام الخليفه القادر على الطعن فى نسب الفاطميين ، إنما كان مؤسسا على السماع ، لما اشتهر وعرف بين الناس ببغداد ، وغالبها شيعة بنى العباس الطاعنون فى هذا النسب . فنقله الإخباريون كما سمعوه ورووه حسبما وعوه ، والحق من ورائه ؛ وأخيراً فإن كتاب الخليفة المعتضد الى ابن الأغلب بالقيروان ، وابن مدرار بسجلماسة فى شأن عبيد الله المهدى ، أصدق شاهد ، وأوضح دليل على صحة نسبهم[1] .

وتدليل ابن خلدون ، هنا ، بكون الدعى لاتقوم له قائمة ، تدليل سقيم واه ، كتدليله فى دحض قصة العباسة أخت الرشيد ، مع جعفر بن يحيى البرمكى ، بشرف بيتها ، وجلال نسبها . وقد فسر الحافظ ابن حجر ، وهو من المنكرين لنسب الفاطميين كما تقدم ، حماسة ابن خلدون فى تأييد نسب الفاطميين ، بتفسير خاص ، هو أنه لانحرافه عن آل البيت ، يثبت نسب الفاطميين إليهم ، ليكون ذلك معرة لهم ، لما اشتهر عن الفاطميين من سوء العقيدة ، وكون بعضهم ينسب الى الإلحاد والزندقة ، وربما كان فى إشارة ابن خلدون المتقدمة الى إلحاد الفاطميين ، ما يؤيد هذا التفسير[2] .

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة (بولاق) ص ١٧ — ١٩ .

(٢) ابن حجر فى « رفع الإصر عن قضاة مصر » مخطوط دار الكتب الورقة ١٦٠ . ونقله السخاوى فى « الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ » ص ٩٤ .

ويقدم الينا المقريزى سلسلة أبناء أمير المؤمنين على بن أبى طالب حتى يصل بفرع جعفر الصادق الى المهدى عبيد الله الفاطمى ، ويقول لنا إنه هو عبيد الله بن محمد بن جعفر المصدق بن محمد المكتوم بن اسماعيل الإمام بن جعفر الصادق . ثم يورد لنا مختلف الروايات الطاعنة فى نسب الفاطميين ، وما ذكره ابن خلدون فى تفنيدها ، ثم يعلق على ذلك بقوله « إن الله تعالى ، لا يمد الكذاب المفتعل بما يكون سبباً لانحراف الناس اليه ، وطاعتهم له على كذبه » ، وأن الافتراء على الله فى دعوى استحقاق الخلافة النبوية على الأمة ، من أعظم الجنايات وأكبر الكبائر ، فلا يليق بحكمة الله تعالى ، أن يظهر من تعاطى ذلك ، واجترأ عليه ، ثم يمده بظهوره فى معونته ، ويؤيده بنصره ، وأنه تعالى إذا رأى الكذاب يستظهر بالمحافظة على التنمس بالباطل ، ويتوصل الى إقامة دعوته بالكذب ، ويخيلها بالزور ، فى ادعائه نسبا الى رسول الله ، فإنه يحول بينه وبين همه بذلك ، ويسلبه الأسباب التى يتمكن بها من الاحتراز ، ويعرضه لما يوقعه فى المهالك ، ثم يقول : « فلما لم يفعل ذلك بعبيد الله المهدى ، بل كتب له النصر على من ناوأه ، حتى مكن له فى الأرض ، وجعله وبنيه من بعده أئمة ، وأورثهم أكثر البسيطة ، ونصرهم على عدوهم أى نصر ، تبين أن دعواهم الانتساب الى رسول الله صحيحة ، وهذا دليل يجب التسليم به » . ومن الواضح أن المقريزى متأثر فى هذا التدليل بتدليل شيخه وأستاذه ابن خلدون[1] .

وهذا الجدل حول نسب الفاطميين ، والطعن فى أصولهم ، وشرعية إمامتهم ومبادئهم ، يشغل فراغا كبيرا فى الكتب المذهبية . وكان هذا الطعن سلاحا فى يد الدولة العباسية ، تشهره للنيل من الفاطميين ، وتشويه سمعتهم فى العالم الإسلامى . وقد اتخذ قبل بعيد صبغة سياسية رسمية . ففى سنة ٤٠٢هـ (١٠١٢م) فى عهد الخليفة القادر بالله ، أصدر بلاط بغداد محضرا رسميا موقعا عليه من أكابر الفقهاء والقضاة ، وبعض زعماء الشيعة ، يتضمن الطعن فى نسب الفاطميين خلفاء مصر ، وأنهم ليسوا من آل البيت ، بل هم ديصانية ينتسبون الى ميمون ابن ديصان ، بل انهم كفار زنادقة ، وفساق ملاحدة ، أباحوا الفروج ،

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء ص ٢٥ – ٧٢ . والخطط ج ٢ ص ١٥٨ – ١٦٠ .

وأحلوا الخمور ، وسبوا الأنبياء وادعوا الربوبية . وفى سنة ٤٤٤ هـ (١٠٥٢ م) كتب ببغداد محضر آخر ، يتضمن نفس المطاعن ، وزيد فيه أن الفاطميين يرجعون الى أصل يهودى أو مجوسى . ونلاحظ أن الوثيقة الأولى صدرت من بلاط بغداد فى عهد الحاكم بأمر الله ، وقد كان فى تصرفاته ، وظروف عصره ، ما يصلح مادة غزيرة لأمثال هذه المطاعن .

وان هذه الوثائق العباسية بالرغم مما يشوبها من كدر الخصومة السياسية ، من خلافة كانت تشعر بخطر الخلافة الشيعية الجديدة على سلطانها الروحى والزمنى ، فإنها مع ذلك تحمل من التوقيعات أسماء لها مكانتها الرفيعة من العلم والدين ، مثل القاضى أبى بكر الباقلانى ، وأبى حامد الاسفراينى ، وأبى الحسين القدورى ، والأبيوردى وغيرهم . ومن ثم فإنها تجعلنا نشعر أنها لم تكن فقط مزاعم بلاط موتور ، وإنما هى فوق ذلك وثائق لها قيمتها التاريخية فيما ذهبت إليه[١] .

— ٢ —

وقد بدأنا بروايات المنكرين لنسبة الفاطميين إلى آل البيت ، لأنها هى الرواية التاريخية الغالبة على كر العصور ، والتى ينهض على رجحانها كثير من الأدلة والقرائن المعقولة ، وهى التى يؤيدها كذلك النقد الحديث . بيد أنه قد بذلت فى العهد الأخير محاولات عديدة لإثبات هذه النسبة الفاطمية النبوية ، ونشرت حول ذلك نصوص ومؤلفات إسماعيلية عديدة ، لابد من استعراضها ومناقشتها[٢] .

ومن المعروف أن الفاطميين يرجعون نسبهم إلى آل البيت عن طريق إسماعيل بن جعفر الصادق ، ومن ثم فقد غلب عليهم اسم « الإسماعيلية » ؛ وجعفر الصادق هو الإمام الخامس لجده الحسين بن على ، وابنه إسماعيل هو الإمام السادس . ومن بعد إسماعيل يحيق الغموض بنسب الفاطميين ، وتسلسل إمامتهم . فهنالك من بعد إسماعيل ، حتى ظهور عبيد الله المهدى ،

(١) تراجع هـذه المحاضر الطاعنة فى أبى الفدا ج ١ ص ١٤٣ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٢٠٥ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٩ .

(٢) أشرنا فى المقدمة إلى الدور البارز الذى تقوم به الجمعية الإسماعيلية بالهند فى هذا الميدان.

فترة يطلق عليها « عهد الاستتار » أو « عهد الأئمة المستورين » وهم الذين التزموا الخفاء والتستر ، اتقاء المطاردة والغيلة ، وحتى تحين فرصة الظهور والعلانية ، وهذه الفترة هى مثار الجدل والريب .

فمن هم أولئك الأئمة ؟ وماذا كانت علاقتهم بعبد الله بن ميمون ؟ أو ماذا كانت علاقته بهم ؟ إن المصادر الإسماعيلية ، تقدم الينا عدة روايات تحاول كل منها أن تحل لغز الائمة المستورين ، وأن تصل ما انقطع من ذكر الأئمة ، حتى تستقيم النسبة الفاطمية ، وحتى يتصل الأئمة الخلفاء ، بأسلافهم المستورين . واليك بعض ما تورده هذه الروايات .

يقدم الينا الحسن بن نوح الإسماعيلى الهندى المتوفى سنة ٩٣٩ هـ فى كتابه « الأزهار » شرحا هذا خلاصته :

إن الامام الخامس ، هو جعفر الصادق ، وقد توفى سنة ١٤٨ هـ (٧٦٥ م) ، فى الثامنة والستين من عمره ، ودفن بالبقيع بالمدينة الى جانب أبيه وجده .

وان الامام السادس ، هو ولده اسماعيل بن جعفر الملقب بالوفى ، وقد مات فى حياة أبيه ، ولكن بعد اختياره إماما . وقد أوصى بالإمامة لولده محمد بن إسماعيل بموافقة والده جعفر ؛ وأفضى الإمام جعفر بهذه الحقيقة ، الى زعماء الطائفة الشيعية دون غيرهم ، خوفا على حياة خلفه ، وتمسكا بسياسة الاستتار .

فالإمام السابع هو أبو عبد الله محمد بن إسماعيل الملقب بالشاكر . وقد أوصى بالإمامة من بعده لولده عبد الله بن محمد ، وقبره بمدينة فرغانة .

وولده عبد الله بن محمد بن اسماعيل ، هو أول الأئمة الذين يسمون بالخلفاء . وقد توفى بسلمية ، ودفن هناك ، ثم نقل رفاته الى القاهرة فيما بعد .

والثانى هو ولده أحمد بن عبد الله ابو الحسين الملقب بالتقى ، وقد توفى بسلمية ، ونقل رفاته كذلك الى القاهرة .

والثالث الحسين بن أحمد ، أبو عبد الله الملقب بالزكى ، وقد توفى ببلدة عسكر مكرم بخوزستان ، وأخفى مكان قبره .

والرابع هو عبد الله بن الحسين ، أبو محمد الملقب بالمهدى بالله ؛ أمير المؤمنين ، وهو أول أئمة الظهور ، أو بعبارة أخرى عهد السلطة الزمنية ،

أو « فجر النور » ، وقد ولد فى عسكر مكرم بخوزستان فى شوال سنة ٢٦٠ هـ (يوليه سنة ٨٧٤ م) ، أو على رواية أخرى فى سنة ٢٥٩ هـ .

وقد عاد به والده الى سلمية ، وعهد به الى عمه أبى على الحاكم الملقب بسعد الخير ، فقام على تربيته . وتوفى والده ، وهو فى الثامنة من عمره ، ولما بلغ أشده ، زوجه عمه أبو على الحاكم بابنته ، ورزق من هذا الزواج بولده أبى القاسم القائم بأمر الله ؛ وقد ذاعت دعوته فى اليمن والمغرب ، ولم يكن أحد يعرف اسمه أو مكان وجوده . وكانت وفاته بالمهدية فى ليلة الثلاثاء منتصف ربيع الأول سنة ٣٢٢ هـ ، فى الحادية والستين وبضعة أشهر[(١)] .

وخامسهم هو الإمام محمد بن عبد الله ، أبو القاسم الملقب بالقائم بأمر الله (وهو ثانى الخلفاء الفاطميين) . وكان مولده ، وفقا لابن خلكان ، فى سنة ٢٧٧ ، أو ٢٨٠ أو ٢٨٢ هـ[(٢)] .

وثمة رواية أخرى يقدمها الينا الداعى الإسماعيلى اليمنى عماد الدين إدريس ، مؤرخ الدعوة الإسماعيلية ، المتوفى سنة ٨٧٢ هـ ، فى كتابه « عيون الأخبار » ، هذه خلاصتها :

إن الإمامة آلت الى الإمام الراضى عبد الله بن محمد بن اسماعيل بعد وفاة أبيه ، فعاد الى نهاوند ، حيث تزوج ، ورزق بابنه على بن عبد الله الملقب بالليث .

وقد جد العباسيون فى مطاردته ، فاضطر الى الاختفاء ، وترك ابنه خلفا له ، واختفى فى الديلم مع نفر من دعاته الأخصاء ، وهنالك ولد له ولد آخر هو أحمد . وبعد أحداث ومحن جمة ، انتقل الإمام مع ولده أحمد الى سامرا ، حيث أقام حينا ، وكتب الى دعاته يخبرهم بسلامته ، ثم سافر الى الشأم متنكرا فى صفة تاجر ، واستقر أخيرا بسلمية ، وأخفى اسمه واسم ولده .

وتوفى الإمام بسلمية ، واستخلف فى الإمامة ولده أحمد ، وأرسل أحمد دعاته الى مختلف الأقطار يدعون الى إمامته ، ولكن مع الحرص على إخفاء

---

(١) نقل إلينا هـذه الرواية الأستاذ ايڤانوف (W. Ivanow) فى كتابه : Ismaili Tradition concerning the Rise of the Fatimids (1912) p. 29—32.

(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥ .

اسمه ومقره . وأنجب ولده حسين ، وهو أكبر أولاده ، وقد خلفه بعد وفاته . ويزعم الداعى إدريس أن الإمام أحمد هذا ، هو مؤلف كتاب « إخوان الصفا » ، وأنه وضعه ليرد فيه على الضلالات والبدع التى انتشرت فى عصر المأمون .

وخلفه فى الإمامة ولده الحسين الملقب بالزكى ، فنظم الدعوة ونشرها ، وبث دعاته فى كل مكان ، وذاعت دعوته ذيوعاً عظيما ، وأخذت تبدو العلامات المبشرة بقرب ظهور المهدى ، وكان الدعاة يعدون الناس بالفرج والسعود تحت راية الإسلام .

وجد العباسيون فى ظله ، ولكنهم أخفقوا فى العثور بأثره ، إذ حرص الدعاة على إخفاء اسمه ، ومقر وجوده ، ولم يكشفوهما إلا لأخلص أنصاره .

وسار الإمام الى الكوفة ، حاجاً لقبور آبائه على والحسين ، وهنالك التقى بأبى القاسم الحسين بن فرج بن حوشب ، الذى غدا فيما بعد داعية اليمن الكبير ، وفاتحه .

واستمر الإمام مقيما بسلمية ، مدعياً أنه من أعيان بنى هاشم ، والأموال تنهمر عليه من كل ناحية من دعاته . ولما شعر بدنو أجله ، عهد بالوصاية على ولده « المهدى » ، وهو يومئذ طفل ، إلى أخيه محمد بن أحمد الملقب بسعد الخير ، وحاول الوصى أن ينزع الإمامة من « المهدى » ، وأن يسبغها على أحد أولاده ، ولكنهم ماتوا تباعاً .

وفى تلك الأثناء ، قيض النصر لأبى القاسم بن حوشب فى اليمن ، وبعث الى الكعبة بكسوة عليها اسم المهدى بالله .

وقد سافر الإمام الحسين إلى عسكر مكرم قبل قيام ثورة القرامطة ، وغادر مكانه وصحبه سراً ، خوفاً من بطش العباسيين . وهنالك توفى ودفن بها ، ومات أخوه سعد الخير فى سلمية . وهكذا آل الأمر فى النهاية إلى « المهدى »[1] .

---

(١) نقل إلينا الأستاذ ايڤانوف هــذه الرواية فى كتابه السالف الذكر Rise of thie Fatimids (ص ٣٣ – ٣٨) . ويشير الأستاذ ايڤانوف الى مؤلف الداعى إدريس هذا وهو « عيون الأخبار » بأنه على الرغم من ضخامته (إذ هو فى سبعة أجزاء) مؤلف ضعيف ، يبدو فيه ضيق ذهن مؤلفه ، وليست له قيمة علمية أو تاريخية تذكر (ص ١٤) .

ويقول لنا داعية إسماعيلى آخر ، هو الخطاب المتوفى سنة ٥٣٣ هـ ، فى كتابه « غاية المواليد » أن محمد بن إسماعيل ، كان من أئمة عهد الستر ، وقد أقيم عليه « الستر » منذ طفولته ، وأن سلسلة الأئمة من بعده تجرى على النحو الآتى : محمد بن إسماعيل ، فولده عبد الله ، فولده أحمد ، فولده الحسين ، فولده على .

وأن هذا الإمام الأخير ، وهو على بن الحسين ، هو الذى أرسل الدعاة ، ومنهم الحسين بن فرج بن حوشب ، أرسله إلى اليمن ، وهو المعروف بالمنصور أو منصور اليمن لظفره بافتتاحها . ويشير إليه المؤلف بقوله : « وكان بمثابة الفجر المتنفس ، وبه كشف الله ، عز وجل ، عن الأولياء الغمة ، وأنار حنادس الظلمة » . ثم يقول لنا ، إن أبا عبد الله صاحب الدعوة بالمغرب ، اتصل به عن أمر الإمام (على بن الحسين) ، وأقام عنده فى اليمن ، وشهد وقائع كثيرة . ثم بعثه الإمام إلى المغرب . ولما نجحت الدعوة فى اليمن والمغرب ، سار الإمام يريد المغرب ، وأظهر الغيبة خلال الطريق ، أى لجأ الى الاستتار ، واستخلف « حجته » سعيداً الملقب بالمهدى ، فوطد دعائم الدعوة . ولما توفى خلفه فى الإمامة ولده محمد بن على القائم بأمر الله ؛ وجرت الإمامة بعد ذلك فى عقبه ، حتى انتهت الى « الإمام المنصور أبى على الآمر بأحكام الله (٤٩٥ — ٥٢٤ هـ) ، وهو الخليفة الفاطمى ، الذى كتب المؤلف كتابه فى عصره[١] .

ويؤيد هذه الرواية المتقدمة عن سلسلة الأئمة المستورين ، داعية من المتقدمين ، هو حميد الدين الكرمانى ، وهو من أكابر فقهاء الإسماعيلية ودعاتهم ، وقد كان داعية الحاكم بأمر الله فى العراق وفارس ، فيقول لنا فى إحدى رسائله « تنبيه الهادى والمستهدى » فى حديثه عن نسبة الحاكم بأمر الله ، إن الأئمة المستورين هم عبد الله ، فأحمد ، فالحسين[٢] .

بيد أن هنالك رواية ذات طابع خاص ، وتختلف عن الروايات المتقدمة ،

---

(١) راجع ص ٣٦ و ٣٧ من النصوص العربية الإسماعيلية التى أوردها الأستاذ إيفانوف فى الكتاب المشار إليه .

(٢) كتاب الأستاذ إيفانوف السالف الذكر ص ٤٦ .

هى رواية الداعى جعفر بن منصور اليمن ، وهى عبارة عن ملخص أو مضمون رسالة ، يقول جعفر المذكور إنه تلقاها من المهدى ذاته ، بعد نزوله بمدينة المهدية ، وقد أوردها فى كتابه « الفرائض وحدود الدين » . وخلاصة ما جاء فيها ، هو أنه لما اشتدت المحنة على آل البيت ، أيام جعفر الصادق ، تقرر كتمان اسم الإمام من ولده « تقية عليه » أى حرصاً وحفظاً له ، فلم يطلع عليه إلا أوثق الدعاة من شيعته .

ولما توفى الصادق عن أولاده الأربعة ، موسى وإسماعيل ومحمد وعبد الله ، كان صاحب الحق فى الإمامة هو عبد الله ، ولم يكن يعرف أحد مقامه سوى الثقاة . وخاف الأئمة من أولاد جعفر من نفاق المنافقين ، فتسموا بغير أسمائهم ، وكان منها مبارك ، وميمون ، وسعيد ، وذلك للفأل الحسن فى هذه الأسماء .

وتسمى عبد الله بإسماعيل ، وزعم البعض أن المهدى إنما هو محمد بن اسماعيل ، وهما شخصان لا وجود لها . ذلك أن الإمام كان يتسمى بمحمد ، والإشارة فى الدعوة الى محمد بن اسماعيل ، والمقصود بإسماعيل هو عبدالله .

فكان الإمام أولا ، عبد الله بن جعفر ، فمحمد بن عبد الله ، فعبد الله ابن محمد ، فأحمد بن عبد الله ، ثم محمد بن أحمد ، وكل هؤلاء تسموا بمحمد خلا عبد الله بن جعفر ، فإنه تسمى بإسماعيل .

وأوصى محمد بن أحمد الى ابن أخيه ، وفوض اليه أمره كله ، وتسمى سعيد بن الحسين . فلما ظهر أظهر مقامه ، وأظهر اسم عبد الله ، وظهر معه أبو القاسم واسمه محمد ، فصحت الإشارة الى القائم بن المهدى ، محمد بن عبد الله أبى القاسم .

ويقول لنا الداعى جعفر ، إن الإمام المهدى ، كتب اليه بنسبته على النحو الآتى :

على بن الحسين بن أحمد بن عبد الله الثانى ، بن محمد بن عبد الله بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على ، وان اسمه الظاهر هو عبد الله ابن محمد ، وهو فى الباطن ابن محمد بن أحمد .

ويستخلص من ذلك ، أن محمدا هو محمد بن اسماعيل (وهو محمد بن عبد الله) ، وربما لقب بميمون ؛ وذلك أن ولده عبد الله هو عبد الله بن

ميمون ، وولده عبد الله هو أحمد ، وهو محمد ؛ وولده أحمد هو محمد . وقد خلف أحمد ، الحسين ، ثم سعيد الذى هو عبد الله المهدى ، أو على ابن الحسين ، حسبما أورده الداعى[1] .

وبالرغم من أن هذه الرواية لا تختلف فى جوهرها فى إيراد الأئمة المستورين ، عن الروايات الأخرى ، فإنها تستحق بين روايات الدعاة عناية خاصة ، أولا لأنها من أقدم الروايات ، إن لم تكن أقدمها جميعا ، حيث يذكر الداعى جعفر أنه تلقاها من المهدى بعد نزوله بالمهدية ، وقد كان ذلك فى سنة ٣٠٨ هـ (٩٢١ م) ، وثانيا لأنه قد وردت بها إشارة واضحة الى تلقب بعض الأئمة بالمبارك والميمون ، وهو ما يتصل اتصالا وثيقا بقصة عبد الله بن ميمون .

وقد انتهت الينا للقاضى النعمان القيروانى المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، وهو من أعظم دعاة الشيعة الإسماعيلية ، إن لم يكن أعظمهم جميعا ، عدة مصنفات تعتبر من أجل الكتب الإسماعيلية ، وفى مقدمتها كتاب « دعائم الإسلام » ، وهو حسبما أشرنا فيما تقدم ، أقيم متن للفقه الشيعى ، وكتاب « شرح الأخبار » ، وفيه استعراض للأحاديث التى تؤيد إمامة آل البيت ، وكتاب « افتتاح الدعوة » ، وفيه ملخص لتاريخ ظهور المهدى ، وكتاب « الهمة فى آداب أتباع الأئمة » ، وفيه يتناول مسألة الإمامة ، والدعوة الى طاعة الأئمة (وهم آل البيت) ، ووجوب التسليم لهم ، ويدفع بعض الأمور التى نسبت إلى الفاطميين . ويبدى القاضى النعمان فى كتبه كثيراً من الإتزان ، والرصانة ، وحسن العرض ، ويرتفع بها عن كثير من السفاسف والخرافات التى توجد فى كثير من الكتب الإسماعيلية . بيد أن مما يلفت النظر حقاً أنه لم يشر فى مؤلفاته الى نسب الخلفاء الفاطميين ، ولم يحاول أن يقدم لنا ثبتاً للأئمة . وقد توفى القاضى النعمان فى سنة ٣٦٣ هـ ، فى أواخر عهد المعز لدين الله ، أعنى فى الوقت الذى أخذ فيه الجدل يضطرم حول نسب الفاطميين ، وتنظم الحملة

---

(١) نشر الرسالة المشار إليها الأستاذ حسين بن فيض الله الهمدانى مستخرجة من مخطوط لكتاب « الفرايض وحدود الدين » بعنوان : « فى نسب الخلفاء الفاطميين » وقدم لها بشرح باللغة الإنجليزية . وصدرت عن معهد الدراسات الشرقية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة سنة ١٩٥٨ .

فى بغداد للطعن فى إمامهم ، وانتسابهم الى آل البيت . وقد يرجع ذلك إلى أن النعمان القيروانى ، وهو صديق الخليفة المعز ، وقاضيه الأكبر ، وداعى دعاته ، لم يرد أن يخرق مبدأ الصمت الذى آثر الخلفاء الفاطميون ، وفى مقدمتهم المعز ، أن يلوذوا به حول نسبتهم . ونحن نعرف قصة المعز ، حينما وفد إلى مصر من المغرب ، وحضر بين يديه أعيان العلوية ، وسألوه عن نسبه . فسل عندئذ نصف سيفه ، وقال هذا نسبى ، ونثر عليهم ذهباً كثيراً وقال هذا حسبى[1] . ولكن المتأخرين من الدعاة لم يراعوا هذا التحفظ فيما بعد ، حينما اشتدت الحملات ضد الفاطميين ، فى المشرق والمغرب ، وحينما وقع الصدع فى وحدة الإمامة الفاطمية ، عقب وفاة المستنصر بالله فى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) .

ولكن القاضى النعمان يحدثنا فى كتابه « شرح الأخبار » بإفاضة عن أسطورة المهدى ، ويقدم لنا فى كتاب « افتتاح الدعوة » شيئاً من سيرته ، وهو موضوع سنعود إليه .

* * *

ونحن نكتفى بما تقدم من أقوال الدعاة الإسماعيلية فى شرح قصة الأئمة المستورين ، وتأييد نسبة الخلفاء الفاطميين لآل البيت ، ونحاول الآن أن نبسط ما قاله أولئك الدعاة شرحا لقصة ميمون القداح ، وولده عبد الله ، وهو الذى ترجع اليه معظم الروايات التاريخية نسبة عبيد الله المهدى .

لم يغفل الدعاة الإسماعيلية الرد على هذه القصة ، وتعليلها بما يتفق مع شروحهم المتعلقة بقصة الأئمة المستورين ، وإن كانت ردودهم فى ذلك قد جاءت فى عصر متأخر.

وقد وردت أول إشارة فى كتب الإسماعيلية عن عبد الله بن ميمون ، فى رسالة لحميد الدين الكرمانى عنوانها «الكافية فى الرد على الهارونى الحسنى » ، والهارونى هذا هو فقيه زيدى توفى سنة ٤١١ هـ . والرسالة عبارة عن رد على ما جاء فى كتاب للفقيه الزيدى عنوانه « البلاغ الأكبر » ، وفيه يحمل هذا الفقيه على الحاكم بأمر الله وتصرفاته ، ويقول ، إنه إنما يأمر بما لم يقض

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٦ .

به الله ، وإنه فى ذلك يناقض ما يجب أن يتبعه الأئمة ، وإنه لا يؤيد ما يزعمه لنفسه من معرفة الغيب ، وإنه فى الحقيقة من ولد عبد الله بن ميمون القداح الكافر ، ولو أنه حقا من نسل آل البيت ، لما وسعه أن يبدى مثل هذا الحمق والسفه . ويرد حميد الدين على ذلك بأن يدحض نسبة الحاكم لابن القداح ، ويؤكد نسبته لعلى ، ويوردها كاملة ، ويحيل الزيدى على ما ورد فى بعض كتبه من ذكر الأئمة المستورين ؛ ثم يشيد بتقوى الحاكم وورعه ، واتباعه لتعاليم الشريعة ، وأن ملايين البشر يعترفون بإمامته[1] .

على أن الشرح الوافى لقصة القداح ، يقدمه لنا مؤرخ الإسماعيلية ، الداعى عماد الدين إدريس ، الذى سبقت الإشارة اليه فى كتابه « زهر المعانى » ، وهو على النحو الآتى :

« وقام (أى اسماعيل بن جعفر) صلوات الله عليه ، « المبارك الميمون » فى كنف أبيه ؛ وعهد بمحمد بن اسماعيل ، وهو ابن ثلاث سنين الى ميمون القداح ، قدس الله روحه ، وهو كفيل له ، ومستودع أمره ؛ وميمون من أولاد سلمان ، وسلمان من أولاد إسحق بن يعقوب » .

ثم يقول لنا ، إن إسماعيل مات ودفن ، ثم ظهر حيا بالبصرة ، وذلك على مثل ما فعل جده « الناطق » المرسل ، محمد صلى الله عليه ، وان اسماعيل أظهر ما أظهره إعجازاً للخلائق ، بظهور القدرة من الله تعالى فيه ، وبقاء الكلمة فى عقبه الطاهرين فى بيته .

« وإن الصادق عليه السلام أقام موسى بن جعفر حجابا على محمد بن اسماعيل ، وعلى من جعله له بابا الذى هو ميمون ، الستر عليه والكفيل له . وكتم الصادق منزلة ابن ابنه ، وأقام له ميمون القداح وابنه عبد الله بن الميمون كفلاء ، وكتم أمر ذلك عن الخاص والعام ، إلا على المخلصين العارفين[2] .

ويحاول الداعى بعد ذلك إقامة الدليل على بطلان إمامة الآخرين من ولد

(١) الأستاذ إيفانوف فى كتابه Rise of the Fatimids الذى سبقت الإشارة إليه (ص ١٤٢ — ١٤٤) .

(٢) كتاب « زهر المعانى » (ضمن النصوص العربية الملحقة بكتاب الأستاذ إيفانوف المذكور) ص ٤٧ و ٤٨ و ٤٩ .

جعفر الصادق ونسلهم ، ثم يقص علينا تاريخ محمد بن إسماعيل ، وهو بالمدينة ، أيام الرشيد ، وهجرته الى نيسابور ، ويشيد بمعجزاته ودلائل إمامته ، وأنه لما توفى خلفه فى الإمامة ، ولده عبد الله الرضى ، أول الأئمة المستورين ، « فكان حجته وحجابه عبد الله بن ميمون رضوان الله عليه » . ثم يصف عهد استتاره ، وأنه لما توفى ، خلفه فى الإمامة ولده أحمد التقى ، « وحجته » أيضا عبد الله بن ميمون . ولما توفى خلفه ولده الحسين بن أحمد ، وهو الثالث من الخلفاء[1] .

وخلاصة هذه الرواية ولبها ، هو أن ميمون القدّاح كان وليا وكفيلا لمحمد بن إسماعيل ، فى عهد جده جعفر الصادق ، وأن ولده عبد الله بن ميمون ، كان وليا وكفيلا لعبد الله بن اسماعيل ، ثم ولده أحمد من بعده .

وتلقى هذه الرواية فى تفسير علائق ميمون وولده عبد الله بآل البيت ، تأييدا من بعض الروايات السنية ، فنجد العلامة عبد القاهر البغدادى يقول لنا ، بعد الإشارة إلى أن ميمون بن ديصان المعروف بالقداح ، هو من مؤسسى دعوة الباطنية ، إنه كان مولى لجعفر الصادق[2] .

— ٣ —

وقد حاول الأستاذ المستشرق ڤلادمير إيڤانوف ، فى مواضع عديدة ، من كتبه التى وضعها للدفاع عن الدعوة الإسماعيلية ، والتدليل على صحتها ، وصحة نسبة أئمتها لآل البيت ، أن يدحض قصة ميمون القداح هذه ، كما توردها الروايات التاريخية الإسلامية ، ولم يكتف بذلك ، بل وضع لدحضها ، والتدليل على بطلانها ، مؤلفا خاصا ، تصل فيه حماسته إلى الذروة فى الجدل والتدليل .

ويحاول الأستاذ إيڤانوف أن يصل فى جدله بالأخص الى النتيجتين الآتيتين :

الأولى — أن ميمون القداح وولده عبد الله لم يكونا أصل الفاطميين ، ولم تجمعهم بهما أية صلة رحم .

(١) كتاب « زهر المعانى » ص ٥٤ و ٥٩ و ٦٠

(٢) فى كتابه « الفرق بين الفرق » ص ٢٦٦ .

الثانية — أنهما لم يكونا ديصانيين ، أو زنديقين ، بل كانا بالعكس فقيهين ورعين ، وأن الدعوة السرية الإلحادية التي تنسب إليهما لم تكن إلا من نسج الخيال

وهو يرى بادئ ذى بدء ، أن القول بأن عبد الله بن ميمون هو جد الخلفاء الفاطميين ، وباعث ثورة القرامطة ، إنما هو قول سقيم خاطئ ، وأن القول المأثور بأن عبد الله هذا قد تبناه محمد بن إسماعيل ، ثم خلفه بتفويض منه ، أو أنه اغتصب الإمامة بالخديعة والغش ، كما فعل حفيده المهدى ، كل ذلك مضلل ومجاف للبحث السليم . وقد كان عبد الله رفيقاً للإمام جعفر الصادق ، ولا يعرف شيء عن حياته الأولى . وقد توفى الإمام جعفر فى سنة ١٤٨ هـ ؛ ومن المرجح أن عبد الله قد توفى بين سنتى ١٦٠ و ١٨٠ هـ ، لا كما يقول الجويرى فى « كشف الأسرار » من أنه توفى فى سنة ٢١٠ هـ .

هذا ، وقد ورد أول نفى لقصة القدّاح ، فى رد المعز لدين الله على داعى الشيعة فى السند ، حيث أوضح له أن كلمة « الميمون » ، إنما هى لقب للإمام عبد الله بن إسماعيل ، وتكريم له ، وكذا فيما يتعلق بكلمة « القداح » ، وهو الذى ينثر من حوله ضوء الحكمة الإلهية . ووردت أول إشارة عن عبد الله ابن ميمون ، فى رسالة الكرمانى « الكافية » التى سبقت الإشارة إليها ، فى الرد على الفقيه الزيدى ، وفيها ينفى نسبة الحاكم بأمر الله الى القداح ، ويؤكد نسبته إلى على وبنيه .

ولم يتحدث الخلفاء الفاطميون عن نسبتهم ، ولم يذكرها أولياؤهم ، لأن الكلام على « الأئمة المستورين » كان محظورا ، وكان ضارا ، وأن عهد « الستر » فى رأيهم إنما هو أمر مقرر من الله ، كما هو الشأن فى « عهد الظهور » ؛ وعلى ذلك فإنه لم يكن ثمة شيء مريب ، فى كون أولئك الأئمة الثلاثة المستورين ، قد أحدثوا ثغرة فى نسب الفاطميين ، ولم يُذكروا حتى بأسمائهم[1] .

ثم يعود الأستاذ إيفانوف فيحدثنا عن قصة القدّاح « مؤسس الإسماعيلية

---

(١) راجع كتاب الأستاذ إيفانوف Rise of the Fatimids ، ص ١٢٨ و ١٣٠ و ١٤١ و ١٤٢

المزعوم » فى مؤلف خاص ، يبسط فيه مجال الجدل والتدليل[١] ، وقد رأينا أن نستعرض هنا خلاصة بحثه المسهب ، استكمالا للحديث عن هذه السلسلة من البحوث الإسماعيلية الجديدة .

يقول الأستاذ إيڤانوف ، إن الفاطميين قد أخفوا أنسابهم ، وفروع ذوى قرباهم ، خوفاً من أعدائهم فى البلاد الخارجة عن سلطانهم ، على أولئك الأقربين ، وإن قصة ميمون القداح وولده هذه ، ما هى إلا أسطورة وخرافة .

وقد لفت نظر إيڤانوف ، ما ورد فى كتاب « الكافى فى علم الدين » لأبى جعفر الكلينى[٢] من أحاديث كثيرة ، رويت عن عبد الله بن ميمون القداح . وكتاب « الكافى » فى أحاديث الشيعة يعتبر مرجع الشيعة فى ذلك ، وقد كانت علوم الشيعة ناشطة فى شرق فارس منذ عصر مبكر ، فى ظل الخلافة السنية والحكام السنيين . وعاش مؤلف « الكافى » فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع من الهجرة فى كولان بفارس ، وتوفى ببغداد سنة ٣٢٩ هـ ، وهو يستمد مصادره بالأخص من رواة المدرستين الخرسانية والكوفية . وينقل الطوسى (أبو جعفر محمد بن الحسن) ، وهو المسمى شيخ الطائفة المتوفى بالكوفة سنة ٤٦٠ هـ ، فى كتابه « تهذيب الأحكام » ، كثيرا من « الكافى » وغيره من الكتب القديمة .

وينقل إيڤانوف تراجم الأحاديث التى وردت فى « الكافى » برواية عبد الله بن ميمون ، ووالده ميمون بن القداح ؛ والتى رواها عبد الله منسوبة الى والده ميمون ، وعددها مائة وخمسون حديثا ، منها مائة وثلاثون ، نقلت من كتاب « الكافى » ، ونقلت الأحاديث الباقية من كتاب « تهذيب الأحكام »[٣] .

---

(١) وعنوانه : The Alleged Founder of Ismailism ، وقد نشر بعناية «الجمعية الإسماعيلية » فى بومباى سنة ١٩٤٦ ، وبلغت صفحاته نحو المائتين .

(٢) « الكافى فى علم الدين » لأبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى الرازى ، وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة بدار الكتب (أرقام ٢١٢٢٦ و ٢١٢٢٧ و ٢٣٠١٨ حديث) .

(٣) نود أن نشير هنا الى أنه وردت خلال هذه الأحاديث المزعومة أقوال كثيرة سقيمة وركيكة لا تستقيم مع نسبتها الى صاحب الرسالة النبوية . (مثال ذلك الأحاديث رقم ٧٠ و ٧١ و ٧٥ و ٧٦ و ٧٩ و ٩٤ و ٩٥ و ٩٦) .

ويبدو من بعض « الأحاديث » ومما ورد فى الكثير منها ، أن ميمون كان على صلة بالإمام محمد الباقر ، بل هنالك ما يدل على أنه كان ضمن خدم أسرة الإمام ، فإذا صحت هذه الرواية ، فإن المسألة فى رأيه تتضح كلها ؛ ويستدل على ذلك بما ورد فى بعض الأحاديث ، حيث يأمر الباقر ، ميمون ، بتغيير مكان الضيف ، وحيث يصحب الإمام فى رحلته ، وحيث يسير الإمام مستنداً إلى ابن القداح ، بيد أن أهم دليل على ذلك ، هو ما ورد فى «الحديث» الرابع ، حيث يوصف ميمون صراحة بأنه « مولى » الإمام محمد الباقر ، « وغلام » الإمام جعفر[١] . هذا فضلا عن أن بعض الروايات السنية ، تصف عبد الله بن ميمون بأنه « مولى الإمام جعفر »[٢] .

وقد توفى الإمام الباقر سنة ١١٤ هـ . ولا يعرف تاريخ وفاة ميمون ، ولا ولده عبد الله ، ولكن يبدو أن عبد الله كان أيام الإمام الباقر شابا . ويرى إيڤانوف ، أن ميمون القداح ، الذى يرجع الى الطبقة الثامنة من الرواة ، قد توفى وفقا لمختلف القرائن بين سنتى ١٦٠ و ١٧٠ هـ .

هذا ، ومن جهة أخرى فإن إيڤانوف ينفى تهمة الإلحاد عن عبد الله ابن ميمون ، ويستدل على ذلك بأن اسمه قد ورد فى كتب الحديث السنية ، مثل ابن النجار المتوفى سنة ٦٤٣ هـ ، والذهبى المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، وابن حجر المتوفى سنة ٨٥٢ هـ ، وعبد الله الخزرجى الأنصارى المتوفى سنة ٩٢٣ هـ ، ولم تنسب اليه فى كتب السنة ، أية دعوى بالإلحاد أو الزندقة ، ويصفه أكابر رواة الحديث السنيين بصفات مختلفة من ضعيف ، وسقيم ، وراوية لأحاديث مدخولة ، أو أمور منكرة ، ولكن لم يرمه أحد منهم بشبهة الإلحاد[٣] .

قصة القداح كما يصورها إيڤانوف

يرى الأستاذ إيڤانوف من استنتاجاته ، أن ميمون القداح كان من الموالى ،

---

(١) راجع الأحاديث رقم ١٠١ و ١١٥ و ١١٦ ، والحديث رقم ٤ . وراجع ص ٦٣ من كتاب الأستاذ إيڤانوف المشار إليه .

(٢) هذا ما سبق أن أشرنا إليه فيما تقدم (راجع الفرق بين الفرق ص ٢٦٦) .

(٣) كتاب الأستاذ إيڤانوف السالف الذكر ص ٧٥ و ٧٦ .

وكان مقيما بمكة وله أهمية محلية ، وكان خادماً مخلصا للإمام محمد الباقر ، ثم ولده جعفر ، ومن الممكن أنه كان تاجراً ، وربما كان أيضا مشرفا على أملاك الأئمة بمكة . وقد كان فيما بعد رجلا ذا شخصية . وكان له عدة أولاد منهم عبد الله ، وأبان ، وربما إبراهيم . وكان أبان عالما يحفظ القرآن ، وليس من المستحيل أن كان أخوه عبد الله معلما للكتابة ، وأنه دون خلال خدمته للإمام ما سمعه منه ، وأن مجهوده فيما يبدو ، كان منحصراً فى تدوين الأحاديث التى سمعها من الإمام جعفر ؛ وليس هناك ما يدل على أنه كان مشتركا فى أية حركة إلحادية(١) .

هذا ، وقد صورت المصادر الخصيمة للإسماعيلية والفاطمية ميمون وولده من أبالسة الإلحاد والكفر ، وأنه لا محل لنقد مثل هذه الرواية ، ولا داعى لأن يهتم بما هو خيال واضح ، وخصوصا لما يتضمنه ذلك من تناقض فى التواريخ ، ومن مبالغات واضحة .

وأما الكنية التى تسبغ على ميمون ، وهى « أبو شاكر » فإنها لا تظهر مطلقا فى المصادر الشيعية ، بل لا يذكرها ابن رزّام فيما أورده عنه ابن النديم ، وأول من ذكرها هو ابن شداد الحميرى المتوفى سنة ٥٠٩ ﻫ ، فيما أورده عنه ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٩٦ ﻫ ، عند الكلام على ابتداء الدولة العلوية بإفريقية(٢) .

وينفى إيڤانوف ما ذكره ابن شداد فى روايته المتقدمة من أن ميمونا قد ألف كتابا عنوانه « الميزان فى نصرة الزندقة » ، ويقول إنه لم تكن لميمون أية كتب ، ولم تذكر المصادر الشيعية المبكرة شيئا من ذلك . وكل هذه فى رأيه أكاذيب لا تستحق الجدل(٣) .

ومن جهة أخرى فإن خصوم الفاطميين ، ينسبون ميمون وولده عبد الله

---

(١) The Alleged Founder of Ismailism. p. 78 & 79

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٩ . وابن شداد هو الأمير عز الدين ، أبو محمد عبد العزيز ابن شداد بن تميم بن المعز بن باديس صاحب تاريخ إفريقية والمغرب : وقد نقل المقريزى كذلك روايته فى اتعاظ الحنفاء (القاهرة) ص ٤٧ وما بعدها .

(٣) إيڤانوف : The Alleged Founder of Ismaiism p. ٤0 & 81

الى طائفة « الديصانية » النصرانية ، وهى التى قام بتأسيسها الحبر بارديصان فى مدينة الرّها فى القرن الثانى من الميلاد ، وهو الذى يرى البعض أن نظرياته كانت أصل « المانوية » . ويقولون إن الأب والابن كانا من الديصانيين أتباع هذه الطائفة ، وهناك فى الواقع ما يدل على أنه كان يوجد خلال القرنين الأول والثانى للهجرة ، علائق بين الدوائر الشيعية ، وبعض الطوائف النصرانية ، وكذلك بينها وبين النساطرة ، وأنه قد تسرب من تعاليم هذه الطائفة النصرانية بعض الشىء الى التعاليم الشيعية .

وتشير مصادر الأحاديث السنية ، الى أن شخصا كافرا ، يدعى أبو شاكر الديصانى ، كان يتصل بالإمام جعفر الصادق ، ويسأله أسئلة عن الله وعن قدرته . وقد ذكره ابن النـــديم بين العلماء الذين يتظاهرون بالإسلام فى قلوبهم[1] . وأما الإسمان الديصانيان فى أحاديث الشيعة فهما : عبد الله الديصانى ، وعبد الله بن ميمون الديصانى ؛ وأبو شاكر الديصانى ، وأبو شاكر ميمون الديصانى ؛ فلو فرض حقا أن ميمون وولده كانا فى الأصل ديصانيين ، فإنه لا يعقل أن يكونا كافرين ومسلمين فى وقت واحد . والواقع أن هنالك من الأحاديث المشار اليها ما يدل على أن ميمون كان « مولى » للإمام محمد الباقر ، وأنه يروى « أحاديث » عن هذا الإمام ، وأن ابنه « أبان » كان يتلو القرآن عليه ، ويروى ولده الآخر عبد الله عنه الأحاديث ، فلا بد إذاً أن يكون ميمون وولده قد اعتنقا الإسلام عندئذ ، وذلك فى القرن الأول من الهجرة (السابع الميلادى) . ومن جهة أخرى ، فإن هنالك فى الأحاديث ما يدل على أن ذلك قد حدث أيام الإمام جعفر ؛ وقد توفى هذا الإمام ، وفقا لرواية هشام بن الحكم فى سنة ١٩٩ هـ ؛ وهذه مفارقة تاريخية ظاهرة ؛ وإذن فليس هنالك بلا شك علاقة بين الديصانيين وبين ميمون وولده . أما هذا الجمع فى الأسماء ، فلا بد أنه محاولة زائفة ، ترمى الى جعل ميمون وولده ، هما أبو شاكر الديصانى وولده .

والخلاصة أن الأحاديث الشيعية ، لا تذكر شيئا عن أصل ميمون الديصانى ؛ بل هى بالعكس تدل على أنه حتى لو كان ميمون قد تحول من

---

(١) الفهرست لابن النديم ص ٤٧٣ .

هذه الطائفة الى الإسلام ، فإنه كان مخلصاً ورعا[١] .

وقد أورد الداعى عماد الدين إدريس فى كتابه « عيون الأخبار » خطاب المعز لدين الله الى داعى السند ، الذى ينكر فيه نسبته الى ميمون القداح ، ويقول إن جده الحقيقى ، هو عبد الله بن محمد بن إسماعيل ، وإنه كان يسمى أحياناً « عبد الله الميمون النقيبة » ، وكانت هذه العبارة تطلق أيضاً على محمد بن إسماعيل ، إشارة إلى المركز الرفيع الذى يحتله فى حظيرة الدعوة الإسماعيلية ، وكذا كانت تطلق كلمة « المبارك » على سادس الأئمة ، إسماعيل بن جعفر .

ويرى الأستاذ إيڤانوف أن ذلك يحل لغز أسطورة « ميمون بن القداح » . ذلك أن محمد بن إسماعيل ، إذا كان يعرف باسمه السرى « الميمون » ، فالظاهر أنه كان يسمى فى محافل الطائفة بعبد الله بن الميمون . وقد حرّف الخونة أو المزيفون هذا الاسم ، وصرفوه إلى عبد الله بن ميمون القداح ، ونسبوا بذلك إلى هذا الرجل القديس جرائم ورذائل لا تصدق[٢] .

ويعطف إيڤانوف على الناحية التاريخية ، فيقول لنا إنه مما يؤكد كون عبد الله بن ميمون لم يكن جد الخلفاء الفاطميين ، ولم يكن والداً أو جداً للمهدى ، كما يقول « دى جويه » ، أن عبد الله بن ميمون ، توفى على ما يرجح سنة ١٦٠ هـ ، هذا بينما ولد المهدى حوالى سنة ٢٦٠ هـ .

وأن الإمام جعفر الصادق ولد بين سنتى ٨٠ و ٨٣ هـ ، وتوفى بين سنتى ١٤٦ و ١٤٩ هـ ؛ ومن المعروف أن إسماعيل توفى فى حياة أبيه نحو سنة ١٣٨ هـ ، وإن كانت توجد ثمة أسطورة تقول بأن موته لم يكن سوى حيلة واستتاراً . ولا يُعرف تاريخ محمد ولد إسماعيل البكر ، ولكنا نعرف أنه أثناء إقامته بالمدينة قد ولد له ولدان ، هما إسماعيل وجعفر ، وأنه هاجر إلى المشرق ، والروايات الإسماعيلية والإثنا عشرية ترجع ذلك إلى عصر الرشيد .

ويرى إيڤانوف بعد كل ذلك ، أن هذه القصة التى تجعل عبد الله بن ميمون جد الخلفاء الفاطميين ، إنما هى أسطورة سخيفة ، ويعيب على مؤرخين

---

(١) The Alleged Fouuder of Ismailism p. 99 — 103

(٢) » » » » » p. 110 — 112

ومفكرين عظام مثل فون همّر ، ودوزى ، ودى جويه ، أنهم صدقوها ، وآمنوا بها[١] .

ثم ينفى إلى جانب ذلك : أن ميمون وولده ، قد اختير أحدهما مستودعاً للإمام ، يتولى عمله أثناء قصوره أو غيبته ، لأن مثل ذلك النظام ، لم يكن موجوداً فى وقتهما ، ولم تعرف هذه النظرية إلا فى القرن الرابع الهجرى .

ويختتم بحثه المستفيض بقوله : « وإن هذه الملحمة الإلحادية التى نسجت حول اسم عبد الله بن ميمون القداح ، ليست إلا معتركاً من الأكاذيب والأقوال الباطلة ، وليست إلا من صنع الخيال »[٢] .

تلك هى تدليلات الأستاذ إيڤانوف ، التى بذل جهداً عنيفاً فى تصنيفها ، والتى لا يعتمد منها على أية وثائق ، أو نصوص تاريخية محايدة ، وإنما يعتمد قبل كل شىء ، على مصادر ونصوص إسماعيلية مذهبية . وقد سبق أن أوردنا نحن النصوص التاريخية المعارضة . وبقى علينا أن نقدم بعض ملاحظات وردود موجزة .

— ٤ —

وأول ما يلاحظ فى ذلك أن الخلفاء الفاطميين ، لم يذكروا لنا نسبتهم مفصلة فى أية مناسبة من المناسبات الرسمية ، بل كانوا يؤثرون الانتساب مباشرة إلى على بن أبى طالب . وقد رأينا كيف لزم المعز الصمت حول نسبته حينما سأله العلويون المصريون عنها ، وسل نصف سيفه من غمده ، وقال لهم هذا نسبى ، ونثر عليهم ذهباً ، وقال هذا حسبى[٣] ؛ وأنه ليس بتعليل مقنع ، أن يقال فى ذلك ، إن الخلفاء الفاطميين ، قد لزموا الصمت عمداً إزاء ذكر الأئمة المستورين من آبائهم ، وهم الذين يفصلون بين المهدى ، ومحمد بن إسماعيل ، لأن عهد الستر كان يعتبر فى نظرهم أمراً مقرراً ، وفقاً لحكمة إلهية لا يجوز خرقها[٤] .

---

(١) The Alleged Founder of Ismailism p 152 — 157

(٢) " " " , " p.170 — 174

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦ .

(٤) الأستاذ إيڤانوف فى : Rise of the Fatimids, p. 128, 130 & 141 .

ومما له مغزى عميق فى ذلك، ما أشرنا إليه من أن القاضى النعمان القيراونى، صديق المعز لدين الله وداعيته الأكبر، لم يذكر لنا فى أى كتاب من كتبه العديدة شيئاً عن الأئمة المستورين، ولا عن نسبة الخلفاء الفاطميين؛ وبالرغم مما يقدم إلينا من أحاديث عديدة فى كتابه « شرح الأخبار » عن المهدى والتبشير بظهوره، وكونه لابد أن يكون من ذرية آل البيت، فإنه يلزم الصمت إزاء نسبته وآبائه. ومما تجدر ملاحظته أن هذا الفقيه الشيعى الكبير، كان معاصراً لابن رزّام، الذى ينسب الفاطميين إلى ميمون القداح، ولابن النديم صاحب الفهرست، الذى ينقل روايته؛ وقد كان بلا ريب بمركزه وعلمه، وصلته الوثيقة بأولى الأمر، أوثق من يستطيع أن يدفع هذا الطعن فى نسب الخلفاء الفاطميين، وأن ينير لنا هذا الغموض.

ومما يلفت النظر، أن فيما خلا رواية أو اثنتين، ترجع إحداهما إلى أوائل القرن الرابع الهجرى، وهى رواية الداعى جعفر بن منصور اليمن، عن نسبة المهدى، وترجع الثانية إلى أوائل القرن الخامس، وهى رواية الداعى حميد الدين الكرمانى عن نسبة الحاكم بأمر الله؛ فيما خلا هاتين الروايتين الموجزتين، اللتين وردتا عرضا فى كتابات هذين الداعيين، فإن معظم الروايات الإسماعيلية المفصلة عن الأئمة المستورين، وعن نسبة الخلفاء الفاطميين ترجع إلى عصور متأخرة؛ من ذلك رواية الخطاب المتوفى سنة ٥٣٣ هـ (١١٣٨ م)، ورواية عماد الدين إدريس المتوفى سنة ٨٧٢ هـ (١٤٨٦ م)، ورواية الحسن ابن نوح المتوفى سنة ٩٣٩ هـ (١٥٣٣ م)، وقد صدرت معظم هذه الروايات المزكية لنسب الفاطميين عن الدعاة الإسماعيلية فى الهند وفارس واليمن، وصدر معظمها حسبما هو ظاهر، بعد ذهاب الدولة الفاطمية بعصور طويلة؛ ولم تصدر بمصر، لا عن الدعاة الفاطميين أنفسهم، ولا عن المؤرخين المصريين أية رواية تؤيد نسبة الفاطميين لآل البيت بطريق القطع والوضوح. أضف إلى ذلك كله، أن هذه المؤلفات الإسماعيلية، يرجع معظمها إلى مخطوطات حديثة، نسخت فى الهند واليمن، فى القرنين الثانى عشر، والثالث عشر من الهجرة، وهذه النقطة فى حد ذاتها مما يلفت النظر.

وإنه ليسوغ لنا أن نتساءل بعد ذلك، عما يحملنا على الشك فى أقوال

الروايات التاريخية المتوالية التى تأبى نسبة الفاطميين إلى آل البيت ؛ وقد أوردنا من هذه الروايات عدة لطائفة متعاقبة من المؤرخين والنسابين ، ومنهم أقطاب لا يشك فى نزاهتهم ، ولا صدق روايتهم ، ولم تكن لديهم أية أسباب مذهبية أو سياسية خاصة تحملهم على الطعن فى نسب الفاطميين وفى إمامتهم ، ومنهم كثيرون لم يكونوا من صنائع بنى العباس ، ولم يعيشوا فى كنفهم ، بل ومنهم من أثر عنه الميل إلى الفاطميين والتشيع لهم ، ولم يسعه إلا أن ينقل ما كتبه المتقدمون فى إنكار نسبتهم . وما الذى يحملنا على الشك مثلا فيما كتبه رجال أمثال القاضى الباقلانى ، وعبد القاهر البغدادى ، وابن شداد ، وابن خلكان ، والنويرى ، وابن حجر ، وابن حزم ؟ ويلاحظ أن النظرية الغالبة فى التواريخ المصرية ، هى الريب فى نسب الفاطميين ؛ والمؤرخون المصريون ، هم بمصريتهم ، وقربهم من العصر الفاطمى ، وكونهم أقدر من غيرهم على تحرى مصادر العصر الفاطمى وتراثه ، هم أصحاب الرواية الراجحة ، والقول المفصل فى تلك المسألة الجدلية .

ومن ثم فإنا على ضوء هذه الروايات التاريخية كلها ، نشعر بالميل إلى الأخذ برواية المنكرين ، ولا نجد فى تدليل المؤيدين وشروحهم ما يلقى ضوءاً كافياً أو مقنعاً .

وكيف يُطلبُ إلينا أن نعدل عن الإصغاء إلى تلك الروايات التاريخية المعقولة الراجحة ، لنصغى إلى أقوال طائفة من الدعاة الإسماعيلية المتأخرين ، من رواة القرن التاسع والعاشر الهجريين ، وقد كتب معظمهم فى الهند واليمن ، بعيداً عن موطن المصادر والوثائق ، واتسمت رواياتهم بطابع الإغراق والأسطورة ، فضلا عن النزعة المذهبية الخاصة ؟ وأولئك هم عماد البحوث المستفيضة ، التى يحاول بها الأستاذ إيڤانوف أن يؤيد نسب الفاطميين لآل البيت ، وأن يدحض أقوال المنكرين ، وقصة القداح .

تأتى بعد ذلك مسألة المفارقة التاريخية التى يذهب إليها الأستاذ إيڤانوف ، والتى يعتبرها حاسمة فى دحض قصة عبد الله بن ميمون ، وهى أنه إذا كان المهدى قد ولد فى سنة ٢٦٠ هـ ، فإنه لا يمكن من الناحية المادية ، أن يكون ولداً أو حفيداً لعبد الله بن ميمون القداح لأن عبد الله بن ميمون توفى

وفق تقديره حوالى سنة ١٦٠ هـ ، فيكون هناك نحو قرن من الزمان يفصل بين المهدى وبين أبيه أو بينه وبين جده .

وهو تدليل ضعيف قاصر . ذلك أنه من المسلم به ، أن ميمون القداح كان مولى لجعفر الصادق ؛ وقد توفى جعفر الصادق فى سنة ١٤٨ هـ ؛ ولسنا نعرف ماذا كان عمر عبد الله بن ميمون يومئذ ؛ كما أنه لا يوجد ما يؤيد فرض الأستاذ إيڤانوف ، بأن عبد الله بن ميمون قد توفى سنة ١٦٠ هـ . والأمر بالعكس ، فإن بعض التواريخ يشير إلى أنه كان حياً فى سنة ٢٦١ هـ ، أو قريباً من ذلك العصر ، وهذه هى رواية ابن رزّام التى نقلها ابن النديم[1] . ولنفرض أن هذه الرواية مبالغ فيها من الناحية الزمنية ، فإن المهدى الذى هو سعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله [بن ميمون] ، هو ثالث ولد لعبد الله ، أو بعبارة أخرى أن بينهما ثلاثة أجيال ، فإذا قدرنا الجيل بثلاثين أو أربعين سنة ، فإن الفرق الزمنى بين عبد الله بن ميمون ، وبين المهدى ، يبلغ وفقاً لهذا التقدير مائة أو مائة وعشرين سنة ؛ ومن ثم فإنه لا توجد فى القول بأن المهدى هو من ولد عبد الله بن ميمون أية مفارقة تاريخية ، وذلك حتى إذا سلمنا بأن عبد الله بن ميمون قد توفى سنة ١٦٠ هـ ، وأن المهدى قد ولد فى سنة ٢٦٠ هـ ، أى بعد ذلك بمائة عام .

وأخيراً ، فإنا لا نود أن نذهب فى تقدير أهمية نسب الخلفاء الفاطميين إلى هذا الحد من الإغراق ؛ فإن النسب مسألة تشريف ليس غير ، وليس له كبير دخل فى نشأة الدول العظيمة ؛ وسواء أكان الخلفاء الفاطميون حقاً من نسل إسماعيل بن جعفر الصادق ، ومن ثم من نسل على بن أبى طالب ، أو كانت نسبتهم ترجع إلى عبد الله بن ميمون القداح ، فإن ذلك لا يغض من شأنهم ، ولا ينتقص ذرة من عظمتهم ومجد دولتهم ؛ فقد أنشأ الفاطميون بمصر دولة من أعظم الدول الإسلامية ، وحضارة من أزهى الحضارات ، وأنشأوا القاهرة أعظم مدائن الإسلام فى المشرق والمغرب ، وجامعها الأزهر ، أعظم الجامعات الإسلامية ، وأينعها غرساً ؛ ولا يمكن أن ينتقص من هذه الحقائق التاريخية العظيمة ، أن تكون نسبتهم موضعاً للجدل والريب .

---

(١) كتاب الفهرست ص ٢٦٥ .

الفصل الرابع

المعـز والعـزيز

الدولة الجديدة . خطر القرامطة على مصر . الحرب بينهم وبين الجيوش الفاطمية . مقدم المعز لدين الله الى مصر . نزوله بالقاهرة . قيام الخلافة الفاطمية والإمامة المذهبية بمصر . نسب المعز وحسبه . زحف القرامطة على مصر وردهم . حوادث الشأم . غزو البيزنطيين لثغور الشام . وفاة المعز وخلافة العزيز بالله . اصطفاء العزيز الترك والصقالبة . اصطفاؤه للنصارى واليهود . استئثار الذميين بالسلطة والنفوذ . تحول العزيز عن هـذه السياسة . الحرب بين العزيز والقرامطة . حوادث الشام . تحالف بنى حمـدان مع البيزنطيين . الحرب بين المصريين والبيزنطيين . مسير بنجوتكين الى حلب . غزو باسيل الثانى لثغور الشام . وفاة العزيز بالله . أعماله وصفاته .

قامت القاهرة عاصمة الدولة الجديدة بسرعة ، وأعدت بقصورها ومسجدها الجامع (الجامع الأزهر) ، لتكون منزلا ملوكياً لبنى عبيد وموئلا للخلافة الفاطمية ، وبدأ الحكم الفاطمى بمصر على يد مبعوث المعز وقائده جوهر . وكان خطر القرامطة الذى أشار إليه جوهر فى رسالته لأهل مصر يشتد ويتفاقم ، وينذر مصر بالويل والدمار ، وملك الفاطميين بالفناء العاجل . وكان جوهر ، قد أرسل الجند منذ المحرم سنة ٣٥٩ هـ ، مع جعفر بن فلاح إلى الشأم لرد القرامطة وقد وصلوا إلى الرملة (فلسطين) ، وليحارب فى نفس الوقت فلول الإخشيدية التى كانت ما تزال مسيطرة على الشأم . ووقعت بين جعفر بن فلاح وبين القرامطة من ناحية ، وبينه وبين الإخشيدية من ناحية أخرى ، وقائع انتهت برد القرامطة ، وباستيلائه على دمشق . ولكن القرامطة زحفوا بعد ذلك على دمشق ، فهزم جعفر بن فلاح وقتل (أواخر سنة ٣٦٠ هـ) ، ثم ساروا جنوباً إلى الرملة (فلسطين) ، وكان بها حاكمها سعادة بن حيان فى قوات قليلة . فارتد إلى يافا وامتنع بها ، وانحدر القرامطة جنوباً إلى مصر ،

وتأهب جوهر لقتالهم[١] . وكان القرامطة يتوقون إلى افتتاح هذا القطر الغنى قبل أن يتوطد فيه سلطان الدولة الجديدة ، وكان ظفرهم المتوالى فى الشأم يذكى أطماعهم ويشحذ عزائمهم ؛ ومما ينسب إلى زعيمهم الحسن فى ذلك شعر يقول فيه :

زعمت رجال الغرب أنى هبتها   فدمى إذن ما بينهم مطلول

يا مصر إن لم أسق أرضك من دم   يروى ثراك فلا سقانى النيل

وزحف القرامطة على مصر بالفعل فى أوائل سنة ٣٦١ ﻫ بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم . ونشبت بينهم وبين الجيوش الفاطمية بقيادة جوهر معارك هائلة فى ظاهر الخندق (على مقربة من القاهرة) ، انتهت بهزيمتهم وارتدادهم نحو الشأم . ولما رأى المعز أن ملكه الجديد قد توطد بمصر ، سار من إفريقية إلى مصر بأهله وأمواله فى ركب هائل ، تفيض الرواية المعاصرة فى وصف ضخامته وروعته[٢] . فوصل إلى الإسكندرية عن طريق برقة ، فى ٢٤ شعبان سنة ٣٦٢ ، وهرع وفد من أكابر المصريين إلى لقائه وتحيته عند المنارة ، فقال لهم : « إنه لم يسر إلى مصر لازدياد فى الملك أو المال ، وإنما سار رغبة فى الجهاد ونصرة المسلمين وإقامة الحق والسنة »[٣] . ودخل المعز القاهرة ، عاصمته الجديدة فى أوائل رمضان ، ولما وصل إلى قصره خر ساجداً فى مجلسه شكراً لله ، ثم صلى ركعتين ؛ وصلى بصلاته كل من دخل[٤] ، وسطعت فى الحال آيات من عظمة الملك الجديد .

وبذا استقرت الخلافة الفاطمية فى مصر ، وبدأت زعامتها الدينية فى المشرق ؛ وكانت الإمامة الدينية أخص الصفات التى تبدو بها الخلافة الجديدة ، وكان المعز لدين الله يحرص جد الحرص على ضفة الإمامة ورسومها ؛ بيد أن الفاطميين قدموا إلى مصر ، يحيط بنسبتهم وإمامتهم نفس الريب ، الذى أحاط

---

(١) اتعاظ الحنفاء ص ١٧٩ و ١٨٠ و ٢٤٨ و ٢٤٩ . وراجع خطاب المعز الى الحسن الأعصم ، (وهو المنشور فى ذيل الكتاب) حيث يشير الى تلك الوقائع .

(٢) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ .

(٣) ابن خلكان ج ٢ ص ١٣٤ ، واتعاظ الحناء ص ١٨٥ .

(٤) اتعاظ الحنفاء ص ١٨٧ .

بهما منذ قيام دولتهم فى المغرب ، وقد أثيرت هذه المسألة عند مقدم المعز ، إذ اجتمع به جماعة من الأشراف العلويين الذين ينتسبون إلى على وفاطمة ، فسأله الشريف عبد الله بن طباطبا عن نسبه ، فأجابه المعز أنه سيعقد مجلساً ويتلو عليهم نسبه . ثم عقد المعز مجلسه بالقصر ودعا إليه الكبراء ، وسل نصف سيفه من غمده وقال لهم هذا نسبي ، ونثر عليهم ذهباً كثيراً . وقال هذا حسبي ؛ فقالوا جميعاً سمعنا وأطعنا !(١) ؛ وفى ذلك ما يدل على اعتداد الدولة الجديدة بقوتها وجاهها ، قبل اعتمادها على إمامتها وهيبة انتسابها لآ ل البيت ، وإن كانت قد اتخذت الإمامة شعارها لدى الكافة منذ الساعة الأولى ، وأقامت ملكها السياسى على أسس دعوتها الدينية .

وكان عهد المعز بمصر عهد توطيد ودفاع عن الملك الفتى ، وكانت جيوش المعز ، قد افتتحت الشأم كما افتتحت مصر ، وبسط عليها الخليفة الجديد حكمه ، ودعا له بنو حمدان فى حلب ، فكانت مملكته الشاسعة تمتد من أواسط المغرب إلى شمال الشأم . ولكن خطر القرامطة كان مايزال جاثماً فى الأفق ، ينذر الدولة الجديدة بالمحو والفناء ، ولم يمض سوى قليل حتى انتزع القرامطة الشأم للمرة الثانية من يد نائب الخليفة الفاطمى ، ثم زحفوا على مصر بقيادة زعيمهم الحسن الأعصم مرة أخرى ؛ وكان المعز عند ما علم بمسير القرامطة ، قد كتب إلى زعيمهم الحسن الأعصم ، خطابه الشهير ، يذكره فيه بمكانته ومكانة بيته ، وأن دعوة القرامطة نشأت فى الأصل عنهم ، وأن الدعوة واحدة ، ويعاتبه على انشقاقه ، وينصحه بالعودة إلى الرشد ، وينذره بسوء المصير(٢) . فبعث إليه الحسن بخطاب يقول فيه : « وصل كتابك الذى قل تحصيله ، وكثر تفصيله ، ونحن سائرون إليك على أثره والسلام » . ووصلت جيوش القرامطة أخيراً إلى شرقى مصر ، ووصلت سفنهم فى البحر إلى تنيس ، فردهم أهلها . والتقت جيوش المعز بالغزاة على مقربة من بلبيس فى أواخر سنة ٣٦٣ هـ ، وأوقعت بهم هزيمة فادحة ؛ بيد أنها لم تكن خاتمة النضال ، فقد لبث القرامطة فترة أخرى قوة يخشى بأسها(٣) .

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٣٢٦ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٧ .

(٢) نشرنا نص هذا الكتاب بأكمله فى نهاية الكتاب .

(٣) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١١ ، واتعاظ الحنفاء ص ١٩٤ .

وفى أثناء ذلك كانت الشأم مسرحاً لعدة حوادث ، ففى دمشق خرج بعض القادة المحليين على حاكمها ظالم بن موهوب العقيلى ؛ وانتهى الخلاف بينهم بالاتفاق على تولية أحدهم وهو جيش بن الصمصامة حكم المدينة (ربيع الآخر ٣٦٤ هـ) . ولكن القلاقل استمرت مع ذلك وأضحت دمشق مسرحاً للشغب والفوضى ؛ فبعث المعز مولاه ريان والى طرابلس إلى المدينة لينظم شئونها ، ولكنه ما كاد يحل بها ، حتى أغار عليه أفتكين التركى[1] فى جمع من جنده ، وأخرجه من المدينة واستولى عليها وقطع خطبة المعز ، ودعا للخليفة الطايع العباسى ، وذلك فى شعبان سنة ٣٦٤ هـ .

وكان البيزنطيون (الروم) قد انتهزوا هذه الفرصة فغزوا شمالى الشأم . واستولوا على أنطاكية ، فبعث المعز جيوشه لقتالهم ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة بجوار طرابلس (٣٦٤ هـ) دارت فيها الدائرة على الفاطميين ؛ وتحالف الروم مع أفتكين المتغلب على دمشق ، فسار إليهم عندئذ ريان والى طرابلس فى جيش ضخم مزق شملهم ، ومع ذلك ، فقد لبث البيزنطيون حيناً يسيطرون على شمالى الشأم . ويحالفهم بنو حمدان أمراء حلب حسبما يجىء . ووصلت أنباء هذا النصر إلى المعز فى مرض موته ، ولم يمض طويل حتى توفى فى ١٤ ربيع الثانى سنة ٣٦٥ (ديسمبر سنة ٩٧٥ م) . بيد أنه لم يغادر هذه الحياة ، حتى كانت الخلافة الفاطمية تبسط سلطانها وإمامتها على المغرب ومصر والشأم حتى حلب والحرمين .

قال ابن الأثير : « وكان المعز عالما فاضلا جوادا شجاعا ، جاريا على منهاج أبيه من حسن السيرة ، وإنصاف الرعية ، وستر ما يدعون إليه إلا عن الخاصة . ثم أظهره وأمر الدعاة بإظهاره إلا أنه لم يخرج فيه إلى حد يذم »[2].

---

(١) هو أبو منصور افتكين أو هفتكين التركى الشرابى غلام معز الدولة بن بويه المتغلب على حكومة بغداد وكان من أكابر الجند ذوى النفوذ فى بلاط بغداد ، ولكنه هزم فى بعض الحروب الداخلية ، ففر فى بقية من جنده الى الشام ، واستطاع بمؤازرة بعض العناصر الناقمة فى دمشق أن يستولى على المدينة ، وأن ينتزعها من حاميتها الفاطمية ، ودعا افتكين فى دمشق للخليفة العباسى واستقدم إليه القرامطة ، وتحالف معهم على غزو مصر ، ولكنه فشل فى مشروعه على ما نوضح بعد .

(٢) ابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٠ .

وخلف المعز ولده العزيز بالله ، أبو منصور نزار ، ولبث فى الخلافة إحدى وعشرين سنة ؛ وكانت الدولة الفاطمية تعتمد منذ نشأتها حتى عهد المعز لدين الله على تأييد القبائل المغربية ذات البأس والعصبية ، وتصطفى زعماءها لمناصب الثقة والنفوذ ، مع استثناءات قليلة فى اصطفاء الموالى من الترك والصقالبة . ولكنها مالت فى عهد العزيز إلى اصطناع الموالى ولاسيما الترك ، واختار العزيز عدة منهم لمناصب الثقة والقيادة[١] . فولى بنجوتكين التركى القيادة وولاية دمشق ، ووفيا الصقلبى حكم عكا ، وبشارة الإخشيدى حكم طبرية ، ورباحاً حكم غزة ، وولى بَرْجَوان إمارة القصر ، فكان له أعظم شأن فيما بعد ؛ وأذكى هـــذا الاصطفاء للترك عوامل الحسد والنضال بين الترك والمغاربة[٢] . ومال العزيز أيضاً الى اصطناع اليهود والنصارى ؛ وكان الوزير أبو الفرج يعقوب ابن كلس أول وزراء الدولة الفاطمية بمصر وأعظمهم شأناً ؛ وكان يهودياً فأسلم فى عهد كافور الإخشيدي ، واتصل بالمعز قبل افتتاح مصر ، وعاونه فى تدبير الفتح كما قدمنا ؛ ووزر ابن كلس للمعز ثم لابنه العزيز من بعده زهاء اثنتى عشر عاما ، وكان أعظم رجال الدولة الفاطمية وأبعدهم نفوذاً ؛ وتولى الوزارة فى عهد العزيز أيضاً ، عيسى ابن نسطورس النصرانى ومنشا اليهوى ؛ وكان طبيب المعز هو موسى بن العازار اليهودى[٣] ، وكان طبيب العزيز بالله وطبيب ولده الحاكم من بعده ، نصرانى يدعى أبو الفتح منصور بن مقشر المصرى ، وكانت له منزلة سامية فى الدولة[٤] . وكانت السياسة الفاطمية تذهب إلى أبعد حد من التسامح نحو الذميين ؛ وفى بعض الروايات أن الخلفاء الفاطميين كانوا يشجعون إقامة الكنائس والبيع والأديار ، بل ربما تولوا إقامتها بأنفسهم أحياناً[٥] .

وبلغ نفوذ النصارى واليهود ذروته فى عصر العزيز ، واستولى الوزراء

---

(١) اتعاظ الحنفاء (نسخة استانبول المخطوطة) لوحة ٥٠ ا .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٧ ، وخطط المقريزى ج ٣ ص ١٧ .

(٣) اتعاظ الحنفاء ص ١٩٦ .

(٤) ابن العبرى ، مختصر تاريخ الدول (طبعة اليسوعيين) ص ٣١٦ .

(٥) تاريخ أبى صالح الأرمنى ، لوحة ٣٩ ا و ٤١ ا .

والكتاب الذميون ، على معظم أعمال الدولة ، واستأثروا بمعظم السلطات والنفوذ ؛ وقد كان لهذا التسامح المغرق أثر سيئ فى المجتمع المصرى ؛ وتنقل الرواية إلينا فى ذلك قصة خلاصتها أن العزيز بالله رأى ذات يوم فى طريق الركب الخلافى امرأة تمد يدها برقعة كأنها ظلامة ، فتناولها ، فإذا بالمرأة هيكل من الجريد قد ألبس إزاراً ، وإذا فى الرقعة ما يأتى . « بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك ألا ما كشفت ظلامتى . . » ، فأدرك العزيز ما انتهت إليه نفسية الشعب من تحكم الأقلية الذمية فى شؤونه ؛ وسواء أصحت هذه الرواية أم كانت فقط أسطورة ذات مغزى ، فإن هذه السياسة لم تلبث أن أثارت عاصفة من السخط ، ولم يلبث أن أدرك العزيز خطرها على سلطان الخلافة ، وهيبة إمامتها المذهبية ، فانقلب الى مطاردة الذميين ، وقبض على ابن نسطورس وزملائه من الوزراء والكتاب الذميين ، وغرمهم أموالا طائلة ، ولكنه عاد فأفرج عنهم بتأثير ابنته سيدة الملك (ست الملك) وتأثير زوجه النصرانية ، بعد أن اتخذ بعض الضمانات التى تكفل الحد من طغيانهم ، وإسرافهم فى سياسة الاصطفاء ، واشترط على ابن نسطورس أن يولى المسلمين فى الدواوين(١) . وسنرى ماذا كان من تأثير هذه السياسة فى عصر الحاكم بأمر الله .

وفى أوائل عهد العزيز زحف القرامطة وحليفهم أفتكين على مصر مرة أخرى ، فلقيتهم جيوش العزيز بقيادة جوهر بالرملة من أعمال فلسطين وردتهم نحو الشمال ؛ وزحف جوهر الى دمشق ، ولكنه لم يستطع افتتاحها ، فارتد الى الجنوب ، فداهمه القرامطة فى عسقلان ، ووقعت بين الفريقين معارك عديدة ارتد جوهر على أثرها الى مصر ؛ فسار العزيز بنفسه الى لقاء القرامطة ، وقاتلهم فى الرملة قتالا شديداً وهزمهم وأسر أفتكين ، ولكنه عفا عنه (سنة ٣٦٨ هـ — ٩٧٨ م) .

وعنى العزيز بشؤون الشام ، فاختار لولايتها غلامه بنجوتكين التركى ، وقدمه على الجيش ليحاول فتح حلب ، إجابة لدعوة بعض زعمائها

(١) الوزير جمال الدين فى أخبار الدول المنقطعة (مخطوط فتوغرافى بدار الكتب رقم ٨٩٠ تاريخ) . وابن الأثير ج ٨ ص ٤٠ .

الناقمين ؛ فسار بنجوتكين الى دمشق ، وبعد أن نظم شؤونها سار الى حلب ، وأميرها يومئذ أبو الفضائل بن حمدان حفيد سيف الدولة أميرها الأشهر ؛ وكان بنو حمدان حينما رأوا توغل الفاطميين فى الشأم ، قد تحالفوا مع باسيل الثانى إمبراطور قسطنطينية وأعلنوا له الخضوع وقبلوا أداء الجزية .

وكانت الدولة البيزنطية ، ترى منذ استولى الفاطميون على مصر والشأم ، أن هذه القوة الإسلامية الجديدة تمثل خطراً جديداً عليها ، تجب مقاومته قبل أن يستفحل ؛ ولما زحف القرامطة على الشأم ، وعمه الاضطراب والفوضى ، انتعشت آمال السياسة البيزنطية حينا ؛ فلما تحطم خطر القرامطة ، ضاعف البيزنطيون جهودهم لمنازلة الفاطميين ، وألفوا فى بنى حمدان تكأة حسنة لهذا النضال . وكانت الدولة البيزنطية تجوز فى أواخر القرن التاسع وأوائل القرن العاشر مرحلة من القوة والنهوض فى عصر الأسرة البسيلية ، ولاسيما عهد الإمبراطور باسيل الثانى (٩٧٦ — ١٠٢٥م) ، معاصر العزيز بالله ، وولده الحاكم بأمر الله ، وكانت السياسة البيزنطية كعادتها تشجع كل عناصر الانتقاض والخروج فى المملكة الإسلامية ؛ فلما زحفت القوات الفاطمية على حلب ، استغاث أبو الفضائل ووزيره لؤلؤ بالإمبراطور ، وكان باسيل الثانى يومئذ مشتغلا بمحاربة البلغاريين ، فأرسل الى قائده بأنطاكية نيقفوروس أورانوس (ويعرف فى الرواية العربية بالبرجى) بمحاربة المصريين وردهم عن حلب ، فالتقى المصريون بالبيزنطيين على ضفاف نهر « الأرند » أو نهر العاصى ، ونشبت بين الجيشين معركة طاحنة هزم فيها البيزنطيون وأسر قائدهم ، وطاردهم المصريون حتى أنطاكية وقتلوا منهم مقتلة عظيمة (٣٨١هـ — ٩٩١ م) . وسار بنجوتكين بعدئذ الى حلب ، ولكنه لم يهاجمها نزولا على نصح بعض خاصته ، وارتد الى دمشق بحجة نفاد الأقوات ، فاستاء العزيز لذلك ، وبعث الأقوات فى البحر الى قائده ، وأمره بافتتاح حلب مهما كلفه الأمر ، فسار بنجوتكين إليها فى العام التالى وضرب حولها الحصار ؛ وارتاع بنو حمدان لذلك ، وأرسل الوزير لؤلؤ الى الإمبراطور يستصرخه ، ويصور له سوء العاقبة إذا سقطت حلب ، فخشى باسيل الثانى تقدم المصريين نحو أراضيه ، وسار بنفسه الى الشام فى جيش تقدره الرواية بمائة ألف ،

وانضم إليه أبو الفضائل ولؤلؤ ، ونزل باسيل أولا على حصن شيزر على مقربة من حماة ، فانتزعه من يد قائده الفاطمى ، ثم سار الى حمص فافتتحها وعاث فى أعمالها وقتل وأسر كثيراً من أهلها ؛ وبعدئذ سار الى طرابلس وحاصرها أربعين يوما ، ولكنه لم يظفر بافتتاحها ، ولزم الفاطميون خطة الدفاع فى كل ناحية (٣٨٥ هـ — ٩٩٥ م) . وعاد باسيل الى قسطنطينية بعد أن بسط سلطانه على معظم ساحل الشام[١] .

وجزع العزيز لتطور الحوادث فى الشام على هذا النحو ، فعول على السير إليها بنفسه ، فخرج إلى بلبيس فى جيشه ، ولكن المرض اشتد عليه فجأة ، فتخلف هنالك أياما ، ثم أدركه الموت ، فتوفى فى ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ (سبتمبر سنة ٩٩٦)[٢] . فخلفه يوم وفاته ولده وولى عهده أبو على منصور ، ولقب الحاكم بأمر الله ، وكان العزيز قد استدعاه إليه حين شعر بدنو أجله ؛ وفى اليوم التالى سار الحاكم إلى القاهرة ومعه جثة أبيه فى موكب فخم مؤس معاً .

وفى عهد العزيز ، اشتدت حركة الإنشاء والتعمير ، فأنشئت أو جددت فى أيامه صروح ومنشآت عديدة ، منها قصر الذهب بالقاهرة ، وجامع القرافة ، وجامع القاهرة الذى أتمه ولده الحاكم وسمى باسمه ، وبستان سردوس ، وقصور عين شمس ، ودار الصناعة بالمقس ، وقنطرة الخليج القديمة التى بناها عبد العزيز بن مروان ، وغيرها .

ووضع العزيز عدة تقاليد فاطمية جديدة فى المظاهر والرسوم ، فكان أول خليفة فاطمى رمى بالنشاب ، وأول من ركب منهم بالذؤابة الطويلة والحنك ؛ وضرب الصوالجة ، ولعب بالرمح ، واتخذ الحمير لركوبه أحياناً ، وأول من عمل مائدة فى الشرفة السفلى فى شهر رمضان لأهل الجامع العتيق ، وأقام طعاماً فى جامع القاهرة (الجامع الأزهر) لمن يحضر فى رجب وشعبان

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٣١ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١١٩ — ١٢١ ، وراجع أيضاً : Finlay, Byzantine Empire (Everyman) p. 355-56

(٢) هذه هى الرواية الراجحة عن وفاة العزيز وبها يقول ابن الأثير (ج ٩ ص ٤٠) . وهناك رواية أخرى هى أن العزيز توفى بالقاهرة قبل خروجه الى الشام (النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢١) .

ورمضان ، وأول من ركب فى الجمع من رمضان وصلى بالناس ، وأول من بنى دار الفطرة ، وقرر فيها ما يحمل إلى الناس فى العيد .

وكان العزيز ، مثل أبيه المعز ، جواداً ، كثير الجود والصلات . وقد سأله أبو جعفر محمد بن حسين بن مهذب صاحب بيت المال ذات يوم ، أن يأذن له فى أن يقدم القروض إلى الكتاب والمتصرفين ممن يثق بهم ، وذلك من مال العزيز الخاص ، لأن بيت المال لا يكفى ، فأذن له العزيز أن يفعل ، وألا يطالب من عجز عن رده ، وأن يقبض يده عمن يستطيع الرد ، ولا يفعل[1] .

وأما عن شخصه ، فقد كان العزيز أسمر ، طويلا ، أصهب الشعر ، أعين ، أشهل ، عريض المنكبين ، شجاعاً ، كريماً ، حسن العفو عند المقدرة ، يحب العفو ويستعمله ، عيوفاً عن سفك الدماء[2] .

وفى عهد العزيز بالله اتسع نطاق الدعوة الفاطمية اتساعاً عظيما ، ودعى للخليفة الفاطمى فى الموصل واليمن ، وبذا انكمشت الدعوة العباسية فى حدود ضيقة ، وتضاءل سلطانها الروحى ، كما تضاءل سلطانها السياسى .

---

(١) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٠ ا .

(٢) الخطط ج ٤ ص ٦٧ . واتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٠ ب .

الفصل الخامس

بداية عصر الحاكم بأمر الله

مصر أسطع جوهرة فى تاج الفواطم . بهاء العصر الفاطمى وغموضه . الحاكم بأمر الله . مولده . من هى أم الحاكم ؟ زوج العزيز النصرانيـــة . أخواها الحبران اريسطيس وارسانيوس . تبوؤهما أرفع المناصب الكنسية . أثر هذه المصاهرة فى سياسة العزيز نحو النصارى . الأميرة ست الملك ابنة العزيز ونفوذها لديه . الزوجة النصرانيـــة أم الأميرة . الريب فى كونها ام الحاكم . السيدة العزيزية . الحاكم ولى العهد . مبايعته بالخلافة . الحاكم ووالده المحتضر . الموكب الخلافى المؤسى . إقرار محمد بن النعمان لولاية القضاء . أوصياء الدولة . موقف كتامة . الحسن بن عمار وبرجوان الصقلبى . طغيان ابن عمار واستئثار المغاربة بالنفوذ . عيثهم فى شؤون الدولة ومرافقها . المنافسة بين برجوان وابن عمار . الحرب بين بنجوتكين والمغاربة . هزيمة بنجوتكين واشتداد بأس المغاربة . تربص برجوان بابن عمـــار . الحرب بين قوى الفريقين . هزيمة ابن عمار واحتجابه . استئثار برجوان بالسلطة واستبداده بالشؤون . نقضه لتصرفات ابن عمار . سجل الحاكم بولاية باديس بن يوسف أمير تونس . طريقة الحاكم فى العمل والركوب يومئذ . جلوســه للاستماع للشعراء . قمع برجوان للفتنة ومحاربته للبيزنطيين . تحطيمه لنفوذ المغاربة . اصطناعه للترك والصقالبة . تعيين الحسين بن النعمان لولاية القضاء . توجيهات الحاكم لإقرار العدالة . موقف الخليفة الصبى خلال هذه الفترة . شعوره بطغيان برجوان . استهتار برجوان وغطرسته . غضب الحاكم وحنقه . مقتل برجوان . وقع الحادث . اهتمام الحاكم بإيضاح موقفه . خطابه فى ذلك وسجله . الحسين بن جوهر مدبر الدولة . طريقته فى العمل . مجلس الدولة الليلى . اصطفاء الحاكم للمغاربة . حوادث أخرى .

كانت مصر غنما يسيراً للدولة الفاطمية الفتية ؛ ولكنها كانت أسطع جوهرة فى تاجها ، وأعظم قطر فى تلك الإمبراطورية الشاسعة التى أصبحت تسيطر عليها . ولقد كان قيام هذه الدولة القوية الشامخة فى مصر مستهل عهدها الذهبى ،

ومفتتح تلك العظمة وذينك البهاء والبذخ ، التى نثرتها من حولها : وطبعت بها حياة مصر العامة عصراً مديدا ؛ وكانت مصر بخصبها ونعمائها ، وفيض مواردها ، أعظم دعامة فى هذا الصرح الباذخ الفخم ، فالعصر الفاطمى من أسطع عصور مصر الإسلامية إن لم يكن أسطعها جميعا . غير أن هذا العصر الذهبي يبعث إلى كثير من التأمل ، فبينما نراه وضاء واضحا فى بعض النواحى ، إذ نراه فى بعضها الآخر مظلما مغلقا ، وإذا هذه الخلافة القوية الساطعة ، يكتنفها كثير من الخفاء والغموض والريب ، وإذا تتبدى لنا فى هذا الصرح الساطع البراق ، ثغرات قائمة لا نستطيع أن نسبر غورها أو نظفر بقرارتها ، ويشتد هذا الخفاء والغموض بالأخص ، كلما حاولنا أن نستعرض من هذا العصر نواحيه الدينية والمعنوية ، فهنا تبدو من آن لآخر ظلمات يصعب استجلاؤها ؛ على أننا سنحاول أن نستعرض فى هذا الكتاب من العصر الفاطمى مرحلة ، ربما كانت أشد مراحله خفاء وغموضا ، وربما كانت مع ذلك أدعى إلى الاهتمام والدرس ، لما تعرضه لنا من حوادث وظروف وخواص مدهشة ، ولما تسفر عنه أحياناً من الحقائق والأسرار الغريبة ، التى تلقى كثيراً من الضياء على روح السياسة الفاطمية الدينية والمدنية ، وعلى حقيقة وجهاتها وغاياتها .

نريد بذلك عصر الحاكم بأمر الله ، أغرب وأغمض شخصية فى تاريخ مصر الإسلامية ، وربما فى التاريخ الإسلامى بأسره .

— ١ —

ولى الحاكم بأمر الله الخلافة حدثاً دون الثانية عشرة[١] ، وكان مولده بالقصر الفاطمى بالقاهرة المعزية ، فى الثالث والعشرين من ربيع الأول سنة ٣٧٥ هـ (١٣ أغسطس سنة ٩٨٥ م) وأمه أم ولد ، وقد كانت حسبما تقول الرواية الكنسية المعاصرة ، جارية رومية نصرانية من طائفة الملكية[٢] ، وكان

(١) كان عمره بالضبط إحدى عشرة عاماً وخمسة أشهر وستة أيام (المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٦٨) ، واتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول لوحة ٥٠ ب) .

(٢) فى سنة ٤٥١ م حدث شقاق فى الكنيسة القبطية ، على أثر ما وقع فى مجمع خلقيدونه الكنسى من الجدل اللاهوتى ، ورفض الأقباط الخضوع لقرارات هذا المؤتمر ، فاعتبرهم الإمبراطور كفرة ؛ واختار للإسكندرية بطريركا من قبله عرف أتباعه بالملكية ، وهم الأقباط الكاثوليك وأنصار الإمبراطور ، وعرف الأقباط الخارجون وهم الكثرة باليعاقبة والمنوفسية .

لها أيام العزيز نفوذ عظيم فى الدولة[1] ، وكان لهذا النفوذ أثره بلا ريب فى سياسة التسامح الواضح التى اتبعها العزيز نحو النصارى ، وفى تقوية جانبهم ونفوذهم ، وتمكنهم من مناصب النفوذ والثقة كما رأينا . وكان لهذه السيدة النصرانية أخوان هما أرسانيوس (أو أرسانى) وأريسطيس ، رفعهما العزيز بتدخله ونفوذه إلى ذرى المناصب الكنسية ، فعين أريسطيس بطريركا للملكية ببيت المقدس (سنة ٣٧٥ هـ — ٩٨٥ م) ، وعين أرسانيوس فى نفس العام مطراناً للقاهرة ، ثم عين بعد ذلك بطريركا للملكية بالإسكندرية (سنة ٣٩٠ هـ — ١٠٠٠ م)[2] ، وقد كان لهذه المصاهرة أثرها أيضاً فى سياسة العزيز نحو النصارى ، وقوى جانب الطائفة الملكية يومئذ ، ووضعت يدها على بعض كنائس اليعاقبة ؛ وكان للحبرين نفوذهما بلا ريب ، فى بلاط يرتبط معهما بأواصر المصاهرة ، وفيه أختهما « زوج »[3] الخليفة الراحل ، وأم

(١) وردت هذه الرواية وغيرها مما نشير إليه فيما بعد ، فى مخطوط كنسى هام يسمى « سير البيعة المقدسة » ، وهو ذيل لكتاب « سير الآباء البطاركة » الذى وضعه ساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين فى عهد المعز والعزيز فى تاريخ بطاركة الإسكندرية ، ووقف فى كتابته حتى أوائل الدولة الفاطمية . وقد طبع هذا القسم بعنوانه المذكور فى بيروت بعناية اليسوعيين . ولكن هذا الكتاب استؤنفت كتابته باسم « سير البيعة المقدسة » حيث وقف ساويرس ، واشترك فى كتابة هذه السير عدد من الأحبار المتعاقبين ، وتولى كتابة القسم الخاص بعصرى العزيز والحاكم ، قس معاصر يدعى الأب ميخائيل « كاتب السنوديقابكرسى مار مرقص » (البطريركية) كما يقول لنا ذلك خلال الكتاب ، فكتب سيرة الأنبا فيلاتاوس البطرك الثالث والستين وهو معاصر العزيز ، ثم الأنبا زخاريا البطرك الرابع والستين وهو معاصر الحاكم بأمر الله ، وأورد الكاتب خلال حديثه كثيراً من الأقوال والروايات الهامة عن الحاكم وحياته الخاصة والعامة . وقد وفقت دار الكتب الى اقتناء نسخة فتوغرافية كاملة لهذا المخطوط الكنسى الهام (وتحفظ برقم ٦٤٣٤ ح) ، وهذا المخطوط هو الذى نشير إليه فيما بعد بأنه « المخطوط الكنسى » .

(٢) راجع تاريخ الأنطاكى ص ١٦٤ و ١٦٥ و ١٨٥ و ٢٩٨ . والمكين ابن العميد ص ٢٤٧ .

(٣) يقول ابن العميد إنها كانت زوجته (ص ٢٤٧) ، بينما تقول الرواية الكنسية المشار إليها إنها كانت جاريته وسريته .

ولده الخليفة القائم . ولم يترك العزيز من البنين سوى الحاكم[١] ، ولكنه ترك من زوجه أو جاريته النصرانية أيضاً ، ابنة هى ست الملك التى أشرنا إليها فيما تقدم ، وكانت تكبر أخاها الحاكم بنحو خمسة عشر عاما ؛ فقد ولدت بالمغرب سنة ٣٥٩ هـ (٩٧٠ م) ، وكانت عند وفاة أبيها فى السادسة والعشرين من عمرها ؛ وكانت حازمة عاقلة ، قوية العزم بصيرة بالأمور[٢] ، وكان والدها العزيز يحبها ويستمع إلى نصحها فى كثير من الأمور ، وكان لها أثر ظاهر فى توجيه سياسته نحو النصارى ، فكلما هبت بادرة من السخط أو الميل إلى اضطهادهم ، تدخلت لتلطيفها والعود إلى سياسة التسامح ؛ وسنرى فيما بعد أى دور خطير تضطلع به ست الملك فى مجرى الحوادث والشؤون .

وهنا تعرض نقطة غامضة . ذلك أن الرواية النصرانية هى التى تنقل إلينا أن زوجة العزيز أو أم أولاده كانت رومية نصرانية ؛ وتنقل إلينا فى موطن واحد فقط أنها هى أم ولده الحاكم ، فتقول لنا الرواية الكنسية (القبطية) المشار إليها : « وكان الملك العزيز بالله بن المعز لدين الله ، قد رزق ولداً من سرية له رومية . وجلس فى الملك من بعده ، ولقب بالحاكم بأمر الله ، وكان للسرية المذكورة التى هى أم الحاكم أخ اسمه أرسانى ، فجعلته بعنايتها بطريرك الملكية . . . الخ »[٣] . ولكنها تنقل إلينا فى غير موطن أنها أم ابنته ست الملك فقط ، دون الإشارة إلى أنها أم الحاكم ، فيقول لنا يحيى الأنطاكى مثلا ، وهو مؤرخ نصرانى معاصر : « وفى شهر رمضان سنة خمس وسبعين وثلثمائة ، صير أريستس خال السيدة ابنة العزيز بالله بطريركا على بيت المقدس ، أقام عشرين سنة ومات بالقسطنطينية ، وصير أخوه أرسانيوس أيضاً مطراناً على القاهرة ومصر »[٤] . ويقول لنا المكين ابن العميد فى صراحة ووضوح « إن العزيز بالله صاحب مصر تزوج امرأة نصرانية ملكية ورزق منها بنتاً ،

---

(١) رزق العزيز قبل ولده الحاكم بابن اسمه محمد ، ومنحه ولاية عهده ، ولكنه توفى إبان حياته (نهاية الأرب ، نسخة دار الكتب الفتوغرافية ج ٢٦ ص ٥٠) .

(٢) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٦١ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٥ .

(٣) راجع المخطوط الكنسى المشار إليه .

(٤) تاريخ الأنطاكى ص ١٦٤ .

وكان للمرأة أخوين أحدهما اسمه أرميس (أريستس) صيره بطريركا على بيت المقدس ، والآخر أرسانيس صيره بطريركا للملكية على القاهرة ومصر ، وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته »[1] . هذا بينما تلزم الرواية الإسلامية الصمت إزاء هذه المسألة كلها ، ولا تشير إلى أم الحاكم إلا بأنها « السيدة العزيزية »[2] ، بل نرى المقريزى يشير إلى أرسانيوس وولايته لمنصب البطريركية دون الإشارة إلى أنه صهر العزيز أو خال ست الملك[3] . ومما يبعث إلى التأمل أنه إذا كانت هذه السيدة النصرانية هى أم ست الملك ، فإن العزيز يكون قد تزوجها أو تسراها ، وهو ولى عهد بالمغرب قبل سنة ٣٥٩ هـ — وهو تاريخ مولد ابنته — ففى أى ظرف حصل هذا الزواج أو التسرى ؟ وفى أى ظرف وقعت هذه الجارية الرومية الملكية فى يد البلاط الفاطمى بالمغرب؟ هذا ما لا توضحه لنا الرواية . ومن جهة أخرى فإن الرواية الكنسية المعاصرة ، هى التى تنفرد بالقول بأن هذه السيدة هى أيضاً أم الحاكم ، هذا بينما تكرر الرواية النصرانية المعاصرة والمتأخرة أنها هى أم ست الملك فقط ؛ ولو كانت نفس الأم هى أم الحاكم ، وهو الخليفة وشخصيته أهم من شخصية أخته ، لما ترددت الرواية فى ذكر هذه الحقيقة . وقد ولد الحاكم بعد مولد أخته بستة عشر عاماً (سنة ٣٧٥ هـ) ، ولم يرزق العزيز خلال هذه الفترة إلا بابن واحد هو محمد الذى توفى طفلا ، وفى ذلك أيضاً ما يبعث إلى التأمل .

أفلا نستطيع على ضوء هذه الملاحظات ، أن نرتاب فى هذا القول الذى تنفرد به الرواية الكنسية ، وأن نعتقد أن هذه السيدة النصرانية ، كانت أماً لست الملك فقط ، وأن « السيدة العزيزية » التى تشير إليها الرواية الإسلامية بأنها أم الحاكم ، هى سيدة أخرى وأنها هى الزوجة الشرعية ؟ هذا ما نميل إلى الأخذ به خصوصاً إذا ذكرنا موقف ست الملك من النصارى وهو موقف عطف دائماً ، وموقف أخيها الحاكم وهو موقف اضطهاد وقسوة لا مثيل لهما ؛ وصمت الرواية الإسلامية فى هذا الموطن لا يمكن أن يحمل على أنه

(١) المكين ابن العميد ص ٢٤٧ .

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٢٠٧ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ٣٩٨ .

صمت تحفظ وإغضاء ؛ لأن الرواية الإسلامية تقدم إلينا ثبتاً حافلا من الخلفاء ، الذين ولدوا من أمهات من النصارى ، وفى مقدمتهم عبد الرحمن الناصر أعظم خلفاء الأندلس ، وتذكر لنا أمهاتهم .

ومنح العزيز ولاية عهده لابنه الحاكم مذ كان طفلا فى الثامنة (شعبان سنة ٣٨٣) ، وبويع بالخلافة فى بلبيس يوم وفاة أبيه ؛ وذلك فى عصر يوم الثلاثاء ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦ هـ . وقد انتهى إلينا وصف بعض المناظر ، التى أحاطت بتولية الخليفة الصبى ، وهى مناظر شائقة مؤسية معاً ، نقلها إلينا مؤرخ معاصر هو المسبِّحى مؤرخ الدولة الفاطمية ، ووزير الحاكم وصديقه فيما بعد ، نقلا عن الحاكم ذاته ، قال : « قال لى الحاكم ، وقد جرى ذكر والده العزيز : يا مختار استدعانى والدى قبل موته ، وعليه الخرق والضماد ، فاستدنانى إليه وقبلنى وضمنى إليه وقال : وا غمى عليك يا حبيب قلبى ، ودمعت عيناه . ثم قال : امض يا سيدى والعب ، فأنا فى عافية ؛ قال : فمضيت ، والتهيت بما يلتهى به الصبيان من اللعب ، إلى أن نقل الله سبحانه وتعالى العزيز إليه . قال : فبادر بَرْجَوان ، وأنا فى أعلى جميزة كانت فى الدار ، فقال : انزل ويحك ، الله الله فينا وفيك ، قال فنزلت فوضع العمامة بالجوهر على رأسى وقبل لى الأرض ، وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته ، قال : وأخرجنى حينئذ إلى الناس على تلك الهيئة ، فقبل جميعهم لى الأرض وسلموا على بالخلافة »[1] .

وقع هذا المنظر فى مدينة بلبيس حيث أدرك العزيز مرض موته كما قدمنا ؛ وفى صباح اليوم التالى — وهو يوم الأربعاء ٢٩ رمضان — سار الحاكم إلى عاصمة ملكه فى موكب فخم تظلله أبهة الخلافة ، رهيب يظلله جلال الموت ، وأمامه جثة أبيه ؛ وقد وضعت فى عمارية برزت منها قدماه ، وعلى رأسه المظلة يحملها ريدان الصقلبى ، وبين يديه البنود والرايات ، وقد ارتدى دراعة مصمت ، وعمامة يكللها الجوهر ، وتقلد السيف ، وبيده

---

(١) راجع ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠١ ، ولم يصل إلينا تاريخ المسبحى ذاته ، وإنما وصلتنا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين . وقد تحدثنا فيما بعد عن المسبحى ، فى الكتاب الثالث » .

رمح . فدخل القاهرة عند مغيب الشمس فى هذا الحفل الرهيب الفخم ؛ وفى الحال أخذ فى تجهيز أبيه ، فتولى غسله قاضى القضاة محمد بن النعمان ، ودفن عشاء الى جانب أبيه المعز فى حجرة القصر . وفى صباح اليوم التالى ، أعنى يوم الخميس ، بكر سائر رجال الدولة الى القصر ، وقد نصب للخليفة الصبى فى الإيوان الكبير ، سرير من الذهب ، عليه مرتبة مذهبة ؛ وخرج من القصر الى الإيوان راكباً وعلى رأسه معممة الجوهر ، والناس وقوف فى صحن الإيوان ، فقبلوا الأرض ، ومشوا بين يديه حتى جلس على عرشه ، وسلم عليه الجميع بالإمامة ، وباللقب الذى اختير له وهو : « الحاكم بأمر الله » . ونودى فى القاهرة والبلدان ، أن الأمن موطد والنظام مستتب . فلا مؤنة ولا كلفة ، ولا خوف على النفس أو المال[1] .

وكان أول سجل صدر عقب التولية ، سجل بإقرار تعيين محمد بن النعمان فى القضاء ، وأن يوكل إليه أمر الدعوة ، والصلاة بالناس نيابة عن أمير المؤمنين . وعلى أثر ذلك كتب سجل آخر ، من إنشاء أبى منصور بن سورين الكاتب وبخطه ، قرأه القاضى محمد بن النعمان بالجامع (الجامع الأزهر) وهو يتضمن وراثة الحاكم الملك عن أبيه ، ويعد الرعية بحسن النظر إليهم ، ويعلن فيه إسقاط بعض مكوس كانت بالساحل ، فكان لذلك فى الناس أطيب وقع[2] .

وأوصى العزيز قبل موته بولده ، ثلاثة من أكابر رجال الدولة هم : بَرْجَوان الصقلبى خادمه وكبير خزائنه ، والحسن بن عمار الكتامى زعيم كتامة ، أقوى القبائل المغربية وعماد الدولة الفاطمية منذ نشأتها ، ومحمد ابن النعمان قاضى القضاة . وعهد بالوصاية الفعلية الى الأول والثانى . وكان زعماء كتامة ، قد تخلفوا عن البيعة أولا ، وطلبوا صرف الوزير عيسى ابن نسطورس ، وأن يوكل الأمر لأحد منهم . وكان هذا هو الذى رتبته وصية العزيز بالفعل[3] . وكان برجوان ، ويسمى أبا الفتوح ، خصياً

---

(١) نقل إلينا ابن خلكان وصف هذه المناظر عن صاحب تاريخ القيروان (ج ٢ ص ٣٠١) . وراجع أيضاً خطط المقريزى ج ٤ ص ٦٨ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٢٣ .

(٢) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥١ ا .

(٣) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥١ ب .

صقلبياً ، ربى فى القصر ، واصطفاه العزيز بالله وولاه إمارة القصر ، وخلع عليه لقب « الأستاذ » وهو من ألقاب الوزارة فى الدولة الفاطمية ، وعهد إليه بمهام الأمور ، وأولاه ثقة عظيمة . وكان ابن عمار رجلا قوى الشكيمة ، وافر العصبة ، ولكن برجوان كان بظروفه وطبيعة منصبه ، أوثق اتصالا بالخليفة الصبى ، وأشد تأثيراً فيه ومقدرة على توجيهه ، فلم يلبث أن نشب الخلاف بين الرجلين ، واشتدت المنافسة بينهما ؛ وقام ابن عمار بتدبير الشؤون بادئ ذى بدء ، ولقب فى سجل تعيينه بأمين الدولة ، وهو أول لقب من نوعه فى الدولة الفاطمية . وكان الوزير ابن كلّس قد عمل أيام المعز والعزيز على مقاومة كتامة وإضعاف نفوذها ، فعمل ابن عمار لإعادتها الى سابق مكانتها ونفوذها ، وعين أبا عبد الله الموصلى فى الكتابة ، واستخلفه على أخذ رقاع الناس وتوقيعاتهم ، وأقر عيسى بن نسطورس على ديوان الخاص[1] ؛ وظهر ابن عمار بمظهر الطاغية المطلق ، فكان يدخل القصر ويغادره راكباً ، ويجلس بجوار غرفة الحاكم ، وألزم جميع الناس بالترجل له ، وأغلق بابه إلا على الخاصة والأكابر من شيعته ، وأغدق الأموال والأعطية على كتامة ، ففرق فيهم كثيراً من جوارى القصر ، وأعتق عدداً كبيراً منهم توفيراً للنفقة ، وقطع معظم الرسوم والأرزاق ، التى كانت مقررة للغلمان الترك ، واستولى أحداث المغاربة على وظائف الدولة ، واقتسموا سلطاتها ، وعاثوا فى شؤونها ومرافقها ، وكثر اعتداؤهم على الناس وعلى أموالهم ، وابن عمار يغضى عن عيثهم وعدوانهم[2] . وحرضه بعضهم على قتل الحاكم والتخلص منه ، فأبى استصغاراً لشأنه أو رهبة من العواقب . وأدرك برجوان ما يهدده وسيده من خطر . فكاتب بنجوتكين واستدعاه بقواته من الشام ، واستعد ابن عمار من جانبه ، وأذاع أن بنجوتكين ينوى الخروج والثورة ، وجهز لقتاله جيشاً معظمه من كتامة ، أسندت قيادته الى أبى تميم سليمان بن جعفر بن فلاح (أواخر

(١) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥١ ا .

(٢) راجع نهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج ٢٦ ص ٥٢ ، والأنطاكى ص ١٨١ ، وابن خلكان ج ٢ ص ٢٠١ ، وابن الأثير ج ٩ ص ٤٠ ، والمقريزى فى الخطط ج ٣ ص ٥٧ و ٥٨ . وكذلك اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٢ ا و ب .

سنة ٣٨٦ هـ) ، فلما علم بنجوتكين بخروجه ، سار فى قواته جنوباً الى الرملة (فلسطين) متأهباً لقتاله ؛ ولقيه سليمان لأول مرة عند رفح وهزمه ؛ فاستنجد بنجوتكين بابن الجراح الطائى ، فانضم إليه بجموعه من الأعراب ، ولقيهم سليمان بظاهر عسقلان ، فهزم بنجوتكين مرة أخرى ومزقت قواته ؛ ولكن ابن عمار أعلن العفو عنه (جمادى الأولى سنة ٣٧٨ هـ — ٩٩٧ م) . وبعث سليمان أخاه علياً فى قوة الى دمشق ؛ وبعث الى ابن الجراح يطالبه بأن يبعث بنجوتكين الى القاهرة ، وأنه لن يلقى سوءاً ، فبعث به ، ودخل القاهرة فى رجب ، وأنزل فى إحدى الدور مكرماً . ولبث بنجوتكين مقيما بالقاهرة ، متمتعاً بعطف الحاكم ورعايته ، حتى توفى بعد ذلك بعشرة أعوام ، فى أواخر سنة ٣٩٧ هـ[1] .

وهكذا اشـــتد ساعد كتامة ، وبالغ زعماؤها فى الاستئثار بالسلطات والولاية ، واشتد عيثهم وطغيانهم ، وعزل أصدقاء برجوان عن مناصبهم ومنهم جيش بن الصمصامة والى طرابلس ؛ ولاح مدى حين أن كفة كتامة قد رجحت فى كل شىء ، وأن نفوذ برجوان والصقالبة سيقضى عليه ؛ ولكن برجوان كان ساهراً يرقب ابن عمار ، ويتلمس الفرص لمناوأته وإسقاطه ، ويدس له الدسائس ويؤلب عليه زعماء الجند الناقمين ، فلم يمض عام حتى تفاقمت الصعاب والأحقاد من حوله ؛ وشعر ابن عمار بحرج موقفه وأخذ يعد العدة للدفاع عن نفسه ، وأخذ كل من الفريقين يتحين الفرص للإيقاع بخصمه ، وانضوى الزعماء الناقمون مثل بنجوتكين وابن الصمصامة ، تحت لواء برجوان والصقالبة . وأخيراً وقع الانفجار ، ووثبت جماعة كبيرة من الزعماء والجند بتحريض برجوان وتدبيره ، وهاجمت الكتاميين فى ظاهر القاهرة (شعبان سنة ٣٨٧) ، وأثخنت فيهم ، وهوجمت دار ابن عمار ونهبت ، فتحول الى داره بمصر ، وتوارى حيناً ، واضطر أن يترك الميدان حراً لمنافسه . عندئذ عُهد بالنظر الى برجوان (أواخر رمضان) ، وقبض برجوان على زمام الأمور بقوة ، وبالرغم من أن الحاكم لم يلبث أن رد ابن عمار الى منصبه وامتيازاته ، مصانعة منه لكتامة وضما لتسكينها وطاعتها ، فإن برجوان

---

(١) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥١ ب و ٥٢ ا .

استأثر بكل سلطة حقيقية داخل البلاط وخارجه . وكان فى مقدمة ما عمله أن جمع الغلمان الترك ونهاهم عن الشغب والتعرض للكتاميين والمغاربة ، وأجرى الرسوم والرواتب التى قطعها ابن عمار ، وأجرى لابن عمار نفسه وآله ماكان يجرى لهم أيام العزيز ، واختار لمعاونته كاتباً نصرانياً هو أبو العلاء فهد ابن إبراهيم ولقبه بالرئيس ، وفوض إليه النظر والتوقيع والمراجعة ، ورتب الغلمان فى القصر ، وأكد عليهم فى ملازمة الخدمة وتفقد أمور الناس ، ومنع من الوساطة ، وكان يستقبل الناس فى داره ثم يسير بهم الى القصر[1]. ولزم برجوان الحاكم يقيم معه بالقصر ، ويسهر على توجيهه ، ويستأثر لديه بكل صلة ونفوذ ، واستبد بكل أمر فى الدولة ، واستقرت الأمور حيناً ؛

وفى أواخر سنة ٣٨٧ ﻫ (٩٩٧ م) بعث الحاكم بأمر الله مع الشريف الداعى على بن عبد الله سجلين ، لأبى مناد باديس بن يوسف بن زيرى ؛ أحدهما بولايته للمغرب ، وتلقيبه بنصير دولة الحاكم ، والثانى بوفاة العزيز بالله وخلافة الحاكم ، وأخذ عهد الطاعة على بنى مناد ؛ فاستقبل الرسول أكرم استقبال ، وأخذت البيعة للحاكم على جميع قبائل صنهاجة وبطونها ، ويبدو واضحاً من ذلك أن سيادة الخلافة الفاطمية المصرية ، الزمنية والروحية ، كانت فى ذلك الوقت تمتد حتى إفريقية (تونس) . وسوف نرى فيما بعد أنها كانت تشمل أيضاً جزيرة صقلية[2] .

وقد وصف لنا المقريزى فى « اتعاظ الحنفاء » سيرة الحاكم فى غدواته وروحاته ، فى تلك الفترة الأولى من ولايته ؛ وفيها يبدو طبيعياً لا تطبع حركاته أو تصرفاته أية نزعة شاذة أو غير عادية ؛ فكان فى كل يوم يركب إلى الميدان ، ويجلس على سريره بالطارمة[3] ؛ فتعرض عليه الخيل ، والقراء

---

(١) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٣ ب .

(٢) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٣ ا .

(٣) كان من ملحقات القصور الفاطمية إصطبلان كبيران ، أحدهما اصطبل الطارمة ، وموقعه قبالة قصر الشوك ، والآخر يعرف باصطبل الجميزة وموقعه بحارة زويلة ؛ وكان للخليفة القائم نحو ألف رأس من الخيل ، فى كل اصطبل منها نحو النصف ، منها ما هو برسم الخاص ، ومنها ما يعار لركوب أصحاب الرتب والمستخدمين ، ومنها ما يخرج أيام المواسم . وقد وصف لنا المقريزى هذه الاصطبلات ومحتوياتها وصفاً ضافياً (راجع الخطط ج ٢ ص ٣١١ و ٣١٢) .

بين يديه ، وقد ينشده بعض الشعراء قصائدهم ، ثم ينصرف إلى القصر ، فيجلس برجوان وكاتبه فهد ، للنظر فى رقاع المتظلمين وأرباب الحاجات ، حتى تنتهى . فإذا فرغ الحاكم من تناول غذائه ، ورفعت المائدة ، تقدم أبو العلاء (فهد) فجلس بين يديه ليعرض على الخليفة ما لديه من الرقاع ، وبرجوان قائم على رأسه ؛ فإذا تمت قراءة الرقاع ، وقع الحاكم بخطه فى أعلا كل رقعة منها بما يراه ، ثم يخرج بها فهد ، فتفرق كلها ، ويمضى بها إلى الديوان فينفذ ما فيها دون مراجعة .

وينوه المقريزى بما كان للحاكم فى تلك السن المبكرة من مقدرة فى تذوق الشعر ، وتمييز الجيد منه ، فيقول لنا إن الحاكم كان إذا جلس فى الطارمة ، وأنشده الشعراء ، تناول برجوان قصائدهم فجعلها فى كمه ، فإذ فرغ من عرض الرقاع وتوقيعها ، قرأ القصائد ، وقد حضر من له تمييز ومعرفة بالشعر ، فكان الحاكم له من الحذق فى ذلك ما ليس لغيره ، فإذا أنشده الشاعر ، أو أنشد له أبو الحسن المنشد ، ومر بالبيت النادر أو المعنى الحسن ، نبه برجوان عليه واستعاده مراراً ، ثم يوقع لكل واحد منهم بعدد استحقاقه ومبلغه من صناعته ، وتخرج صلاتهم وفقاً لذلك[1] .

واستمر برجوان يتبوأ ذروة القوة والنفوذ زهاء عامين ونصف . وفى عهده وقعت عدة ثورات وقلاقل فى الشام والمغرب ، وحاول بعض الحكام والزعماء المحليين الخروج على حكومة القاهرة ، فسير برجوان جيشاً إلى الشام بقيادة جيش بن الصمصامة مكان سليمان بن جعفر بن فلاح ، فقاتل الثوار فى عدة مواقع ، وأخضعهم تباعا ، واستعاد دمشق ؛ واشتبك مع الروم (البيزنطيين) فى عدة مواقع فى شمالى الشام ، وكانوا قد انتهزوا فرصة الإضطراب للإغارة على الثغور وتأييد الخوارج ؛ فهزمهم وردهم إلى الشمال حسبما نفصل ذلك بعد . وسير برجوان جيشاً آخر إلى برقة حيث اضطرمت الثورة ، فرد النظام إليها ، واستعمل عليها أبا الحسن الخادم يانسا الصقلبى . وكانت الدولة الفاطمية منذ نشأتها تعتمد حسبما تقدم على تأييد القبائل المغربية ، ويستأثر زعماؤها بمعظم مناصب القيادة والحكم والإدارة ، حتى عهد المعز

(١) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٢ ب .

لدين الله ؛ ولكن ولده العزيز مال إلى اصطناع الموالى من الترك والصقالبة ، فقدمهم فى القصر وفى الجيش ، وبدأت المنافسة من ذلك الحين بينهم وبين الزعماء المغاربة[١] . وكانت سياسة برجوان ترمى إلى تحطيم نفوذ الزعماء المغاربة ، ونزعهم عن الولايات والثغور ، وتوزيع السلطة على نفر من أصدقائه الصقالبة ، يستطيع أن يعتمد على ولائهم ، وأن يسيرهم وفق أهوائه ؛ فعين إلى جانب يانس ، طائفة منهم لحكم الولايات والثغور ، مثل ميسور الخادم والى طرابلس ، ويمن الخادم (وهو أخو برجوان) والى غزة وعسقلان ؛ وعين بالقصر وفى الوظائف الكبرى عدد آخر منهم ؛ فعين فائق الخادم الصقلبى قائداً للأسطول ، وقلد خرد الصقلبى ولاية الشرطة السفلى . وقلد الخادم الأسود شرطة القاهرة . وتمت هذه التعيينات كلها فى بداية سنة ٣٨٨ هـ[٢] . وجنح الروم بعد هزيمتهم إلى السلم ، وعقدت بين بلاط القاهرة والإمبراطور باسيل الثانى قيصر قسطنطينية ، أواصر الصداقة والمهادنة مدى حين[٣] .

وفى المحرم سنة ٣٨٩ ، توفى قاضى القضاة محمد بن النعمان ، بعد أن ولى قضاء مصر منذ أيام العزيز نيفا وأربع عشرة عاما ، وظهر على أثر وفاته أن فى ذمته أموالا كثيرة لليتامى ، فختم على أمتعته ، وبيعت ودفع ثمنها لذوى الحقوق . وأمر الحاكم بتلك المناسبة ألا يودع عند عدل أولا أمين شىء من أموال اليتامى ، وأن تودع فى منزل خاص بزقاق القناديل ، فإذا أريد دفع أموال اليتامى ، حضر أربعة من ثقات القاضى ، وجاء كل أمين فأطلق لمن يلى عليه رزقه ، وذلك بعد موافقة القاضى ، واتخاذ الوثيقة اللازمة على الأمين .

واستدعى برجوان أبا عبد الله الحسين بن على بن النعمان إلى حضرة الحاكم فخلع عليه خلعاً نفيسة وضاعف أرزاقه وإقطاعاته ، وندبه لقضاء مصر وأعمالها ، وقال له : وقد أرحت عليك ، فلا توجد بى سبيلا إليك بتعرضك الدرهم من أموال المسلمين ، فقد أغنيتك عنها . وفى الحال اتخذ

---

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ٦٨ و ج ٣ ص ١٧ و ١٨ .

(٢) خطط المقريزى ج ٣ ص ١٨ ، واتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٢ ا .

(٣) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٢ .

الحسين إجراءات حازمة للمحافظة على أموال الأيتام ، وإيداعها بمكانها فى زقاق القناديل ، وألزم ولاة الأمر بتقديم الحسابات الدقيقة عنها ، واستخلف عنه فى قضاء مصر (الفسطاط) أبا عبد الله الحسين بن محمد بن طاهر ، وفى قضاء القاهرة ، أبا الحسن مالك بن سعيد الفارقى ؛ واشتد فى الأحكام ، وتولى فى نفس الوقت أمر الدعوة ، ونظم قراءتها بمجالس القصر ، وعلت منزلته عند الحاكم (١) .

وفى هذه التفاصيل التى حرصنا على إيرادها ، ما يدل على تلك الخلة التى برزت فيما بعد من بين صفات الحاكم ، وهى الحرص على الأموال الخاصة ، والتعفف من التطلع إليها ، والمساس بها .

* * *

ماذا كان موقف الحاكم خلال هذه الفترة الأولى من خلافته وهى الفترة التى استأثر فيها برجوان بتدبير الأمور ؟ لقد كان برجوان بلا ريب ، يحجبه ما استطاع عن الإتصال برجال الدولة وشؤونها ، ويدفع به ما استطاع إلى مجالى اللهو واللعب ؛ وكانت أم الحاكم ، تشهد ولدها ينمو ويترعرع ، فى ظل هذه الوصاية الخطرة ، عاجزة عن التدخل لحمايته أو توجيهه ، لأن برجوان لم يفسح لها أى مجال للتدخل فى شؤون الدولة . غير أن الحاكم كان يشعر رغم حداثته بخطورة المنصب الذى يتبوؤه ؛ ولم يلبث أن استرعى سير الأمور اهتمامه ، ولم يلبث أن فطن إلى موقف برجوان ، واستئثاره بالسلطة واستبداده بالشؤون ؛ ولما بلغ برجوان ذروة السلطان والنفوذ ، كان الحاكم قد أشرف على الخامسة عشرة ، وأضحى الطفل فتى يافعاً شديد اليقظة والطموح ؛ وكان برجوان يذهب فى طغيانه وعسفه إلى حدود بعيدة ، ويثير حوله ضراماً من البغضاء والحقد ، ويحفز بذلك خصومه داخل البلاط وخارجه إلى العمل على تقويض سلطانه ومكانته . واعتقد برجوان أن الجو قد خلا له ، فانكب على ملاهيه وملاذه ، يقضى معظم أوقاته فى مجالس الأنس والغناء والطرب ، فكان يجتمع بالمغنين والقينات ، ولا يخرج من ذلك إلا فى الضحى ، بعد أن

---

(١) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٤ ا . وقد نشرنا سجل تعيين الحسين ابن النعمان بأكمله فى نهاية الكتاب فى الوثائق والسجلات .

يزدحم الناس على بابه ، ثم يركب متأخراً إلى القصر ، ولا يمضى من الأمور إلا ما يحلو له دون مشاورة أو مراجعة .

ولم يفطن برجوان من جهة أخرى ، إلى ما وقع فى نفس الأمير الفتى ومشاعره من التبدل والتطور ، فاستمر يعامله معاملة الطفل المحجور عليه ، ويبالغ فى حجبه بحجة حمايته والحرص على راحته ، ويكثر من الدالة عليه ؛ وذهب فى استهتاره إلى مدى ، شعر الحاكم أنه لا يتفق مع مقامه ومكانته ؛ وربما ذهب برجوان إلى حد الإساءة إلى الحاكم ونقض أوامره ، بل إلى حد إهانته والتنكر له ؛ ويقص علينا المقريزى منظراً من هذه المناظر التى اجترأ فيها برجوان على إهانة سيده خلاصته : « أن الحاكم استدعاه ذات يوم وهو راكب معه ، فسار إليه وقد ثنى رجله على عنق فرسه ، وصار باطن قدمه وفيه الخف قبالة وجه الحاكم » ، ونحو ذلك من المناظر والإهانات المثيرة[1].

أحفظت نفس الحاكم لهذا الضغط وهذا الاجتراء ؛ ومما تنقله إلينا الرواية فى تصوير هذا النضال بين الوصى ومحجوره ، أنه نقل إلى الحاكم أن برجوان يسميه بالوزغة ، أى الحية الصغيرة ، فأرسل إليه بعض الأساتذة يقول له إن الوزغة الصغيرة قد صارت تنيناً كبيراً[2] ؛ وقد كان ذلك لبرجوان نذير الخطر الداهم . ذلك أن الحاكم أضمر التخلص من ذلك الوصى الطاغية ، وربما تأثر فى هذا العزم بتحريض بعض خصوم برجوان ، ولا سيما ريدان الصقلبى حامل المظلة وخصمه القوى داخل البلاط ، فقد أشار إلى الحاكم أن برجوان يريد أن يفعل به ، ما فعله كافور مع أولاد سيده الإخشيد[3] . ولكن لا ريب أن الحاكم كان قد بدأ يومئذ يثور لسلطته المسلوبة ، وأخذت تتفتح نفسه الوثابة ، تلك الأهواء العنيفة المضطرمة ، التى بلغت ذروتها فيما بعد . وعلى أى حال فقد حكم على برجوان بالموت ، واستدعى الحاكم الحسين بن جوهر قائد القواد وعهد إليه بتلك المهمة ؛ وفى ذات مساء بعث الحاكم

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٣ ص ٥ .

(٢) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى المشار إليه) .

(٣) نهاية الأرب (المخطوط) ج ٢٦ ص ٥٥ .

إلى برجوان للركوب معه إلى المقس ، وانتظره فى بستان قصر اللؤلؤة[1] ، ومعه ريدان حامل المظلة ، فوافاه برجوان هنالك ، وبعد أن سلم ،سار الحاكم حتى خرج من باب البستان ، فوثب ريدان عندئذ على برجوان فطعنه فى عنقه بسكين ، وانقضت عليه جماعة كانت قد أعدت للفتك به ، فأثخنوه طعناً بالخناجر ، واحتزوا رأسه ودفنوه حيث قتل (١٦ ربيع الثانى سنة ٣٩٠ هـ — إبريل سنة ١٠٠٠ م) . ولما عاد الحاكم إلى القصر كان خبر مقتل برجوان قد ذاع على لسان خادمه عقيق ، فاضطربت البطانة وأشرف الحاكم عليهم ليرى الخبر ، وصاح فيهم ريدان : « من كان فى الطاعة فلينصرف إلى منزله ويبكر إلى القصر المعمور » فانصرف الناس منزعجين ،وفى نفس المساء اتخذ الحاكم عدته لتوطيد الأمور ، واستدعى الرئيس فهدا ، وهدأ روعه وأقره فى منصبه من تولى الكتابة ، وجعله على رسمه .

ولم يك ذلك ختام المأساة ؛ ففى صباح اليوم التالى بكر الناس إلى القصر ، فوقفوا بالباب ، ونزل قائد القواد الحسين بن جوهر ، وأذن لهم فدخلوا إلى ساحة القصر . والظاهر أن الحاكم قد شعر على أثر وقوع هذه الضربة الدموية الأولى ، أن عليه إيضاحا يقدمه إلى الناس ، واعتذاراً يبرر به تصرفه . فخرج على فرس أشقر ، ووقف فى صحن القصر ، وريدان عن يمينه ، وأبو القاسم الفارقى عن يساره ، والناس قيام بين يديه . فحدثهم بنفسه قائلا : « إن برجوان عبدى ، استخدمته فنصح ، فأحسنت إليه ، ثم أساء فى أشياء عملها فقتلته . والآن فأنتم شيوخ دولتى (وأشار إلى كتامة) : أنتم عندى الآن أفضل مما كنتم فيه مما تقدم . ثم التفت إلى الأتراك وقال لهم : « أنتم تربية العزيز بالله ، ومقام الأولاد ، وما لكل أحد عندى إلا ما يؤثره ويحبه ، فكونوا على رسومكم ، وامضوا إلى منازلكم ، واضربوا على أيدى سفهائكم » فدعوا جميعاً ، وقبلوا الأرض وانصرفوا .

ولم يكتف الحاكم بهذا الإيضاح الشخصى لتصرفه ، بل أمر كذلك بكتابة

---

(١) كان قصر اللؤلؤة من أجمل القصور الفاطمية التى أعدت للنزهة ، وكان له بستان ساحر يؤمه الخلفاء والأمراء للترييض ، وكان موقعه على الخليج بالقرب من باب القنطرة وشرق البستان الكافورى (خطط المقريزى ج ٢ ص ١) .

سجل صدر فى ٢٧ ربيع الثانى يشرح فيه بواعث المأساة ، ويدعو الناس إلى الهدوء والتعامل وإلى رفع مظالمهم إليه مباشرة ، ويعدهم برعايته وإحسانه ؛ فصدر السجل المذكور بقلم كاتب الإنشاء أبى منصور بن سورين ، وقرئ بسائر الجوامع فى مصر والقاهرة والجيزة والجزيرة ، وأنفذت منه نسخ إلى سائر النواحى والأعمال[١] . والظاهر من اهتمام الحاكم إلى هذا الحد بتبرير تصرفه فى مقتل برجوان ، أنه كان يخشى أن يكون لهذا التصرف الدموى أثره فى حدوث شغب بين الفتيان الصقالبة ، وبين صفوف الجيش التى اصطنعها برجوان ، وربما حدث بالفعل شيء من ذلك .

وختم على أموال برجوان وصودرت تركته ، وكانت عظيمة طائلة تحتوى على كثير من نفيس المتاع والثياب والحلى والخيل والغلمان والكتب وغيرها[٢] واختفى أصدقاؤه من الميدان ، وكانت مدة نظره عامين وثمانية أشهر[٣] .

* * *

وهكذا ظفر الحاكم لنحو أربعة أعوام من ولايته بأن يطوى مرحلة الحداثة ، وأن يستخلص السلطة لنفسه ، وأن يبدأ عهد الحكم الحقيقى . وكان الحاكم يومئذ فى الخامسة عشرة من عمره ، مضطرم النفس والأهواء ولكن وافر الذكاء والجرأة والعزم . فبدأ بتعيين مدبر للدولة مكان برجوان ؛ ووقع اختياره على الحسين بن جوهر الصقلى ، وكان العزيز قد ولاه القيادة بعد وفاة أبيه جوهر ، واصطفاه وأولاه ثقته وعطفه ؛ فلما توفى العزيز قُلد الحسين ديوان البريد والإنشاء مكان ابن سورين ؛ ولما قُتل برجوان لم يكن بين رجال الدولة من هو أرفع منه مقاماً ، وأجدر بتولى الشؤون العامة ،

---

(١) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٤ ب و ٥٥ ا . وقد نشرنا نص هذا السجل بأكمله فى نهاية الكتاب فى مجموعة الوثائق والسجلات .

(٢) أورد لنا المقريزى تفاصيل شائقة عن محتويات تركة برجوان (اتعاظ الحنفاء — المخطوط — لوحة ٥٥ ا) .

(٣) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٤ ب و ٥٥ ا ؛ وفى الخطط ج ٣ ص ٥ ، ونهاية الأرب ج ٢٦ ص ٥٢ ، وفيه أن مقتل برجوان كان سنة ٣٧٩ هـ ، وهو خطأ واضح .

فاستدعاه الحاكم وخلع عليه ، وقلده النظر فى أمور الدولة والتوقيعات ، ولقبه فى سجل التعيين « بقائد القواد » ؛ وعكف الحسين على تدبير الشؤون بمعاونة خليفته الرئيس فهد ، فإذا دخلا إلى حضرة الحاكم ، جلس القائد وقام فهد خلفه يعرضان الكتب والرقاع عليه ، وأمر القائد أن تبلغ إليه المهام والظلامات فى مكانه بالقصر ، وألا يلقاه أحد على طريق ، وألا يقصد أحد داره لقضاء أمر أو سؤال فى حاجة ، وألا يخاطب بغير لقبه الرسمى « القائد » دون تعظيم أو تفخيم ، وأمر أبا الفتوح مسعود الصقلبى صاحب الستر بأن يوصل الناس إلى الحاكم ، وألا يُمنع أحد من مقابلته أو الإتصال به ، فدخل الناس إليه وأخذ رقاعهم ، وقسمهم ووقع فيها ، والحاكم جالس فى مكانه ، يدخل إليه أرباب الحوائج ، ويبدى رأيه فى الأمور الهامة . وقرئ بهذه المناسبة بالقصر سجل هذا نصه بعد البسملة : « معاشر من يسمع هذا النداء من الناس أجمعين ، إن الله ، وله الكبرياء والعظمة ، أوجب اختصاص الأئمة بما لا يشركها فيه أحد من الأمة ، فمن أقدم بعد قراءة هذا المنشور على مخاطبة أو مكاتبة لغير الحضرة المقدسة ، سيدنا ومولانا ، فقد أحل أمير المؤمنين دمه ، فليبلغ الشاهد الغائب إن شاء الله »(١) . وغدا الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، الذى خلف أباه فى منصب قاضى القضاة أعظم رجلين فى الدولة ، واستمر الحسين يدبر الأمور مدى أعوام ، حتى تغير عليه الحاكم كما سيأتى .

وتناول الحاكم إدارة الدولة العليا بيديه ، ونظم له مجلساً ليلياً يحضره أكابر الخاصة ورجال الدولة ، وتُبحث فيه الشؤون العامة ؛ وكانت هذه أول ظاهرة لهيام الحاكم بالليل والتجوال فى ظلماته ، بيد أنه أبطل مجلسه الليلى بعد حين ؛ وتوفى جيش بن الصمصامة والى الشام (ربيع الآخر سنة ٣٩٠هـ) ، فعين الحاكم مكانه فحلاً بن تميم ، ولما توفى لأشهر من ولايته، عين مكانه علياً بن فلاح ؛ وكان اتجاه الحاكم يومئذ نحو إقصاء الأتراك والصقالبة وتمكين المغاربة ، كما كان الشأن أيام جده المعز ، ولعله كان يقصد فى ذلك أيضاً إلى هدم سياسة برجوان فى إصطناع الصقالبة . ووفد

(١) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٦ ا .

عليه ولدا جيش بن الصمصامة ، يحملان وصية أبيهما ، وفيها يوصى بجميع أمواله للحاكم ، ويحملان إليه الأموال الموصى بها ، وكانت تبلغ نحو مائتى ألف دينار بين نقد ومتاع ، فقرأ الحاكم الوصية وخلع على ابنى جيش ورد المال اليهما قائلا : « خذوه هنيئاً مريئاً لكما »[١] ، ودلل بذلك على صفة من أخص صفاته ، هى العفة عن مال الرعية ، والزهد فى المال بصفة عامة ، وسنرى أنه يدلل على هذه الخلة فى مواطن كثيرة .

وكان من حوادث هذا العام (٣٩٠ هـ) ، أن وفد على القاهرة ، تموصلت بن بكار وهو زعيم أسود من موالى باديس بن زيرى أمير إفريقية ، فراراً من نقمة مولاه ، وكان معه أولاده وعددهم ستون ، وقدر كبير من المال والمتاع ؛ فاستقبله الحاكم ، وخلع عليه ، وتقبل هديته وهى مائة ألف دينار وأشياء نفيسة أخرى من قماش وخيل وبغال ، وأنزل وأولاده فى دار كبيرة أعدت لمقامهم . وكان بلاط القاهرة يرتاب فى نيات باديس ، ويعضد الخارجين عليه . وسنرى فيما بعد كيف يكشف باديس عن نياته فى الخروج على الخلافة الفاطمية .

وعزل خرد الخادم الصقلبى عن ولاية الشرطة السفلى ، وعين مسعود الصقلبى لولاية الشرطتين .

وصدر فى الثالث من ذى الحجة أمر بأن يعلق الناس القناديل على ساير الحوانيت والدور كلها ، وجميع المحال والطرق الشارعة ، وغير الشارعة ، ففعلوا ؛ وكان هذا الأمر فاتحة الأوامر والمراسيم الإجتماعية العديدة التى صدرت تباعاً ، طوال عهد الحاكم ، والتى سوف نتحدث عنها تباعا فى مواضعها وأوقاتها .

(١) اتعاظ الحنفاء (مخطوط استانبول) لوحة ٥٦ ا .

الفصل السادس

القتل سـياج الطغيان

الحاكم يقبض على السلطة ويتولى إدارة الشؤون . هيئته وروعة مظهره . كيف تصوره لنا الرواية الإسلامية . فتكه بابن عمار . مصرع عدة من الكبراء . مقتل الرئيس فهد . تولية العداس ومقتله . مقتل ريدان الصقلبى . حوادث قتل أخرى . مصرع زعماء كتامة . فتنة فى القضاء . النزاع بين القاضيين الحسين ابن النعمان وعبد العزيز بن النعمان . تأييد الحاكم للحسين وخطابه له . تغيره عليه ومصرعه . مقاتل أخرى . ذعر رجال الدولة . استغاثة المتصرفين والعمال والخدم . صدور الأمانات لتطمينهم . ارتياع المجتمع القاهرى . الحسين بن جوهر وصهره عبد العزيز بن النعمان . مطاردتهما ومصرعهما . مذبحة الغلمان والكتاب . مقتل القائد الفضل والوزير الروذبارى والوزير ابن عبدون وآخرين . مأساة القائد غين وكاتبه الجرجرائى . موجة التقتيل والسفك . مقتل قاضى القضاة سعيد بن مالك . مقتل الوزير الوزان وغيره . عدد الضحايا . الإرهاب المنظم . القتل وسيلة للحكم . أقوال الرواية فى ذلك . السفك ملاذ الطغاة فى كل عصر . أمثلة معاصرة . العنصر المكيافيللى فى هذه السياسة . ما تزعمه الرواية فى شغف الحاكم بالسفك .

كان الحاكم بأمر الله صبياً فى نحو السادسة عشرة ، حينما بدأ يضطلع بمهام الدولة على هذا النحو . بيد أن هذا الفتى القوى النفس ، كان حاكما حقيقياً يقبض على السلطة بيديه القويتين ، ويشرف بنفسه على مصاير هذه الدولة العظيمة ، ويبدى فى تدبير شؤونها نشاطاً مدهشاً ، فيباشر الأمور فى معظم الأحيان بنفسه ، ويتولى النظر والتدبير مع وزرائه[1] ؛ وهكذا كان الأمير اليافع يؤثر العمل المضنى ، على مجالى اللهو واللعب ، التى يغمر تيارها من كان فى سنه ، وفى مركزه وظروفه ؛ وقد لزم الحاكم هذا النشاط المضنى

(١) راجع ابن الصيرفى ، الإشارة الى من نال الوزارة ص ٢٦ .

طوال حياته . وكان الحاكم ذا بنية قوية متينة ، وكان منذ حداثته يتمتع بمظهر الجبابرة ، مبسوط الجسم ، مهيب الطلعة ، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجها زرقة ، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد ، لا يستطيع الإنسان صبراً عليها ، وله صوت قوى مرعب يحمل الروع إلى سامعيه[١] ؛ وتقول الرواية المعاصرة فى وصفه : « كان منظره مثل الأسد ، وعيناه واسعة شهل ، وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته ، وكان صوته جهر مخوف »[٢] . ويقول الأنطاكى : « ولقد كان جماعة يتعمدون للقائه فى أمور تضطرهم إلى ذلك ، فإذا أشرف عليهم سقطوا على الأرض وجلا منه ، وفحموا على خطابه »[٣] . ولقد كان الحاكم فى الواقع سليل نسل من الجبابرة الصحراويين الأقوياء ، الذين يذهبون فى زهرة العمر والقوة[٤] ، وكان أبوه بالأخص عظيم القامة ، عريض المنكبين ، قوى التكوين[٥] ، فورث عنه ولده هذه الخواص الطبيعية البديعة ، ولم يبددها فى شهوات النفس التى ينغمس فيها أبناء القصور .

وهنا يبدأ عصر الحاكم بأمر الله حقاً ، وهو أغرب عصر فى تاريخ مصر الإسلامية ، وربما كان أغرب عصر فى تاريخ الإسلام كله ، عصر يمازجه الخفاء والروع . وتطبعه ألوان من الإغراق والتناقض ، مدهشة مثيرة معاً ؛ ولكن هذه الألوان الخفية المغرقة ، وهذه النواحى المتباينة ، هى التى تسبغ على العصر أهميته وطرافته ، وهى التى تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يصعب اختراقها . ويحسن قبل أن نعرض إلى درس

---

(١) أخبار الدول المنقطعة للوزير جمال الدين المصرى (نسخة دار الكتب الفتوغرافية المحفوظة برقم ٨٩٠ تاريخ) .

(٢) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى المشار إليه) .

(٣) الأنطاكى ص ٢٢١ .

(٤) يلاحظ أن العزيز أبا الحاكم توفى فى الثالثة والأربعين ، وأن جده المعز توفى فى السادسة والأربعين ، وأن المنصور والد المعز توفى فى الثانية والأربعين (راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ١٦٣ و ١٦٧) .

(٥) ابن الأثير ج ٩ ص ٤٠ .

هذه الشخصية العجيبة وقبل أن نحاول استجلاء غوامضها، واستقراء حقيقتها ، أن نستعرض أولا أعمال الحاكم وتصرفاته ، وحوادث العصر وظروفه ، ثم نحاول على ضوئها أن نتفهم روح العصر ، ونفسية تلك الشخصية الفريدة التى أفاضت عليه من خفائها وروعتها ، وملأته بنشاطها ونزعاتها وأهوائها ، وتبوأت فيه المقام الأسمى .

* * *

تقدم الرواية الإسلامية إلينا ، الحاكم فى صور مروعة مثيرة ، فتقدمه إلينا أولا فى صورة جبار منتقم ، وسفاك لا يخبو ظمؤه إلى الدماء ، ثم تقدمه إلينا فى صورة طاغية ، مضطرم الأهواء والنزعات ، متناقض الرأى والتصرفات ، لا تكاد تلمس لأعماله باعثاً أو حكمة ، شرساً جموحاً ، ميالا الى الشر ، خؤونا وافر الغدر ، لا يستقر على ثقة أو صداقة ؛ وتقدمه الينا على العموم فى ثوب شخصية بغيضة خطرة ، فاقدة الإتزان والرشد ، يغلب عليها الجانب الأسود ؛ ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحى الخير والخلال الحسنة ، فتصفه لنا بالجود والتقشف ، والزهد فى كثير من من متاع الحياة الدنيا .

« وكان الحاكم سيئ الاعتقاد ، كثير التنقل من حال الى حال . . . وكان مؤاخذاً بيسير الذنب ، حاداً ، لا يملك نفسه عند الغضب ، فأفنى أمماً وأجيالا وأقام هيبة ، عظيمة وناموساً »(١). « وكان ردىء السيرة ، فاسد العقيدة ، مضطرباً فى جميع أموره ، يأمر بالشىء ويبالغ فيه ، ثم يرجع عنه ويبالغ فى نقضه »(٢). « وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام ، وجبن وإحجام ، ومحبة للعلم وانتقام من العلماء ، وميل الى الصلاح ، وقتل الصلحاء ، وكان الغالب عليه الصلاح ، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط »(٣). « وكان جواداً ، سمحاً ، خبيثاً ماكراً ، ردىء الإعتقاد ، سفاكا للدماء ، قتل

---

(١) الوزير جمال الدين ، أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية المشار إليها) .

(٢) المكين ابن العميد (تاريخ المسلمين) طبعة ليدن ص ٢٥٩ .

(٣) مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لابن قزأوغلى المعروف بسبط ابن الجوزى ومنه عدة مجلدات فتوغرافية بدار الكتب (رقم ٥٥١ تاريخ) ومرجعنا منها هو المجلد الحادى عشر ج ١٣ ص ٤٠١ وما بعدها ؛ (وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦) .

عدداً كبيراً من كبراء دولته صبراً ، وكان عجيب السيرة ، يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها »(١). « وكان حاله مضطرباً فى الجور والعدل ، والإخافة والأمن ، والنسك والبدعة »(٢). فى هذه الصور وأمثالها تقدم الرواية الإسلامية الينا الحاكم ؛ ولا ريب أن فى حياة الحاكم وفى أعماله وتصرفاته ، ما يبرر كثيرا من هذه الأوصاف المثيرة ، غير أنها ليست كل شىء فى هذه الحياة العجيبة الغامضة ، ومن الخطأ أن نقف عندها فى تصوير الحاكم والحكم عليه ، ومن الواجب أن نتقصى فى حياة الحاكم جوانب أخرى ، وأن نحاول تفهم شخصيته ونفسيته ، على أضواء أخرى .

افتتح الحاكم عهد حكمه ، بقتل برجوان وصيه ومدبر دولته ، وكان للجريمة باعث سياسى قوى ، فلم تكن يومئذ دليلا على حبه للسفك أو ظمئه الى الدم ، وقد عنى الحاكم بأن يوضح لنا ظروفها ومبرراتها ؛ غير أن الحاكم ما لبث أن أتبَع ضربته بضربة دموية أخرى ، هى مقتل الحسن بن عمار زعيم كتامة وأمين الدولة السابق ؛ وكان الحاكم قد حماه من برجوان ، وأطلق له رسومه وجراياته ، وأذن له بالركوب الى القصر . فنى ذات مساء ، حين انصرافه من القصر ؛ انقض عليه جماعة من الغلمان الترك ، كانت قد هيئت للفتك به ، فقتلوه وحملوا رأسه الى الحاكم (١٤ شوال سنة ٣٩٠ — أكتوبر سنة ١٠٠٠ م)(٣). ولم تكن للجريمة بواعث ظاهرة ، ولكنا نستطيع أن نعللها برغبة الحاكم فى سحق الزعماء ذوى البأس والعصبية ، وهى رغبة يدلل عليها كما سنرى فى مواطن كثيرة ؛ وكانت كتامة أقوى القبائل المغربية كما قدمنا ، وكان ابن عمار أقوى زعماء الدولة . ولكن سنرى من جهة أخرى أن الحاكم يسرف فى القتل ، فيقتل وزراءه وغلمانه تباعاً ، دون حكمة ظاهرة إلا ما كان من نزعة موقتة أو سخط فجائى .

فى أواخر سنة ٣٩١ هـ ، قتل الحاكم مؤدبه أبا التميم سعيد بن سعيد

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ . والذهبى فى تاريخه (مخطوط بدار الكتب) مجلد ٢٢ فى وفيات سنة ٤١١ هـ (وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٨) .

(٢) ابن خلدون — كتاب العبر — ج ٤ ص ٦٠ .

(٣) المقريزى فى الخطط ج ٣ ص ٥٨ . وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ا .

الفارقى ، قتل وهو يسامره فى مجلسه ، وكان قد رتب مقتله مع الغلمان الترك . وكان الحاكم قد نقم عليه تدخله فى شئون الدولة وقراءة الرقاع . وفى المحرم من العام التالى (٣٩٢ ﻫ) ، قتل الحاكم ابن أبى نجدة متولى الحسبة ، وكان بقالا وابتسم له الحظ ، فأساء معاملة الناس ، وتدخل فيما لايعنيه من الشئون، فاعتقل ثم قطعت يده ولسانه ، وضربت عنقه .

وفى المحرم سنة ٣٩٣ ﻫ ، قتل أبو على الحسن بن عسلوج وأحرق ، وكان من أكابر المباشرين لشئون المال . وفى جمادى الأولى من نفس العام (مارس ١٠٠٤ م) ، قتل الحاكم وزيره فهد بن ابراهيم النصرانى ، بعد أن قضى فى منصبه زهاء ستة أعوام . وتقول الرواية الكنسية المعاصرة ، إن الحاكم أمر بقتله لأنه أبى أن يعتنق الإسلام ، وتجعل منه شهيدا ، وتزعم أن جثته ألقيت الى النيران فلم تحترق[1] . ولما قتل فهد ، حمل أخوه أبو غالب الى سقيفة القصر من مال أخيه ، جرابات بها خمسمائة ألف دينار ، فلما وقف الحاكم على أمرها ، أعرض عنها ، ثم أمر بردها ، فردت الى أولاد فهد ، وقال أنا لم أقتله على مال ، ورد الى أولاد فهد أيضا حق استعمال السروج المحلاة ، وأذن لهم بالركوب . ولكنه ما لبث أن أمر بأبى غالب فقتل وأحرق بالنار لأقوال نقلت عنه . وأقام الحاكم مكان فهد فى النظر والسفارة ، أبا الحسن على بن عمر العداس ، وخلع عليه ، وعلى ابنه محمد ، وكذا على الحسين ابن طاهر الوزان . بيد أنه لم تمض سوى أشهر قلائل حتى سخط الحاكم على العداس ، فقتل فى شعبان وأحرق . وقبل ذلك فى رجب قتل أبو طاهر محمود ابن النحوى متولى أعمال الشأم لكثرة تجبره وعسفه . وفى أواخر ذى الحجة من نفس العام ، قتل أبو الفضل ريدان الخادم الصقلبى صاحب المظلة ، وكان الحاكم قد أعتقه ، وأمر أن يكتب فى مكاتباته « من ريدان مولى أمير المؤمنين » . وبعد ذلك بأسابيع فى المحرم من العام التالى (٣٩٤ ﻫ) خلع الحاكم على مظفر الخادم الصقلبى ، وندبه مكان ريدان لحمل المظلة[2] .

وفى سنة ٣٩٤ ﻫ (١٠٠٥ م) قتل أكثر الأعيان ورجال الدولة . وقد

---

(١) فى سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى المشار إليه) .

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ب و ٥٧ ا و ب و ٥٨ ا .

ذكر لنا المقريزى ثبتا طويلا ممن قتلهم الحاكم فى تلك السنة ، فكان منهم العسكرى منجمه ، وأبو على عسلوج الديباجى ، وعلى بن المندوفى الشاعر الأعمى ، واسماعيل بن سوار ، وابن أبى خريطة ، وقد كانا من أصحاب برجوان ، وابن المغازلى المنجم ، وسهل بن كلس أخو يعقوب الوزير ، قتل لشدة طمعه وشراهته ، وحاول أن يفتدى نفسه بثلاثمائة ألف دينار فلم يجب . وقتل القائد أبو عبد الله الحسين بن الحسن البازيار ، لأنه كان إذا دخل المدينة من باب البحر يضع قدمه على عنق دابته ، وكان الحاكم وهو فى منظرته كثيراً ما يراه واضعاً قدمه قبالته . وقتل عدة من زعماء كتامة ، منهم المقداد بن جعفر ، وعلى بن سلمان وأخوه يحيى ، وخلف بن عبد الله ، وابن سمود الكتامى ، ومحمد بن على بن فلاح ، وغيرهم ، وقتل أيضاً عدد كبير من الغلمان والخاصة والجند والرعية لأسباب مختلفة . وخرج الكتاميون إلى باب الفتوح فترجلوا وكشفوا ، رؤوسهم ، واستغاثوا بعفو أمير المؤمنين ، فاستدعى الحاكم جماعة منهم ، ووعدهم خيراً ، وكتب لهم سجل قرئ بالقصر والجوامع بإعلان الرضى عنهم ، وإعادتهم إلى رسومهم ومكانتهم(١) .

وفى شعبان من هذا العام صرف الحسين بن النعمان عن القضاء ؛ وكان الحسين قد غدا موضع سخط الناس حتى اعتدى بعضهم عليه خلال جلوسه بالجامع ، فندب الحاكم جماعة للركوب معه فى كل مجلس ؛ وكان الحسين يتمتع بعطف الحاكم وثقته ، وله عنده منزلة خاصة حتى عظم شأنه ، وتمكن سلطانه . وكان فضلا عن رياسته للقضاء ، يشغل فى نفس الوقت منصب داعى الدعاة . ثم بدأ أمر القضاء يضطرب ،وظهرت فى الأفق فتنة أشاعت الفوضى بين القضاة والمتقاضين . وكان أصل الفتنة يرجع إلى ما شجر من خلاف بين الحسين بن النعمان بصفته قاضياً للقضاة ، وبين عبد العزيز بن محمد بن النعمان متولى المظالم . وذلك أن عبد العزيز اعتمد جماعة اختارهم للشهادة لديه ، فكان من حاكم خصمه إلى الحسين ، لجأ خصمه إلى المرافعة لدى عبد العزيز ، والأمر بالعكس . وكان عبد العزيز إذا جلس للنظر فى المظالم ، حضر

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٨ ب ، والخطط ج ٤ ص ٦٩ .

شهوده عنده ، وأشهدهم فيما يفعل ويمضى ، ولا يحضر أحد منهم عند الحسين ، وبقية الشهود القدماء يشهدون عنده ؛ بينما يحضر غيرهم مجلس عبد العزيز . وهكذا ، حتى اضطربت الأوضاع ، وأضحى المتقاضون فى حيرة وبلاء ، من جراء هذا الخلاف المستمر . ولما كثر النزاع بين القاضيين ، وذاع أمره ؛ كتب الحاكم بخطه كتابا الى الحسين النعمان يعرب عن استنكاره لما وقع ، ويؤكد ثقته فى الحسين ، وحقه فى الانفراد باختصاصه ، ووجوب التجاء الخصوم إليه متى ترافع أحدهم لديه . ولكن الخلاف استمر بعد ذلك يتفاقم ، وأخذ الحسين يفقد مكانته شيئاً فشيئاً ، حتى انتهى الأمر بتغير الحاكم عليه وإقالته ، وذلك لريبة علقت به فى اختلاس بعض الودائع القضائية ، وكان الحاكم قد شدد عليه فى صونها . فلزم الحسين داره متوجسا خائفا ؛ وندب عبد العزيز ابن النعمان لتولى أعماله ، مضافة الى ما بيده من ولاية المظالم ، وخلع عليه ، وأذن له بأخذ الفطرة والنجوى ، وقراءة مجالس الدعوة بالقصر . بيد أنه لم تمض أشهر أخرى حتى أدركته نقمة الحاكم ، فقتل فى السادس من المحرم سنة ٣٩٥ هـ ، ثم أحرقت جثته بعد ذلك ، وكان قد شغل منصب القضاء منذ سنة ٣٨٩ هـ ، ولبث فيه زهاء خمسة أعوام ونصف ، وكان عالما أديبا ، يلتف حوله العلماء والأدباء[١] .

وتلا مصرع الحسين مقتلة أخرى زهق فيها عدد كبير من الخاصة والعامة ، يربى عددهم على مائة ، قتلوا أو أحرقوا[٢] ، وقتل جماعة من الأعيان صبراً[٣] . وكان من أكابر القتلى يومئذ عبد الأعلى بن هاشم من قرابة الحاكم ، أمر بقتله لما بلغه عنه من أنه يتحدث بأنه سوف يلى الخلافة ، وأنه وعد قوماً من الملتفين حوله بولاية بعض الأعمال[٤] .

ولم يك ثمة ريب فى أن هذه المذابح المتوالية ، كانت عنوان نزعة خطيرة

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ب و ٥٧ ا و ٥٨ ب و ٦٠ ا . وقد نشرنا نص خطاب الحاكم الى الحسين فى باب الوثائق فى نهاية الكتاب .

(٢) الخطط ج ٣ ص ٣٢ و ج ٤ ص ٧٠ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٢ .

(٤) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٠ ا .

البطش والقتل ، واحتقار الحياة البشرية ، وكان أشد الناس تعرضاً لهـذه النزعات الخطرة ، أقرب الناس إلى الحاكم ، من الوزراء والكتاب والغلمان والخاصة ؛ ولم يكن الكافة أيضاً بمنجاة منها ، فكثيراً ما عرضوا للقتل الذريع لأقل الريب والذنوب ، أو لاتهامهم بمخالفة المراسيم والأحكام الغريبة الصارمة ، التي توالى صدورها في تلك الفترة ، وكان رجال الدولة ورجال القصر ، وسائر العمال والمتصرفين ، يرتجفون رعباً وروعاً أمام تلك الفورات الدموية ؛ وكان المجتمع القاهرى ، ولاسيما التجار وذوى المصالح والمعاملات يشاطرونهم ذلك الروع . ويروى لنا المسبِّحى صديق الحاكم ومؤرخه فيما بعد ، أن الحاكم أمر فى سنة ٣٩٥ (١٠٠٥ م) بعمل شونة كبيرة مما يلى الجبل ملئت بالسنط والبوص والحلفا ، فارتاع الناس وظن كل من له صلة بخدمة الحاكم ، من رجال القصر أو الدواوين ، أنها أعدت لإعدامهم ، وسرت فى ذلك إشاعات مخيفة ، فاجتمع سائر الكتاب وأصحاب الدواوين ، والمتصرفين من المسلمين والنصارى ، فى أحد ميادين القاهرة ، وما زالوا يقبلون الأرض حتى وصلوا إلى القصر ، فوقفوا على بابه يضجون ويتضرعون ، ويسألون العفو عنهم ؛ ثم دخلوا القصر ، ورفعوا إلى أمير المؤمنين ، عن يد قائد القواد الحسين بن جوهر ، رقعة يلتمسون فيها العفو والأمان ، فأجابهم الحاكم على لسان الحسين إلى ما طلبوا ؛ وأمروا بالانصراف والبكور لتلقى سجل العفو ؛ وفى اليوم التالى صدر سجل كتبت منه نسخة للمسلمين ، وأخرى للنصارى ، وثالثة لليهود ، بالأمان والعفو عنهم[1].
واشتد الذعر بالغلمان والخاصة على اختلاف طوائفهم ، فضجوا واستغاثوا وطلبوا العفو والأمان فأجيبوا إلى ما طلبوا ؛ وتبعهم فى الاستغاثة التجار وأرباب المهن والحرف ؛ وتوالى صدور الأمانات لمختلف الطوائف ، فصدر أمان للغلمان الأتراك ، وصبيان الخاص والغلمان والعرفاء ، وصبيان الدار ، وأصحاب الاقطاعات والمرتزقة ، والغلمان الحاكمية ، وصدر أمان لخدم القصر

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ب . وقد كانت الأوامر والقوانين والمراسيم ، التى تصدر عن الخلافة الفاطمية ، تسمى أولا « بالسجلات » ، ثم سميت فى أواخر الدولة «بالعهود» (راجع صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٠٨) .

الموسومين بخدم الحضرة ، بعد ما اجتمعوا وهرعوا إلى قبر العزيز وضجوا بالبكاء والاستغاثة ، وكتبت عدة أمانات للديلم والغلمان الشرابية والغلمان المرتاحية والعلمان البشارية ، والنقباء والروم المرتزقة ؛ وصدرت أمانات لسكان الأحياء المختلفة ، ولسائر الطوائف مثل العطوفية ، والجوانية ، والجودرية ، والمظفرية ، والصنهاجيين ، والميمونية ، وقرئت هذه الأمانات ووزعت على أهلها . وكذلك صدرت أمانات أخرى تربى على المائة لأهل الحرف والأسواق ، قرئت كلها بالقصر وكلها من نص واحد . وقد أورد المسبحى إحدى هذه الوثائق ونصها : « هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين لأهل مسجد عبد الله : إنكم من الآمنين بأمان الله الملك الحق المبين ، وأمان جدنا محمد خاتم النبيين ، وأبينا على خير الوصيين ، وآبائنا الذرية النبوية المهديين ، صلى الله على الرسول ووصيه وعليهم أجمعين ، وأمان أمير المؤمنين على النفس والأهل والدم والمال ، لاخوف عليكم ولا تمد يد بسوء إليكم ، إلا فى حد يقام بواجبه ، وحق يؤخذ لمستوجبه ، فليوثق بذلك ، وليعول عليه إن شاء الله تعالى ، وكتب فى جمادى الآخرة سنة خمس وتسعين وثلثمائة ، والحمد لله وصلى الله على محمد سيد المرسلين وعلى خير الوصيين ، وعلى الأئمة المهديين ذرية النبوة وسلم تسليما كثيرا »[1] .

وهكذا هبت على المجتمع القاهرى ريح من الرهبة والخشوع ، وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى ، الذى لم يجاوز يومئذ العشرين من عمره ، وأصبحت نزعاته وتصرفاته ، مثار الرعب والروع . ولم يك ثمة ريب فى أن القتل كان فى نظر الحاكم خطة مقررة ، ولم يكن فورة أهواء فقط . وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طول حياته . ووقعت فى الأعوام التالية ، حوادث ومناظر من القتل الذريع لا نهاية لها ، وكانت تقترن أحيانا بضروب مروعة من القسوة . وقلما كان يغادر الحكم وزير أو كبير من كبراء الدولة إلا مسفوك الدم ، وفى الأحوال النادرة التى ينجو فيها المعزول بحياته ، كانت تلازمه نقمة الحاكم حتى يهلك .

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ ، وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٠ ا .

وتقدم إلينا قصة الحاكم مع قائد القواد الحسين بن جوهر ، وصهره القاضى عبد العزيز بن النعمان متولى المظالم، مثلا من أروع أمثلة هذه المطاردات الدموية التى امتاز بها عهد الحاكم . ففى شعبان سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٩ م) ، عزل قائد القواد الحسين بن جوهر ، وعين مكانه أبو الفضل صالح بن على الروذبارى لينظر فى سائر الأمور التى كان ينظر فيها ، ولقب « بثقة ثقات السيف والقلم » . ولم تمض أسابيع قلائل حتى أمر الحاكم الحسين وصهره عبد العزيز بلزوم دارهما ، ومنعا وسائر أولادهما من الركوب . ثم عفا عنهما ، وأذن لهما فى الركوب . وبعد ذلك بأشهر قلائل فى جمادى الأولى سنة ٣٩٩ هـ ، صدر الأمر بالقبض عليهما ، فقبض على عبد العزيز بن النعمان ، وفر الحسين وأبناؤه وجماعة ، واضطربت القاهرة لمكانة الحسين ، وأغلقت الأسواق ، فأفرج عن عبد العزيز ، وعاد الحسين مع أولاده ، وعفا الحاكم عنهما ، بعد أن ارتميا على أعتابه واستجارا به ؛ ولكنهما لم يطمئنا طويلا إلى هذا العفو المريب ؛ فعمدا إلى الفرار مع أولادهما وجماعة ، وغادرا القاهرة تحت جنح الظلام ، ومعهما أموال وسلاح (ذو القعدة ٣٩٩ هـ) ؛ وفى صباح اليوم التالى سير الحاكم الخيل فى طلبهما ، فلم تدركهما ، فأمر بمصادرة أملاكهما ، وأحيط بسائر مالهما من المال والمتاع ، وأخذت إلى الديوان المفرد ؛ وأنفذت لهما كتب الأمان فى نفس الوقت . والتجأ الحسين وعبد العزيز إلى البحيرة ، واحتميا بعرب بنى قرة ، وتوالت عليهما كتب الحاكم بالأمان والعودة . ولكن الحسين اشترط لعودته أن يصرف الوزير ابن عبدون متولى السفارة والوساطة ، لتخوفه من نياته وغدره ، فصرفه الحاكم نزولا على هذه الرغبة ، وعاد الحسين وعبد العزيز ، بعد أن استوثقا من الخليفة بالأمان والعفو ، ودخلا القاهرة فى موكب حافل ، ومثلا بحضرة الحاكم ، فأصدر الحاكم عفوه عنهما ، وقرئ سجل أمانهما علناً ، وأشهد الحاكم قاضى القضاة على نفسه بالوفاء بنصه ، وأذن للحسين فى أن يلقب بقائد القواد . وكان ذلك فى المحرم سنة ٤٠١ هـ . واستمر الحسين وعبد العزيز يركبان إلى القصر على رسمهما المعتاد بضعة أشهر . وفى ذات يوم استبقيا بالقصر « لأمر تريده الحضرة » ، فجلسا وانصرف الناس . ثم قتلا فجأة وذلك فى ١٢ جمادى الآخرة

سنة ٤٠١ هـ (أوائل ١٠١١ م) ؛ وأحيط فى الحال بدورهما وأموالهما ، وصودرت ، وحملت إلى الديوان المفرد ، وهو الديوان الذى أنشأه الحاكم برسم من يؤخذ ماله من المقتولين وغيرهم . وكذلك أخذت سائر الأمانات والسجلات التى كتبت لهما . وعاد الحاكم بعد ذلك فاستدعى أولاد القتيلين ، ووعدهم بالجميل وخلع عليهم . وقيل إن ولد الحسين وهم ثلاثة فروا إلى الشام ، واستغاثوا بحاكم أنطاكية البيزنطى ، فسير الحاكم إلى والى الشام بوجوب القبض عليهم . فأخذوا بالحيلة ، وقتلوا وأرسلت رؤوسهم إلى القاهرة (سنة ٤٠٣ هـ)[١] .

وكان لمقتل الحسين بن جوهر والقاضى عبد العزيز ، وقع عميق فى البلاط وفى الشعب ، فالحسين ولد فاتح مصر ومؤسس دولة الفاطميين فيها ، وعبد العزيز هو حفيد القاضى الكبير النعمان القيروانى وسليل تلك الأسرة الفقهية النابهة التى حملت زعامة الدولة الروحية منذ نشأتها ، وكانت من أعظم أوليائها ، وكانت المأساة خاتمة لنفوذ هاتين الأسرتين العظيمتين .

وإليك طائفة أخرى من حوادث القتل والسفك التى أمعن فيها الحاكم : فى سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٩ م) ، قبض الحاكم على جماعة كبيرة من الغلمان والكتاب والخدم الصقالبة بالقصر ، وقطعت أيديهم من وسط الذراع ثم قتلوا ، وقتل الفضل بن صالح من أعظم قواد الجيش ، وهو الذى ظفر بالثائر أبى ركوة وأخمد ثورته كما سيجىء ؛ وفى العام التالى وقعت مقتلة أخرى بين الغلمان والخدم ، وقتل جماعة من العلماء السُّنية ، وقتل أسامة بن محمد اللغوى والحسين بن سليمان الأنطاكى النحوى ، وفر ثالثهم عبد الغنى بن سعيد ، وذلك بسبب اجتماعهم بدار العلم (دار الحكمة) . وقتل رجاء بن أبى الحسين لأنه صلى صلاة التراويح فى رمضان ، وقتل الرواة أو أصحاب الأخبار عن آخرهم لكثرة أرجافهم ، وابتزازهم أموال الناس بالأكاذيب[٢] .

وقتل فى العامين التاليين عدة متعاقبة من الوزراء ورجال الخاص . وكان الحاكم قد أسند فى المحرم سنة ٣٩٩ هـ ، نظر ديوان الخراج إلى أبى نصر بن

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٣ ص ٢٣ و ٢٤ ، وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٢ ب و ٦٣ ا و ٦٤ ب ؛ وتاريخ الأنطاكى ص ١٩٩ .

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٨٨ ، وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣ ب .

عبدون الكاتب النصرانى . ولم يمض على ذلك زهاء عام ، حتى صرف صالح بن على الروذبادرى « ثقة ثقات السيف والقلم » (صفر سنة ٤٠٠ هـ) ، وعين مكانه ابن عبدون لينظر فيما كان ينظر فيه من الأعمال ، وخلع عليه ولقب بالكافى . وأذن لصالح بالركوب إلى القصر . ولم تمض أشهر قلائل على ذلك حتى قبض على صالح وقتل (شوال سنة ٤٠٠ هـ) ، وقتل فى نفس الوقت غالب بن ملاك متولى الشرطتين والحسبة ، وقتل عدة كبيرة من الكتاب والخدم وغيرهم . وصرف ابن عبدون عن النظر ، بناء على رغبة الحسين بن جوهر كما تقدم (المحرم سنة ٤٠١ هـ) ، وعين مكانه أحمد بن محمد القشورى الكاتب ليتولى شؤون الوساطة والسفارة ؛ وصدر لابن عبدون أمان كتبه الحاكم بخطه ، وكان الحاكم يثنى عليه ، وعلى خدماته . بيد أنه لم تمض أشهر قلائل حتى اعتقل ابن عبدون وقتل ، وأخذت أمواله . وأما ابن القشورى فإنه لم يمكث فى منصبه سوى عشرة أيام ، ثم قبض عليه فجأة وضربت عنقه ، وذلك لما بلغ الحاكم عنه من أنه كان يبالغ فى تعظيم الحسين ابن جوهر ، والعناية بشؤونه . وعين مكانه للوساطة والسفارة ، أبو الجيوش زرعة بن عيسى بن نسطورس (المحرم سنة ٤٠١ هـ) ولقب بالشافى . واستمر ابن نسطورس فى منصبه زهاء عامين ثم مرض وتوفى (ربيع الثانى سنة ٤٠٣ هـ) فكان من الرجال القلائل الذين عصمهم الموت أو حسن الطالع من بطش الحاكم . ويقول لنا المقريزى ، إن الحاكم تأسف على موته من غير قتل . وقال : « ما أسفت على شىء قط أسفى على خلاص ابن نسطورس من سيفى ، وكنت أود لو ضربت عنقه لأنه أفسد دولتى ، ونافق على ، وكتب إلى حسان بن الجراح فى المداجاة على ، وأنه يبعث بمن يهرب إليه »[1] .

وللحاكم قصة دموية مروعة مع خادمه غبن ، وكاتبه أبى القاسم الجرجرائى . وكان غبن من الخدم السود الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه وثقته ، فعينه فى ربيع الأول سنة ٤٠٢ هـ ، للشرطة والحسبة بمصر والقاهرة والجزيرة ، والنظر فى جميع الأموال والأحوال ، ولقب فى سجل تعيينه بقائد القواد ، وأن يكاتب بذلك ، وعهد اليه بنوع خاص بتنفيذ المراسيم الدينية والاجتماعية مثل مطاردة

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ ب و ٦٦ ا .

المسكرات ، والمنع من بيع العسل والفقاع والملوخية وغيرها مما أمر بمنعه ، ومنع الملاهى واجتماع الناس فى المآتم ، والسير خلف الجنائز وغيرها . وعهد غين بالكتابة عنه إلى أبى القاسم أحمد بن على الجرجرائى ؛ وسطع نجم غين وعلت مكانته ، حتى أنه لما مرض ، ركب الحاكم لعيادته ، وسير إليه خمسة آلاف دينار ، وخمسة وعشرين فرسا . غير أن هذه المظاهر البراقة لم تحل دون نكبته . وكان الحاكم قد سخط عليه قبل ذلك ببضعة أعوام ، وأمر بقطع يده فصار أقطع اليد . وفى صفر سنة ٤٠٤ ، صرف غين عن الشرطتين والحسبة ، وقلدت لمظفر الصقلبى حامل المظلة . ولم يمض سوى قليل حتى سخط عليه الحاكم كرة أخرى . وأمر بقطع يده الثانية (جمادى الأولى)، فقطعت وحملت الى الحاكم فى طبق ، فبعث اليه الأطباء للعناية به ، ووصله بمال وتحف كثيرة . ولكن لم تمض أيام قلائل على ذلك ، حتى أمر بقطع لسانه ، فقطع ، وحمل الى الحاكم أيضا ، ومات غين بعد قليل من جراحه (جمادى الأولى سنة ٤٠٤ هـ) . وشملت النقمة أبا القاسم الجرجرائى كاتب غين ، فقد أمر الحاكم بقطع يديه عقب صرف غين (ربيع الآخر سنة ٤٠٤ هـ) . وسبب ذلك أنه كان من قبل فى خدمة ست الملك أخت الحاكم ، وتركها دون رضاه ليلتحق بخدمة غين ؛ ثم بعث اليها برقعة يستعطفها فيها ، فارتابت منه ، وبعثت بها الى الحاكم فسخط عليه ، وأمر بقطع يديه ، ويقال بل إنه كان يفض أحيانا المرقاع المحتوية المرفوعة الى الحاكم ، ويطلع على محتوياتها ، وأبقى الحاكم بعد ذلك على حياة الجرجرائى ، فعاش أقطع اليدين[٢] .

وفى ربيع الآخر سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) قتل قاضى القضاة مالك ابن سعيد الفارقى . وكان قد عين لقضاء القاهرة فى سنة ٣٨٩ هـ ، كما تقدم . ثم ولى منصب قاضى القضاة فى رجب سنة ٣٩٨ هـ ، وخلع عليه ، وقرئ سجل تعيينه بالجامع العتيق كالعادة ، وعهد إليه بكتب الدعوة التى تقرأ بالقصر على الأولياء . وجمعت له ولاية المظالم والأحباس والدعوة ودار الضرب ودار العيار وأمر الأضياف ؛ فعلت منزلته ، واجتمعت معظم الدواوين فى يده ،

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ ا و ب و ٦٧ ا و ب ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٣ .

وتوثقت صلاته بالحاكم . وكان يركب معه ليلا ونهاراً ويشاوره فى الأمور ، وزادت إقطاعاته وأملاكه من الدور والضياع وغيرها ، وقصده أصحاب الحاجات من كل صوب . وكان جواداً فصيحاً ، عف اللسان ، كثير الصون . فحدث فى ذات مساء من ربيع الأول (٤٠٥ ﻫ) ، أن ركب الحاكم ليلا كعادته إلى الجب ، وفى ركبه عدد من الناس ، ومنهم مالك بن سعيد ، فلما سلم على الحاكم ، أعرض عنه ، فتأخر ، فجاء غادى الصقلبى متولى الستر ، وأخذه إلى القصور وقتله ، وتركت جثته ، حتى مر بها الحاكم عند عوده ، وأمر بدفنها . ولم يعرف بالضبط سبب مصرعه على هذا النحو ، بيد أنه ظن أنه كان يتهم بموالاة سيدة الملك أخت الحاكم ومراعاتها ، وكان الحاكم يحقد عليها ، كما سيجىء . ولما قتل استدعى الحاكم أولاده ، وخاطبهم ، ولم يتعرض لشىء من تركة أبيهم ، وأقر ولده أبا الفتوح على رسمه وإقطاعه[1] .

وفى أواخر شعبان من هذا العام ، خلع على أبى العباس محمد بن عبد الله ابن العوام ، وصدر سجل بتقليده منصب قاضى القضاة ، فعين خلفاءه فى مصر والقاهرة وغيرهما ، ونقل ديوان الحكم من بيت مالك بن سعيد إلى بيت المال بالجامع العتيق ، وكان أول من فعل ذلك من القضاة . وكانت دواوين القضاء تعقد فى دورهم ، فجعلها بالجامع العتيق ، وجعل جلوسهم بالجامع ، يومى الاثنين والخميس ، وبالقاهرة يوم الثلاثاء ، وخصص يوم السبت للحضور بالقصر . واستمر ابن العوام فى منصبه حتى نهاية عهد الحاكم ، ولم تمتد إليه يد الفتك ، التى امتدت إلى أسلافه[2] .

ولم يمض شهران على مقتل قاضى القضاة مالك بن سعيد ، حتى قتل الحاكم وزيره الحسين بن طاهر الوزان ، وكان هذا الوزير ملحقاً بخدمة القائد غبن ، وعرضت عليه الوساطة ، فأجاب بشرط أن يكون لكل طائفة من العسكر زمام يرجعون إليه ، وأن يكون نظره هو على الأزمة مجتمعة ، ويخصص يوم لشئون كل طائفة ، فقبل اقتراحه ، وخلع عليه وقرر للوساطة والتوقيع (ربيع الأول سنة ٤٠٣ ﻫ) ؛ ثم لقب « بأمين الأمناء » . واستمر فى منصبه

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٢ ا و ب ولوحة ٦٨ ب .

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٨ ب .

زهاء عامين ، وفى ذات يوم ركب الحاكم ، ومعه أمين الأمناء ، الحسين ابن طاهر على رسمه ، فلما انتهى إلى حارة كتامة خارج القاهرة ، أمر به فضربت عنقه ، ودفن فى مكان مصرعه (جمادى الآخرة سنة ٤٠٥ هـ) . وقتل الحاكم فى نفس الوقت عبد الرحيم بن أبى السيد الكاتب متولى ديوان النفقات ، وأخاه الحسين متولى الوساطة والسفارة ، قتلا فى القصر فى منتصف شهر رمضان من نفس العام ، ولما يمض على نظرهما أكثر من شهرين . وقلد الوساطة أبو العباس فضل بن جعفر بن الفرات ، ثم قتل لأيام قلائل من تعيينه[١] .

وهكذا استمر الحاكم فى الفتك بالزعماء ، ورجال الدولة من الوزراء والكتاب ، والموقعين ، والعلماء ، ورجال القصر من الأساتذة والخدم الصقالبة ، ومن إليهم من الحشم حتى أباد معظمهم ؛ هذا عدا من قتل من التجار والصناع والكافة ، خلال هذه الأعوام الرهيبة ، وهم ألوف عديدة[٢] . وتقدر الرواية المعاصرة ضحايا الحاكم بثمانية عشر ألف شخص من مختلف الطبقات[٣] .

وأحياناً كان القتل يبدو فى نظر الحاكم ، ضرباً من ضروب اللهو أو الرياضة ، إذا صدقنا ما تسوقه إلينا الرواية من حوادث تدلى بذلك . فقد نقل إلينا المقريزى ما رواه ابن سعيد عن أحمد بنى الحسين الروذبارى ، من أن الحاكم ، قتل ذات يوم ركابيا بحربة فى يده على باب جامع عمرو ، وتولى شق بطنه بيده ؛ ونقل إلينا عن أبى سعيد أيضاً ، أن الحاكم كان يواصل أثناء طوافه الوقوف بحانوت ابن الأزرق الشواء ويحادثه ، ويبدى عطفه عليه ؛ وفى ذات يوم استدعى الحاكم أحد الركابية من السودان المصطنعة بحضرة حانوت ابن الشواء ، فوقف بين اثنين من زملائه ورماه برمح ، ثم أضجعه ، واستدعى سكيناً فذبحه بيده ، ثم استدعى ساطورا ، فقذف به رأسه وجسده ، ثم استدعى ماء فغسل يده . ثم أمر بعد ذلك بغسله ودفنه ،

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٦ ا و ٦٨ ب و ٦٩ ا .

(٢) أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية) ونهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج ٢٦ ص ٥٢ و ٥٣ ، وتاريخ الأنطاكى ص ٢٠١ .

(٣) سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) .

وأن تعمل له جنازة حافلة ، وصلى عليه قاضى القضاة[١] .

وفى أحيان أخرى ، كان الحاكم يطرب لمناظر المغامرات المميتة ، فمثلا يروى لنا المقريزى فى حوادث سنة ٣٩٧ هـ ، أن الحاكم فى شهر صفر من هذه السنة ، رسم لجماعة من الأحداث أن يتباروا فى القفز من موضع عال بالقصر ، ورسم لكل منهم بصلة ، فحضر منهم جماعة ، وتباروا فى القفز ، فمات منهم ثلاثين إنساناً ، لسقوطهم خارجاً على صخر قريب ، ودفع لمن نجا منهم مالا[٢] .

والآن ماذا نستطيع أن نقرأ فى هذا الثبت الدموى الحافل من خواص الحاكم وصفاته ؟ لقد كانت هذه الجرائم المثيرة بلا ريب عنوان اجتراء مروع على الشر ، وشغف واضح بالسفك ، واحتقار بين للحياة البشرية ؛ ولكنها لم تكن نزعة دموية فقط ، ولم تكن بالأخص دون غاية . كان الإرهاب فى نظر الحاكم وسيلة للحكم ، وكان القتل المنظم دعامة هذا الإرهاب الشامل ؛ فإذا زعيم أو رجل من رجال الدولة ، أو رجال الخاص ، وصل إلى مدى خطر من السلطان والنفوذ ، فإن القتل أنجع وسيلة لسحقه وسحق نفوذه ؛ وإذا وزير أو كاتب أو موقع بدرت منه بادرة انحراف أو خيانة أو تطلع أو تدخل فيما لا يعنيه ، قضى عليه بأن يختفى من الميدان ؛ وإذا بدرت من قاض نزعة ضعف فمال مع الهوى ، وامتدت يده إلى مال حرام أو رشوة ، فإن مقتله يغدو كفيلا بسحق الفساد والظلم ، وعود الثقة إلى القضاء والعدالة ؛ وإذا بدرت من فريق من الناس بادرة تذمر ، أو تمرد على أمر من الأوامر أو قانون من القوانين ، فإن إزهاق عدد منهم يكفل عودهم إلى السكينة والخشوع . وكانت هـــذه السياسة الدموية تحيط عرش الحاكم بسياج منيع من الرهبة ، وتؤيد حفظ النظام والأمن والسكينة ، وتخمد الأطماع المتوثبة فى مهدها ، وتنذر الزعماء ورجال الدولة بالخضوع المطلق لهذا الفتى الجرىء . ولقد كان القتل دائماً وسيلة الطغاة إلى تأييد سلطانهم ، وكان الحاكم طاغية قوى النفس والشكيمة . وقد كانت الأهواء والفورات العنيفة ، التى تجيش بها نفس

---

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧٠ ب و ٧١ ا .

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ب .

الحاكم ، تمده هذه السياسة الدموية بروح من الإسراف والقسوة ، ولكنها كانت فى نظره قبل كل شىء وسيلة من وسائل الحكم ، وكان لها بلا ريب أكبر الأثر فى توطيد سلطانه ، وسحق عناصر الخروج والثورة التى تتربص عادة بأمثاله الطغاة المسرفين . وفضلا عن ذلك ، فقدكان القتل وسيلة العصر ، لحماية المجتمع من موجة غلاء أو قحط مصطنعة ، وسبيلا لحماية الأسعار ، وصون النظم الاقتصادية من عبث الجشعين والمستغلين الذين لا وازع لهم ، ولا ضمير . وقد لجأ الحاكم غير مرة إلى تلك الوسيلة الدموية ، وفتك بكثير من التجار والكافة لحماية المجتمع والنظم الاقتصادية .

وقد أفاضت الروايات المعاصرة والمتأخرة ، فى هذه السير والحوادث الدموية المروعة ، ومن الطبيعى أن تتخذها مادة للحملات والمطاعن العنيفة ، وتصوير الحاكم فى صورة الوحش الضارى ، ونعته بأقبح النعوت ؛ بيد أن بعض المؤرخين لم يفته أن يشير إلى الغاية السياسية التى ترمى إليها تلك الخطة ، فمثلا يقول لنا الوزير جمال الدين المصرى عن الحاكم وعن خطته الدموية ما يأتى :

« وكان مؤاخذاً بيسير الذنب ، حاداً لا يملك نفسه عند الغضب ، فأفنى أمماً وأباد أجيالا ، وأقام هيبة عظيمة وناموساً ، وكان يفعل عند قتله الشخص أفعالا متناقضة وأعمالا متباينة ، فكان يقتل خاصته وأقرب الناس اليه ، فربما أمر بإحراق بعضهم ، وربما أمر بحمل بعضهم وتكفينه ودفنه وبنى تربة عليه ، وألزم كافة الخواص ملازمة قبره والمبيت عنده ، وأشـياء من هذا الجنس يموه بها على عقول أصحابه السخيفة ، فيعتقدون أن له فى ذلك أغراضاً صحيحة استأثر بعلمها ، وتفرد عنهم بمعرفتها ، وهو مع هذا القتل العظيم والطغيان المستمر يركب وحده منفرداً تارة ، وفى الموكب أخرى ، وفى المدينة طوراً ، وفى البرية آونة ، والناس كافة على غاية الهيبة له والخوف منه والوجل لرؤيته ، وهو بينهم كالأسد الضارى ، فلم يزل أمره كذلك مدة ملكه وهى إحدى وعشرين سنة »[١] .

---

(١) أخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية بدار الكتب) . ونقل المستشرق فستنفلد فقرات عن الحاكم فى كتابه Geschichte der Fatimiden ص ٢٠٢ وما بعدها ، وترجمها الى الألمانية .

ويقول الأنطاكي وهو مؤرخ معاصر : « وأقام له (أى الحاكم) من الهيبة فى نفوس الكافة ؛ لشدة سطوته وتسرعه الى سفك الدماء ، وأنه لا يبقى على من صغر ذنبه وقل ، فضلا عمن عظم جرمه وجل »[١] .

وإذن فلم يفت الرواية الإسلامية والنصرانية أيضاً ، المعاصرة والمتأخرة ، أن تلاحظ أن خطة القتل الذريع التى لجأ إليها الحاكم قد « أقامت له هيبة عظيمة وناموساً » وحملت « كافة الناس على غاية الهيبة له والخوف منه » ، وعانت على توطيد سلطانه طوال مدة حكمه .

ونستطيع أن نلاحظ أن الالتجاء الى مثل هذه الوسائل الدموية لتأييد الحكم والسلطان ، ليس خاصا بنظم العصور الوسطى ، أو بسياسة الطغاة فى تلك العصور ، ففى عصرنا وفى أرقى الأمم الغربية تعتمد النظم الطاغيــة (الدكتاتورية) ،ويعتمد أقطاب الطغاة فى تأييد هذه النظم ،الى مثل هذه الوسائل الذريعة ، وترتكب هذه المذابح دائما باسم سلامة الدولة وسلامة النظم القائمة ؛ والواقع أنها ليست دائما إلا شهوة من شهوات أولئك الذين يقبضون على زمام السلطة ، ويحرصون على استبقائها بأى الوسائل ، ويرتجفون دائما لشبح أية معارضة يهمس بها الخصوم الأقوياء .

ولقد كان من أروع وأحدث ما شهدناه من مظاهر هذه السياسة الدموية المروعة ، وتوسل الطغيان بالقتل الذريع الى حماية سلطانه ، ما حدث فى ألمانيا النازية ، قبيل الحرب العالمية الثانية ، حيث قام الطاغية هتلر ، بسحق المنشقين من معاونيه وأعضاء حزبه الاشتراكيين الوطنيين ، وكيف قتل منهم بنفسه فى يوم واحد هو ٣٠ يونية سنة ١٩٣٤ ، نحو مائة شخص ما بين زعماء وقادة ، وذلك لكى يتخلص من منافستهم ومعارضتهم ؛ وما حدث فى روسيا السوفيتية حيث قام طاغيتها ستالين ، فى سنتى ١٩٣٦ و ١٩٣٧ ، بما سمى يومئذ فى لغة البلاشفة « بعملية التطهير الكبرى » ، وهى التى زهق فيها عشرات من زعماء المعارضة ، من أقطاب الحزب الشيوعى والدولية الشيوعية والجيش الأحمر ، فى محاكمات صورية نظمت لسحقهم والتخلص منهم .

ونستطيع أن نمثل أيضاً ، بما وقع فى أوائل عهد تركيا الكمالية (سنة ١٩٢٥

---

(١) الأنطاكى ص ٢٢١ .

وما بعدها) من قتل منظم لمئات من المعارضين والمحافظين ، بواسطة « محاكم الاستقلال » الشهيرة التى نظمها مصطفى كمال لسحق خصومه ومعارضيه ؛ وما وقع فى إيطاليا أيام موسولينى والطغيان الفاشستى ، وما وقع فى اسبانيا الفرنكية فى أعقاب الحرب الأهلية فى سنتى ١٩٣٨ و ١٩٣٩ ، من مقاتل مروعة لزعماء اسبانيا الديمقراطية والجمهورية الذين سقطوا فى أيدى فرانكو ومعاونيه ؛ وأخيراً بما يقع فى ظل النظم الدكتاتورية ، حيث تقوم ، من إجراءات القمع والتقتيل المنظم ، التى تتخذ لدعم سلطان الطغاة ، وفرض نظمهم وإرادتهم .

فهل نعجب إذا رأينا طاغية من طغاة العصور الوسطى ، مثل الحاكم بأمر الله ، يلجأ إلى مثل هذه الوسائل الدموية ، حرصاً على سلطانه من مطامع زعيم أو وزير قوى ، ويتذرع بها ليفرض هيبته على الكافة ، وليبث إلى نفوسهم الروع والرهبة ؟ .

ثم أليست القسوة والطغيان ، والإرهاب ، والغدر ، والنكث ، عنوان الفلسفة المكيافيللية التى بعثت فى عصرنا ؟ لقد مجد مكيافيللى الطغيان والقتل ، وأعجب بطغاة مثل اسكندر بورچيا وابنه شيزارى ، لأنهم استطاعوا أن يؤيدوا سلطانهم بالقتل الذريع ، دون وازع ، ودون التقيد بعهد أو مبدأ أو زمام .

هذه خواطر وتأملات نبسطها ، لا لنبرر شيئاً من إجراءات الحاكم وتصرفاته الدموية ، أو أن نخفف من وقعها ومسئوليتها الرهيبة أمام التاريخ ، ولكن لنشرح ظاهرة تاريخية تلازم عصور الطغيان ، ولكى نفهم هذه العقلية الدموية على حقيقتها .

هذا ويفسر لنا بعض الروايات ، إسراف الحاكم فى القتل ، بأنه كان تقرباً منه « لزحل وطالعه المريخ » ، وقد كان الحاكم شغوفاً بالفلك ورصد النجوم كما سنرى[1] . والظاهر أن الرواية الإسلامية تنقل هنا عن الرواية الكنسية المعاصرة ، فهى التى تقدم إلينا هذا التعليل ، وتقول لنا إن الشيطان كان يتشبه للحاكم فى صورة زحل ، فيخاطبه فى أمور كثيرة ، ويذبح له

---

(١) مرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) المجلد ١١ ج ٣ ص ٤٠١ و ٤٠٧ و ٤٠٨ ؛ وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ .

القرابين ؛ بل تزعم فوق ذلك أن الحاكم كان يزهق الضحايا بيده ، وتروى لنا فى ذلك قصة مروعة ، خلاصتها أن القائد فضل بن صالح دخل يوما على الحاكم بالقصر ، فرآه بين يديه صبى مليح ابتاعه بمائة دينار ، وقد ذبحه بسكين فى يده ، واستخرج أحشاءه وأخذ يقطعها ، فارتد الفضل إلى منزله مذعوراً ، ولم تمض ساعة حتى أنفذ إليه الحاكم من قتله[1] ، بيد أنا لا نستطيع أن نسيغ هذا الرأى من الوجهة التاريخية ، أو نقبل هذه الروايات المغرقة ، فليس فى سيرة الحاكم رغم شذوذه ، وتباين معتقداته وشغفه بالخفاء ، ما يدل على أنه كان يأخذ بمثل هذه الرسوم الوثنية المثيرة .

(١) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى المشار إليه) .

الفصل السابع

المراسيم الاجتماعيـــة والدينية

شغف الحاكم بالليل . الحياة والأنوار الليلية . العاصمة الساطعة المرحة . وقف الحياة الليلية . مدينة القاهرة فى هذا العصر . الطواف من خواص حياة الحاكم . عناصره الاجتماعية والشعبية . بعض نوادر عنه . موجة المراسيم المدهشة . المراسيم الاجتماعية . تحريم بعض البقول والأسماك والأبقار . حظر التبرج على النساء . مطاردة المسكرات . تحريم الزبيب والعنب واتلافهما . مطاردة البغاء ودور اللهو . قتل الكلاب . مراسيم أخرى . اضطراب الحياة الاجتماعية . المجاعة والوباء . قبض الحاكم على أموال أهله . تحريم الخوض فى الشؤون العامة . منع النساء من زيارة القبور والاجتماع والاستحمام . تحريم التنجيم والغناء . الحجر المطلق على النساء . الصرامة فى تنفيذ هـــذه القوانين . المراسيم الدينية . ملابس النصارى واليهود . هدم بعض الكنائس . مرســـوم بهدم كنيسة القمامة . ملابسات هذا المرسوم . إلغاء الأعياد النصرانية . التشريع المرهق للذميين . اضطراب المجتمع النصرانى . هدم الكنائس ونهبها ونزع أملاكها . اعتقال البطريرك القبطى . محنة الذميين . إطلاق الهجرة لهم . هدوء المطاردة . إلغاء القوانين المرهقة . إطلاق حرية الشعائر . إعادة بناء الكنائس . الأمان الذى صدر للنصارى . سجلات مختلفة للنصارى . بواعث المطاردة الدينية . تطوراتها فى الدولة الفاطمية . أول تشريع للذميين فى الإسلام . السياسة المذهبية . سب السلف ومحوه . التوفيق بين الأحكام الدينية . الصلاة والأذان . الزكاة والنجوى . الحاكم وأصول الإسلام . أقوال الدعاة السريين فى ذلك . عقيدة الحاكم الدينية .

كان شغف الحاكم بالليل من أظهر خواص هذه المرحلة من حكمه . كان الحاكم يعقد مجالسه ليلا ، ويواصل الركوب كل ليلة ، وينفق شطراً كبيراً من الليل ، فى جوب الشوارع والأزقة (سنة ٣٩١ هـ) ، وصدرت الأوامر بهذه المناسبة بتعليق المصابيح ليلا ، على جميع الحوانيت وأبواب الدور والمحال المختلفة فى جميع طرقات القاهرة والفسطاط ، وتكرر هذا الأمر غير

مرة فى الأعوام التالية ، وكان يقرن بأمر آخر هو وجوب كنس الشوارع والأزقة وأمام أبواب الدور فى كل مكان ، فكانت المدينة تبدو فى هذه الفترات بالليل كأنها شعلة مضيئة ، وتبدو فى نفس الوقت فى ثوب مشرق من النظافة والإناقة ، ولازم الحاكم الركوب فى المدينة المنيرة ، وكان يزور كل ليلة حياً معيناً ويشق طائفة من الشوارع والدروب ، ويقيم الحسبة بنفسه أحيانا ، ويستطلع أحوال الشعب وأخباره أو على قول المقريزى : « فكان يركب إلى موضع موضع ، وإلى شارع شارع ، وإلى زقاق زقاق » ؛ وأصبحت جميع الأعمال والمعاملات تجرى بالليل وتزدهر مواطن السمر ، وتختلط حياة الجد بحياة اللهو والقصف ، فتسطع الميادين بالوقود والشموع الكبيرة ، وتزين الأسواق والقياسر بمختلف أنواع الزينة ، وتغص بصنوف اللهو والمرح ، وتنفق الأموال الوفيرة فى المآكل والمشارب والسماع ؛ وكان الشعب القاهرى يحتشد حول مليكه أينما وجد ، فى جموع غفيرة ، وكان الحاكم يشق جموع الشعب المحتشدة فى بساطة ورقة ، ولا يمنع أحدا من الدنو منه أو من مخاطبته ، واستمر الحال على ذلك أشهرا ، وظهر النساء فى المجتمعات بكثرة ، واشتد تيار المجون والغواية[1] ، وأصبحت القاهرة بأنوارها الساطعة ، ومناظرها المرحة ، وملاهيها الصاخبة ، كأنها تعيد سيرة رومة ومناظر قصفها وفجورها فى عصر الإنحلال . فلما خرج الناس فى ذلك عن الحد ، وبالغوا فى اللهو والإسراف والزينة والمجون ، منع الحاكم النساء من الخروج ليلا منذ العشاء لكى تخف عوامل الفتنة والغواية ، وعوقب المخالفات بشدة ؛ ثم منع الرجال من ارتياد الحوانيت والمقاهى ، وأبطلت بعد ذلك جميع الأعمال والمعاملات ليلا ، وعاد الظلام يخيم على القاهرة بالليل ، (سنة ٣٩٣ هـ) . وشغف الحاكم بالليل وظلماته من غريب أطواره ونزعاته ، حتى لقد لبث مدى حين يؤثر الجلوس فى الظلام[2] ، بيد أنه ينم فى نظرنا عن روح فلسفى يزيد فى غموض نفسه .

وإنه لمن الشائق أن نعرف ماذا كانت عليه مدينة القاهرة المعزية فى هذا

(١) خطط المقريزى ج ٣ ص ١٧٦ ؛ واتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ب و ٥٧ ا .

(٢) مرآة الزمان الجزء المشار إليه ج ٣ ص ٤٠١ (وأورده النجوم الزاهرة ٤ ص ١٧٦) .

العصر الملئ بالأحداث المدهشة . وقد رأينا كيف نشأت القاهرة على يد جوهر ، مدينة ملوكية متواضعة لا تتجاوز مساحتها ميلا فى ميل ، وتضم القصر الخليفى وحدائقه ، ومساكن الحاشية . وخطط الجند ، ويتوسطها الجامع الأزهر ، ومن حولها السور اللبن الساذج الذى أنشأه جوهر لحمايتها من عدوان القرامطة . بيد أن المدينة الفاطمية أخذت تنمو بسرعة ، ولم يمض جيل واحد ، حتى اتسعت جنباتها ، ونمت نموا عظيما ، وقامت الأحياء والخطط الجديدة خارج الأسوار ، واتصلت بمصر الفسطاط ، وامتزجت المدينتان وتداخلتا ، وصارتا تكونان معا ، مدينة من أكبر وأعظم مدن الإسلام فى العصور الوسطى .

وكان اسم القاهرة المعزية يطلق على مجموعة الخطط التى تقع داخل السور الذى أنشأه جوهر ، ولكن هذا السور غير مراراً أثناء الدولة الفاطمية ، وأنشئت فيما وراء الأسوار القديمة خطط وأحياء جديدة فخمة ؛ وكان أعظم تغيير طرأ على الأسوار ، هو مشروع السور العظيم الذى أنشأه أمير الجيوش بدر الجمالى فى عهد المستنصر بالله فى سنة ٤٨٦ هـ ، وهو السور الذى ما زال يقوم من أبوابه العظيمة إلى اليوم ثلاثة ، وهى بابا النصر والفتوح فى الشمال ، وباب زويلة فى الجنوب ، وهى من أعظم الآثار الفاطمية الباقية .

وكانت القصور الفاطمية ، قد نمت ، وبلغت فى عصر الحاكم منتهى الضخامة والبذخ . وكان القصر الخليفى الكبير أو القصر الشرقى ، يقع فى وسط المدينة ، فى منطقة خالية ، وأمامه من الناحية الغربية يقع القصر الغربى أو القصر الصغير ، وهو الذى أنشأه الخليفة العزيز بالله ، وخصص فيما بعد لإقامة ابنته ست الملك ، وبينهما ميدان شاسع هو ميدان بين القصرين الشهير ، وهو الذى كانت تجتمع فيه الجيوش المسافرة ، أو الحرس الخليفى ، أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة . وقد وصف لنا ناصرى خسرو الذى زار القاهرة بعد عصر الحاكم بنحو ربع قرن فقط (سنة ٤٣٨ هـ) ، هذا القصر الفاطمى الكبير بقوله : « انه قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظرا لضخامة مبانيه وارتفاعها . ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع . ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثنى عشر ألف نفس . ومن ذا الذى يستطيع أن يقول كم يضم من النساء

والبنات . وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين ألف شخص ، ويتكون القصر من عشرة أجنحة ، وله عشرة أبواب تفضى الى الحرم » .

ثم يقول ناصرى خسرو ، إن القاهرة لها خمسة أبواب ، وهى ليست محصورة فى رقعة محصنة ، ولكن المبانى والمنازل مرتفعة جدا ، حتى إنها تبدو أعلى من الحصن ، وكل منزل ، وكل قصر يمكن اعتباره قلعة ، ومعظم المنازل يضم خمس أو ست طبقات .

وقد بنيت منازل القاهرة بمنتهى العناية والترف ، حتى ليمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة ، وليس من الآجر والأحجار العادية . والمنازل كلها منعزلة بحيث أن الأشجار القائمة فى أحدها لا تصل أغصانها الى المنزل الآخر ، ويستطيع كل إنسان أن يهدم داراه وأن يبنيها دون أن يضار أحد .

وتضم القاهرة ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة ، ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير مغربية فى الشهر ، والقليل منها يؤجر بأقل من ذلك . كذلك يوجد منها عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة . وهذه كلها أيضا من أملاك الخليفة ، إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلا أو عقارا إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه .

وأما عن مدينة مصر أو الفسطاط فيقول لنا ناصرى خسرو ، إنها كانت هى العاصمة ، وانها تقوم على ربوة مرتفعة تظللها من الناحية الشرقية ، سلسلة منخفضة من التلال ، ويقوم جامع ابن طولون على مرتفع يشرف على المدينة . وقد بنيت مصر على هذا المرتفع الصخرى لكى يحميها من مياه النيل ، وأن من يتأملها عن بعد ، يتوهم أنه يرى جبلا ، ومن بين مبانيها دور من أربعة عشرة طابق أو سبعة ، وبها سبعة جوامع كبيرة[١] .

كانت القاهرة ، فى عصر الحاكم إذن ، سواء من حيث رقعتها ومبانيها وعمرانها ، وأحيائها الداخلية والخارجية ، مدينة عظيمة ، تموج بسكانها

---

(١) ناصرى خسرو . رحلته وتفكيره الدينى وفلسفته وشعره (بالفرنسية) للدكتور يحيى الخشاب ص ١٠٢ و ١٠٣ و ١٠٩ — ١١١ .

الذين ربما بلغوا مع ضم الفسطاط إليها نحو نصف مليون من الأنفس . وكان الحاكم يجد فى طوافه الليلى بعاصمته الكبيرة الزاخرة ، من ضروب الحركة والنشاط ، ومن صور الحياة الإجتماعية المختلفة ، ما يشغله ويذكى اهتمامه ، ويملى عليه مختلف المشاريع والقرارات .

وشغف الحاكم بالطواف بمدينة القاهرة وضواحيها طول حياته ؛ وقد كان طوافه على هذا النحو ، سواء بالنهار أو الليل من أبرز مظاهر نشاطه ، وحياته العامة ، كما كان من أبرز ظواهر حكمه . وقد نقلت إلينا الرواية عنه صوراً ومناظر منوعة ، كلها تستحق الدرس والتأمل ، والإعجاب أحياناً . فكان الحاكم فى مستهل حكمه ، كثيراً ما يركب إلى ناحية سردوس ، وإلى بركة الجب ، وإلى عين شمس وحلوان ، للصيد وغيره . ثم كان بعد ذلك يواصل الركوب إلى الصحراء ، بحذاء فى رجله ، وعلى رأســه فوطة ، فيركب كل ليل بعد المغرب . وفى أواخر عهده (سنة ٤٠٤ هـ) ، كان الحاكم يواصل الركوب فى العشايا . وقد اتخذ له فى هذه الفترة خادماً ركابياً أسود ، كناه بأبى الرضا سعد ، وأغدق عليه الهبات والإقطاعات ، فقصده الناس فى حوائجهم ، وقصدوا بابه لمهماتهم ، فكان يتوسط بينهم وبين الحاكم ، وكان الحاكم يجيب سؤله فى أحيان كثيرة . وكانت هذه المواكب الخلافية البسيطة ، تقرن فى معظم الأحيان ، مثل ما كانت فى أوائل عهد الحاكم ، باحتشاد طوائف الشعب من حوله ، وأقبالهم عليه . ويصف لنا المقريزى هذا المنظر فى حوادث رمضان سنة ٤٠٤ هـ ، حينما ركب الحاكم لصلاة الجمعة بجامع القــاهرة (الجامع الأزهر) ، فيقول : « فازدحم الناس عليه بعد ركوبه من الجامع إلى القصر ، فوقف لهم ، وأخذ رقاعهم ، وحادثهم وضاحكهم ، فلم يرجع إلى القصر من كثرة وقوفه ، ومحادثة العوام ، إلى غروب الشمس ؛ ودفع صلات كثيرة » .

واستمر الحاكم فى العام التالى (٤٠٥ هـ) على منواله فى الركوب والطواف ، فكان يواصل الركوب ، ويأخذ الرقاع ، ويقف طويلا مع الناس . وفى جمادى الأولى من هذا العام ، كثر ركوبه ، حتى كان يركب فى اليوم الواحد عدة مرار ، وكثرت هباته وأعطيته . ثم أمر بابتياع الحمير ، وصار

يركبها من تحت السرداب إلى باب البستان إلى المقس ، وتغلق الأبواب التى يتوصل منها إلى المقس وقت ركوبه ، ومنع الناس من الخروج إلى هذا الموضع. وفى رمضان من نفس العام كثر ركوب الحاكم بشكل ظاهر ، فركب فى يوم واحد ست مرات ، تارة على فرس ، وأخرى على حمار ، ومرة فى محفة ، تحمل على الأعناق ، ومرة فى عشارى فى النيل ، وهو يلف رأسه بشاشة لا عمامة عليها ، وكثرت إقطاعاته للجند والعبيد ، واستمر على الركوب إلى ليلة النحر[١] .

وقد نقلت الينا الرواية أحاديث ونوادر كثيرة عن المناظر التى كانت تقترن بهذا الطواف ، وعما كان ينزع اليه الحاكم أحيانا من الأهواء العنيفة خلال طوافه ؛ ومن ذلك أنه كان يأمر بإحراق الشون ليتمتع بمرأى النيران ، وأنه لقى ذات مساء عشرة من الناس سألوه الإحسان ، فأمر أن ينقسموا الى فريقين يتقاتلان حتى يغلب أحدهما فينعم عليه ، فتقاتلا حتى فنى منهم تسعة وبقى واحد ، فألقى اليه الدنانير ، فلما انحنى ليأخذها عاجله الركابية بقتله[٢] ، وأنه مر ذات ليلة على دكان شواء ، فانتزع منه سكينا وقتل بها أحد الركابية المقربين لديه بغير ما سبب معروف ، وتركت الجثة فى موضعها ، وفى اليوم التالى أنفذ الحاكم اليه كفناً جليلا ، ودفن مع التكريم . وتزيد الرواية على ذلك أن الحاكم كان أحيانا يلهو أثناء طوافه برؤية بعض المناظر الخليعة المثيرة ، بيد أن هذه روايات تحمل الطابع القصصى ، ويحفها فى نظرنا كثير من الريب[٣] .

وفى تلك الفترة الحافلة من عهد الحاكم ، وهى التى تملأ نحو عشرة أعوام من سنة ٣٩٥ ﻫ ، إلى سنة ٤٠٥ ﻫ ، وهى التى تميزت بنزعاته الدموية وكثر فيها مقتل الزعماء ورجال الدولة وأفراد الرعية ، كما تميزت بطوافه المستمر المضنى ، نرى الحاكم يصدر تباعا طائفة من الأوامر والقوانين (السجلات) المدهشة التى لم يسمع بمثلها من قبل فى أى مجتمع إسلامى . وكانت هذه المراسيم دينية واجتماعية ، وكان مما يزيد فى غرابتها وغموض بواعثها ، أنها كانت

---

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٥ ب و ٦٧ ا و ب و ٦٩ ا .

(٢) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى)

(٣) تاريخ الأنطاكى ص ٢٠٩ و ٢١٧ .

تصدر ثم تمحى بعد قليل وتستبدل بعكسها ، ثم يعاد صدورها وهكذا . وقد اتخذ المؤرخون المسلمون على كر العصور ، هذه المراسيم ، حجة للحكم على الحاكم وعصره بأقسى الأحكام ، واكتفوا فى تعليلها بنظرية بسيطة ، هى أن الحاكم كان ذهناً مضطرباً لا يصدر عن روية أو حكمة ، ولم تكن هذه الأوامر والاجراءات الشاذة ، سوى نزعات مخبول لا يستقيم له منطق أو غاية . ويحسن قبل أن نناقش هذا الرأى ، أن نستعرض هذه المراسيم أولا وأن نحاول أن نتفهمها ، وأن نستقصى بواعثها على ضوء الظروف التى كان يجوزها المجتمع يومئذ .

— ١ —

ونبدأ بالمراسيم الاجتماعية . فى المحرم سنة ٣٩٥ هـ ؛ صدرت أول طائفة من هذه الأوامر المدهشة ،فصدر سجل يمنع الناس من أكل الملوخية والترمس والجرجير والمتوكلية والدلينس[1] ، وحرم ذبح الأبقار السليمة إلا فى أيام النحر (عيد الأضحى وغيره) ؛ وفى غيرها ، لا يذبح إلا ما كان ذو عاهة أوما لا يصلح للحرث ؛ وحرم بيع الفقاع وعمله بأى صورة ، وكان الفقاع مسكراً ذائعاً فى ذلك العصر ؛ وحرم صيد السمك الذى لا قشر له وكذلك بيعه ؛ وحرم دخول الحمام بلا مئزر ، وهوجمت الحمامات تباعا وقبض على المخالفين فأدبوا وشهروا ؛ وشدد على النخاسين ، وتجار الرقيق فى المنع من بيع العبيد والأماء لأهل الذمة ، ثم أمر بعد ذلك ألا يدخل سوق الرقيق أحد إلا أن يكون بائعاً أو مشترياً ؛ وأن يفرز الجوارى من الغلمان ، وأن يجعل لكل منهم يوم خاص ؛وحرم على النساء أن يكشفن وجوههن فى الطريق ، أو خلف الجنائز ، وحرم عليهن التزين والتبرج كما حرم البكاء والعويل والصياح وراء الموتى ؛وشدد الحاكم فى تنفيذ هذه الأوامر ، وعوقب كثيرون من المخالفين بالجلد والتشهير والإعدام[2]. ثم حرم على الناس أن يخرجوا من منازلهم إلى الطرقات منذ الغروب الى الفجر ، وأن يزاولوا البيع والشراء

---

(١) قال ابن البيطار فى مفرداته ، الدلينس اسم بالديار المصرية لنوع من الصدف صغير يؤكل نيئاً مملوحاً يتأدم به .

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ا .

بالليل ، فخلت الطرق من المارة ، وأقفرت الشوارع والميادين بالليل ، وغدت القاهرة كالمدينة المحصورة .

وفى ربيع الأول سنة ٣٩٩ هـ ، صدر سجل بالمنع من عمل النبيذ والمزر ، وحذر من التظاهر بشىء من ذلك ، أو من الفقاع والدلينس ، والسمك الذى لا قشر له ، والترمس المتعفن ، وجاء هذا السجل مؤكداً لهذه المطاردة العنيفة المنظمة التى شهرت فى عهد الحاكم على الخمر والمسكرات بأنواعها ، والمواد التى تصنع منها ؛ وفى العام التالى صدر سجل بالتشديد فى حظر الخمور وبيعها ، وبإراقة النبيذ وجميع أنواع المسكر ، وكسرت أوانى الخمور ، وأريقت فى كل مكان ، وشدد على الخمارين وبدد كل ما فى دورهم ومحلاتهم واستمرت هذه الشدة ، وتناهت فى العام التالى (٤٠١ هـ) . وفى المحرم من سنة ٤٠٢ هـ ، قلدت الشرطتان لمحمد بن نزال ، وصدرت إليه الأوامر ، بمضاعفة الحزم فى تتبع المسكرات ومنعها ، وأن يحرم بيع الزبيب إلا خمسة أرطال فما دونها ، وألا تباع الجرار . ولم تمض سوى أشهر قلائل ، حتى حرم بيع الزبيب إطلاقاً ، وأمر بمصادرته ، وألقيت منه فى النيل مقادير كبيرة ، وأحرقت مقادير أخرى كانت فى مخازن التجار ، وتوالى هذا الإحراق أياماً بحضرة الشهود . وفى شهر ذى الحجة (٤٠٢ هـ) عمل عيد الغدير على رسمه ، ومنع مرة أخرى من بيع الزبيب إلا أن يكون أربعة أرطال فما دونها ، ومنع من اعتصاره ، ثم أمر بإتلافه ومنع بيعه البتة ، وأغرق ما وجد منه فى النيل . وطاف المأمورون بأنحاء الجيزة ، وكانت يومئذ عامرة بحدائق الكروم فجمعت الأعناب ، وطرحت تحت أرجل البقر لدوسه ، وصدرت الأوامر بذلك إلى مختلف الجهات ؛ وتتبع من يبيع العنب ، وشدد فى ذلك حتى اختفت آثاره . ثم ختم بعد ذلك على العسل ، وصودرت منه آلاف من الجرار وأغرقت فى النيل ؛ وتكرر تحريم المسكرات والفقاع الزبيب فى سجل جديد صدر فى جمادى الآخرة سنة ٤٠٣ هـ ، وهكذا خصت الخمر ومصادرها طوال عهد الحاكم بأقسى المطاردات وأعنفها[١] .

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣ ا و ٦٥ ا و ب ؛ والخطط ج ٤ ص ٧٢ . وراجع ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ .

وفى سنة ٤٠١ هـ ، صدر سجل بمنع الغناء واللهو ، وأمر أن لا تباع مغنية ، وألا يجتمع الناس فى الصحراء ، ومنع النساء من الغناء والنشيد - وهوجمت أماكن البغاء والقصف بشدة وأزيلت دورهم وأوكارهم ، وطهرت منهم أحياء المدينة ، وكانوا ينبثون فى معظم جنباتها[١] .

وفى سنة ٣٩٥ هـ أمر بتتبع الكلاب وقتلها أينما وجدت إلا كلاب الصيد ، فطوردت فى كل مكان ، وأعدمت حتى خلت منها جميع الطرق والدور[٢] وتكررت هذه الحملة ضد الكلاب بعد ذلك ، فى سنتى ٤٠٤ هـ ، ثم ٤٠٥ هـ ، وقتل منها فى كل من عدد لا يحصى ؛ وقيل فى سبب قتلها إن الحاكم كان يسير فى ركبه ذات يوم فاعترض مطيته كلب ، فوثبت وكادت تلقيه على الأرض ، وقيل إنها كانت تكثر النباح بالليل وتزعجه فى طوافه فأمر بتطهير الطرقات منها[٣] ؛ ولكن سنرى أن قتلها كانت تمليه بواعث صحية ؛ وأمر أيضاً بقتل جميع الخنازير التى فى كورة مصر فقتلت عن آخرها[٤] . وفى هذا العام أيضاً (٣٩٥ هـ) حرم على كل من يركب مع المكاريين أن يدخل راكباً من باب القاهرة ، وحرم ذلك على المكاريين أنفسهم ، وحظر على التجار والباعة أن يجلسوا على باب الزهومة (من أبواب القصر) ، وألا يمشى أحد بحذاء القصر ، ثم أعفى المكارية بعد ذلك من الأمر ، وصدر لهم أمان خاص[٥] .

وهكذا اضطربت أوضاع الحياة الاجتماعية فى مصر ، واستمر تطبيق القوانين والأوامر الجديدة على أشده . وفى سنة ٣٩٨ هـ صدرت عدة مراسيم (سجلات) جديدة تكراراً لما سبق الأمر به ، فمنع الناس من التظاهر بالغناء ، ومن ركوب البحر للتفرج ، وذلك لمناسبة نقص النيل فى هذا العام ، وشدد فى منع بيع الخمور ؛ ثم صدر مرسوم بمنع الناس كافة من الخروج قبل

---

(١) الأنطاكى ص ١٨٦ .

(٢) ابن خلكان ج ٢ ص ١٦٦ ، والمقريزى ج ٤ ص ٦٩ و ٧٠ ، والأنطاكى ص ١٨٧ .

(٣) فى سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) . والأنطاكى ص ١٨٨ .

(٤) سير البيعة المقدسة .

(٥) المسبحى فى حوادث سنة ٣٩٥ ، ونقله المقريزى فى الخطط ج ٣ ص ٤٤ .

الفجر وبعد العشاء ، فزادت المعاملات اضطراباً واشتد الأمر على الكافة ، وسرى إليهم الخوف والجزع ؛ واشتد الغلاء من جراء قصور النيل وهلاك الزرع ، واشتكى الناس خاصة من قلة الخبز وسواده ، ومن غلاء الدقيق والأرز ، وتفاقت الحال بظهور الوباء ، وعصف المرض والموت ، وعز القوت والدواء والفواكه ، واشتدت المحنة بالناس مدى أشهر ، وحمل الوباء منهم ألوفاً كثيرة ؛ واتخذ الحاكم بعض الإجراءات لمقاومة الغلاء فأمر بألا يخزن أحد من المؤن أكثر من حاجته ، وحددت أسعار القمح والمواد الغذائية الأخرى ، مثلما تعمل أرقى الحكومات فى عصرنا عند الطوارئ ، وعوقب المخالفون بالموت[1]. وفى سنة أربعمائة منع ركوب المراكب فى الخليج ، وسدت أبواب القاهرة التى تلى الخليج وأبواب الدور والطاقات المطلة عليه[2] وعوقب الكثيرون من أجل إحراز الفقاع والملوخية والسمك الذى لا قشر له ومن بيع النبيذ وإحرازه ، وطورد السكارى والمخالفون بشدة ، وكانت العقوبة تصل فى أحيان كثيرة إلى الإعدام .

ومن غريب تصرفات الحاكم فى تلك الفترة ، أنه قبض على جميع أملاك زوجه وأمه وأخته وعماته وخواصه وجواريه وسائر أقطاعاتهن وأموالهن بمصر والقاهرة وكانت جملة عظيمة (سنة ٣٩٩ هـ) ، ولم تفهم حكمة هذا التصرف أو بواعثه ، بيد أنها كانت فيما يظهر ثورة موقتة ، وقد عاد فرد الأمور إلى نصابها فيما بعد[3] .

وفى صفر سنة ٣٩٩ هـ ، صدر سجل « بترك الخوض فيما لا يعنى ، والإشتغال بالصلوات فى أوقاتها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وألا يخوض أحد فى أحوال السلطان وأوامره ، وأسرار الملك » ؛ وفى ذى العقدة من العام التالى تكرر هذا الأمر بالخوض فيما لا يعنى . وفى سنة ٤٠١ ، قرئ سجل جديد مماثل بالنهى عن معارضة الإمام فيما يفعله أو يصدر عنه من الأوامر والأحكام ، وترك الخوض فيما لا يعنى . وكانت النفوس

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣ ا و ٦٤ ا ، وتاريخ الأنطاكى ص ١٩١ .

(٢) المقريزى عن المسبحى ج ٣ ص ٣٨ .

(٣) تاريخ الأنطاكى ص ١٩٥ .

قد اضطرمت من جراء هذه الأوامر المتتابعة ، والقيود المضنية ، واستطالت ألسنة الكافة وبدت عليهم أمارات التذمر والخوف ؛ فصدر من أجل ذلك سجل قرئ فى سائر الجوامع بتسكين قلوب الناس وتطمينهم ، لكثرة ما داخلهم من التوجس والخوف من أوامر « الحضرة » (أى الخليفة) . وفى أوائل سنة ٤٠٣ هـ ، بدت أعراض الخوف والذعر على كثير من الطوائف فكثر اقتناء الناس للسلاح ، وحمله كثير من الكافة ، وكثر الكلام فى ذلك ، فقرئ سجل جديد بالجوامع بتطمين الناس ، وإعراضهم عن أقوال المرجفين[1] . وأمر فى نفس السجل بإعادة « حى على خير العمل » فى الأذان ، وإسقاط « الصلاة خير من النوم » والنهى عن صلاة التراويح والضحى .

وفى سنة اثنتين وأربعمائة منع النساء من زيارة القبور ، فلم تر فى الأعياد بالمقابر امرأة واحدة ،ومنعن من الاجتماع فى المآتم،ومن السير وراء الجنائز ، ومن الاستحمام فى الحمامات العامة ؛ ومنع الاجتماع على شاطئ النيل للتفرج وركوب النساء مع الرجال ، وخروجهن إلى مواضع الفرجة مع الرجال ؛ وحرم لعب الشطرنج وجمع حيثما وجد وأحرق،وعوقب المخالفون بالحبس والجلد (٤٠٣ هـ) .

وفى نفس العام (٤٠٢ هـ) ، صدر مرسوم (سجل) بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها ، وأن ينفى المنجمون من سائر المملكة ، فاستغاث المنجمون بالقاضى الأكبر مالك بن سعيد الفارقى ، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة وأعفوا من قرار النفى ، وحدث مثل ذلك للمغنين والمطربين ، فهجروا الغناء وأعفوا من المطاردة .

وللحاكم مع النساء قصة شهيرة ؛ فقد رأينا فيما تقدم كيف صدرت أوامر الحاكم تباعا ، بمنعهن من التبرج ، وألا يكشفن عن وجوههن فى الطريق ، أو يجتمعن فى المآتم أو يسرن خلف الجنائز ، أو يزرن المقابر ، أو يقمن بالغناء والنشيد ، أو يجتمعن مع الرجال فى أماكن الفرجة ، أويخرجن من دورهن بعد العشاء الآخرة ؛ وكان النساء يمتثلن لهذه القيود الجزئية المتتابعة ، ويقبلنها على مضض ، فى انتظار إلغائها أو التخفيف منها . بيد أن

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ ب .

الأمور بالعكس كانت تتجه الى التشدد فى معاملتهن ، والقضاء التام على حريتهن ، ومحو أثرهن من الحياة العامة . ففى شعبان من سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٤م) ذهب الحاكم فى معاملة النساء إلى ذروة القسوة والشدة ؛ فأصدر مرسومه الشهير بمنعهن من مغادرة دورهن والخروج الى الطرقات بالليل والنهار ، ويستوى فى ذلك أن تكون المرأة شابة أو عجوزا ؛ فاحتبس النساء فى ظلام دورهن ، ولم تر امرأة فى الطريق ؛ ولم يستثن من ذلك سوى النساء المتظلمات للشرع ، والخارجات الى الحج ، أو المسافرات اللاتى تضطرهن ظروف قاهرة إلى السفر ، والأماء اللاتى برسم البيع ، والقابلات ، وغاسلات الموتى ، والأرامل اللاتى يبعن الغزل ، وأن يكون خروج هؤلاء لمزاولة شؤونهن برقاع خاصة ترفع الى القصر ، وتصدر بها تصاريح يقوم بتنفيذها مدير الشرطة ؛ ومنع النساء من دخول الحمامات العامة ، ومنع الأساكفة من عمل أخفافهن ؛ فاختفى النساء من المجتمع المصرى ، وساده الانقباض والوحشة ، وأغلقت المتاجر التى تبيع السلع النسوية ؛ وساد الذعر بين النساء ، ولزمن دورهن فى روعة وخشوع . يقول المقريزى مشيرا إلى عيد الفطر من سنة ٤٠٤ هـ « ولا رؤيت امرأة ، ولا أبيع شىء مما عادته يباع فى الأعياد من اللعب والتماثيل » ؛ وحاول النساء التظلم من هذا القرار ، وذهب الكثيرات منهن الى القصر داعيات متظلمات فلم يفزن بطائل ؛ وعوقب كثير من النساء المخالفات بالضرب والحبس ، وعوقب بعضهن بالموت . وفى العام التالى : أى فى سنة ٤٠٥ هـ ، كررت هذه الأوامر القاسية ، وشدد فى تنفيذها . ولم يقتصر منع النساء على الخروج الى الطرقات بل نص أيضا على منعهن من التطلع من النوافذ والطيقان شبابهن وعجائزهن . واشتد الأمر بنساء الكافة اللاتى ليس لهن من يقوم بأمرهن ، واستغثن بأولى الأمر ، فأمر الباعة أن يحملوا السلع والأطعمة وكل ما يباع فى الأسواق الى الدروب ، ويبيعونه للنساء فى منازلهن ، وأن يحمل الباعة أداة كالمغرفة لها ساعد طويل يمد الى المرأة وهى من وراء الباب وفيه ما تشتريه ، فتتناوله وتضع مكانه الثمن ، ولا يسمح مطلقاً أن تبدو من وراء الباب[١]. وعانى النساء هذه الشدة زهاء سبعة أعوام حتى وفاة الحاكم

---

(١) الأنطاكى ص٢٠٨ ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٦٧ ، والمقريزى فى الخطط ج ٣ ص٧٣ ، وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٥ و ٦٧ ب ؛ و ٦٨ أ ، وابن الأثير ٩ ص ١٠٩ .

بأمر الله ؛ وكان حادثاً مروعا منقطع النظير ، ولم يحدث قط فى أى مجتمع إسلامى ، بل لم يحدث فى أى عصر من عصور التاريخ ، أن عانى النساء مثل هذه المحنة القاسية ، وسلبن الحرية على هذا النحو الشامل .

وكان مما يزيد فى صرامة هذه القوانين الإستثنائية ، الشدة فى تنفيذها ، وروعة العقوبات التى سنت لمخالفيها ؛ وكان السهر على تطبيقها من أهم واجبات مدبر الدولة أو قائد القواد ، فنجد مثلا فى السجل الصادر بتعيين « غبن » قائداً للقواد ومديراً للشرطة والحسبة (سنة ٤٠٢ هـ) ، تنويهاً خاصاً بمراعاة تحريم النبيذ وغيره من الخمور وتتبع ذلك والتشديد فيه ، وفى تحريم الفقاع وبيعه ، وتحريم أكل الملوخيا والسمك الذى لا قشر له ، والمنع من الفرجة والملاهى كلها ، ومنع النساء من حضور الجنائز ، ومنع بيع الزبيب والعنب والعسل إلا ثلاثة أرطال فما دونها أولمن لا تتجه اليه مظنة اتخاذه مسكرا[1] ، وكانت عقوبات المخالفين تختلف بين التشهير[2] والحبس والجلد ، وتصل فى أحيان كثيرة إلى الإعدام .

هذا استعراض واف لما صدر فى عهد الحاكم بأمر الله من المراسيم والأوامر (السجلات) الإجتماعية الاستثنائية ، ومعظمها يحمل طابع القسوة والشذوذ ، ولكن سنرى أنها لم تكن دون غاية ، ولم تصدر كما يبدو لأول وهلة ، عن نزعة مخبول أوهائم ، وأن كثيراً منها يحمل بالعكس طابع الطرافة والحكمة ، ويرمى الى غايات بعيدة ، قد فطن اليها هذا الذهن الجرىء ، واتخذ منها مثلا .

— ٢ —

نعرض بعد ذلك إلى طائفة أخرى من مراسيم الحاكم بأمر الله هى المراسيم الدينية ، وقد كانت كالمراسيم الإجتماعية تحمل فى كثير من الأحيان طابع الشدة والتناقض .

وبدأ الحاكم بهذه المراسيم (السجلات) الدينية لأول عهده بالحكم أيضاً .

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٨٨ .

(٢) التشهير هو أن يطاف بالمذنب على حمار أو جمل وتعلق عليه كتابة بمضمون ذنبه ، وقد يكون عقوبة أصلية ، وقد يعقبه بعد ذلك جلد أو إعدام .

ففى السابع من المحرم سنة ٣٩٥ هـ ، قرئ سجل بالجوامع ، يؤمر فيه النصارى واليهود بلبس الغيار وشد والزنار ولبس العمائم السود ، والسواد هو شعار العباسيين ، وهم عصاة فى نظر الفاطميين .

وفى ليلة عيد الشعانين من سنة ٣٩٨ هـ ، منع النصارى من تزيين كنائسهم على جرى عادتهم ، وقبض على جماعة منهم بسبب ذلك . وفى رجب من نفس العام صدر سجل بمصادرة الأملاك المحبسة على الكنائس ، وضمها إلى جانب الديوان السلطانى ، وكتب إلى سائر الأعمال بذلك ؛ وأحرقت صلبان كثيرة على أبواب الجوامع ، وفى دار الشرطة[١] .

وفى سنة ٣٩٩ هـ أمر بهدم بعض كنائس القاهرة ونهب ما فيها ، ومنها كنيسة اليعاقبة بحارة الروم ؛ بعد أن أخطر سجل صدر تطبيقاً لهذه السياسة هو المرسوم الخاص بهدم كنيسة القيامة (قمامة)[٢] أو القبر المقدس ببيت المقدس ؛ ويضع المقريزى تاريخ هذا المرسوم الشهير فى أواخر سنة ٣٩٨ هـ ، ولكن الرواية النصرانية تضع تاريخه فى سنة ٧٢٧ للشهداء[٣] ، وهى توافق سنة ٣٩٩ هـ (١٠١٠ م) ، وكان حادثاً جللا فى تاريخ الكنيسة ؛ وتقول الرواية الكنسية المعاصرة إن هذا السجل الشهير صيغ فى تلك العبارة الموجزة : « خرج أمر

---

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٢ ا ، وفى الخطط ج ٤ ص ٤١٨ .

(٢) تطلق الرواية العربية اسم « القمامة » على كنيسة القبر المقدس . وأصل هذه التسمية تاريخى يرجع الى أن القبر المقدس قد بنى على الموضع الذى كانت توضع به القمامة خارج أسوار بيت المقدس أيام المسيح ، وهو الموضع الذى يقول الإنجيل إن المسيح قد صلب فيه (راجع معجم البلدان لياقوت فى كلمة قمامة) .

(١) سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) وتاريخ الأنطاكى ص ١٩٦ . وتقول بعض الروايات الإسلامية بصدور هذا السجل فى سنة ٤٠٣ هـ ، أعنى حينما صدر السجل العام بهدم الكنائس (راجع أخبار الدول المنقطعة — المخطوط) وتاريخ الذهبى (المجلد الثانى والعشرون) وأورده النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ١٧٨) . بيد أننا نؤثر الأخذ بالرواية النصرانية ، أولا لأنها أقدم الروايات ، بل هى معاصرة تقريبا ، وثانياً لأنها أقرب الى الضبط والتحقيق فى مثل هذا الحادث الجلل فى تاريخ الكنيسة وتاريخ النصرانية كلها . وراجع أيضاً كتاب **Jerusalem** تأليف بالمر وبيزانت ص ١١٣ وما بعدها .

الإمامة إليك بهدم قمامة . فاجعل سماءها أرضاً ، وطولها عرضاً » ، وتزيد على ذلك أن الذى كتبه كاتب نصرانى يسمى ابن شترين ، وأنه توفى بعد كتابته بأيام قلائل ندما وحزناً ؛ وأنفذ السجل إلى يارختكين وإلى الرملة (فلسطين) ، فقام بتنفيذه فى الحال ، وأحيط على ما بالكنيسة من الذخائر والتحف والآنية المقدسة ، وهدمت سائر رحابها وقبابها ، وأزيلت كنيسة مارى قسطنطين التى بداخلها ، وأصبحت الكنيسة العظمى أثراً بعد عين ، ولم يبق منها سوى أثر الصخرة التى شيد عليها القبر المقدس ، وهدم الدير الملاصق لها ، وكان غاصاً بالراهبات من مختلف الأمم النصرانية ، وانتزعت سائر أحباسها وأملاكها وأموالها ؛ وكان هدمها فى شهر صفر سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠)[١] .

ويروى فى هذا الصدد أن الحاكم أمر بهدمها لما بلغه مما يقع بها من الرسوم والشعائر الوثنية المثيرة ، وما ينتظم إليها من المواكب الدينية الصاخبة التى يضج فيها النصارى بالصلوات والأدعية ويرفعون الصلبان الضخمة ، ولا سيما فى أيام الفصح وفى عيد الشعانين[٢] ؛ ويروى لنا المقريزى فى حوادث سنة ٣٩٨ هـ ، أن الحاكم لفت نظرة كثرة خروج النصارى من مصر إلى القدس لحضور عيد الفصح بقمامة ، كما يخرج المسلمون إلى الحج ، فسأل ختكين العضدى أحد قواده عن ذلك لمعرفته بأمر قمامة ، فذكر له أن هذه بيعة يعظمها النصارى ، ويحج إليها من جميع البلاد ، ويأتيها الملوك ، وتحمل إليها الأموال العظيمة ، والثياب والستور والفرش والقناديل والصلبان المصنوعة من الذهب والفضة ، وكذلك الأوانى الذهبية والفضية ، وبها من ذلك شىء عظيم ، فإذا كان يوم الفصح ، واجتمع النصارى بقمامة ، ورفعت الصلبان وعلقت القناديل فى المذبح ، تحيلوا فى إيصال النار إليه بدهن البلسان مع دهن الزيبق ، فيحدث له ضياء ساطع يظن من رآه أنها نار نزلت من السماء ؛ فأنكر الحاكم ذلك ، وتقدم إلى أبى منصور ابن سورين كاتب الإنشاء ، فكتب إلى أحمد بن يعقوب الداعى أن يقصد القدس ، ويهدم قمامه ، وينهبها الناس حتى يعفى أثرها[٣] .

---

(١) تاريخ الأنطاكى ص ١٩٦ .
(٢) « « « ١٩٦ .
(٣) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٣ ا .

وتقول الرواية الكنسية المعاصرة أيضاً ، إن راهباً قبطياً يدعى يونس نقم على البطريرك زخاريا لأنه لم يرسمه أسقفاً ، فتقدم إلى الحاكم ووصف له ما يتمتع به الأحبار النصارى من النفوذ والجاه ومظاهر السلطان والعظمة والثراء ، وكونهم يبيعون المناصب الكنسية ، وقال فى رقعته التى رفعها إليه : « أنت ملك الأرض ، لكن للنصارى ملك لا يعبأ بك لكثرة ما قد اكتنز من الأموال الجزيلة ، لأنه يبيع الأسقفية بالمال » وعدد فيها كثيراً من مثالبهم ، فكان مسعاه من العوامل التى أثارت سخط الحاكم وحفزته إلى هدم الكنائس ومطاردة النصارى .

وقد كان لهدم القبر المقدس وقع عميق فى الأمم النصرانية كلها ، وكان له فيما بعد أثره فى إذكاء الدعوة الصليبية التى شهرتها البابوية « لإنقاذ فلسطين والقبر المقدس » ، واستمر موقع الكنيسة بعد هدمها أعواماً طويلة مزاراً يحج إليه النصارى ، حتى أعيد بناؤها فى عهد المستنصر بالله بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً .

وفى العام التالى صدر مرسوم جديد بالتشديد على اليهود والنصارى فى لبس الغيار وتقلد الزنار ، وعوقب المخالفون بالضرب ، وألغيت الأعياد النصرانية كعيد الصليب والغطاس وعيد الشهيد ، وأبطلت رسومها واحتفالاتها فى جميع أنحاء المملكة ؛ وكان النصارى يحتفلون بها فى بذخ طائل ، ويتخذونها فرصة لإقامة المظاهرات الدينية العظيمة ، فيشهرون الصلبان فى مواكبهم ، ويضجون بالترتيل والصلوات ؛ وتقترن هذه المظاهر الدينية ، بإقامة الاحتفالات والمآدب والملاهى الباذخة ، ولا سيما على ضفاف النيل والخليج ، وتهرع الجموع الغفيرة لمشاهدتها من كل فج ، فأبطل ذلك كله ؛ وأبطلت أيضاً رسوم الشعانين فى بيت المقدس ، وكانت تجرى فى ضجة عظيمة ، وتزين جميع الكنائس لهذه المناسبة بأغصان الزيتون وسعف النخل ، وألغيت جميع الأحباس المرصودة على الكنائس والأديار بأعمال مصر ، وضمت إلى الديوان السلطانى حسبما تقدم ، وخربت كنائس مصر والمقس وأبيحت للنهب . وفى رمضان سنة ٤٠٠ هـ ، صدر مرسوم الحاكم بهدم دير القصير بالمقطم وهو أعظم أديار الملكية ، وكان يأوى إليه أرسانيوس بطريرك الإسكندرية

وخال الأميرة ست الملك ؛ ونهب جميع ما فيه ، وأخرج منه أرسانيوس وسائر من كان به من الرهبان وهم جملة عظيمة ، ونبشت قبوره ، وأخرجت توابيتها ، وطرحت عظامها ، يقول الأنطاكي : « وكان أمراً فظيعاً لم يشاهد مثله ، ولا جرى فى السالف شبهه . فانتهى ذلك إلى الحاكم ، فأمر بعد الفوات بالكف عن فتح القبور ، وترك التعرض للموتى » . ثم قتل أرسانيوس نفسه بعد ذلك بأشهر قلائل (ذى القعدة سنة ٤٠٠ هـ)[١] ، ولم تحدثنا الرواية عمن قتله أو من أمر بقتله ؛ بيد أن فى الحادث نفسه ما يبعث إلى الريب فى قرابة الحاكم بالحبر المقتول . وحرم ضرب النواقيس فى جميع أعمال مصر ، وأمر بنزع الصلبان الظاهرة فى أبراج الكنائس ، وأن يمحى النصارى الصليب من أيديهم وسواعدهم[٢] .

وفى سنة ٤٠٢ هـ منع النصارى من الاجتماع فى عيد الصليب ، وألا يظهروا فى المضى إلى الكنائس . وفى العام التالى (٤٠٣ هـ) صدر مرسوم شامل ضد النصارى واليهود يقضى بأن يلبسوا العمائم والثياب السود ، وأن يعلق النصارى فى أعناقهم صلباناً ظاهرة من الخشب طول الواحد منها ذراع فى ذراع ووزنه خمسة أرطال ، وأن يكون فوق الثياب مكشوفاً ، وأن يعلق اليهود فى أعناقهم قرامى من الخشب زنتها خمسة أرطال أيضاً ، وأن تختم هذه الصلبان والقرامى بخاتم من الرصاص يحمل اسم الخليفة ؛ وحرم على الفريقين معاً ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم الحمير والبغال بسرج من الخشب وسيور سود عاطلة من كل حلية ، وألا يستخدموا مسلماً أو يقتنوا عبداً مسلماً أو جارية مسلمة ؛ وحظر على المكارية المسلمين بمصر والقاهرة أن يحملوا على دوابهم ذميا ، كما حظر على الملاحين المسلمين أن يحملوا فى سفنهم ذميا ، وأذن الناس فى البحث عن المخالفين وتتبع آثارهم . فأسلم كثير من النصارى الكتاب وغيرهم ؛ ورسم بأن يحمل النصارى الصلبان ، واليهود الأجراس عند دخولهم الحمام تمييزاً لهم من المسلمين ، ثم أفردت لهم بعد ذلك حمامات خاصة ، وعلقت الصلبان على حمامات النصارى ، وقرامى الخشب على حمامات اليهود ؛ وأنشئ

---

(١) تاريخ الأنطاكى ص ١٩٤ و ١٩٦ و ١٩٧ ، والمقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٣٩٨

(٢) سير البيعة المقدسة (فى المخطوط الكنسى المشار إليه) .

لليهود حي خاص بجوار باب زويلة حتى لا يختلطوا بالمسلمين[١]؛ وطبقت هذه الأوامر والقوانين بمنتهى الصرامة ، ونزع سائر المتصرفين والكتاب الذميين من وظائفهم ، وكانوا جمهرة كبيرة ؛ فاشتد الأمر على اليهود والنصارى وطوردوا واضطهدوا ، وأهينوا فى كل مكان، وساد بينهم الروع والرهبة ، وأسلم كثير منهم اجتناباً لهـذا الإرهاق وتظاهر البعض الآخر بالإسلام ، وتوارى معظمهم من الطرقات ، وكثر بينهم الفزع والارجاف ، وهاجر البعض سراً إلى بلاد الروم ، ونفى البعض الآخر إلى خارج الديار المصرية ؛ وعمد كثير من النصارى إلى نزع الغيار والتشبه بالمسلمين اتقاء الرقابة والمطاردة ؛ وتقول لنا الرواية الكنسية المعاصرة ، إن النصارى كانوا خلال هذه المحنة يتعبدون سراً بين أطلال الكنائس المهدومة ، ويخفون الآنية والذخائر المقدسة فى أعماق منازلهم ، ويقيمون فيها الشعائر والقرابين سراً ، وأقام بعضهم بيعاً سرية فى الريف[٢] .

وفى ربيع الآخر سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م) صدر سجل جديد بهدم جميع الكنائس بالديار المصرية ؛ فهدم كثير من الأديار والبيع ونهبت وقطعت أحباسها ؛ وأقطع الكثير منها بجميع ما فيها ، وما لها من رباع وأراضى ؛ وسأل جماعة من النصارى الحاكم أن يتولوا هدم كنائسهم بأيديهم ، وأن يبنوها مساجد ، فأذن لهم ، ووهب الحاكم تراث الكنائس وذخائرها من ذهب وفضة إلى جماعة من الخدم الصقالبة ، وصدرت الأوامر إلى كل متصرف بأن يهدم ما فى ولايته من الكنائس ، وأن يمكن المسلمين من هدمها ، فهدمت

---

(١) وهذا هو نظام الحى الخاص أو نظام « الجيتو » Ghetto الشهير حيث كانت تفرد لليهود أحياء خاصة ، وقد بدئ بهذا النظام فى المدن الإيطالية منذ القرن السادس عشر ، ثم طبق فى جميع أوربا ، واستمر قائما حتى القرن التاسع عشر .

(٢) راجع فى تفاصيل هذه القوانين وآثارها : سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) ، وتاريخ الأنطاكى ص ١٩٥ و ٢٠٢ ، والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٦٥ ا و ب و ١٦٦ ا ؛ وفى الخطط ج ٤ ص ٧١ و ٧٢ و ٧٣ و ٣٩٩ . وأخبار الدول المنقطعة (النسخة الفتوغرافية) ، ونهاية الأرب (النسخة الفتوغرافية) ج ٢٦ ص ٥٦ و ٥٧ ، وتاريخ أبى صالح الأرمنى ص ٤٦ ا ، وابن خلكان ج ٢ ص ١٦٢ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٧ و ١٧٨ .

آلاف الكنائس والبيع بسائر أنحاء القطر ، واقطع كثير من الكنائس والأديار بمصر والنواحي لمن التمسها ، وأذن للصلاة فى كنيسة أبى شنودة كبرى الكنائس القبطية بمصر ، وأحيط بكنيسة المعلقة ، ووضع المسلمون أيديهم على ما فى الكنائس والأديار من المال والذخائر وآنية الذهب والفضة والديباج ؛ وكانت جملة طائلة ؛ واستمر الهدم فى أنحاء المملكة زهاء ثلاثة أعوام ؛ ويقال إنه هدم فى هذه الفورة المضطرمة من الكنائس والأديار زهاء ثلاثين ألفاً ، وكانت منها عدة من الكنائس والأديار الأثرية الفخمة(١) .

وكان رأس الكنيسة القبطية يومئذ هو الأنبا زخاريا بطريركها الرابع والستون ؛ وكانت أيامه كلها محن وأحداث للنصارى ؛ فلما اشتدت فورة الإضطهاد قبض عليه (سنة ٤٠٠ هـ) ، واعتقل مدى أشهر ؛ وتقدمه إلينا الرواية الكنسية المعاصرة فى صورة القديس الشهيد ، وتقول إن الحاكم بأمر الله أمر بتعذيبه وتقديمه للسباع ، فألقى إليها مراراً ، ولكنها كانت فى كل مرة ترتد عنه وديعة هادئة(٢) .

وعانى النصارى واليهود هذه الشدائد والمحن مدى أعوام ؛ وكانت أشد ما عانوا فى ظل الدولة الإسلامية بمصر ، وكان من ملطفات المحنة أن صدر بعد ذلك بقليل مرسوم بأطلاق الهجرة للذميين ، وكان قد رفع إلى الحاكم أن الأمر قد اشتد على النصارى وأنهم يفرون سراً إلى بلاد الروم ، ويبذلون الأموال الجمة لأصحاب المراكب والطرقات لإطلاقهم ، فأصدر فى سنة ٤٠٤ هـ سجلا بإطلاق الحرية للنصارى واليهود بالهجرة إلى بلام الروم أو الحبشة أو النوبة أو غيرها ، وأن يحملوا أموالهم ويتصرفوا فيها آمنين مطمئنين . وكتب بذلك إلى سائر الأعمال ، فهاجر كثير من النصارى واليهود بعد أن باعوا أملاكهم ، ولجأ كثير منهم إلى أنطاكية وغيرها من الثغور الواقعة تحت حماية الروم(٣) .

(١) سير البيعة المقدسة ، والمقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٣٩٩ ؛ وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٦ ا .

(٢) سيرة البيعة المقدسة ، والمقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٣٩٨ .

(٣) سير البيعة المقدسة ، والأنطاكى ص ٢٠٧ .

ثم خفت وطأة المطاردة بعد ذلك تباعاً . وفى سنة ٤١١ ﻫ قبيل اختفاء الحاكم بقليل ، صدرت عدة سجلات جديدة بإلغاء هذه القوانين والفروض المرهقة ، وإطلاق حرية الشعائر للنصارى واليهود ، ورد ما أخذ من أحباس الكنائس والأديار ، والسماح للنصارى بتجديد ما درس من الكنائس والبيع والأديار ، ورد ما أخذ منها من الذخائر والتحف والأخشاب والعمد ، وأطلقت الحرية للذميين الذين دخلوا فى الإسلام كرها عنهم ، أن يرتدوا إلى دينهم الأصلى ، فارتد كثير منهم . و تضع الرواية النصرانية تاريخ هذه السجلات فى سنة ٧٣٦ للشهداء وهى الموافقة لسنة ٤١١ ﻫ بعد تسعة أعوام من الخطوب والمحن[١] ، وتعتبر صدورها من الحاكم معجزة نصرانية[٢] ، وتزيد على ذلك أن الفضل فى كشف هذه الغمة المرهقة ، وفى إعادة الكنائس ، يرجع إلى راهب يدعى بمين كان قد أسلم أيام المحنة ، ثم عاد إلى دينه ، واستأذن الحاكم فى عمارة دير شهران فى ضاحية مصر ، وأن الحاكم كان يزوره فى الدير ويستمع إلى رغباته ، وأنه كان واسطة التفاهم بين الحاكم وبين الأنبا زخاريا ، وأن الحاكم كان فى هذه الفترة يبدى إعجابه بالنصرانية ويعطف عليها وعلى بنيها[٣] .

وصدر يومئذ إلى النصارى سجل أمان شامل هذا نصه : « بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من عبد الله ووليه المنصور أبى على الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ابن الإمام العزيز بالله أمير المؤمنين لجماعة النصارى بمصر ؛ عند ما أنهوا إليه الخوف الذى لحقهم ، والجزع الذى هالهم فأقلقهم ، واستذراءهم بظل الدولة ، وتحرمهم بحضور الحضرة بما رآه وأمر به ، من تكميل النعمة عليهم ، بتوخيه لهم ذمة الإسلام وشرعه ، من تصيرهم تحت كنفه ، بحيث تصفو لهم موارد الطمأنينة ، وتضفو عليهم ملابس السكون والدعة ، وإجابتهم إلى ما سألوا فيه من كتب أمان لهم يخلد حكمه على الأحقاب ، ويتوارثه الأخلاف منهم والأعقاب ؛ فأنتم جميعاً آمنون بأمان الله

(١) سير البيعة المقدسة .

(٢) تاريخ الأنطاكى ص ٢٣٢ .

(٣) سير البيعة المقدسة ، وتاريخ أبى صالح ص ٤٦ ا .

عز وجل ، وأمان نبيه محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله الطاهرين ، وأمان أمير المؤمنين على بن أبى طالب سلام الله عليه ، وأمان الأئمة من آباء أمير المؤمنين سلام عليهم ؛ هذا على نفوسكم ودمائكم وأولادكم وأموالكم ، وأحوالكم وأملاككم ، وما تحويه أيديكم ، أماناً صريحاً ثابتاً ،وعقداً صحيحاً باقياً ، فثقوا به واسكنوا إليه ، وتحققوا أن لكم جميل رأى أمير المؤمنين وعاطفته ونصرته تحميكم ، وعصمته تقيكم ، لا يقدم عليكم بسوء أحد ، ولا تتطاول إليكم بمضرة يد ، إلا كانت زواجر أمير المؤمنين مقصرة من باعه وعظم إنكاره ، مضيقاً فيـه من ذراعه ، والله عون أمير المؤمنين على ما تعتقدون من صلاح وإصلاح ، لسكان أقطار مملكته ، ومن له وسيلة الثواء فى كنف دولته ، وإياه يستشهد على ما أمضاه من أمانة لكم ، وعهده الذى يشرفه طرفكم ، وكفى بالله شهيداً ، وليقرر فى أيديهم حجة بما أسبغ من النعم عليهم إن شاء الله تعالى »[1] .

وصدرت عدة سجلات أخرى بإطلاق الحرية للنصارى فى إقامة الشعائر وإعادة الكنائس ،ومنها سجل الى نيقيفور بطريرك بيت المقدس يؤذن فيه بإقامة الصلاة فى عرصة كنيسة القيامة وأطلالها ؛ وسجل بإعادة بناء دير القصير ؛ وثالث برد أوقاف دير طورسينا ؛ وعدة أخرى . وقد أورد لنا الأنطاكى صور بعض هذه السجلات ، التى تدلى روحها ونصوصها ، بأهمية الإنقلاب الذى طرأ على سياسة الحاكم إزاء الذميين .[2]

ولقد كانت هذه المطاردة للذميين من أهم ظواهر عصر الحاكم بأمر الله ؛ وكانت بلاريب سياسة مقررة ، ولم تحمل فى مجموعها طابع التناقض ؛ بيد أنها كانت فى الوقت نفسه انقلاباً جوهرياً فى السياسة الفاطمية إزاء اليهود والنصارى ؛ ذلك أن الدولة الفاطمية كانت منذ قيامها بمصر ، تؤثر كما رأينا سياسة التسامح الدينى ، وتذهب فى هذا التسامح إلى أبعد مدى ، فتصطفى اليهود والنصارى وتوليهم مناصب الثقة والنفوذ ؛ ومنذ أيام المعز نرى ثبتاً حافلا من الوزراء اليهود والنصارى يحتلون أرفع مناصب الدولة ، ويستأثرون

---

(١) أورده الأنطاكى فى تاريخه ص ٢٣٢ .

(٢) راجع تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٨ و ٢٢٩ و ٢٣٠ و ٢٣١ .

بمعظم السلطات والنفوذ ؛ ولم يشذ الحاكم لأول عهده عن هذه السياسة ، فقدّم النصارى فى مناصب الوزارة والكتابة ، وتولى وزارته أربعة منهم هم الرئيس فهد بن إبراهيم ، وأبونصر بن عبدون ، وزرعة بن عيسى بن نسطورس ثم أخوه صاعد ؛ وقد كان طبيب الحاكم الخاص لأول حكمه هو منصور بن مقشر النصرانى فلما توفى فى سنة ٣٩٤ هـ ، خلفه فى هذا المنصب طبيب نصرانى آخر ، هو أبو يعقوب بن نسطاس[١] . وكان من أحب الناس الى الحاكم ، فلما توفى غريقا فى بركة ماء (٣٩٧ هـ) ، أقيمت له جنازة حافلة سار فيها سائر أهل الدولة ؛ وخلفه فى منصبه طبيب ذمى آخر هو صفير اليهودى خلع عليه ، وأقطع دارا فخمة . وهكذا نعم الذميون بما نعموا به من قبل من حرية ونفوذ ؛ ولم يك ذلك سوى استمرار فى سياسة التسامح الفاطمية ، وربما كان راجعاً من بعض الوجوه الى نفوذ ست الملك ابنة العزيز وأخت الحاكم ؛ ولكن الحاكم نبذ هذه السياسة التقليدية فجأة وانقلب الى سياسة المطاردة الدينية ، وأبدى فى تطبيقها منتهى التطرف والغلو ، شأنه فى معظم نزعاته واجراءاته . وقد قيل فى تعليل هذا الإنقلاب إن الوزراء والكتاب والنصارى أسرفوا فى الاستئثار بالسلطات ، وفى استغلالها ، وأطلقوا عنان الأهواء الطائفية ، وقدموا النصارى فى المناصب وأقصوا عنها المسلمين ، وتمكن النصارى بفضل هذه الرعاية وهذا الاصطفاء ، من مرافق الدولة ، فأحرزوا الأرزاق والثروات الطائلة ، وأسرفوا فى مظاهر الجاه والثراء ، واقتنوا كثيراً من العبيد والجوارى المسلمين ، وأكثروا من إقامة الكنائس والأديار ؛ وبدت الأقلية النصرانية سيدة عزيزة الجانب ، بينما تقلص نفوذ الأكثرية المسلمة ، وفُت فى مصالحها وفى أرزاقها ؛ فعندئذ اضطرم الحاكم سخطاً على الذميين ، وانقلب كما انقلب والده العزيز من قبل الى مطاردتهم ، وتحطيم نفوذهم وسلطانهم[٢] ؛ كذلك قيل فى فرض السواد لباساً على الذميين ، إنه

(١) قال عنه المقريزى « وكان طبيب وقته عارفا بالطب ، آية فى الحفظ ، ما تغنى له صوت قط إلا ضبطه ، ولو غناه مائة مغن فى مجلس واحد فقط ساير ما غنوه ، وتكلم على ألحانها وأشعارها ، وكانت له يد فى الموسيقى ، وانفرد بخدمة الحاكم فى الطب فأثرى » . راجع اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٢ ا .

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٣٩٩ .

يرجع الى أن السواد هو شعار بنى العباس خصوم الدولة الفاطمية وألد أعدائها ، فارتداء الذميين للسواد إنما هو تنويه بخصومتهم وبغضهم[١] .

وقد كان للخلافة الإسلامية منذ عصر عمر ، سياسة خاصة لتنظيم مجتمع الذميين ، وتحديد مركزهم إزاء المسلمين ؛ وكان التشريع الذى أصدره عمر ، وهو أول تشريع من نوعه ، يحظر عليهم بناء الكناس والبيع الجديدة ، أو أن يرفعوا الصلبان فوق الكنائس ، أو يظهروا كتبهم المقدسة فى الطرق العامة ، أو يرفعوا أصواتهم بالترتيل فى الكنائس ، وألا يحاولوا تنصير مسلم أو يحولوا دون إسلام نصرانى ، وألا يحملوا السلاح أو يستعملوا السروج أو يسترقوا مسلما ، وأن يتخذوا لأنفسهم أزياء خاصة[٢] . بيد أن هذا التشريع لم يكن يحمل طابع المطاردة الدينية ، وإنما كان يقصد به تنظيم الحقوق والواجبات ، وتحديدها فى حدود سياسة التسامح العامة ، التى كانت تجرى عليها الدولة الإسلامية منذ نشأتها .

أما هذه السياسة المغرقة المثيرة التى جرى عليها الحاكم بأمر الله إزاء الذميين ، وأما هذا الاضطهاد المنظم ، فهو أبعد الأمور عن روح التسامح المستنير ، الذى جرت عليه السياسة الإسلامية إزاء الذميين ، فى جميع العصور والدول . ومهما تكن بواعث هذه السياسة العنيفة ، فإنها فى نظرنا سياسة غاشمة لا نستطيع أن نسيغها أو نتجاهل عواقبها الوخيمة ؛ بيد أنا نلاحظ مع ذلك أن مطاردة الأقليات الدينية أو الجنسية ، ليست خاصة من خواص العصور الوسطى وحدها ، وإنما هى نزعة لبثت تضطرم بها أرقى الدول الغربية حتى أواخر القرن الماضى ؛ بل لقد شهدناها تضطرم فى هذه الدول فى عصرنا قبيل الحرب العالمية الثانية ، وتتخذ صوراً لا تقل فى قسوتها وروعتها عما عرفته العصور الوسطى ؛ واليوم ، ونحن نكتب هذه السطور ، تضطرم نزعة التعصب العنصرى فى بلاد مثل أمريكا (وكذلك انجلترا) ، ويطارد الملونون بأقسى الصور وأشنعها ؛ وربما كان فى ذلك كله ما يخفف بعض الشىء من تبعة الحاكم بأمر الله طاغية العصور الوسطى .

---

(١) الخطط ج ٤ ص ١٥٧ .

(٢) راجع هذه الأحكام والقوانين فى فتوح مصر لابن عبد الحكم ص ١٥١ ، وراجع كتاب « مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام » (الطبعة الثالثة) ص ٢١ .

— ٣ —

ولم تقتصر سياسة الحاكم الدينية على هذه الناحية من اضطهاد النصارى واليهود ، ولكنها كانت تتناول الناحية الإسلامية أيضاً ، بكثير من الأحكام والأوامر الشاذة . وقد كانت الخلافة الفاطمية تحكم فى مصر شعباً لا يتبعها من الوجهة المذهبية ، وكان العمل على تدعيم هذه الصبغة المذهبية أهم عناصر سياستها الدينية ؛ وقد حذا الحاكم فى ذلك حذو أبيه العزيز وجده المعز ، وعمل لبث الدعوة الفاطمية فى قوة وجرأة ، ولكن فى نوع من التناقض أيضاً ؛ ففى ٣٩٥ هـ ، أمر بسب السلف (أبى بكر وعمر وعثمان وعائشة ومعاوية وغيرهم من الصحابة) ، وكتب ذلك على أبواب الجوامع والمساجد ولا سيما جامع عمرو فى ظاهره وباطنه ، وعلى أبواب الحوانيت والمقابر والدور والقياسر ولون بالأصباغ والذهب ، وأرغم الناس على المجاهرة به ونقشه فى سائر الأماكن . وكان سب السلف مظاهرة شيعية عملية ، ولكن سخيفة مبتذلة ، فلم يلبث أن ضج الشعب لهذا الاجتراء المثير ، وألغى المرسوم (سنة ٣٩٧ هـ) وأمر بمحو كل ما كتب على المساجد والدور وغيرها من ذلك ، وطافت الشرطة بمختلف الأحياء والأماكن تنفذ الأمر الجديد ، وشدد فى هذا المنع فيما بعد ، وعوقب المخالفون بالضرب والتشهير ؛ وفى سنة ٤٠٣ هـ ثارت بين الكافة فتنة من جراء سب السلف ، فتمسك بعضهم بالسب ، واعترض آخرون وهم الكثرة ، وهرعت منهم جموع غفيرة الى القصر ، وهم يستغيثون ويصيحون لا طاقة لنا ولا صبر على ما يجرى ، فصرفهم غبن قائد القواد فانصرفوا ، وهم يستغيثون فى الطرقات ؛ وعلى أثر ذلك قرئ بالقصر سجل جديد بالترحم على السلف من الصحابة والنهى عن الخوض فى ذلك ، وشدد فى محو السب أينما وجد ، ورأى الحاكم ذات يوم فى طريقه لوحاً فيه سب للسلف ، فأنكره ووقف حتى خلع ، وتتبعت الألواح التى بها شىء من ذلك ، فقلعت كلها ، ومحى ما كان مثبتاً على الجدران حتى لم يبق له أثر ، وشدد فى معاقبة من خالف ذلك ، واستمرت الحال على ذلك حتى أواخر الدولة الفاطمية[١] .

(١) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٧٣ و ١٥٨ و ١٥٩ و ١٦٠ ؛ وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ب و ٦٦ ب .

وفى رمضان سنة ٣٩٨ هـ صدر مرسوم يقرر بعض الأحكام ويفسرها ، على أثر ما وقع بين الشيعة وأهل السنة من خلاف وشغب على فهم بعض الأحكام وتطبيقها ، وهو مرسوم (سجل) يشف عن روح العصر ، ويحمل طابع التوفيق بين المذهبين ، وإليك نصه بعد الديباجة :

« أما بعد فإن أمير المؤمنين يتلو عليكم آية من كتاب الله المبين ، لا إكراه فى الدين . . . مضى أمس بما فيه ، وأتى اليوم بما يقتضيه ؛ معاشر المسلمين : نحن الأئمة ، وأنتم الأمة . . . من شهد الشهادتين ... ولا يحل عروة بين اثنين ، تجمعهما هذه الأخوة ، عصم الله بها من عصم ، وحرم عليها ما حرم ، من كل محرم من دم ومال ومنكح ، الصلاح والأصلح بين الناس أصلح ؛ والفساد والإفساد من العباد يستقبح ، يطوى ما كان فيما مضى فلا ينشر ، ويعرض عما انقضى فلا يذكر ، ولا يقبل على ما مر وأدبر من إجراء الأمور على ما كانت فى الأيام الخالية أيام آبائنا الأئمة المهتدين ، سلام الله عليهم أجمعين ، مهديهم بالله ، وقائمهم بأمر الله ، ومنصورهم بالله ، ومعزهم لدين الله ، وهو إذ ذاك بالمهدية والمنصورية ، وأحوال القيروان تجرى فيها ظاهرة غير خفية ، ليست بمستورة عنهم ولا مطوية ؛ يصوم الصائمون على حسابهم ويفطرون ، ولا يعارض أهل الرؤية فيما هم عليه صائمون ومفطرون ؛ صلاة الخميس للدين بها جاءهم فيها يصلون ، وصلاة الضحى وصلاة التراويح لا مانع لهم منها ولا هم عنها يدفعون ؛ يخمس فى التكبير على الجنائز المخمسون ، ولا يمنع من التكبير عليها المربعون ؛ يؤذن بحى على خير العمل المؤذنون ، ولا يؤذى من بها لا يؤذنون ؛ لا يسب أحد من السلف ، ولا يحتسب على الواصف فيهم بما وصف ، والخالف فيهم بما خلف ؛ لكل مسلم مجتهد فى دينه اجتهاده ، وإلى الله ربه ميعاده عند كتابه وعليه حسابه ؛ ليكن عباد الله على مثل هذا عملكم منذ اليوم ؛ لا يستعلى مسلم على مسلم بما اعتقده ، ولا يعترض معترض على صاحبه فيما اعتمده ، من جميع ما نصه أمير المؤمنين فى سجله هذا ، وبعده قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ، إلى الله مرجعكم جميعاً ، فينبئكم بما كنتم تعملون » .

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، كتب فى رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلثمائة »[1] .

هذا هو نص المرسوم الفاطمى الشهير ، الذى تجمع فيه بعض الأحكام المذهبية المتناقضة فى صعيد واحد ، ويسبغ عليها جميعاً لون الصحة ؛ وهذه سياسة لا تخفى حكمتها وأثرها فى تهدئة النزعات المذهبية المختلفة ، وعقد الوئام بين الطوائف ، وفى تغليب خطة التسامح المرن على خطة الجمود المذهبى ؛ ويقول المستشرق ميللر تعليقاً على هذا المرسوم ، إن الحاكم أراد أن يفهم الشعب على اختلاف طوائفه ، أنه مع انتسابه للشيعة المغرقة ، لا يرى بأساً من احتقار الأحكام الدينية المضنية سواء فى المأكل أو الملبس أو غيرها ، وأن الأديان كلها سواء فى فروضها المرهقة وأنه لا بأس من التحرر منها[1] .

وصدرت فيما يتعلق بالصلاة والأذان عدة مراسيم متعارضة ، فبدئ بالنهى عن صلاة الضحى والتراويح ، وقبض بالفعل على بعض أناس وضربوا وشهروا لأنهم صلوا صلاة الضحى (رجب ٣٩٤ ﻫ) . وفى المحرم سنة ٣٩٥ ﻫ ، قرئ سجل بأن يؤذن لصلاة الظهر فى الساعة السابعة ، ويؤذن لصلاة العصر فى الساعة التاسعة ؛ وفى رمضان سنة ٣٩٨ أو ٣٩٩ ﻫ أبيحت صلاة الضحى وصلاة التراويح ضمن ما أبيح فى المرسوم الفاطمى الذى سبق ذكره ؛ وعزز ذلك بسجل صدر فى ذى القعدة سنة ٤٠٠ ﻫ ، وفيه أبيح فى نفس الوقت العود إلى « التتويب فى الآذان » ، ثم جمع المؤذنون فى سائر الجوامع ، وقرئ عليهم سجل بأن يتركوا الأذان « بحى على خير العمل » وقد كانت شعار الأذان الفاطمى منذ الفتح ، وأن تستبدل بقولهم فى أذان الفجر بعبارة « الصلاة خير من النوم » ، وأن يكون ذلك من مؤذنى القصر

---

(١) نقلنا نص المرسوم عن ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠ . وظاهر أن هناك خطأ مادياً فى التاريخ وأن صحته هى « ثمان وتسعين » لأن الأمر بسب السلف صدر سنة ٩٥ أى قبل صدور المرسوم ، وصدر الأمر بمحوه سنة ٩٧ . راجع المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٧١ . ويذكر المقريزى فى اتعاظ الحنفاء ، أن صدور هذا المرسوم كان فى رمضان سنة ٣٩٩ ﻫ (المخطوط لوحة ٦٣ ب) .

(٢) Müller; Der Islam, B. I. p. 631

عند قولهم « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله » ، بيد أنه لم تمض على ذلك بضعة أشهر حتى صدر سجل جديد بأن يترك من أذان الفجر « الصلاة خير من النوم » ، وأن يؤذن « بحى على خير العمل » ، وأن تمنع صلاة الضحى والتراويح (أواسط ٤٠١ ه) .

وكانت مسألة الفطرة والنجوى ، وهما من الإتاوات أو الرسوم التى يؤديها المؤمنون الداخلون فى الدعوة ، من المسائل التى تتصل بالشئون المالية ، للخلافة الفاطمية ؛ وكانتا تذكران بنوع خاص فى سجل تعيين قاضى القضاة ، ثم بعد ذلك فى سجل تعيين داعى الدعاة ، حينما أنشئ له منصب خاص ؛ وكان يباح تحصيلهما أحياناً ، ويمنع فى أحيان أخرى . ففى سنة ٣٩٤ ه ، صدر لقاضى القضاة عبد العزيز بن محمد بن النعمان سجل بأخذ الفطرة والنجوى ، وحضور المجلس بالقصر ، وأخذ الدعوة على الناس ؛ ثم ألغيت مجالس القصر حيناً ؛ ولما أسندت رياسة القضاء إلى مالك بن سعيد فى سنة ٤٠٠ ه ، صدر سجل بإعادة مجالس الحكمة وأخذ النجوى ؛ وكانت الزكاة والنجوى قد ألغيتا قبل ذلك . وكانت الخلافة الفاطمية تتردد فى أحيان كثيرة ، بالنسبة لهذه الإتاوات الإختيارية ، بين التقرير والإلغـــاء . ومن ذلك ما حدث حينما افتتحت جامعة دار الحكمة ، فقد كان من رسومها أن يؤدى « المؤمنون » مال النجوى ، باعتباره رسماً اختيارياً ينفق من دخله على النقباء ، وكانت تحصل أحياناً وتبطل أحياناً .

ومن الصعب أن نحدد موقف الحاكم إزاء الشؤون والأحكام الدينية تحديداً واضحاً ، فقد نسبت إليه فى هذا الشأن تصرفات كثيرة متناقضة ؛ وفى بعض الروايات أنه حاول أن يعدل بعض الأحكام الجوهرية كالصلاة والصوم والحج ، وقيل إنه شرع فى إلغائها أو إنه ألغاها بالفعل ؛ ومن ذلك أنه ألغى الزكاة كما رأينا ، وألغى صلاة الجمعة الرسمية فى رمضان ، وفى العيدين ، وألغى الحج وأبطل الكسوة النبوية غير مرة ، ولكن لأسباب قاهرة كاستيلاء العرب على طريق الحاج واضطراب الأمن فيه ، أو وقوع الوباء أو غيرها ؛ وتحمل نفس الرواية هذه التصرفات على أنها انحراف من الحاكم عن الإســـلام وجنوح إلى الدعوة الإلحادية ، التى أذاعها الدعاة السريون

وبشروا فيها بألوهيته كما سنرى[١] . والواقع أن أولئك الدعاة ينوهون فى رسائلهم بإقدام الحاكم على إلغاء فرائض الإسلام الجوهرية كالصوم والحج والصلاة لحكم زعموها . بيد أنه ليس ثمة ما يدل على أن الحاكم قد ذهب فعلا إلى هذا الحد فى تصرفاته الدينية ، وإن لم يك ثمة شك فى أنه عمل على تعديل بعض الأحكام والرسوم تعديلا يجعلها أقرب إلى الصبغة المذهبية .
وأما عقيدة الحاكم الدينية فمن المجازفة أن نقطع فيها برأى حاسم ، ومن المحقق أنها لم تثبت على وتيرة واحدة ، وأنها حسبما تدل تصرفاته وأوامره الدينية ، كانت تختلف باختلاف فترات حكمه ؛ ونستطيع أن نصف الحاكم طوراً بعد آخر بالتعصب الدينى والإغراق المذهبى ، واليقين والتشكك ، والإيمان والإلحاد ؛ وسنرى عند الكلام عن الدعوة الفاطمية السرية أن الحاكم كان فى أواخر عصره يذهب إلى أبعد مدى من الغلو والإغراق ، فيؤيد الدعوة السرية إلى نسخ أحكام الإسلام ، وإلى الدعوة بألوهيته وقيامه ، أو على الأقل يغضى عنها ؛ ويعترض ابن خلدون بشدة على القول بكفر الحاكم وإلحاده وإلغائه للصلاة ، ويقول إنه زعم لا يقبله ذو عقل ؛ ولو صدر من الحاكم شىء منه لقتل لوقته[٢] . بيد أن هذا المنطق لا يتفق مع الأدلة والوثائق التى انتهت إلينا عن الفترة الأخيرة من عصر الحاكم وتصرفاته الدينية ومؤازرته للدعاة السريين كما سنبين بعد .

---

(١) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٤ .

(٢) ابن خلدون ج ٤ ص ٦٠ .

الفصل الثامن

شخصية الحاكم وخلاله

خلال الحاكم وبعض خواصه . تعففه عن أموال الرعية . سخاؤه وبذله . إسرافه فى العطاء والإقطاع . منشآته . إنشاء الجامع الحاكى وغيره . عنايتـه بالمساجد والمستشفيات . وقفه لبعض أملاكه على الأزهر ودار الحكمة . تحريره للرقيق . تعضيده للعلوم والآداب . رفع المكوس والنجوى . حرصه على تثبيت الأسعار وحماية النقد . عدالته وتقديره للقضاء . عنايته بتوطيد الأمن ومطاردة الإجرام . تقشفه وزهده . تواضعه وجنوحه الى البساطة فى مظاهره ومواكبه . إلغاؤه للرســوم والزينات . ركوبه فى محفة . بساطته المؤثرة . إغراقه فى التقشف . إطلاقه لشعره . حياته الخاصة . الحاكم والنبيذ . تشريده للحظايا . ورعه وإضرابه عن الملاذ . غيرته فى تأدية المهام الخلافية . صلواته المنتظمة فى رمضان وفى الأعياد . صلاته فى جامع مصر وما ترتب عليه . نبذه لمظاهر الملك والخلافة . شخصية الحاكم . كيف تقــدرها الرواية السنية . خواص ذهنه وعقليته . شرح باتولوجى لأعماله وتصرفاته . أقوال المستشرق ميلر . الطاغية المصلح . المطاردة الدينية وبواعثها . قيامها فى عصرنا . القوانين الإجتماعية وحكمتها . الإصلاح الاجتماعى ومطاردة الفساد . بواعث الحجر على النساء . حكمة بعض القوانين التحريمية . أقوال غريبة فى تصرفاته . عبقرية الحاكم .

— ١ —

ولننتقل إلى ناحية أخرى من خلال الحاكم وتصرفاته . كان الحاكم بإجماع الرواية جواداً وافر البذل ، وكان كثير الزهد فى المال ؛ وكانت الخلافة الفاطمية قد حققت فى عهدها القصير ، من الأموال والثروات الطائلة ، من الجواهر والتحف الباذخة ، ما يفيض فى وصفه المؤرخون المعاصرون بما يدهش ويبهر ، وتكدس لدى الحاكم من الأموال والتحف ما يجل قدره

ووصفه[١] ولكن الحاكم لم يغرق فى تلك المظاهر الفخمة ، التى كانت تنثرها الخلافة الفاطمية من حولها ، وكان يؤثر بطبيعته مظاهر الانكماش والبساطة ؛ وكان خلافا للطغاة يعف عن مال الرعية ، فإذا بدا له أن يصادر مال كبير مغضوب عليه ، فإنه يضيفه إلى الأموال العامة ، وقد أنشأ لذلك حسبما أشرنا من قبل ، ديواناً خاصاً يسمى بالديوان « المفرد » ، تضاف إليه أموال من يقضى عليهم بالمصادرة ، وقد ترد هذه الأموال إلى أصحابها متى زالت أسباب السخط عليهم ، وقد تبقى نهائياً وتستعمل فى الشؤون العامة[٢] .

واشتهر الحاكم طوال عهده بالسخاء والبذل ، وكان يسرف فى العطاء أحياناً الى حدود تهدد مالية الخزينة ، وتثير اعتراض الوزراء ورجال الدولة ؛ ومما يؤثر فى ذلك أن أمين الأمناء الحسين بن طاهر الوزان اعترض ذات مرة على إسراف الحاكم فى الصلات والعطايا ، وبلغ الحاكم اعتراضه وتوقفه فى تنفيذ الأوامر ، فبعث إليه بخطه فى الثامن والعشرين من رمضان سنة ٤٠٣ بهذه الرقعة المؤثرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله كما هو أهله ومستحقه :

أصبحت لا أرجو ولا أتقى   إلا إلهى وله الفضل

جدى نبيّى ، وإمامى أبى   ودينى الإخلاص والعدل

ما عندكم ينفد ، وما عند الله باق ، والمال مال الله عز وجل ، والخلق عيال الله ، ونحن أمناؤه فى الأرض ، أطلق أرزاق الناس ولا تقطعها والسلام »[٣]. ورأى الحاكم أن يضع نظاما خاصا وإدارة خاصة للبر بالفقراء والمعوزين وكذلك الفقهاء والمؤذنين بالجوامع ، فأصدر فى رجب سنة ٤٠٣ سجلا بأن تحبس عليهم طائفة كبيرة من الضياع والأماكن . وكان ذوو الحاجات

(١) راجع المقريزى فيما نقله عن المسبحى وغيره من مؤرخى الدولة الفاطمية عن غنى هذه الدولة ووفرة بذخها وبهائها (الخطط ج ٢ ص ٢٥١ – ٢٨١) . وراجع النجوم الزاهرة فيما نقله عن ثروة الحاكم بأمر الله (ج ٤ ص ٩٢) .

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٣ ص ٢٣ .

(٣) الإشارة الى من نال الوزارة ص ٢٩ . وينسب ابن خلدون هذا الشعر الى الخليفة الآمر بأحكام الله (ج ٤ ص ٧١) .

يقصدون الحاكم أثناء طوافه ، سواء بالنهار أو الليل ، ويرفعون اليه حاجاتهم وظلاماتهم ، فيقضى فيها بنفسه ، ويقضى حاجات الكثيرين ، وينثر العطايا على المحتاجين[١]. بيد أنه لم يكن يخلو فى ذلك من الشذوذ أيضاً فيبخل أحياناً بأقل الصلات [٢] .

وتقدم الينا الرواية فى غير موضع أخبار الحاكم فى العطاء والبذل والصلات ، ولا سيما فى الحقبة الثانية من حكمه ؛ ومن ذلك ما كان يقع خلال طوافه المستمر ، فتقول لنا مثلا فى أخبار سنة ٤٠٣ هـ ما يأتى : « وكثر ركوب الحاكم ، وهو بدارعة صوف بيضاء ، وعمامة فوطة ، وفى رجله حذاء عربى ، فأقبل الناس اليه بالرقاع ما بين متظلم أو مستسمح ، فأجزل الصلات والعطايا ما بين دور ودراهم وثياب ، فلم يرد أحدا خايبا ، ورد ما كان فى الديون من الضياع والأملاك المأخوذة لأربابها ، وأقطع كثيراً من الناس عدة آدر » ؛ وفى أخبار رمضان سنة ٤٠٥ هـ « وخرج الحاكم عن المعهود فى كثرة العطاء والإقطاعات حتى أقطع النواتية الذين يجدفون به فى العشارى ، وأقطع المشاعلية ، وكثيراً من الوجوه والأقارب ، وبنى قرة ، فكان مما أقطع الإسكندرية والبحيرة ونواحيها » ؛ وأيضاً « وفيه كثرت صلات الحاكم ومواهبه وإقطاعاته للناس حتى خرج فى ذلك على الحد » . وتقص علينا الكثير من نوادر جوده ومروءته ؛ ومن ذلك أن بلغه أن أبا القاسم على بن أحمد الزبيدى نقيب الطالبيين مدين فى عشرين ألف دينار ، فوقع له بها مما عليه من الخراج ، وبعث له بثلاثة آلاف أخرى ؛ وأنه وقف اليه أثناء طوافه ذات يوم رجل خراسانى ذكر أنه أخذ منه متاع برسم الخزانة ، ولم يدفع اليه ثمنه ، فدفع اليه جميع ما كان له ، وهو خمسة آلاف دينار ، فكثر الدعاء له ؛ ورد الحاكم على بنى عمرو بن العاص حبس جدهم عمرو ، ومبلغه فى الشهر نحو مائتى دينار[٣] .

ولم يخل عصر الحاكم على اضطرابه من الأعمال الإنشائية الخطيرة ، ومن

---

(١) النجوم الزاهرة عن ابن الصابى ج ٤ ص ١٨٠ .

(٢) مرآة الزمان ، المجلد المشار إليه ص ٤٠١ (ونقله النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦)

(٣) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٧ أ و ب و ٦٨ ب .

الأعمال والمآثر الخيرية الجليلة ؛ فقد عنى الحاكم بتجديد الجامع الأزهر وإصلاحه ، وأنشأ جامعة دار الحكمة أو دار العلم الشهيرة (سنة ٣٩٥ هـ) . وسنتناولها فيما بعد فى بحث خاص ؛ وأنشأ جامعه الشهير المسمى باسمه جامع الحاكم أو الحاكمى أو الجامع الأنور أو بالحرى أتم بناءه[١] ، وكان أبوه العزيز بالله قد بدأ بإنشائه ، وتوفى قبل إتمامه ، فأمر الحاكم بإتمامه فى سنة ٣٩٣ هـ ، واستغرق بناؤه زهاء عشر سنين ؛ ولما تم بناؤه عنى الحاكم بفرشه وتأثيثه عناية كبيرة ، وزين بالستور الفخمة ، والتنانير الفضية ، وأقيمت فيه الجمعة فى رمضان سنة ٤٠٣ هـ ، وصلى فيه الحاكم بالناس وكان يوما مشهوداً ، وألفى الجامع الأزهر لأول مرة فى جامع الحاكم ، منافساً ينازعه الصفة الرسمية التى استأثر بها حتى ذلك الحين ؛ وما زالت أطلال هذا المسجد الشهير قائمة الى يومنا[٢]. وأنشأ الحاكم أيضاً جامع راشده (سنة ٣٩٣ هـ) وتم بناؤه سنة ٣٩٥ ؛ وأشرف الحاكم على تأثيثه وتزيينه ، وأقام فيه الجمعة فى رمضان سنة ٣٩٨ وخطب فى الناس ؛ وأنشأ أيضاً جامع المقس ؛ وأنشأ جامعاً بالإسكندرية (٤٠٤ هـ) ؛ وعنى بفرش المساجد وتجميلها وتزويدها بالخطباء والمؤذنين ، وإجراء النفقة عليها ؛ وأنشأ فى سفح جبل المقطم مصلى فخما يعرف بمصلى العيد ، وكان يختلف إليه من وقت الى آخر[٣].

وفى سنة ٤٠٣ هـ أمر الحاكم بإحصاء المساجد التى لا غلة لها ، فوجدت

---

(١) ذكر المقريزى فى حديثه عن جامع الحاكم بأنه هو المسمى بالجامع الأنور (الخطط ج ٤ ص ٥٥) ، وأشار فى موضع آخر الى ركوب الخليفة لصلاة الجمعة بالجامع الأنور الكبير (ص ٦١) ، والمقصود به جامع الحاكم . والمقريزى حجة وثيقة فى مسائل الخطط ، ولذلك لم نتردد فى الأخذ بقوله . ولكن القلقشندى صاحب « صبح الأعشى » يشير فى غير موضع من كتابه خلال حديثه عن المواسم الفاطمية الى « الجامع الأنور الذى بباب البحر » (ج ٣ ص ٥٠٢ و ٥٠٩) ، وهى إشارة غامضة قد يفهم منها أن الجامع الأنور هو غير جامع الحاكم الذى يقع بجوار باب الفتوح (لا باب البحر) . بيد أنه مهما كان من سبب هذا اللبس ، فإن المعول عليه هنا هو قول المقريزى .

(٢) تقع أطلال هذا المسجد الشهير بين باب الفتوح وباب النصر داخل السور ، وكان موقعه فى البداية خارج السور .

(٣) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٥٦ .

ثمانمائة وثلاثين مسجداً ، رصدت لها النفقة اللازمة لإجراء الشعائر فيها ، وحمل من القصر فى نفس الوقت سبعة صناديق فيها ألف ومائتان وتسعون مصحفاً ، الى الجامع العتيق (جامع عمرو) ، ليقرأ الناس فيها . ومما يتصل بذلك من عناية الحاكم بالمنشآت الدينية وتوقيرها ، أنه فى ربيع الأول سنة ٣٩٦ هـ جمع نحو ألفى باقة من النرجس ، نثرت على أضرحة الأولياء ؛ وفى المحرم سنة ٤٠٥ هـ وقف الحاكم عدة ضياع وأملاك وقياسر على القراء والفقهاء والمؤذنين بالجوامع ونفقة المارستانات (المستشفيات) ، وأرزاق العمال والمستخدمين ، وثمن الأكفان للفقراء[١] .

ومن مآثر الحاكم وقفيته الشهيرة على مساجد القاهرة وفى مقدمتها الجامع الأزهر ، ودار الحكمة ؛ ففى سنة أربعمائة وقف الحاكم على تلك المعاهد طائفة من أملاكه ورباعه بالفسطاط ينفق عليها من ريعها ، وخص الجامع الأزهر منها بقسط لإصلاحه وفرشه وإنارته ، والإنفاق على خطبائه وأئمته وخدمه ؛ وقد أورد لنا المقريزى نص هذه الوقفية الشهيرة ، وهى فيما نعلم أول وقفية ملوكية رتبت للجامع الأزهر ، وكان الوزير ابن كلس أول من رتب للأزهر وقرائه نفقة خاصة وذلك فى أيام العزيز بالله[٢].

ومن مآثره الشهيرة أيضاً أنه فى المحرم سنة ٤٠٤ هـ ، أعتق كل ما يملك من الرقيق بالقاهرة وجميع النواحى الأخرى ، وكانوا جمعاً كبيراً ، ووهبهم كل ما كانوا يملكونه فى حال الرق ، ليكون مالا لهم فى حال العتق ؛ وكان هذا إجراء مؤثراً ، يشهد لصاحبه بسمو الفكرة الإنسانية وجلالها[٣] .

وفى مواطن كثيرة نرى الحاكم نصير العلوم والتفكير والآداب . وقد ذكرنا فيما تقدم ، كيف كان الحاكم منذ صباه يتذوق جيد الشعر ، وكيف كان ينشده الشعراء قصائدهم حين جلوسه فى ميدان الطارمة ، فيحسن تمييز الجيد منها ، ويصل الشعراء على قدر إجادتهم . بل هنالك ما يدل على أن الحاكم كان أديباً يتذوق الطرائف الأدبية . ومن ذلك ما رواه المقريزى نقلا

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦١ ب و ٦٦ ب و ٦٨ ب .

(٢) راجع الخطط ج ٤ ص ٤٩ — ٥٢ وقد أثبتنا نص هذه الوقفية فى نهاية الكتاب .

(٣) تاريخ الأنطاكى ص ٢٠٧ ؛ والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٧ ا .

عن ابن الصيرفى ، وهو أن الحاكم قال ذات يوم لبعض الأعيان الذين يحظون بمجالسته ومحادثته : « أكلت حتى شبعت ، وشربت حتى رويت . فالشبع والرى غايتا الأكل والشرب ، فإذا قلت ، ونمت حتى إذا أى شىء تجعله غاية النوم » فلم يحر جواباً ، ورغب إلى الحاكم فى الإفادة ، فقال « نمت حتى ربت . والروب غاية النوم » وأنشد :

فأما تميم بن مر فألفـــاهم القـــوم روب نيـــاما[١]

وقد أغدق الحاكم المنح لأساتذة دار الحكمة عند افتتاحها ، وحمل إليها الكتب من خزائن القصر ، لينتفع بها سائر الباحثين والطلاب ؛ ويذكر لنا المسبِّحى أن الحاكم فى سنة ٤٠٣ هـ ، استدعى أساتذة دار الحكمة من الفقهاء والرياضيين والأطباء ، وعقــد لهم بالقصر مجلساً للمناظرة ، فكانت كل طائفة تحضر بين يديه للمناظرة على انفراد ، ثم خلع على الجميع ، وأجزل لهم الصلات[٢] .

وكان من أصدقاء الحاكم وخاصته عدة من أقطاب المفكرين والأدباء فى هذا العصر ، منهم عز الملك المسبِّحى الكاتب والمؤرخ الكبير ، وكان يتولى النظر على ديوان الترتيب منذ سنة ٣٩٨ هـ ، وهو يومئذ من مناصب الوزارة الهامة ؛ ونال المسبحى لدى الحاكم حظوة كبيرة ، وكانت له مع الحاكم مجالس ومحاضرات شائقة[٣] ؛ ومنهم أبو الحسن على بن يونس الفلكى والمنجم المشهور ، وكان أديباً وشاعراً أيضاً ، وقد ألف للحاكم معجماً ضخماً فى الفلك يعرف بالزيج الكبير[٤] ، ومنصور بن مقشر الطبيب النصرانى ، وكان طبيب الحاكم الخاص ، وطبيب والده العزيز بالله من قبل .

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧١ ا .

(٢) المقريزى عن المسبحى ، فى الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ و ٣٣٥ .

(٣) ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ . وسنعود الى ذكر المسبحى فيما بعد .

(٤) هو على بن عبد الرحمن بن يونس المصرى ، كان أبوه عبد الرحمن بن يونس من أكابر محدثى مصر ومؤرخيها ، واشتغل ابن يونس بالرياضيات والفلك وبرع فيها براعة عظيمة ، وقربه الحاكم إليه ، وألف له الزيج الكبير ، وكان فوق علمه أديبا شاعراً ، وقد توفى سنة ٣٩٩ هـ (راجع أخبار العلماء لابن القفطى — مصر — ص ١٥٥) .

واستدعى الحاكم المهندس البصرى الكبير أبا على الحسن بن الحسن ابن الهيثم لما بلغه من براعته وتفننه ، وعهد إليه بفحص أحوال النيل ، وماذا عسى أن يعمل للانتقاع بمائه ؛ ولكن ابن الهيثم رأى أنه لا يستطيع أن يزيد شيئاً على أعمال القدماء ، فاعتذر للحاكم عن قصوره ، وولاه الحاكم بعض الدواوين ، ولكنه خشى بطشه فتظاهر حيناً بالجنون حتى توفى الحاكم[1] .

وكان الحاكم يميل إلى التخفيف عن الشعب فى أمر الضرائب ، فكان يرفع عنه أحياناً بعض المكوس حين الأزمات العامة ؛ وقد يعيدها طبقاً للظروف والأحوال ؛ ومن ذلك ما حدث فى سنة ٣٩٨ هـ ؛ حينما توقفت زيادة النيل ، وعزت الأقوات ، فقد صدر سجل بإبطال المكوس والمؤن التى تؤخذ من المسافرين عن الغلال والأرز . وفى سنة ٤٠٠ هـ صدر سجل بإبطال ما كان يؤخذ على أيدى القضاة من الخمر والفطرة والنجوى . وفى سنة ٤٠٣ هـ ، أبطلت مكوس الحسبة ؛ وفى العام التالى ، رفعت مكوس من جهات كثيرة ، وأبطل مكس الرطب ، ومكس دار الصابون ، ومبلغه ستة عشر ألف دينار ، وأطلقت أموال جزيلة للصدقة . وفى رجب من نفس العام أبطلت عدة مكوس أخرى . وأحياناً كان الحاكم يبذل وقت الأزمات من ماله الخاص للتخفيف عن الناس . ومن ذلك ما حدث فى المحرم سنة ٤٠٣ هـ حينما اشتد الغلاء ، وكثر الازدحام على اقتناء الخبز ، فقد فرق الحاكم المال على الفقراء . وكانت مسائل النقد تثير فى بعض الأحيان أزمات يعانى منها الناس ، فكان الحاكم يعمل على إزالة الاضطراب ؛ وقد حدث ذلك أولا فى سنة ٣٩٥ هـ ، حيث اضطرب السعر ، واختلف الناس فى الصرف ، فتقرر أن يكون سعر الدينار ستة وعشرين درهما من الدراهم المزيدة . وفى سنة ٣٩٧ هـ ، انخفض سعر النقد ، وبلغ سعر الصرف للدينار أربعا وثلاثين درهماً ، فاضطربت الأسعار والمعاملات ، فتقرر فى الحال أن تسحب الدراهم المنخفضة ، وأن يلغى التعامل بها خلال ثلاثة أيام ، وأن تستبدل من دار الضرب ، وأنزل من بيت المال بعشرين صندوقاً من الدراهم الجدد لتفرق على الصيارفة . وبيع الخبز كل ثلاثة أرطال بدرهم ، فنودى أن يكون كل اثنا عشر رطلا بدرهم جديد ، واللحم رطلين

---

(١) تاريخ ابن العبرى ص ٣١٧ و ٣١٨ .

بدرهم ، وسعر أكثر الأشياء ، واستقر سعر الدينار بثمانية عشر درهما من العملة الجديدة ، وضرب كثير من الباعة وشهروا لمخالفتهم الأسعار الرسمية . وفى ذلك ما يدل على حزم حكومة الحاكم ، فى معالجة شئون النقد وتثبيت الأسعار ، ويدل أكثر من ذلك على حرصها على حماية سعر النقد من التلاعب والتزييف ، خلافاً لما كان يحدث فى أحيان كثيرة ، من تلاعب بعض الحكومات السلطانية بسعر النقد ، بل وتزييفه أحياناً لتستغل الظروف ، وتمتلىء خزائن السلطان على حساب الشعب[1] .

وثمة خلة بارزة أخرى من خلال الحاكم هى العدالة ؛ وربما كان غريباً أن تمثل العدالة ، فى معترك من الخلال يشوبه كثير من الشذوذ والتناقض ؛ ولكن الواقع أن هذا الذهن المضطرم ، كان يرتفع بمعيار العدالة ، إلى حدود تحمل على التقدير والاحترام ؛ وقد أشادت الروايات المعاصرة بهذه الخلة الرفيعة ، التى يدلل عليها الحاكم فى مواطن كثيرة ؛ وإليك ما يقوله مؤرخ نصرانى هو الأنطاكى : « وأظهر (أى الحاكم) من العدل ما لم يسمع به ؛ ولعمرى إن أهل مملكته لم يزالوا فى أيامه آمنين على أموالهم ، غير مطمئنين على نفوسهم ؛ ولم تمتد يده قط إلى أخذ من مال من أحد ؛ بل كان له جود عظيم ، وعطايا جزيلة وصلات واسعة ؛ ولقد قتل من رؤساء دولته وأهل مملكته ممن لهم الأموال العظيمة ، ما لا يقع عليه الإحصاء لكثرته ، فلم يتعرض لأخذ مال أحد منهم لا سيما من كان له وارث ؛ ومن لا وارث لهم كانت تركتهم تستوهب منه فيهبها على الأكثر ؛ وأسقط جميع الرسوم والمكوس التى جرت العادة بأخذها ؛ وتقدم الى كل من قبض منه شىء من العقار والأملاك بغير واجب أو فى مصادرة فى أيامه وأيام أبيه وجده أن يطلق ما قبض منه »[2] ؛ وكان مما عنى به الحاكم مما يتصل بشئون العدالة إصلاح المكاييل والموازين وضبطها ، والنهى عن البخس فيها ، وقد صدر بذلك سجل فى سنة ٣٩٥ هـ ؛ ونقلت إلينا الرواية الكنسية واقعة تدل على تقدير الحاكم لمعنى العدالة واحترامه

---

(١) راجع اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٠ ا ، و٦٢ ا و ٦٣ ا و٦٤ ا و ٦٥ ب ، و ٦٦ ب و ٦٧ ب .

(٢) تاريخ الأنطاكى ص ٢٠٦ .

القضاء ؛ وهو أنه حينما صدر مرسوم تحريم النبيذ وأمر بإتلاف الكروم والزبيب والعسل ، تقدم إلى قاضى القضاة شخص أتلفت بضاعته من الزبيب والعسل ، وادعى على الحاكم بأنه أتلف ماله الحلال بغير حق ، وأنه لم يحرز الزبيب والعسل لصنع الخمر ، وإنما لصنع الحلاوة فقط ، وطالب الحاكم بأن يعوض له ما أتلف من ماله وقيمته ألف دينار ؛ فقبل الحاكم الخصومة ، وطلب أن يحلف التاجر على صدق دعواه ، وأنه إنما أحرز هذه البضاعة لصنع الحلاوة فقط ، فحلف التاجر ، وحكم له بماله ، وأدى له الحاكم ما طلب[١] .

ولنلاحظ أن لأقوال الرواية النصرانية والكنسية فى هذا الموطن ، وهى أشد الروايات وطأة على الحاكم ، قيمتها ومغزاها . بيد أن العدالة لم تكن لدى الحاكم عاطفة فقط ، وإنما كانت مبدأ وركناً من أركان سياسته العامة ؛ وقد عنى الحاكم بتنظيم القضاء وتوطيد أركان العدالة وتطهيرها من الرشوة ؛ كما عنى بتوطيد الأمن ، واشتد فى مطاردة الإجرام والضرب على أيدى المجرمين والعابثين بالأمن ؛ وكان لسياسته أثرها المحمود ، إذ ارتفع معيار العدالة فى عصره ، وتوطدت أركان الأمن ، وقلت الجرائم ولا سيما السرقات قلة تذكر[٢] .

— ٢ —

إلى جانب هذا الجود الشامل ، وهذا التعفف عن أموال الرعية ، وهذا الجنوح إلى العدالة ، كان الحاكم يتمتع بخلة أخرى ، أجمع المؤرخون على الإشادة بها : تلك هى زهده وتقشفه فى مظاهره العامة وفى حياته الخاصة ، ثم تواضعه المؤثر واحتقاره للرسوم والألقاب الفخمة ، التى كان يحيطه بها ملك قوى وخلافة باذخة . وكان لأول حكمه قد صدر فى سنة ٣٩٠ هـ ، فى ظل قائد القواد الحسين بن جوهر ، سجل (مرسوم) إلى الناس أجمعين ، ينوه فيه بأن الله « أوجب اختصاص الأئمة ، بما لا يشركها فيه أحد من الأمة » ، وأنه لا يسوغ أن يخاطب أو يكاتب أحد « بسيدنا ومولانا » غير

(١) سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى) .

(٢) تاريخ الأنطاكى ص ٢٠٥ ، والمستشرق دى ساسى Religion des Druses . V.I.p. 425

« الحضرة المقدسة » ومن فعل فقد أحل أمير المؤمنين دمه[١] . بيد أن هذه النزعة إلى التعالى لم تابث أن غاضت ، ففى سجل صدر فى سنة ٣٩٤ هـ ، يبدى الحاكم إنكاره وسخطه على من ينعته فى المكاتيب « بمولى الخلق أجمعين » ؛ وفى رجب سنة ٤٠٣ هـ ، أصدر الحاكم سجلا يتضمن الأمر بألا يقبل أحد له الأرض ، ولا يقبل أحد ركابه ولا يده عند السلام عليه فى المواكب ، إذ لا يجوز الانحناء إلى الأرض لمخلوق ، وإنما هى بدعة من صنيع الروم لا يجمل إن يجيزها أمير المؤمنين ؛ ويكفى فى السلام الخلافى أن يقال : « السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته » ؛ كذلك يجب ألا يصلى عليه أحد فى مكاتبة ولا مخاطبة ، بل يقتصر فى ذلك على شرح الحال ، وأن يكتفى فى الدعاء بأن يقال « سلام الله وتحياته ونوامى بركاته على أمير المؤمنين » ويدعى له بما تيسر من الدعاء فقط ؛ وقد كانت الصلاة على أمير المؤمنين من أخص رسوم الخلافة الفاطمية ، وكانت الإمامة عنوانها ، وكان يصلى على الخليفة كما يصلى على النبى فى الخطبة ، وفى المكاتبات والمحادثات الرسمية . ولكن الحاكم أبطل هذه الرسوم ، ولم يقل الخطباء يوم الجمعة سوى : « اللهم صل على محمد المصطفى ، وسلم على أمير المؤمنين على المرتضى ، اللهم وسلم على أمراء المؤمنين ، آباء أمير المؤمنين ، اللهم اجعل أفضل سلامك على عبدك وخليفتك . . . » . ومنع الحاكم أيضاً ضرب الطبول والأبواق حول القصر ، فصار الحرس يطوفون بلا طبل ولا أبواق ؛ وكان نقش خاتمه « بنصر المولى العلى ينتصر الإمام أبو على »[٢] .

وترك الحاكم ركوب العماريات والخيل والبغال المسومة ؛ وترك معظم الرسوم الفخمة ، التى امتازت بها مواكب الخلفاء الفاطميين ؛ وكان يدفعه إلى ذلك شغف حقيقى بالبساطة ؛ وكانت هذه النزعة إلى البساطة ، تسود معظم المواكب والاستقبالات الرسمية . وكان الحاكم يركب فى المدينة ، فى أبسط المظاهر التى تذكرنا بديمقراطية المسلمين الأوائل ، فيرتدى ثياباً بسيطة ، أو

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٦ ا .

(٢) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٦ ب ، وفى الخطط ج ٤ ، ص ٧٢ و٧٣ ؛ والأنطاكى ص ٢٠٥ .

أو يرتدى دارعة صوف بيضاء ، ويتعمم بفوطة ، وفى رجله حذاء عربى ساذج ، وقد يركب فرساً بلا زينة أو حماراً ؛ وفى أحيان قليلة يركب محفة يحملها الرجال ، أو عشارية تشق به النيل ؛ وكان أغلب طوافه بالقاهرة على الحمير دون موكب ولا ضجة ، لا يصحبه من الخدم سوى بضعة من الركابية .

ومرض الحاكم فى سنة ٤٠٧ هـ ، فلم ينقطع عن الركوب والطواف ، واتخذ له محفة يجلس فيها أو يضطجع ، ويحملها أربعة من الركابية ، ويطوف بالليل والنهار على هذا المنوال ، فلما شفى من مرضه عاد إلى ركوب الحمير ؛ وكان طوال حياته يميل إلى الاتصال بالشعب والاختلاط به ؛ ومع أن أبواب القصر كانت تفتح دائماً ، لكل قاصد من ذوى الحاجات والمتظلمين ، فإنه كان أثناء طوافه يشغل بتلقى رقاع الكافة ، والاستماع إلى ظلاماتهم بنفسه ، وقضاء ما استطاع من حوائجهم ، وربما حمل إليهم بنفسه السجلات والمراسيم المطلوبة ؛ وجنح الحاكم فى تلك الفترة إلى نوع من التصوف المدهش ، فأطلق شـــعره حتى تدلى على كتفيه ، وأطلق أظافره ؛ واستعاض عن الثياب البيضاء الساذجة بثياب سود ، فكان يرتدى جبة من الصوف الأسود العادى ، وقد لا يغيرها مدى حين حتى يعلوها العرق والرثاثة ، وقد يرتدى أحياناً جبة مرقعة من سائر الألوان ، وكان الحاكم يبدو فى هذه المظاهر ، شخصية روائية لا يدرك كنهها ، وقد كان هذا إغراقاً يصعب تعليله ، وإن كان يتفق فى مجموعه مع النزعات الهائمة ، التى عرف بها الحاكم طوال حياته[1] .

وأما عن حياة الحاكم الخاصة فلم تصلنا سوى لمحات ضئيلة ؛ ولكن ما وصلنا منها يدل على أنه كان يعيش بنفس البساطة ، التى كان يبدو بها فى حياته ومظاهره الرسمية ؛ وقد رأينا كيف اضطلع الحاكم بأعباء الحكم صبياً دون السادسة عشرة ، وكيف أن انهماكه فى الشئون العامة منذ حداثته ، لم يترك له فرصة للانغماس فى مجالى اللهو والعبث ، التى يغرق فيها من كان فى سنه وفى ظروفه ؛ وقد كان الحاكم تحمله بلا ريب نزعة صوفية فلسفية ؛

---

(١) سير البيعة المقدسة (المخطوط الكنسى المشار إليه) ، وتاريخ الأنطاكى ص ٢٠٥ و ٢١٧ و ٢١٨ ، وأخبار الدول المنقطعة (المخطوط الفتوغرافى) .

ذلك أنه كان يرى فى التقشف والبساطة مثله ، ويحتقر متاع هذه الحياة الدنيا ؛ ويرتفع فى معظم الأحيان والمواطن عن مفاسد هذا المجتمع ، وعن غرائزه وشهواته النفسية الوضيعة .

وقد نقلت إلينا الرواية بعض لمحات عن حياته الخاصة تؤيد فى مجموعها هذه الحقيقة ؛ من ذلك أن كان يجانب الخمر ، ويحرمها على نفسه كما حرمها على رعاياه ، ولم يعدل عن هذا التحريم إلا حينما أشار عليه طبيبه النصرانى أبو يعقوب إسحق بن ابراهيم بن نسطاس بأن يشرب النبيذ لبواعث صحية ، فنزل على نصحه ، وجنح إلى ما يستتبعه الشراب من مجالس السمر والغناء مدى حين ؛ فلما توفى أبو يعقوب امتنع عن الشراب ومجالسه ، وعاد إلى زهده وتقشفه ، واشتد فى تحريم النبيذ ؛ وقيل أيضاً إن الحاكم كان يشغف بالنساء ، وكان لديه سرب من الحظايا والجوارى ؛ ولكنه حمل ذات يوم بنزعته الصوفية ، فأخرج من قصره معظم هؤلاء الحظايا ، بل قيل إنه أغرق بعضهن فى النيل فى صناديق وضعن فيها وسمرت عليهن . وجنح الحاكم فى أواخر عهده إلى النسك المطلق والزهد والورع ، وأضرب عن جميع الملاذ الحسية والنفسية ، واقتصر فى طعامه على أبسط ما تقتضيه الحياة من القوت المتواضع ؛ ولبث أعواما يرتدى الثياب الساذجة والصوف الخشن كما رأينا ، بل قيل إنه أضرب عن دخول الحمام مبالغة فى الخشونة والتقشف[1] . وعلى الجملة فلم تذكر لنا الروايات المعاصرة أو المتأخرة أن الحاكم كان فى حياته الخاصة يتصف بشىء من تلك الرذائل الإجتماعية الشاملة ، التى يتصف بها معظم الطغاة فى تلك العصور ، بل تدل أقوالها جميعاً على أن هذا الطاغية الفيلسوف ، كان أميل إلى النقاء فى حياته الخاصة ، وإلى الزهد فى ذلك الترف الناعم ، الذى يفت فى الأجسام والأرواح القوية .

وهكذا نجد أن هذه الشخصية العجيبة ، التى تقدم إلينا من نواحيها العامة فى صور مثيرة مروعة ، تحملنا فى كثير من نواحيها الخاصة على الإعجاب والاحترام ، بما تشف عنه من سمو المثل ، ونقاء النفس ، واحتقار الشهوات الإنسانية .

---

(١) راجع تاريخ الأنطاكى ص ١٩٢ و ٢٠٧ . وابن قزأوغلى فى مرآة الزمان فى الجزء المشار إليه ص ٤٠١ ، وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٦ .

— ٣ —

وقد كان الحاكم ، من حيث تأدية مهام منصبه الخطير ، كرئيس للدولة ، وإمام للمسلمين ، بين الخلفاء ، مثلا نموذجياً ، لا يخبو له نشاط ، ولا يقعده لهو ولا متاع . وكان نشاطه يتسم حسبما أشرنا من قبل بطابع شعبي عميق . فقد رأيناه يطوف أنحاء القاهرة باستمرار ، بالليل وبالنهار ، فى أبسط المظاهر ، وجموع الكافة تحيط به بلا حرج ولا كلفة ، يتلقى منهم الرقاع والظلامات ، ويقضى فيها بنفسه . ولم يكن الحاكم ، فى تأدية واجباته الدينية أقل نشاطاً وغيرة ، فنراه مذ تبوأ الملك ، فى أوخر سنة ٣٨٦ هـ ، وهو صبى فى الحادية عشرة ، يضطلع بهذه الواجبات بصورة منتظمة ، فيصلى بالناس يوم الأضحى بالمصلى[1] ، ويخطب فيهم . ومن ذلك التاريخ يجرى الحاكم على تأدية صلوات الجمع فى رمضان بالناس ، وصلاة العيدين ، عيد الفطر ، وعيد الأضحى ، وحضور سماط رمضان وسماط العيد ، وغيرهما من المآدب التقليدية . وكانت أول جمعة صلاها بالناس ، فى رمضان سنة ٣٨٨ هـ ، حيث ذهب إلى جامع القاهرة (الجامع الأزهر) ، وعليه رداء ، وهو يتقلد سيفاً ، وبيده قضيب ، فصلى بالناس ، وألقى فيهم خطبة موجزة ، ثم صلى بالناس جمعة أخرى ، وصلى بعد ذلك صلاة عيد الفطر ، وخطب على الرسم المعتاد ، ثم حضر السماط الذى يقام بالقصر فى تلك المناسبة .

وفى الأعوام التالية ، يقوم الحاكم بتأدية الصلوات الرسمية بانتظام . وقد عنيت الرواية ، بأن تقدم لنا أنباء صلواته عاماً بعد عام ، وفى كل مناسبة تقريباً ، كما عنيت بأن تصف لنا هيئة ركوبه أحياناً ، ومن ذلك هذا المنظر الغريب الممتع ، الذى سجلته لنا حوادث سنة ٣٩٥ هـ ، عن صلاة عيد الفطر : « ركب الحاكم يوم عيد الفطر ، وعليه ثوب مصمت أصفر ، وعلى رأسه منديل مبتكر ، وهو محنك بذؤابة ، والجوهر بين عينيه ، وقيد بين يديه ستة أفراس بسروج مرصعة بالجواهر ، وستة فيلة ، وخمس زرافات ، فصلى بالناس صلاة العيد ، وخطبهم ، ولعن ظالمه حقه والمدحضين ، وأصعد معه

---

(١) المصلى أو مصلى العيد ، كان يقع شرق القصر الكبير ، خارج باب النصر ، وقد أنشأه القائد جوهر فى سنة ٣٥٨ هـ ، لأجل صلاة العيد ، ثم جدده العزيز بالله .

قائد القواد ، وقاضى القضاة »[1] . ومن ذلك العام بالذات نجد الحاكم فضلا عن ركوبه لصلاة يوم النحر (عيد الأضحى) كالمعتاد ، يقوم بإجراء النحر ، فينحر بيده الضحايا ، فى المصلى ، وفى الملعب .

وإلى جانب المواكب الدينية ، كان الحاكم يؤدى مهامه الاجتماعية بنفس الغيرة ، ويركب فى الأعياد القومية ، مثل فتح الخليج وغيره ، فى مواكبه التقليدية .

ولأول مرة ، فى سنة ٣٩٩ هـ ، تذكر لنا الرواية أن الحاكم تخلف عن الركوب لصلاة عيد الفطر ، وأن القاضى مالك بن سعيد ، ناب عنه فى الصلاة بالناس ، فى عيدى الفطر والأضحى . ومع استثناء واحد هو صلاة الحاكم بالناس فى المصلى صلاة عيد النحر فى سنة ٤٠٠ هـ ، نجد القاضى مالك بن سعيد ينوب عن الخليفة ، فى إقامة الصلوات الرسمية حتى نهاية سنة ٤٠٢ هـ .

ولم تكن قد وضعت بعد قاعدة ثابتة ، لتوزيع الصلوات فى جمع رمضان على الجوامع المختلفة ، فكانت تقام أحياناً بجامع القاهرة (الأزهر) ، أو جامع راشدة ، أو جامع الحاكم . بيد أنه حدث فى رمضان سنة ٤٠٣ هـ ، أن صلى الحاكم بالناس مرة بجامع راشدة ، ومرة بجامعه خارج باب الفتوح (جامع الحاكم) ، وصلى جمعة بالجامع العتيق بمصر (جامع عمرو) ، فكان أول من صلى فيه من الخلفاء الفاطميين ، وقد كان يعتبر ملاذ السنة . وفى العام التالى (٤٠٤ هـ) ، عاد الحاكم فصلى بالناس جمعة من جمع رمضان فى جامع عمرو[2] .

ومن ذلك التاريخ يغدو جامع مصر أو جامع عمرو ثالث الجوامع التى يؤدى فيها الخليفة الفاطمى صلاة الجمعة فى رمضان . وكان الخليفة بعد عهد الحاكم يستريح فى الجمعة الأولى بعد ركوبه فى غرة رمضان ؛ ثم يؤدى الصلاة فى الجمع الثلاثة الباقية ، الأولى فى الجامع الأزهر ، والثانية فى الجامع الحاكمى (أو الجامع الأنور) ، والثالثة فى جامع عمرو ؛ وقد استمر هذا النظام بعد ذهاب الدولة الفاطمية عصوراً[3] .

---

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٠ ا .

(٢) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٦ ب .

(٣) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٦١ و ٦٢ .

ومن ذلك الحين أيضاً نرى الحاكم يجنح إلى البساطة فى ركوبه للصلاة ، ويترك مظاهر الملك والخلافة ؛ فمثلا يقول لنا المقريزى فى حوادث سنة ٤٠٣ ﻫ : « وركب الحاكم فى يوم الفطر إلى المصلى بغير شىء مما كان يظهر به فى هذا اليوم من الزينة والجنايب ونحوها ، فكان فى عشرة أفراس تقاد بين يديه بسروج ولجم محلاة بالفضة البيضاء الخفيفة ، وبنود ساذجة ومظلة بيضاء بغير ذهب ، وعليه بياض بغير طرز ولا ذهب ، ولا جوهر فى عمامته ، ولم يفرش المنبر » . وأيضاً : « وصلى الحاكم بالناس صلاة عيد النحر كهيئته فى عيد الفطر » . وفى حوادث سنة ٤٠٤ ﻫ : « وركب لصلاة العيد بغير زى الخلافة ، ومظلة بيضاء ، ولم يعمل فى القصر سماطا »[١] .

ونجد الحاكم فى الأعوام التالية ينيب عنه فى معظم المناسبات ، فى الصلاة بالناس ، ولى عهده عبد الرحيم بن الياس .

ويلاحظ أن هذه الأعوام الأخيرة ، من عهد الحاكم بأمر الله ، وهى الأعوام التى جنح فيها إلى البساطة ، والزهد فى مظاهر الملك والخلافة ، هى نفس الأعوام التى جنح فيها إلى الشذوذ ، واشتد شغفه بالطواف الليلى ، وغلب عليه حب الانكماش والانطواء على نفسه ؛ ويلاحظ فى نفس الوقت أنها هى الفترة التى اشتد فيها نشاط الدعاة الملاحدة ، حسبما نبين بعد .

— ٤ —

وهنا نحاول ، بعد أن استعرضنا أعمال الحاكم بأمر الله ، ونواحى حياته العامة والخاصة ، وغريب أحكامه وتصرفاته ، أن نعرض إلى أدق وأصعب نقطة فى دراسة هذه الشخصية العجيبة .

ماذا كانت حقيقة هذه الشخصية ، التى جمعت بين خلال وصفات يحمل أكثرها طابع العنف والشذوذ والتناقض ؟ وبأى عين يجب أن ننظر إليها ، وبأى معيار نستطيع أن نقدر صفاتها وأعمالها ؟ وأى أحكام يسوغ لنا أن نصدرها لها أو عليها فتقرب علينا فهم حقيقتها ؟

لدينا فى ذلك مادة منوعة ؛ أقوال الرواية الإسلامية المعاصرة والمتأخرة ، وحوادث العصر ، وأعمال الحاكم وتصرفاته ذاتها . فأما الرواية الإسلامية

---

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٦ ب و ٦٨ ا .

فلا ترى فى أمر الحاكم لغزاً يصعب استجلاؤه ؛ ولنلاحظ أولا أن ما انتهى إلينا من أقوال الرواية الإسلامية ، إنما هو فى الغالب أقوال المؤرخين السنيين ، خصوم الشيعة وخصوم الدولة الفاطمية ، وأننا لم نتلق من تراث الشيعة الذى بددت معظمه الحوادث والدول الخصيمة ، من الروايات والكتابات الرصينة ، ما يلقى ضياء كافياً على ذلك الخفاء الذى يحيط بشخصية الحاكم وأعماله ؛ ذلك أن كتب الأدب الشيعى ، تعنى قبل كل شىء بشئون الدعوة المذهبية ، وتنحرف فى معظم الأحيان ، حين تقص التاريخ إلى جانب الخرافة والأسطورة . والحقيقة أن الرواية الإسلامية العامة تأخذ فى هذا الموطن بظواهر الحوادث المادية ، وتكتفى بأن تقدم إلينا الحاكم ، فى تلك الصور المروعة المثيرة التى أشرنا إليها ؛ وقلما تحاول أن تلتمس فيما وراء ذلك ، شيئاً من البواعث والأسباب ، التى يمكن أن نعلل بها بعض نزعات الحاكم وتصرفاته العجيبة . وقد أوردنا بعض أقوال الرواية الإسلامية فى وصف الحاكم ، فهى لا ترى فيه أكثر من أمير مضطرب العقل والتفكير ، عنيف الأهواء والنزعات ، كثير العبث والسفك ، شديد التناقض ، لا يصدر عن روية أو منطق متزن ، ولا يتحرى غاية أو مثلا معقولة : تلك هى الصورة العامة التى تقدمها إلينا الرواية الإسلامية عن الحاكم ؛ وهى صورة بسيطة ساذجة مستمدة من ظاهر الحوادث المادية ؛ فقد كان الحاكم طاغية شديد البطش والسفك ، ولكنه كان يتخذ السفك وسيلة لا غاية ، وكان القتل فى نظره خطة سياسية ؛ وكان عنيف الأهواء والنزعات ، ولكنها لم تكن نزعات شهوة نفسية ، وإنما نزعات ذهن يرتفع عن الوسائل العادية ، لتوجيه مجتمع يراه جديراً بالتغيير والتطور ؛ وكان متناقضا فى كثير من تصرفاته ، ولكن تناقض الذهن الذى يحاول مختلف الوسائل والتجارب ، لتحقيق غايات معينة . ومع ذلك فإنه لم يفت بعض المؤرخين أن يلاحظ أن عقلية الحاكم ، لم تكن بتلك البساطة التى تصور بها ، فقد وصفه الذهبى بأنه كان « خبيثاً ماكراً ، ردىء الاعتقاد »[1] ، وهى صفات ليست من خواص الذهن المضطرب السقيم ، الذى يفكر دون تدبر ويعمل دون غاية .

---

(١) الذهبى ، النسخة المخطوطة ج ٢٢ فى وفيات سنة ٤١١ ، وراجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٧٨ .

وإلى جانب هذه النظرية الساذجة ، التى تكتفى من البحث والتعليل بباعث الخفة والاضطراب العقلى ، توجد نظرية أخرى فى تعليل هذه النزعات والأهواء العنيفة التى كانت تضطرم بها هذه الشخصية العجيبة ؛ تلك هى النظرية الباتولوجية[1] إذا صح هذا التعبير ، لأنها ترجع هذه النزعات إلى أسباب باتولوجية أى مرضية وصحية . وقد قال بهذه النظرية مؤرخ وطبيب نصرانى معاصر هو يحيى الأنطاكى ؛ وهو يشرح لنا نظريته فيما يلى :

« وكان سبب بغيه (أى الحاكم) ، فى جميع ما يقصده من هذه الفعال العجيبة المتضادة ، التى تقوم فى نفسه ويفعلها شيئاً بعد شىء ؛ صنف من سوء المزاج المرضى فى دماغه ، أحدث له ضرباً من ضروب المالنخوليا ، وفساد الفكر منه منذ حداثته ، فإن من المتعارف فى صناعة الطب أنه قد يكون فيمن يعتريه هذا المرض ، أنه يقوم فى نفسه أوهام ، ويتخيل أموراً وعجائب ، ويكون كل واحد منهم لا يشك أنه على الصواب فيما يتصوره فى جميع أفعاله ، ولا يثنيه عن ذلك ثان ولا يرده راد ، وأن قد يكون منهم من يظن بنفسه أنه نبى ، ومنهم من يتوهم أنه الإله بنفسه تعالى كثيراً ، ويكون بقوم من هؤلاء من اختلاط الكلام ظاهراً واختلاله ، ما ينكشف حاله عند من يشاهده ويحادثه ، وتزول الشبهة فيه فى أول وهلة ، وربما كان تخليط أحدهم فى الكلام مستوراً ، وتكون هذه التخيلات والخواطر الرديئة ، تعرض له فى أمور مستورة عن العوام ، فيكون صورته عندهم صورة العقلاء ، وحسن ظنهم به ونظرهم إليه كنظرهم إلى أفاضل الناس ، فإذا أطالوا اختبارهم بان لهم ما انطوى عنهم فى نقضهم .

وهذه صورة الحاكم ، فإن نقصه كان يتبين لمن تطول صحبته له ؛ وأما من هو بعيد عنه فإن أفعاله كانت توضحه له ؛ وقد يستدل على حقيقة هذا المرض المستحوذ عليه ، أنه كان قد عرض له فى حداثته تشنج ، من سوء مزاج يابس فى دماغه ، وهو مزاج المرضى الذى يحدث فى المالنخوليات ، واحتاج فى مداواته منه مع ما كان يعالج به ، إلى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به ؛ وإن كثرة سهره أيضاً وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم ، مما يقتضيه هذا

(١) الباتولوجيا هى علم الأمراض والأعراض الشاذة التى لا تعتبر عادة من الأمراض العادية .

السوء المقدم ذكره ، وأن أبا يعقوب إسحق بن إبراهيم بن انسطاس ، لما خدمه استماله إلى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها ، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه ، واستقام أمر جسمه ، ولما مات أبو يعقوب ، وعاد إلى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء ، رجع إلى ما كان فيه »[١] .

وهذا شرح فطن طريف بلا ريب ؛ بيد أنه لا يكفى فى نظرنا لتعليل هذا المزيج القوى المدهش ، من أعمال وتصرفات كانت رغم عنفها وتناقضها ، ترجع فى معظم الأحيان كما سنرى ، إلى بواعث سياسية أو مذهبية أو اجتماعية ؛ وتردد بعض الروايات الإسلامية المتأخرة هذه النظرية فى تعليل نزعات الحاكم وأهوائه المغرقة ، فيقول لنا النويرى مثلا ، إن الحاكم أصيب فى سنة ٣٩٣ هـ أعنى وهو فتى فى الثامنة عشرة ، بضرب من المالنخوليا ، فأخذ فى قتل رجال الدولة ؛ ويتحدث فى غير موطن عن غلبة هذه « المالنخوليا » على الحاكم[٢] . ويقول لنا المقريزى « ويقال إنه (أى الحاكم) كان يعتريه جفاف فى دماغه ، فلذلك كثر تناقضه ؛ وما أحسن ما قال فيه بعضهم كانت أفعاله لا تعلل ، وأحلام وساوسه لا تؤول »[٣] .

على أننا لا نستطيع أن نقف عند هذا الشرح والتصوير . والواقع أن الحاكم بأمر الله كان عقلية مدهشة ، وكان لغزاً عسير الفهم ؛ وإذا كان قد أشكل على المؤرخين المسلمين من معاصرين ومتأخرين فلم يحاولوا فهمه ، فإنه ما زال أيضاً فى بعض نواحيه لغزاً على عصرنا ، وإن كنا نستطيع أن نحاول فهمه من بعض النواحى ، وأن نعلل كثيراً من أعماله ومراسيمه . ويصفه العلامة الألمانى ميلر بأنه « من أعجب وأغمض الشخصيات التى عرفها التاريخ » ويقول : « إن من يقرأ ما أورده المؤرخون المتأخرون ، من مختلف الأساطير والقصص ، يخرج بأنهم لم يفهموه ، وأنهم اعتبروه مجنوناً فقط ، وقد جرى رأيهم فيه مجرى الحقيقة ، ولكن توجد ثمة شواهد واضحة ،

---

(١) تاريخ الأنطاكى ص ٢١٨ و ٢١٩ .

(٢) نهاية الأرب (المخطوط) ج ٢٦ ص ٥٢ و ٥٦ .

(٣) الخطط ج ٤ ص ٧٤ .

على أن هذا الأمير الذى هو أعجب من أنجبت أسرته ، كان أشدهم إثارة للأساطير من حوله ، وأن حجاباً كثيفاً قد أسبغ على صورته ، فلا نستطيع أن نظفر منها إلا بلمحات »(١) .

والآن ماذا نستطيع أن نقول فى قوانين الحاكم وتصرفاته ؟ وكيف ننظر إليها ؟ هل كانت فى مجموعها فورات مجنون ، ونزعات مخبول ، كما تصورها معظم الروايات الإسلامية ؟ إن كثيراً من هذه القوانين والأحكام يحمل طابع القسوة والإغراق ؛ ولكن من التحامل والظلم ، أن نصفها بالسخف المطبق ، وأن ننعت صاحبها بالجنون . ولقد ظلم التاريخ الحاكم ، كما ظلم كثيراً من الطغاة المصلحين ؛ وقد كان الحاكم طاغية ، ولكن مصلحاً على طريقته ؛ وكان يرمى بما يصدر من القوانين والأحكام إلى تحقيق غايات معينة ، دينية وسياسية واجتماعية ، ربما خفيت على الكافة ، لأنها تتعلق بسياسة الدولة العليا ؛ ومن ثم كان الريب فى حكمتها ، والسخط عليها ، وكانت القسوة فى تطبيقها .

فأما معاملة الذميين : أعنى اليهود والنصارى ، وما صدر فى شأنها من الأوامر والأحكام المشددة ، فلم تكن بدعة فى ذاتها ، ولم تكن حدثاً جديداً فى الخلافة الإسلامية ؛ ولم يكن فيها من الجديد سوى روحها ووسائلها الشديدة ، التى جعلت منها نوعاً من الإضطهاد المنظم . ولقد كانت الخلافة الإسلامية ، تأخذ كما رأينا بسياسة التسامح الدينى ، وتطلق لرعاياها الذميين الذين يؤدون الجزية ، حرية الاعتقاد والشعائر ؛ ولكن الذميين كانوا يلقون من الوجهة الاجتماعية دائماً نوعا من المعامله الخاصة ؛ ومنذ خلافة عمر فرضت عليهم بعض الأحكام والقيود ، التى تجعلهم من الوجهة الاجتماعية أدنى من المسلمين ، وكان منها كما قدمنا قيود تتعلق بالأزياء وركوب الخيل ، وحمل السلاح ، واقتناء العبيد ؛ وكانت هذه الأحكام تتخذ فى عصور الحماسة الدينية ، لوناً من الشدة يختلف باختلاف الظروف والأحوال . وقد رأينا أن الخلافة الفاطمية كانت تتبع سياسة التسامح الدينى نحو اليهود والنصارى ، وأنهم فى ظلها ازدهروا وتبوأوا أرفع مناصب الثقة والنفوذ ، وأن موقف

---

(١) A. Müller : Der Islam, im Morgen-und Abendland (Berlind 1885) B. I. p. 628.

الحاكم نحوهم ، واشتداده فى معاملتهم على هذا النحو ، كان انقلاباً فى السياسة الفاطمية . وقد نستطيع أن نفسر هذا التطرف من جانب الحاكم ، بأنه نوع من الغلو الدينى له بواعثه السياسية ؛ ففى هذه المرحلة التى اشتد فيها الأمر على اليهود والنصارى ، كان الحاكم يبدى كثيراً من التعصب والغلو ، سواء من الناحية الدينية العامة ، أو الناحية المذهبية الخاصة ؛ ولكن هذه الشدة استحالت فى أواخر عصره إلى نوع من اللين والرفق بالنصارى واليهود ؛ ذلك لأن هذا الذهن المضطرم يستحيل عندئذ إلى ذهن فلسفى حر التفكير ، ينظر إلى الأديان كلها نظرة واحدة ؛ وإن كانت السياسة العليا ، تحتم عليه أن يؤيد دين الدولة ومذهبها الرسمى ؛ ومما يلاحظ فى هذا الصدد ، أن موقف الحاكم إزاء النصارى واليهود ، هو من المواقف القليلة التى ثبت فيها الحاكم على سياسة واحدة ، وأنه لم يجنح فيه من الشدة إلى اللين إلا فى أواخر عصره ، حينما ظهر الدعاة السريون ، يدعون إلى دين جديد وعقائد جديدة .

وإذا كان فى هذا الإضطهاد المنظم لليهود والنصارى ، وهذه النزعات العنيفة المغرقة فى معاملة الأقليات الدينية ، ما يؤخذ على الحاكم بأمر الله ، فإن فى روح العصور الوسطى ، وهى روح تعصب ورجعية ، ما يخفف هذه التبعة ، ويقرب فهم هذه السياسة ؛ بل ألم نشهد فى عصرنا ، وفى أرقى الأمم المتمدينة ألواناً شنيعة من اضطهاد الأقليات الدينية أو الجنسية ، وهو اضطهاد يمتد إلى النفس والمال وجميع الحقوق العامة ؟ وهذه النزعة لا تختلف فى جوهرها عن نزعات العصور الوسطى(١) .

وقوانين الحاكم الإجتماعية ؟ هل كانت تشريعات جنونية ، خالية من كل باعث وحكمة ؟ إن الحكم على هذه القوانين يقتضى أن نفهم روح

(١) يقدم لنا الدعاة السريون فى رسائلهم ، تعليلا لسياسة الإضطهاد الدينى التى سنها الحاكم ، ففى الرسالة التى عنوانها : « خبر اليهود والنصارى » والتى نشير إليها فيما بعد ، أن جماعة من اليهود والنصارى لقوا الحاكم ذات يوم بالقرافة ، واستغاثوا به من سياسته ، وبينوا له أنها تنافى قواعد الإسلام ، وحدثت بينهم وبينه مناقشة أوضح لهم فيها الحاكم حكمة إصدار هذه القوانين ، وهى أنه قد مضت منذ صاحب الشريعة (أعنى محمدا) أربعمائة سنة ، وظهر الإمام المنتظر فى شخصه ، وأضحى له عندئذ أن يدعوهم الى الدخول فى شريعته ، فإن أبوا ، قاتلهم وعطل شرائعهم وكتبهم ، وهذا ما فعله إزاءهم .

العصر ، وخواص المجتمع المصرى يومئذ ؛ كان الحاكم بأمر الله على رأس خلافة مذهبية ، يقوم سلطانها السياسى على صفة الإمامة الدينية ، وكانت هذه الخلافة تريد أن تحيط ملكها فى مصر ، بسياج منيع من الخلال القوية التى أحاطت ملكها فى المغرب ؛ ولكنها ألفت فى مصر مجتمعاً متحضراً يميل إلى الترف والحياة الناعمة ؛ ولم ترد أن تضيق على هذا المجتمع بادئ ذى بدء ، لأنها كانت تخطب وده وتسعى إلى تأليفه ، ولهذا كانت تسايره ، وتغريه ببذخها وبهائها ، وتطلق له أعنة البهجة والمرح ، وتغمره بالمواسم الفخمة والحفلات والمواكب الشائقة ؛ فكانت تذكى بذلك مرحه وخفته واستهتاره ، بدلا من أن تذكى فيه الخلال القوية التى تنشدها . وكانت عوامل الإنحلال تجثم فى قرارة هذا المجتمع ، الذى يخفى انحلاله تحت أثواب من الفخامة والبهجة ، وكانت الرذائل الإجتماعية على أشدها حينما تولى الحاكم بأمر الله ، وظهر ذلك الانحلال الإجتماعى فى أشد مظاهره حينما نظمت حياة الليل ، وشهد الأمير فى مواكبه الليلية ، مظاهر هذا الفساد الشامل . عندئذ عمد الحاكم إلى وضع هذه الخطة ، التى يمكن أن توصف بحق بأنها برنامج للإصلاح الإجتماعى ، ولجأ إلى تلك القوانين والإجراءات الصارمة ، كوسيلة لمكافحة هذا الفساد الإجتماعى الشامل . وفيم تحريم الخمر ومطاردة المدمنين[1] ، وتحريم الغناء واللهو الخليع ، إلا أن يكون لتقويم أخلاق الشعب ، وحماية أمواله وصحته من الإسراف والعبث ، وحماية المجتمع من ضروب الفساد التى يغرق فيها ؟ إن الأمم العظيمة فى عصرنا تلجأ فى أحيان كثيرة إلى إصدار مثل هذه القوانين لبث الإصلاح الاجتماعى ؛ وما عهد التحريم الأمريكى ببعيد ؛ فقد حرمت الخمر فى أمريكا عقب الحرب العالمية الأولى مدى أعوام ، وكانت تجربة اجتماعية هائلة لا تزال ذكراها ماثلة فى الأذهان ؛ وما تزال بعض الدول تحرم بعض الملاهى ، التى تراها خطراً

---

(١) أشار « السجل المنهى فيه عن الخمر » ، وهو الذى أورده الدعاة السريون فى رسائلهم كما سنبين بعد الى حكمة هذا التحريم وهو : « نهى الكافة عن الإلمام بالمسكر ، واستحسان المنكر من الإسرار (الإصرار) على المسكر الذى هو مجمع السيئات ، والقائد الى قبائح الأفعال والسوءات . . . حتى تطهر الممالك من سوء آثاره » وقد أرخ هذا السجل بسنة ٤٠٠ هـ ، وهو التاريخ الذى صدر فيه مرسوم التحريم .

على الأخلاق العامة ؛ وما تزال بعض الحكومات ، تحد من حريات الشعب في التجوال بالليل في ظروف معينة ، حرصاً على الأخلاق والأمن العام .

ومطاردة المرأة والحجر عليها ؟ لا ريب أن الحاكم كان يذهب في ذلك إلى ذروة الغلو والإغراق ؛ ولكن المرأة من أشد عوامل الفتنة والغواية ، ولا سيما في عصور الفساد والانحلال ؛ وقد شهد الحاكم بنفسه أثناء طوافه الليلي ، كثيراً من ضروب التهتك والخلاعة ، التي كانت تغرق فيها نساء العصر ؛ ونقلت إليه على يد رسله وعيونه — ومنهم نساء وعجائز كن ينفذن إلى أعماق الأسر — أقوال ونوادر كثيرة عن خبثهن ، وافتنانهن في أساليب الإفساد والغواية ؛ وقد رأى الحاكم في الحجر على المرأة والمباعدة بينها وبين الرجل في حياة المدينة ، وسيلة لمكافحة الرذيلة وحماية الأخلاق الفاضلة . أما الإغراق في تطبيق التجربة ، فهو بلا ريب أثر من إغراق هذا الذهن الهائم في كل ما يعتقد ويبتكر ؛ وإذا كنا نستطيع أن نعلل فكرة الحجر على المرأة وإبعادها عن مجتمعات المدينة ، فمن الصعب علينا أن نعلل ذلك الإغراق في تطبيقها إلى حدود من القسوة الذريعة . بيد أنه ليس من الإنصاف أن ننكر على الإجراء كل حكمة ، فمن المحقق أنه كان ذا أثر كبير في درء الفساد الشامل وتنقية حياة المدينة ؛ ولقد شهدنا في عصرنا في بعض الأمم العظيمة ، فكرة مماثلة في الحد من حريات المرأة الاجتماعية وردها إلى حظيرة الأسرة ، مع فرق في العصر والظروف . فقد رأينا في إيطاليا الفاشستية ، وألمانيا الهتلرية ، كيف ضيق على المرأة وفقدت كثيراً من حرياتها المأثورة ، وكيف حظر عليها التبذل والتهتك في الأزياء ؛ ثم رأينا كيف حرمت من ضروب اللهو الخليع ، ومنعت الحانات الليلية والملاهي العارية . ولا ريب أن الفكرة التي أملت على الحاكم خطته ، وأملت في عصرنا على هذه الدول العريقة المحدثة خطتها نحو المرأة ، ترجع في جوهرها إلى أصل واحد ، هو مكافحة عوامل الغواية والفساد ، التي يبثها تهتك المجتمع النسوي ، وإمعانه في صنوف الاستهتار والخلاعة .

وأما تحريم بعض أنواع الأطعمة والبقول ، فيرجع إلى أسباب مذهبية أو صحية لها قيمتها في ذلك العصر ؛ فقد حرم الجرجير مثلا لأنه ينسب إلى

السيدة عائشة ، وحرمت الملوخيا لأنها كانت من الأشياء المحبوبة لمعاوية ، وحرمت المتوكلية لأنها تنسب إلى الخليفة المتوكل العباسى[١] ؛ وهذه بواعث مذهبية واضحة ؛ وحرم الفقاع لأنه مسكر ضار ، ولما أثر عن على بن أبى طالب من كراهية شربه ؛ وحرم الدلينس والترمس المتعفن والسمك الذى لا قشر له لبواعث صحية . وأما تحريم ذبح الأبقار السليمة ، فهو إجراء ظاهر الحكمة ، وهو المحافظة على النسل والإكثار من الماشية[٢] . وأما قتل الكلاب فهو تحوط صحى ، لا يزال يتبع فى عصرنا فى جميع الأمم المتمدنة .

ولسنا ندعى أننا نستطيع أن نعلل كل قوانين الحاكم وإجراءاته وتصرفاته ، أو أن ننفذ إلى بواعثها وحكمتها جميعاً ؛ فهناك كثير منها لا يستطاع فهمه وتعليله ؛ ولكن الذى نود أن نقوله هو أن هذه القوانين والإجراءات كانت عكس ما تصوره الرواية الإسلامية ، بأنها نزعات طاغية مضطرب الذهن ، تكون فى مجموعها برنامجاً إصلاحيا شاملا ، وترمى فى مجموعها إلى تحقيق غايات لا ريب فى حكمتها وسموها .

يقول العلامة دوزى : « لم تكن قوانين الحاكم سخيفة ، كما يحب أن يصورها الرواة السنيون ، الذين اعتادوا أن يقدموا إلينا من هـذا الأمير شخصية مضحكة لا صورة حقة » ثم يقول : « لقد أراد الحاكم أن يكافح الانحلال الشامل ، الذى سرى إلى مجتمع عصره ، بقوانين بوليسية صارمة ، وأحياناً غريبة شاذة » . ثم يشرح رأيه بعد ذلك على ضوء هذه القوانين والأحكام المختلفة ، ويحدثنا بعطف عن تواضع الحاكم وتقشفه[٣] . ويقول ميللر بعد أن يلخص قوانين الحاكم الإجتماعية : « إن هذه التصرفات ليست كلها تنم عن الحماقة ، وإذا كنا لا نستطيع أن نعلل كل أعماله ، فليس ذلك

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٤ ص ١٥٨ .

(٢) وقد شرحت حكمة هذا التحريم فى قانون من هذا النوع صدر فى عهد الظاهر ولد الحاكم (سنة ٤١٧ هـ) إذ جاء فيه : « ان الله تعالى بتتابع نعمته وبالغ حكمته ، خلق ضروب الأنعام ، وجعل فيها منافع الأنام ، فوجب أن تحمى البقرة ، المخصوصة بعمارة الأرض ، المذللة لمصالح الخلق ، فإن فى ذبحها غاية الفساد ، وإضرار للعباد والبلاد » (راجع النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٥٢) .

(٣) Dozy : Essaî sur l'Islamisme p. 287 & 288

مما يحملنا على أن نعتبر تصرفاته فورة أهواء مستبد ، ولا سيما ونحن نراها فى نواحى أخرى سليمة معقولة ، وكل ما وصلنا من الروايات إنما هو وقائع مجردة ، مشوهة ومبالغ فيها بلا ريب ، وإنه ليكون من المدهش اليوم أن نستطيع أن نحل رموز هذه المعضلة الشاملة» ، ثم يقول « وليس لدينا إلا أن نعتقد أنه إما باطنى متعصب ، توهم فى نفسه الإغراق والألوهية ، وإما أمير ذكى بارع فى تاريخ أسرته ومذهبها ، اعتقد أنه يستطيع أن يسمو فوق البشر ، وأن يحتقرهم ويصنفهم كالشمع طوع إرادته ، وربما كان يجمع فى طبيعته المتناقضة بين شىء من هذا وشىء من ذاك . وربما لا يستطيع أن يظفر بالحقيقة هنا سوى خيال شاعر »(٢) .

والخلاصة أن الحاكم بأمر الله ، لم يكن تلك الشخصية الوضيعة الساذجة ، ولا تلك العقلية المخرفة التى تقدمها إلينا الرواية ، ولم تكن أعماله وأحكامه كما صورت على كر العصور ، مزيجاً من النزعات والأهواء الجنونية . إنما كان الحاكم لغز عصره ، وكان ذهناً بعيد الغور ، وافر الإبتكار ، وكان عقلية تسمو على مجتمعها ، وتتقدم عصرها بمراحل ، وكان بالاختصار عبقرية يجب أن تتبوأ فى التاريخ مكانها الحق .

---

(١) A. Müller ; ibid. B. 1. p. 630

الفصل التاسع

الأحداث الخارجية

الثورة فى صور وفلسطين . مسير ابن الصمصامة الى الشام . نجدة البيزنطيين للثوار . قمع الثورة ومصرع زعمائها . إخماد الفتنة فى دمشق . الحرب بين الفاطميين والبيزنطيين . غزو البيزنطيين للثغور . الهدنة بين مصر وقسطنطينية . حوادث طرابلس . الحرب بين الفاطميين وباديس الصنهاجى . هزيمة الفاطميين . استيلاء باديس على طرابلس . إضافة برقة الى أعمال إفريقية . وفاة باديس وولاية ولده المعز . تحسن العلائق بين بلاط القاهرة وبلاط إفريقية . صقلية وتبعيتها للخلافة الفاطمية . عود الفتنة الى الشام . خروج بنى الجراح بالرملة . الدعوة لجعفر الحسنى . تفاقم الثورة . التفاهم بين الحاكم والثوار . الدعوة للحاكم فى الموصل . محضر القدح العباسى . كتاب الحاكم الى محمود الغزنوى . اختيار عبد الرحيم بن الياس لولاية العهد . حوادث حلب . انهيار سلطة بنى حمدان . الوزير لؤلؤ . غزو العرب لحلب . دخولها فى طاعة الحاكم . ولاية فاتك لها . أبوركوة . أصله ونشأته . الريب فى نسبته . دعوته لبنى أمية . خروجه فى برقة . هزيمته للفاطميين واستيلاؤه على برقة . المؤامرة على غزو مصر . زحف أبى ركوة الى مصر . ارتداد الجند الفاطمى . المعركة الحاسمة . هزيمة أبى ركوة ومصرعه .

— ١ —

كان عصر الحاكم بأمر الله مليئاً بالحوادث الخارجيه كما كان مليئاً بالحوادث الداخلية ؛ وقد أفضنا فى استعراض الأحداث الداخلية ، ولا سيما تلك التى تلقى ضياء على شخصية الحاكم وعقليته ووسائله فى الحكم والإدارة ؛ والآن نستعرض حوادث العصر الخارجية ، ونبسط ما أشرنا إليه منها خلال حديثنا .

ترك العزيز بالله لولده مملكة ضخمة مترامية الأطراف ، تشمل مصر وبرقة وطرابلس وإفريقية والشأم ، وتبسط سلطتها الروحية على صقلية والحرمين واليمن ؛ وكانت المملكة الجديدة ما تزال بحاجة إلى الاستقرار ؛ وكانت المعركة الهائلة التى شهرها القرامطة على الدولة الفاطمية قد تركت

آثارها المخربة ، ولبث سلطان الفاطميين فى الشأم مدى حين عرضة للإنتقاض ، وتعاقبت الثورات والأحداث الخطيرة ؛ ومن جهة أخرى فقد كانت الدولة البزنطية (الدولة الرومانية الشرقية) جارة مصر من الشمال ، تجوز مرحلة من القوة والنهوض فى عصر الأسرة البسيلية حسبما أشرنا من قبل ، ولا سيما فى عهد الإمبراطور باسيل الثانى معاصر العزيز وولده الحاكم بأمر الله (٩٧٦ — ١٠٢٥ م) ؛ وكان البزنطيون (الروم) قد انتهزوا فرصة الاضطراب الذى أثارته غزوات القرامطة فى الشام ، فاستولوا على أنطاكية وبعض الثغور والمواقع الأخرى ، وشجعوا حركات الانتقاض على حكومة القاهرة ، وتحالفوا مع الخوارج ، واشتبكوا مع جيوش الدولة الفاطمية ، فى عدة معارك خطيرة فى البر والبحر .

وقد رأينا كيف تفاقمت حوادث الشأم فى أواخر عهد العزيز ، وكيف كان يعتزم العزيز أن يتابع الحرب فى الشأم بنفسه ، لولا أن عاجله الموت فى بلبيس وهو على رأس جيشه ؛ وهكذا بدأ الحاكم عهده فى فترة اضطراب وفتنة ؛ ولكن كان من حسن الطالع أن كان الوصى برجوان ، وهو يومئذ مدبر الدولة وزعيمها ، رجلا قوياً وافر الذكاء والعزم ، فنشط لقمع الفتنة وتوطيد الأمور . وبدأ برجوان عهده بمقارعة المغاربة ولا سيما الكتاميين ، والعمل على سحق سلطانهم ، وقد كاد يغشى كل شىء فى الدولة ؛ وقد رأينا كيف انتهى الصراع بينـه وبين ابن عمار إلى تمزيق كتامة وثل سلطانها ونفوذها ، وتدعيم نفوذ الصقالبة فى القصر وفى الإدارة (٣٨٧ هـ) . وفى سنة ٣٨٨ هـ اضطرمت الثورة فى صور ، بزعامة بحار مغامر يدعى العلاقة ، فقبض على زمام الحكم فيها ، وضرب السكة باسمه ، ونقش عليها هذه العبارة : « عزا بعد فاقة للأمير علاقة » ؛ وثار بالرملة فى نفس الوقت زعيمها المفرج ابن دغفل الجراح ؛ فأرسل برجوان إلى فلسطين جيشاً ضخماً بقيادة جيش ابن الصمصامة ؛ وكان جيش جنديا جريئا من زعماء كتامة ، الذين التفوا حول برجوان ، وكانوا يومئذ يستأثرون بمعظم مناصب الولاية والقيادة ؛ فسار جيش إلى الرملة واستولى عليها وأخضع ثوارها ، وطارد المفرج بن دغفل وقواته حتى أذعن الثائر لطلب الأمان والصلح ، فعفا عنه وأمنه ؛

ثم عطف بقواته على صور ، وكان العلاقة قد استنجد بالإمبراطور باسيل الثانى ووعده بتسليم صور ، فبعث إليه المدد من البحر ؛ فسارت إلى مياه صور وحدة من الأسطول المصرى بقيادة الحسين بن ناصر الحمدانى وفايق الخادم ؛ وحصرت صور من البر والبحر ، ونشبت بين الفريقين معارك شديدة فى مياه صور وفى أرضها ؛ فهزم الروم وحلفاؤهم الخوارج ، وأسرت سفينة بيزنطية كبيرة وقتل جميع من فيها ؛ وسقطت صور فى أيدى القوات الفاطمية ونهبت وسبى جمع من أهلها ؛ وأسر زعيم الثورة العلاقة ، وأرسل إلى القاهرة فأعدم وصلب ومثل بجثته (سنة ٣٨٨ هـ — ٩٩٨ م)[١] .

وسار جيش بن الصمصامة بعد ذلك إلى دمشق ، وكان عليها سليمان ابن جعفر الكتامى من قبل ابن عمار ، ولاه عليها منذ انتصاره على بنجوتكين واليها السابق ، فى الحرب الأهلية التى أتينا على ذكرها ، فنزعه جيش من الولاية وألجأه إلى الفرار ، وقمع عوامل الفتنة ووطد سلطة الدولة ؛ وواصل سيره إلى « أفامية » وهنالك التقى بالروم ، ونشبت بين الفريقين معركة شديدة هزم فيها المسلمون أولا ، ولكن سرية من الفرسان بقيادة بشارة الإخشيدى ثبتت فى وجه الروم ، ونفذ إلى المعسكر البيزنطى جندى مسلم ، ووثب بقائد البيزنطيين داميانوس ديلاسينوس المعروف « بالدوقس » على غرة منه فقتله ؛ وعلى أثر ذلك وقع الاضطراب فى صفوف الروم ، وهاجمهم المسلمون بشدة فمزقوهم شر ممزق ، وقتلوا منهم عدة آلاف وطاردوهم حتى أبواب أنطاكية ، وأسر أبناء الدوقس وجماعة من أكابر القادة البيزنطيين ، وأرسلوا إلى مصر حتى افتدتهم حكومتهم (سنة ٣٨٩ هـ — ٩٩٩ م) . وعاد جيش بعد ذلك إلى دمشق ، وعسكر فى ظاهرها مدى حين ؛ وتتبع الخوارج والمخالفين فقتلهم ، وأذل الأشراف والزعماء ، وبسط حكم الإرهاب على المدينة ؛ بيد أنه لم يلبث أن اضطر إلى مواجهة خطر البيزنطيين مرة أخرى . ذلك أن باسيل الثانى لما رأى ما حل بجيشه من الفشل ، سار بنفسه إلى الشأم ثانية ، وعاث فى بسائط الساحل ما بين أنطاكية وبيروت ، فاستصرخ جيش حكومة

(١) تاريخ الأنطاكى ج ١ ص ١٨١ و ١٨٢ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٤١ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ٥٧ .

القاهرة ، فأرسلت إليه المدد من كل صوب ؛ ونزل باسيل على طرابلس بينما كان جيش يتهيأ للقائه ، ونشبت بينه وبين حاميتها معركة شديدة فى البر والبحر ؛ وقتل من جنده عدة كبيرة (المحرم سنة ٣٩٠ هـ)[١] ، ووصلته فى نفس الوقت أنباء مزعجة عن تحرك البلغار : فارتد بجيشه إلى الشمال ؛ وأما جيش فإنه لم يلبث أن مرض وتوفى (ربيع الآخر سنة ٣٩٠) ، فخلفه فى ولاية الشأم فحل بن تميم ؛ وسادت السكينة فى الشأم حينا .

وكان برجوان قد رأى أن يهادن الروم ، لكى يتفرغ لمعالجة الأحداث والقلاقل الداخلية ؛ فأرسل إلى الإمبراطور باسيل يقترح عقد الصلح والمهادنة . فاستجاب الإمبراطور لدعوته ، وأنفذ سفارة إلى بلاط القاهرة ؛ وبينما كانت مفاوضات الصلح تجرى إذ غزا الإمبراطور الشأم للمرة الثانية ، وكاد مشروع الصلح ينهار ؛ ولكن الإمبراطور ارتد مسرعاً كما رأينا وآثر استتباب السلم فى حدوده الجنوبية ؛ لكى يتفرغ لمواجهة الخطر البلغارى ؛ فاستؤنفت مفاوضات الصلح ؛ ووفد السفير البيزنطى على القاهرة فى سادس عشر ربيع الأول سنة ٣٩١ هـ (مارس ١٠٠٢ م) فاتخذت لاستقباله أعظم الأهبات ، وسار السفير بين صفوف كثيفة من الجند ، حتى وصل إلى باب الفتوح أعظم أبواب القاهرة يومئذ ؛ ثم ترجل ومشى إلى القصر ، وهو يقبل الأرض حتى وصل إلى حضرة الحاكم ؛ وكان القصر قد زين بهذه المناسبة أعظم زينة ، وجهز الإيوان الخلافى أرضه وجدرانه بالستور الذهبية حتى غدا يتلألأ ، وعلقت بصدره العسجدة الشهيرة ، وهى درقة من الذهب مكللة بفاخر الجوهر ، يضىء ما حولها . فدخل الرسول ، وقد بهره ما شهد ، وقبل الأرض ؛ وقدم كتب القيصر وهديته ؛ وانتدب البلاط أريسطيس بطريرك بيت المقدس وخال الأميرة ست الملك للسير مع السفير البيزنطى ، وتقرير شروط الهدنة مع القيصر ، وعقد أواصر الصداقة بين الدولتين ؛ فسار أريسطيس إلى قسطنطينية ، وقام بالمهمة ؛ وعقدت بين مصر والدولة البيزنطية

---

(١) الأنطاكى ص ١٨٣ و ١٨٤ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٤٢ ، وابن خلدون ج ٤ ص ٥٧ ؛ والمقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٦٨ و ٦٩ .

معاهدة سلم وصداقة لمدة عشر سنين ، وأقام أريسطيس فى عاصمة بيزنطية أربعة أعوام حتى توفى[١] .

وسير برجوان أيضاً جيشاً إلى طرابلس الغرب بقيادة يانس الصقلى لكى يعيد إليها سلطة الخلافة الفاطمية ، وكانت عندئذ تحت حكم باديس بن المنصور الصنهاجى ؛ وكان المعز لدين الله حينما سار من المغرب إلى مصر فى سنة ٣٦١ ﻫ قد استخلف على المغرب يوسف بن زيرى بن مناد الصنهاجى ليحكم باسم الخلافة الفاطمية وتحت سيادتها ، وخوله فى الحكم سلطة مطلقة ؛ فأدى يوسف مهمته بحزم ، وقمع دابر الفتنة ، ووطد سلطان الحكم ؛ وسأل العزيز بالله أن يضيف إليه ولاية طرابلس ، فأجابه إلى ملتمسه واستخلف يوسف عليها حاكماً من قبله . ولما توفى يوسف خلفه ولده المنصور المسمى بُلُكِّين وأقره العزيز على ولايته ؛ ثم خلف المنصور ولده باديس أبو مناد فى سنة ٣٨٦ ﻫ وبعث إليه الحاكم بأمر الله لأول ولايته إليه بالعهد والخلع المعتادة بولايته ، فجدد البيعة للحاكم هو وبنو عمه وقادته . بيد أنه يبدو ، من جهة أخرى أن آل زيرى استطاعوا خلال تلك الفترة ، أن يستأثروا بالسلطة ، وأن يجعلوا من سلطان الخلافة الفاطمية اسماً يستظل به فقط ؛ ولما كانت طرابلس تجاور مصر من الغرب ، وكان يخشى عليها من أطماع أولئك البربر الأشداء ، فقد رأى برجوان أن يسترد طرابلس ، وأن يحصنها لتكون درعا يقى مصر شر العدوان والغزو ؛ فتفاهم مع حاكمها المغربى نائب باديس ، وبعث إليها يانساً الصقلى كما قدمنا ، وعينه لحكمها ، وكان هو المتولى لحكم برقة ؛ فدخل يانس طرابلس ، وأقام بها ؛ فاستراب باديس من تلك الحركة وبعث الجند لمقاتلة يانس ، فهزم يانس وقتل ، وامتنع جند مصر بطرابلس (سنة ٣٩٠ ﻫ) وبعثوا إلى الحاكم يطلبون المدد والإنجاد ، فسير الحاكم إلى برقة جيشاً ثانياً بقيادة يحيى بن على الأندلسى ، فخاض مع البربر المحليين عدة معارك ، ولكنه اضطر أخيراً إلى الانسحاب وترك طرابلس إلى مصيرها ؛ فاستولى عليها زعيم من زناته يدعى فلفول ، وأطاعته زناته ؛ فسار باديس إلى محاربة زناته ،

(١) الأنطاكى ص ١٨٤ ، والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٧ ا ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٢ .

فخشوا العاقبة ، وآثروا الدخول فى طاعته . وهكذا استطاع باديس أن يستعيد طرابلس ويبسط حكمه عليها (٣٩٣ هـ)(١) .

بيد أن العلائق بين آل زيرى والخلافة الفاطمية ، ما لبثت أن تحسنت ، وعادت إلى سابق صفائها ، وأدرك الحاكم أن السياسة العملية تقضى بالنزول عند أطماع أولئك الزعماء البربر ، أولياء الخلافة الفاطمية فى المغرب . ومن ثم ، فقد أرسل الحاكم مع رسوله عبد العزيز بن أبى كديد ، إلى نصير الدولة أبى مناد باديس ، هدية فخمة ، ومعها سجل بإضافة برقة وأعمالها إليه ، فوصلت الهدية والسجل إلى القيروان فى أوائل المحرم سنة ٤٠٣ هـ ، وخرج باديس إلى لقاء السفير ، ومعه القضاة والأعيان وكان يوماً مشهوداً . وفى أواخر سنة ٤٠٥ هـ ، بعث باديس من إفريقية هدية عظيمة إلى الحاكم بأمر الله ، ولكنها حينما وصلت إلى مدينة برقة تصدى لها بنو قرة الخوارج على الحاكم واستولوا عليها ، وكان زعيمهم مختار بن قاسم ، قد استولى على برقة ، وأخرج منها حميد بن تموصلت نائب باديس .

وفى نفس هذا العام بعث الحاكم مرة أخرى رسوله عبد العزيز بن أبى كديد إلى إفريقية ، ومعه خلع وسيوف وعهد لمنصور بن نصير الدولة (باديس) ، بولاية ما يتولاه أبوه فى حياته ، وبعد وفاته ، وفيه يلقبه بعزيز الدولة .

وتوفى نصير الدولة أبو مناد باديس أمير إفريقيـــة ، فى العام التالى (٤٠٦ هـ) ، فخلفه ولده أبو تميم منصور الملقب بالمعز ، وكان صبياً فى نحو الثامنة من عمره ، وكان عهد ولايته ، قد أرسل إليه حسبما تقدم . وفى سنة ٤١٠ هـ ، سير الحاكم بأمر الله أبا القاسم بن البريد إلى المعز ، ومعه سيف مكلل بالجوهر ، وخلعة خلافية ، وسجل جديد بإقرار ولايته ، فاستقبل الرسول أعظم استقبال ؛ وأرسل الحاكم بعد ذلك إلى المعز رسولا آخر ومعه عدة أعلام منسوجة بالذهب ، فخلع المعز على الرسولين وطيف بالأعلام فى مدينة القيروان . وهكذا كانت العلائق فى أواخر عهد الحاكم ، بين بلاط القاهرة وبلاط إفريقية ، تتسم بطابع من المودة الوثيقة(٢) .

---

(١) ابن خلدون ج ٦ ص ١٥٤ و ١٥٥ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٤٤ و ٥٣ و ٦١ و ٨٨ .

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٧ ا و ٦٩ ب .

ويجب لمناسبة الحديث عن إفريقية ، أن نعطف على ذكر صقلية التى كانت منذ أيام الأغالبة ولاية تابعة لإفريقية (تونس) . ولما استولى الفاطميون على إفريقية ، لبثت صقلية تابعة لها ، فلما انتقلت الخلافة الفاطمية إلى مصر ، استخلف المعز لدين الله آل زيرى لحكم إفريقية ، واعتبرت صقلية ولاية خاصة تتبع الخلافة الفاطمية . وبالرغم من أن صقلية كانت من الناحية العملية ، تتمتع فى ظل أمرائها باستقلال داخلى ، فإنها كانت من الناحيتين السياسية والدينية على الأقل ، تعتبر إقليما من أقاليم الخلافة الفاطمية المصرية ، وقد كانت كذلك فى عصر الحاكم بأمر الله . ويؤيد ذلك وثائق لا شك فى دلالتها . من ذلك ما أورده المقريزى فى حوادث سنة ٤٠٣ هـ ، من أنه لما أصيب أبو الفتوح يوسف بن عبد الله بن أبى الحسين أمير صقلية فى رجب من هذا العام بالشلل ، قام بالأمر ابنه أبو محمد جعفر بن يوسف ، وكان بيده سجل الحاكم بولايته بعد أبيه ، ثم وصل إليه سجل آخر لقب فيه تاج الدولة ، وسيف الملك ، ثم أنفذ إليه تشريف ، وعقد له لواء ، وزيد فى لقبه « الملك » . وما جاء فى سجل تعيين قاضى القضاة المصرى أبى العباس محمد بن أبى العوام ، الصادر فى شعبان سنة ٤٠٥ هـ ، من أنه يتولى بمقتضاه « الحكم فيما وراء حجابه من القاهرة المعزية ومصر وأعمالها ، والإسكندرية والحرمين ، وبرقة والمغرب وصقلية ، مع الإشراف على دور الضرب بهذه الأعمال »[1] ؛ فمن الواضح إذاً أن صقلية كانت ولاية تابعة للخلافة الفاطمية ، وأن حدود الإمبراطورية المصرية ، كانت فى ذلك العهد تمتد حتى مياه صقلية والبحر الترينى .

وكان برجوان مدبر الدولة قد قتل منذ سنة ٣٩٠ هـ حسبما قدمنا ، وقبض الحاكم على زمام السلطة ؛ واستمر الهدوء الذى استطاع برجوان أن يحققه بعزمه وحزمه مدى حين ؛ وتوفى فحل بن تميم والى الشام لأشهر من ولايته فعين مكانه على بن فلاح ، فاستمر فى منصبه زهاء عامين فى ظروف صعبة ، يعوزه المال ، وترهقه الجند بمطالبها . وفى رمضان سنة ٣٩٢ هـ ، بعث الحاكم إلى دمشق داعيته المسمى ختكين الملقب بالضيف ، فحاول أن ينتقص من

(١) المقريزى فى إتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٧ أ و ٦٨ ب .

أرزاق الجند ، فثاروا به وقتلوه ، ونهبوا دور الحكومة والكنائس ؛ فسخط الحاكم على ابن فلاح وعزله ، وبعث مكانه لولاية الشأم الزعيم البربرى الأسود تموصلت بن بكار (سنة ٣٩٣ هـ) فتوفى بعد قليل ، وخلفه مفلح اللحيانى (المحرم ٣٩٤ هـ) ؛ وكان الصلح الذى عقدته مصر مع الدولة البيزنطية قد قضى على آمال الخوارج فركنوا حيناً إلى السكينة . بيد أن الفتنة عادت فاضطرمت فى الشام ثانية فى سنة ٤٠٠ هـ (١٠١٠ م) ؛ ففى تلك السنة فتك الحاكم بآل المغربى ، وهم أسرة قوية من الأعيان والوزراء ، كان لها شأن فى الدولة ؛ ففر عميدهم الوزير أبو القاسم الحسين بن المغربى إلى الشام ؛ وكان كبيرهم أبو الحسن بن على المغربى ، قد خدم العزيز وزيراً فى الشأم ، واشترك فى محاربة بنى حمدان أمراء حلب ؛ ولما تولى الحاكم بأمر الله الملك ، كان أبو الحسن وولده أبو القاسم من جلسائه وخاصته ؛ ولكن الحاكم لم يلبث فى بعض فوراته أن نقم على آل المغربى ، ولعله استشعر خوفاً من دسائسهم ؛ فقبض على أبى الحسن وولده محمد وقتلهما ، واستطاع ولده أبو القاسم أن ينجو بنفسه ؛ ففر إلى الشأم ، واستغاث بحسان بن مفرج بن الجراح زعيم عرب فلسطين ، وأغراه بالخروج والثورة . وكان آل الجراح من خصوم الدولة الفاطمية ، وقد خرجوا عليها فى بدء عهد الحاكم كما رأينا ؛ فثار حسان وزحف على الرملة واستولى عليها ، وقتل حاكمها ، وعاث جنده فيها ؛ واتفق الخوارج على استدعاء أمير الحرمين الحسين بن جعفر بن محمد الحسنى المنتسب إلى الحسن بن على بن أبى طالب ، ونادوا به خليفة علوياً مكان الحاكم ، وتسمى بأمير المؤمنين الراشد لدين الله ، ونزع ما كان بالكعبة من ذهب وفضة وضربت نقوداً باسمه ؛ وحرض ابن المغربى سائر القبائل فى الحجاز على خلع الطاعة ، وسار فى جمع كبير منهم إلى الرملة ؛ وبعث الحاكم الجند إلى فلسطين بقيادة يارختكين (أو يارتكين) العزيزى فهزم وأسر ثم قتل ؛ واستحفل أمر بنى الجراح ، وبسطوا نفوذهم على جنوبى الشأم كله ، وحاصروا حصون السواحل ؛ فرأى الحاكم أن يأخذهم باللين والمصانعة ، وبعث إليهم الأموال والتحف ، فاستجابوا إلى الصلح وعادوا إلى الطاعة ، وعاد الحسن بن جعفر إلى مكة خوفاً من سوء العاقبة ، واعتذر الى الحاكم

فقبل اعتذاره ؛ واستمال الحاكم أيضاً آل المغربى ، وأصدر أماناً للوزير أبى القاسم ، ولكنه آثر المضى إلى بغداد وعادت السكينة بذلك إلى الشأم[١] .

وفى أواخر هذا العام أعلن صاحب الموصل ، قراوش بن المقلد العقيلى الملقب بمعتمد الدولة طاعة الحاكم ، ودعا له فى الخطبة فى جميع أعماله من الموصل إلى الكوفة ، وقطع دعوة بنى العباس ؛ فغضب لذلك القادر بالله الخليفة العباسى ، وهاله انتشار الدعوة الفاطمية على هذا النحو ، وبادر فى الحال بإرسال الجند لمحاربة معتمد الدولة ، فخشى معتمد الدولة عاقبة الحرب ، وقطع دعوة الحاكم ، وعاد إلى طاعة بنى العباس وذلك لنحو شهر فقط من خروجه عليها .

ورأت الخلافة العباسية أن تلجأ فى محاربة الخلافة الفاطمية إلى سلاح الدعوة والتشهير ، بعد أن عجزت عن مناوأتها بالسيف ، فأصدر القادر بالله فى ربيع الآخر سنة ٤٠٢ (سبتمبر ١٠١٢ م) ، محضراً بالقدح فى نسب الخلفاء الفاطميين وفى عقائدهم ، وقعه جمهرة من العلماء والأشراف ، وقرئت نسخه فى بغداد ؛ وكان من الموقعين عليه الشريف الرضى وأخوه المرتضى ، وعدة من أكابر العلويين ؛ ومن أكابر الفقهاء أبو القاسم الجزرى ، وأبو حامد الأسفرايني ، وأبو الحسين القدورى ، وغيرهم ؛ وقد أشرنا إلى موضوع هذا المحضر فيما تقدم ؛ وكان لصدوره وقع سيئ فى بلاط القاهرة ، بيد أنه لم يكن له صدى يذكر .

ومن الغريب أن الحاكم بأمر الله أرسل فى العام التالى (٤٠٣ هـ) كتاباً إلى السلطان محمود بن سُبكتكين الغزنوى ملك أفغانستان ، يدعوه إلى طاعته والإقرار بإمامته ، فاستقبل الدعوة بالسخط والسخرية ، ومزق الكتاب وأرسله إلى القادر ليطلع عليه ؛ ولعل الحاكم كان يرى فى ذلك وسيلة لمغالبة دعوة التشهير العباسية وتحديها[٢] .

وفى أوائل سنة ٤٠٤ هـ (١٠١٣ م) أرسل بلاط القاهرة سفارة مودة

---

(١) نهاية الأرب ج ٢٦ ص ٥٦ ، والأنطاكى ص ٢٠١ ؛ والمقريزى فى الخطط ج ٣ ص ٢٥٥ و ٢٥٦ و ج ٤ ص ٧٢ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ٥٧ وبه تحريف ظاهر للوقائع .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ ، والمكين ابن العميد ص ٢٥٦ .

وصداقة إلى الإمبراطور باسيل الثانى قيصر قسطنطينية ، على رأسها عبد الغنى ابن سعيد ، ومعه هدية فخمة برسم الإمبراطور ؛ وعاد السفير المصرى من قسطنطينية بعد نحو عام ، فى جمادى الآخرة سنة ٤٠٥ ﻫ (أكتوبر ١٠١٤ م) ومعه سفير قيصر ، فركب الحاكم لاستقبال السفير البيزنطى ، وعليه ثوب أبيض ، وعمامة مفوطة بمظلة مثلها ، وقد اصطفت العساكر على طول الطريق حتى القصر ، وصعد السفير إلى القصر ومعه عبد الغنى بن سعيد ، فخلع عليهما ، وأنزل السفير داراً فخمة بالقاهرة[1] .

وفى صفر سنة أربع وأربعمائة (أغسطس ١٠١٣ م) ، عمد الحاكم فجأة الى إجراء غريب ، هو اختياره لولاية عهده ابن عمه أبا القاسم عبد الرحيم ابن الياس بن أبى على بن المهدى ؛ وجمع الناس على اختلافهم بالقصر ، وقرئ عليهم سجل التعيين . ومما جاء فيه بأن عبـــد الرحيم بن الياس ، قد جعله الحاكم بأمر الله : « ولى عهد المسلمين فى حياته ، والخليفة بعد وفاته » ، وخلع عليه ، وأمر الناس بالسلام عليه ، وأن يقولوا فى سلامهم عليه ، « السلام على ابن عم أمير المؤمنين ، وولى عهد المسلمين » . وقرئ السجل على منابر الجوامع وبالإسكندرية ؛ وبعث الحاكم بذلك سجلا الى إفريقية قرئ بجامع القيروان وغيره . فعظم ذلك على نصير الدولة أبى مناد باديس ، وانتقد هذا التصرف بالرغم من امتثاله له . وكان أغرب ما فى هـــذا الاختيار الذى لم تبد حكمته أو تعرف بواعثه ، هو أنه كان للحاكم فى ذلك الوقت ولد فى التاسعة من عمره ، هو أبو الحسن على ، الذى ولد فى العاشر من رمضان سنة ٣٩٤ ﻫ ، وهو الذى تولى الخلافة فيما بعد باسم الظاهر . وكان يعيش مع أمه فى قصر عمته ست الملك خشية عليه من سطوة أبيه[2] . ولكن الحاكم اختار ابن عمه عبد الرحيم بن إلياس دون ولده لولاية عهـــده ، وأفرد له مكاناً فى القصر ، ودعى له على المنابر فى خطبة رمضان ، وكتب اسمه مع اسم الحاكم فى البنود والسكة والطراز ؛ وكان فى أحيان كثيرة ينفرد

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٨ ا و ب و ٦٨ ب .

(٢) تاريخ الأنطاكى ص ٢٣٥ ؛ والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٧ ا و ب و ٦٨ ب .

بالنظر فى شؤون الدولة ، والحاكم مشغول بطوافه ، ثم كان الحاكم أحيانا يأمر بأن تحال إليه الرقاع التى تعرض عليه فى طوافه ؛ وفى سنة ٤٠٩ ﻫ عين عبد الرحيم لولاية دمشق . بيد أن اختيار الحاكم لم يصادف قبولا فيما بعد . ولما توفى الحاكم اختير ولده الظاهر للخلافة ، وامتنع عبـــد الرحيم حيناً بدمشق ؛ ولكنه استقدم إلى مصر بالحيلة عقب اختفاء الحاكم وقتل بتنيس عقب وصوله بحراً ، وقيل إنه اعتقل حيناً وتوفى بعد ذلك منتحراً أو قتيلا (سنة ٤١٤ ﻫ) ؛ وتولت ست الملك أخت الحاكم تدبير هذه الشؤون كلها ببراعة وحزم نادرين[١]

— ٢ —

وكان سقوط حلب فى يد الخلافة الفاطمية وزوال الدولة الحمدانية منها ، من أعظم الحوادث الخارجية فى عصر الحاكم بأمر الله ؛ وكان بنو حمدان قد استعانوا كما رأينا ، بمحالفة البيزنطيين على استبقاء دولتهم وسلطانهم ، واستمروا سادة فى حلب يؤدون الجزية لإمبراطور قسطنطينية ، وينضوون تحت لوائه ؛ ولم تنجح حملات الفاطميين أيام العزيز فى فتح حلب ؛ وقد عاون الصلح الذى عقده بلاط القاهرة مع الإمبراطور باسيل الثانى ، على استتباب السلم فى شمال الشام ؛ فأمن بنو حمدان غزو الفاطميين مدى حين .

وكان أمير حلب فى أوائل عهد الحاكم ، أبو الفضائل بن حمدان الملقب بسعد الدولة ، فاستمر فى حكمها بمعاونة وزيره القوى أبى نصر لؤلؤ ؛ ولما توفى سعد الدولة وثب لؤلؤ بولديه أبى الحسن وأبى المعالى ، فانتزع الولاية منهما لنفسه ، وحكم باسمهما مدى حين ؛ ثم أخرجهما من حلب ، فسارا إلى مصر والتجآ إلى الحاكم ؛ فاستقل لؤلؤ بالحكم ، ولكنه رأى أن يتقى خصومة الفاطميين ، فأعلن طاعة الحاكم ودعا له حيناً ، بيد أنه عاد فنقض الدعوة وعاد إلى موقف الخصومة والمقاومة[٢] .

وكانت المعارك المحلية تضطرم فى تلك الأنحاء بين الأمراء المحليين ؛ وكان

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٧١ و ٧٤ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٣ و ١٩٤ ، والأنطاكى ص ٢٠٩ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ ، والمكين ابن العميد ص ٢٥٦ .

أمير الموصل قد استولى على الرحبة من أعمال الشأم ، فسار إليه لؤلؤ الشيرازى والى الشأم واستردها منه ؛ ولكنه ماكاد يتركها حتى تجددت المعارك المحلية ، وأسفرت فى النهاية عن سقوطها فى يد زعيم محلى يدعى صالح بن مرداس الكلابى ؛ ولما اشتد أمره وقوى جمعه أخذ يتطلع إلى انتزاع حلب من يد صاحبها لؤلؤ ويرهقه بمطالبه . وفى أوائل سنة ٤٠٢ هـ (١٠١٢ م) سار صالح بن مرداس فى قواته إلى حلب ، وحاول أن يدخلها فردته قوات لؤلؤ وأسرته ، ولكنه فر من أسره ، وعاد فجمع قواته وحاصر حلب زهاء ثلاثين يوماً حتى ضاق أهلها ذرعاً ، وخرج لؤلؤ لقتاله ، فهزم وأسر ، ولم يطلقه صالح إلا لقاء فدية كبيرة ؛ ثم ارتد صالح عن حلب واستمر بها لؤلؤ ، ولكن خلافاً نشب بين لؤلؤ وغلامه فتح قائد القلعة ، انتهى بأن كاتب فتح الحاكم بأمر الله وأظهر طاعته ، ودعا له وأعلن الثورة على سيده ؛ وعاونه صالح على استخلاص المدينة ؛ ولما لم يجد لؤلؤ سبيلا إلى استبقاء سلطانه غادر حلب إلى أنطاكية ، ونزل بها على حلفائه الروم ؛ وتسلم نواب الحاكم حلب ، واختار الحاكم لولايتها أميراً من بنى حمدان يدعى عزيز الدولة فاتك ولقبه أمير الأمراء ، فدخلها سنة ٤٠٧ هـ ، واستمر على حكمها فى طاعة الحاكم وتحت لوائه حتى نهاية حكمه[١] . بيد أنها ما لبثت أن عادت بعد وفاته إلى يد المتغلبين عصراً آخر .

— ٣ —

وكان أعظم حوادث العصر الخارجية بلا ريب قيام « أبى ركوة » وغزوه لمصر ؛ فقد كاد هذا الداعية القوى أن يزعزع أسس الدولة الفاطمية ، وأن يقضى على ملك الحاكم وأسرته .

فمن هو أبو ركوة هذا ؟ تقول الرواية إنه سليل بنى أمية خلفاء الأندلس ، وإنه من ولد هشام بن المغيرة بن عبد الرحمن الناصر واسمه الوليد ؛ وإنما لقب « بأبى ركوة » لأنه كان يحمل دائماً ركوة ماء لوضوئه على طريقة الصوفية ، وتقول الرواية فى سبب مقدمه إلى المشرق ، إنه حينما حجر المنصور بن أبى عامر المتغلب على حكومة قرطبة ، على الخليفة هشام

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ٧٢ و ٧٩ ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٣٥ .

المؤيد بالله الأموى ولد الحكم المستنصر بالله ، وتتبع زعماء بنى أمية وفروعهم للتخلص منهم ، فر الوليد (أبو ركوة) فيمن فر من أعضاء أسرته خيفة القتل ؛ وكان عند مغادرته لقرطبة شاباً فى نحو العشرين من عمره ، فاخترق المغرب وإفريقية وأقام بالقيروان حينا يقرئ الصبيان ، ثم سار إلى مصر فدرس بها الحديث ؛ وبعد أن تجول حيناً فى الحجاز واليمن والشام عاد إلى مصر ، ثم نزح إلى برقة واستقر بين بطون بنى قرة أقوى قبائلها ، وهنالك افتتح له مكتباً يعلم فيه الصبيان ؛ وكان يتشح بثوب من الورع المؤثر ، ويجتذب إليه الناس بنسكه ، ووعظه ، وذلاقته ، ونبل خلاله .

ويبدى ابن خلدون ريبه فى نسبة أبى ركوة وفى دعواه أنه سليل بنى أمية ، ونحن معه فى هذا الريب ؛ ويقول لنا المقريزى ، إنه فيما يقال ولد رجل من موالى بنى أمية ؛ والظاهر أن قصة أبى ركوة هى قصة كل الدعاة الطامحين إلى ملك أو إمامة ، فهم ينتمون إلى أصل ملكى أو زعامة دينية ؛ وقد سلك أبو ركوة طريق الفريق الأول فنسب نفسه إلى بنى أمية بالأندلس ؛ ولما قطع مرحلة التجوال والاستطلاع والدرس ، ورأى الفرصة سانحة للدعوة والعمل ، كشف عن شخصه وأظهر نسبته ، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله ، ودعا إلى عمه هشام المؤيد الأموى[1] ، وزعم أنه يملك مصر ، ويقيم الإمامة على أسس من العدل والتقوى ؛ وكانت قفار المغرب وقبائله الساذجة دائماً ، مهدا خصبا لبث الدعوات الدينية ، فاستجاب إليه بنو قرة والتف حوله البدو فى أنحاء برقة ؛ وكان حكم الإرهاب الذى بسطه الحاكم على البلاد قد وصل يومئذ إلى ذروته ، وأسرف الحاكم فى قتل الكبراء والزعماء ، وتمزيق الأسر والعصبيات القوية ؛ وكان بنو قرة ممن أصابتهم يد البطش والمطاردة ، وقتل بعض أعيانهم أو سجنوا ، فكانوا يضطرمون نحو حكومة القاهرة سخطاً ، ويلتمسون الفرصة للخروج والانتقام ؛ فلما دعاهم أبو ركوة استجابوا إليه ، وهرعت إليه بطون برقة من سائر النواحى ولا سيما بطون لواتة ومزاتة وزناتة ، واتفق الداعى وأولياؤه على الجهاد

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢١٥ ؛ ويذكر ابن الأثير (ج ٩ ص ٦٨) أنه دعا للقائم ويتابعه ابن خلدون فى ذلك ، وهذا خطأ ظاهر لأن القائم العباسى لم يتول الخلافة إلا سنة ٤٢٢ ه .

فى سبيل الله ، وأن يكون له ثلث الغنائم ، ولبنى قرة وحلفائهم الثلثان . ووقف بلاط القاهرة على أنباء تلك الحركة وقدر خطورتها ، فأرسل الحاكم إلى برقة فى شعبان سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) جيشا بقيادة إينال الطويل التركى ، فخرج أبو ركوة للقائه فى جموعه ، واقتتل الفريقان فى رمادة ، فهزم جند الحاكم هزيمة شديدة ، واستولى الثائر على خيلهم وسلاحهم ، وقوى أمره ، واشتد بأسه . وسار أبو ركوة بعد ذلك إلى برقة ، فحاصرها ، ودافع عنها حاكمها صندل دفاعا مريرا ، ولكن الحصار اشتد عليه ، وقطعت عنه الأقوات والميرة ، ففر فى صحبة من الزعماء والقادة إلى القاهرة ، ونبأوا الحاكم باشتداد أمر الثائر ، وخطر حركته ، ووجوب المبادرة إلى قمعها بمنتهى العزم والأهبة .

ودخل أبو ركوة برقة ظافراً وبسط حكمه عليها واستقر فى دار الإمارة ، وأظهر الرفق والعدل ، وقطع الدعوة الفاطمية من الخطبة ، ولعن الحاكم وآباءه فى خطبته ، وشهر بنسبهم الزائف ، وتلقب بالثائر بأمر الله ، وكان فصيحاً مؤثراً . وضرب السكة باسمه ، وهرعت إليه الوفود لتأييده واشتد بأسه ؛ وذعر الحاكم لتطور الحوادث على هذا النحو ، وبادر بحشد الجند ، وسار إينال الطويل مرة أخرى لمحاربة الثائر واسترداد برقة منه ؛ فخرج أبو ركوة للقائه ، والتقى الفريقان فى واد مقفر على مقربة من برقة ، وكان الثوار قد طمسوا آباره ، وأجهد الطعش جند مصر ، وتسلل عدد من الضباط والجند المغاربة الناقمين عل الحاكم إلى معسكر الثائر ، فازداد بهم قوة على قوته ؛ ودارت الدائرة على جند مصر مرة أخرى ، فمزقوا شر ممزق ، وأسر قائدهم إينال وقتل ؛ وعاد الثائر إلى برقة وقد امتلأت يده من الغنائم ، واستفحل أمره وزادت هيبته وسلطانه .

وكان أبو ركوة عندئذ فتى فى نحو الثلاثين من عمره ، وكان يكثر من تلاوة القرآن والترحم على السلف . وتصفه الرواية ، بأنه كان أسمر ، تعلوه حمرة مستن الوجه ، طويل الجبهة ، أشهل بزرقة ، أقنى ، صغير اللحية ، أصهب إلى الشقرة ، ظاهر القطوب ، تلوح عليه إمارات الاهتمام والجد[1] .

وهنا أخذ أبو ركوة يتطلع إلى امتلاك مصر ، وشجعه على هذا الأمل

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لو. ٦١ ب .

بعض أكابر الزعماء الناقمين ، مثل الحسين بن جوهر قائد القواد وزعيم المغاربة ؛ وكان رغم سمو مركزه يخشى غدر الحاكم ونقمته ، وكان زعماء المغاربة قاطبة قد نزعوا ثقتهم منه ، وأخذوا يتربصون به الفرص ؛ فبعث أبو ركوة سراياه إلى الصعيد أولا ، فعاثت فى بعض أعماله ، ولم تلق كبير مقاومة ؛ ولما رأى طريق مصر مفتوحاً أمامه ، سار بجموعه الجرارة نحو الصعيد ، واتفق فيما بينه وبين حلفائه أن يقتسموا تراث الدولة الفاطمية ، فتكون مصر من نصيب الثائر ، ويختص العرب ببلاد الشأم .

وكانت فى الواقع مؤامرة خطيرة ، تهدد مصير مصر ومصير الدولة الفاطمية ؛ ولم يكن زحف أبو ركوة على مصر ، أقل خطراً من زحف القرامطة ؛ ولكن من حسن الطالع أن كانت القوى الغازية فى الحالتين ، ينقصها النظام والوحدة ، والتناسق فى الرأى والعمل ؛ وكان جيش أبى ركوة كجيش القرامطة مزيجاً من الأنصار المتعصبين ، والبدو المغامرين ، والمرتزقة الذين لا تجمع بينهم سوى رابطة المصلحة المؤقتة . وشعر الحاكم من جهة أخرى بفداحة الخطر الذى يهدد ملكه ، فضاعف أهبته واستقدم الجند من الشأم ، وسير للقاء الغزاة جيشاً ضخما بقيادة أبى الفتوح الفضل بن صالح[١] فى ربيع الأول سنة ٣٩٦ هـ ، فالتقى بالغزاة فى كوم شريك على مقربة من الإسكندرية ، ودارت بين الفريقين معارك شديدة قتل فيها كثير من الجانبين ؛ ورأى الفضل من كثرة جمع الغزاة ما هاله ، فلجأ إلى الخديعة ، وتفاهم مع بعض زعماء بنى قرة من أنصار أبى ركوة ليكونوا له عيناً عليه ؛ واستمرت المعارك بين الفريقين مدى حين ، ورجحت كفة الهاجمين ، وارتد الفضل بجنده صوب القاهرة ، فذعر الناس وسرى الخوف ؛ وبلغ أبو ركوة صحراء الهرم ، وهزم الجيش الذى أرسله الحاكم لرده بقيادة على بن فلاح ؛ ثم ارتد صوب صحراء الفيوم ، فتبعه الفضل بقواته بعد أن نظمها وعززها بالمدد ؛ واستؤنف القتال بين الفريقين بمنتهى الشدة ، وكانت المعركة الفاصلة فى اليوم الثالث من ذى الحجة سنة ٣٩٦ هـ (سبتمبر ١٠٠٦ م) فهزم أبو ركوة ، ومزقت جموعه ، وبعث الفضل بآلاف من رؤوسهم إلى القاهرة ؛ وارتد

---

(١) ويسميه ابن الأثير الفضل بن عبد الله (ج ٩ ص ٦٩) .

الثائر جنوباً والفضل يطارده حتى حدود النوبة ، وهنالك قبض عليه ، وحمل إلى القاهرة ؛ فسر الحاكم بذلك أيما سرور ، وخلع على الفضل وغمره بعطفه ، وذاعت أنباء النصر فى طول البلاد وعرضها ، واطمأنت النفوس ، واستقرت الأحوال .

ولما قبض على أبى ركوة أبدى جزعاً كبيراً والتمس الصفح من الحاكم ، وبعث إليه برقعة فيها هذه الأبيات :

فررت فلم يغن الفرار ومن يكن	مع الله لم يعجزه فى الأرض هارب
ووالله ما كان الفرار لحاجة	سوى فزع الموت الذى أنا شارب
وقد قادنى جرمى إليك برمتى	كما هز ميت فى رحا الموت سارب
وأجمع كل النـــاس أنك قاتلى	فيارب ظن ربه فيك كاذب
وما هو إلا الانتقام وينتهى	وأخذك منه واجب لك واجب

بيد أن الحاكم لم تأخذه بالثائر رأفة ، وأمر بمعاقبته والتنكيل به ، فطيف به فى شوارع القاهرة فى هيئة مزرية ومن ورائه رجل وقيل قرد مدرب يصفعه[1] ؛ ولما مر الموكب بمنظرة الذهب حيث كان الحاكم يرقبه ، استغاث أبو ركوة بالحاكم مرة أخرى ، فلم يصغ إلى تضرعه ؛ ولم يصل إلى ظاهر القاهرة حيث تقرر إعدامه ، حتى كان جثة هامدة ، فقطع رأسه وحمل إلى الحاكم ، وصلب جسده فى الميدان الكبير ؛ وخلع الحاكم على القائد فضل وغيره من القواد والعرفاء ، وخلع على قائد القواد[2] .

---

(١) يصف لنا المقريزى مناظر التشهير بأبى ركوة وتعذيبه فيما يلى : « وأبو ركوة على جمل فوق سرير ، وعليه ثوب مشهر ، وفوق رأسه طرطور طويل ، ومعه رجل يسكه ، وقد اجتمع الناس فكان جمعا لم ير مثله ، وأجرت الدور والحوانيت بجملة ، وبات الناس على الطرقات حتى وصل به الى القصر ، فأوقف ساعة على باب القصر ، وهو يشير بأصبعه يطلب العفو ، والصفع فى قفاه ، ثم سير به الى مسجد تبر ، فلما خرج من باب القاهرة انثال الناس يرجمونه بالحجر والآجر ، ويصفعونه وينتفون لحيته حتى عاين الموت من الألم ، الى أن بلغ مسجد تبر فضربت عنقه وصلبت جثته وحمل رأسه الى الحاكم ، فكان يوماً عظيماً مهولا » (اتعاظ الحنفاء — المخطوط — لوحة ٦١ ب) .

(٢) راجع فى تفاصيل هـــذه الحوادث : أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) ، ونهاية الأرب ج ٢٦ ص ٥٤ و ٥٥ ؛ وابن الأثير ج ٩ ص ٦٨ — ٧٠ ؛ وابن خلدون ج ٤ ص ٥٨ ؛ والمقريزى (الخطط) ج ٤ ص ٧٠ ؛ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٠٢ و ٢١٥ — ٢١٧ .

وهكذا انهارت تلك الثورة التى كادت تجتاح فى طريقها كل شىء ، والتى ارتجفت لها أسس الدولة الفاطمية مدى حين ؛ وقد كانت بلا ريب أعظم حوادث عصر الحاكم بأمر الله وأعظم أزماته ؛ وقد أبدى الحاكم فيها ثباتاً وحزماً ينبان عن قوة نفسه ؛ وكان للحادث أثره فى سياسة الحاكم الداخلية ، فقد جنح مدى حين إلى الرفق والمسالمة ، بعد أن شهد آثار العسف والإرهاب ، فى صرف النفوس عنه وحقدها عليه ؛ بيد أنه ما كاد يجوز الأزمة ويخرج بالظفر ، حتى عاد إلى سابق عسفه وبطشه ؛ وكان من ضحاياه منقذ دولته الفضل بن صالح ، فقد انقلب عليه بعد أن حباه حيناً بعطفه ، وأمر به فقتل شر قتلة ؛ وقد ذكرنا من قبل ما تقدمه الرواية الكنسية فى مقتل الفضل ، من أنه دخل يوماً على الحاكم بالقصر ، فرأى بين يديه صبياً مليحاً وقد ذبحه واستخرج أمعاءه ، وكيف أن الفضل ارتد مذعوراً إلى منزله ، فبعث إليه الحاكم بمن قتله ؛ بيد أننا نرجح أن القتل هنا يرجع إلى باعث سياسى ، فقد خشى الحاكم فيما يظهر أن يسبغ الظفر على قائده ، هيبة يأبى أن تكون لأحد من الزعماء أو القادة[1] .

---

(١) والظاهر فوق ذلك أن الحاكم لم يكن يبالغ فى تقدير اليد التى أسداها إليه قائده . فقد أورد لنا المقريزى فى ذلك نبذة نقلها عن المسبحى جاء فيها : « قال المسبحى ، قال لى الحاكم بأمر الله ، وقد جرى حديث أبى ركوة ، ما أردت قتله ، ولكن جرى فى أمره ما لم يكن من اختيارى . فقلت يا أمير المؤمنين ما قصر عبدك الفضل بن صالح فى خدمته . فقال ، وإيش تظن أن فضل أخذه ، قلت نعم يا أمير المؤمنين هذا قول الناس ، فقال والله العظيم ما أفلح فضل فى حركته تلك ولا أنجح ، غير أننا أنفقنا فيها ألف ألف دينار ذهبا ضياعا ، وإنما أخذه ملك النوبة ، وأنفذ به الى . فقلت صدقت يا أمير المؤمنين . وعلمت أن هذا مما قرره قائد القواد الحسين بن جوهر فى نفسه ليبطل فعل فضل ، فاستقر » (اتعاظ الحنفاء — المخطوط — لوحة ٦١ ب)

الفصل العاشر

رهـــط الدعاة

التيارات الخفية . ذروة الحوادث . الحاكم والحياة الروحية . تطور الدعوة المذهبية . طواف الهائم . المرأة التمثال . غضب الحاكم . الدعوة الجريئة . حمزة ابن على . أصله ونشأته . دعوته بألوهية الحاكم . رهط الدعاة الملاحدة . ظهور الأخرم الفرغانى ومقتله . محمـد بن اسماعيل الدرزى . ترديده لدعوة الألوهية . الخصومة بين فريقى الدعاة . الدعاة يجاهرون بدعوتهم فى مسجد مصر . الفتنة الدينية . مطاردة الدعاة الملاحدة . فرار الدرزى ومصيره . مصير حمزة ابن على . موقف الحاكم من الدعوة الإلحادية . غضبه على أهل مصر . خطـة الانتقام . مهاجمة مصر وإحراقها . خبث الحاكم ورياؤه . المناظر المروعة . ختام المأساة .

إلى ذلك الحين سلخ الحاكم زهاء خمسة عشر عاماً فى الحكم ؛ وكانت فترة يطبعها الاضطراب والعنف والمفاجأة ، بما تخللها من غريب الأحكام والتطورات التى أتينا على ذكرها . ولكن الحوادث تدخل من ذلك الحين فى طور آخر ، ويميل العهد إلى نوع من الهدوء ، ويتجه الحاكم وجهة أخرى . كان ذلك الذهن المضطرم الهائم معاً ، لا يسكن إلى ركود الحياة العادية ، وكان دائماً يؤثر التوغل فى عوالم الحياة الروحية ؛ وكانت أعوام العصر الأخيرة مليئة بهذه التيارات الخفية ، التى تحجب عنا أغوارها ريب وظلمات كثيفة ؛ وكانت مصر فى هذه الأعوام مهداً خصباً لطائفة من الدعاة السريين ، والدعوات المذهبية والإلحادية المغرقة ؛ وكان الحاكم ، كما سنرى من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها ،حتى استحالت فى أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى « ألوهيته » ، ونعت الحاكم عندئذ « بقائم الزمان وناطق النطقاء » . وعندئذ تمخضت هذه التيارات الخفية ، وهذا الهدوء المحموم ، عن عاصفة دموية مروعة اختتم بها ذلك العهد ، الحافل بصنوف

المفاجآت والأحداث العجيبة . ثم كانت ذروة الخفاء ، وكان ختام المأساة ، فغاض الحاكم من هــذا العالم فى ظروف كالأساطير ، وأسبغ الخفاء على ذهابه حجباً كثيفة من الغموض والريب ، كتلك التى أسبغها على حياته ، وعلى شخصيته كلها .

وسوف نتناول فى هــذا الفصل حوادث هذه المرحلة من عصر الحاكم بأمر الله ، ونبسط ما انتهى الينا من أعمال الدعاة وحركاتهم الظاهرة ؛ ولكنا نرجئ شرح مبادئهم ودعواتهم الى القسم الثانى من هذا الكتاب ، حيث نعنى بشرح الدعوة الفاطمية السرية وكل نظمها وآثارها .

* * *

كان هذا العهد الغريب الحافل قد أخذ بعد هذه الفترة الطويلة المروعة ، يستقر ويبدو طبيعياً لا غرابة فيه ؛ وماذا عسى أن يخترع الحاكم بعد من صنوف الأحكام والقوانين المدهشة ؟ وماذا عسى أن يستجد من الأحداث والخطوب والمحن ، بعد أن تقلب الشعب فى هذه الغمار أعواماً ، وروض نفسه على قبولها والرضوخ لأحكامها ؟ لقد شهد الشعب فى هذه الأعوام الخمس عشرة من الحوادث والمفاجآت السياسية والدينية والاجتماعية ، ما لم يسمع به من قبل فى أى مجتمع مسلم ؛ فرأى القتل الذريع يخمد كل صوت أو رأس يرتفع ، والاضطهاد المنظم يحطم الطوائف والأقليات ، والقوانين الصــارمة تقلب أوضاع الحياة الإجتماعية ، وتخمد كل الرغبات والأهواء ؛ وقد احتمل كل شىء فى صبر وجلد ، ودفع من حرياته وماله ودمه ثمن الاحتجاج والتذمر ، ولم يبق إلا أن يشهد الحوادث تجرى فى طريقها المحتوم ، حتى يأذن القدر بتحويلها وتبديلها .

بيد أن الحوادث لم تكن قد بلغت بعــد ذروتها ونهايتها ، وكانت ثمة مفاجآت مروعة أخرى .

وقد كان الحاكم خلال هذه الأعوام الحافلة ، روح كل شىء فى الدولة وفى المجتمع ، وكان هذا الذهن المضطرم الذى رماه التحامل والتسرع بالجنون ، يسيطر على أقدار هذا الملك الشاسع بقوة مدهشة ، ويقبض بيديه القويتين على كل صغيرة وكبيرة ، فى حياة الشعب الداخلية والخارجية ؛ بيد أنه كان الى

جانب هذه الحياة العامة المضطربة المضنية ، يحيا لنفسه حياة عقلية وروحية أخرى ، قد يلمس الشعب أحيانا آثارها المادية ، ولكنه لا يلمس أصولها الحقيقية . وقد ظهرت آثار هذه الحياة الخفية بنوع خاص فى أواخر العهد ، أعنى منذ سنة ٤٠٥ هـ ؛ فمن ذلك الحين يزداد الحاكم شغفاً بالطواف ، والتجول فى الفضاء ، ورصد النجوم ؛ وتحمله نزعة قوية من التقشف والتصوف ، ويهيم فى عوالم جديدة من الفلسفة الروحية ، لم تلبث أن ظهرت آثارها المادية فى صورة دعوة جريئة ، الى تقديس هذه الشخصية المدهشة والارتفاع بها الى ما فوق البشر ، وإحاطتها بحجب كثيفة زادتها خفاء على خفائها وروعة على روعتها .

وقد كانت الإمامة حسبما بينا من قبل عنوان الدولة الفاطمية وشعارها البارز ، وكانت هذه الإمامة تصطبغ بصبغة مذهبية عميقة ، ولم تحجم الخلافة الفاطمية فى هذا السبيل ، عن أن تعدل أحكاما بأحكام وشعائر بشعائر ، وأن تستحدث كثيراً من النظم والتقاليد الدينية المذهبية ؛ وكانت منذ قيامها بمصر تعمل بكل ما وسعت ، لبث الدعوة الشيعية المغرقة ، تارة فى الجهر وتارة فى الخفاء ، وكانت مجالس الحكمة الشهيرة ، وهى مجالس الدعاية المذهبية تعقد كما سنرى تارة فى القصر الفاطمى نفسه وتارة فى الجامع الأزهر ؛ ولكن الإمامة الفاطمية تتشح فى عصر الحاكم بأمر الله ، بنوع من القدسية الرهيبة ، وتستحيل الدعوة المذهبية الى نوع من الفلسفة الحرة ، أو بعبارة أخرى الى معترك من الإلحاد المغرق ، وتكتنفها نفس الحجب المظلمة ؛ وكان الحاكم هو روح هذا التطور الخطير فى توجيه الدعوة الفاطمية ؛ وسنرى كيف ينشئ الحاكم جامعة خاصة هى دار الحكمة ، تلقن فيها الدعوة الإلحادية المغرقة ، فى نظم ومراتب مدهشة ، كانت من أغرب وأروع النظم السرية التى عرفها التاريخ .

وفوق ذلك فقد كان الحاكم بأمر الله من أنشط وأقوى الخلفاء الفاطميين ، فى بث الدعوة المذهبية ونشرها فى الخارج ، وكان له رهط من الدعاة الأقوياء فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، ولا سيما فى المشرق ، يعملون لنشر الدعوة ، واستمالة الناس إليها ، ويبعث بالمال الوفير إلى مختلف الدعاة ، للإنفاق على شئون الدعوة ، وبذل الصلات للمستجيبين ؛ وكان من بين

أولئك الدعاة علماء من الطراز الأول ، مثل حميد الدين الكرمانى — داعية العراقين وفارس — وهو الذى سبقت الإشارة إليه ، وسوف نعود إلى ذكره فى مواطن أخرى[١] .

* * *

فى سنة ٤٠٥ هـ ازداد الحاكم شغفاً بالطواف كما قدمنا ، فكان يركب مراراً فى اليوم ، بالنهار وبالليل ؛ وكان يقصد غالباً الى المقطم ، وكان قد أنشأ له هناك منزلا منفرداً ، يخلو فيه إلى نفسه ويهيم فى عوالمه وتصوراته ، ومرصداً خاصاً يرصد منه النجوم ويستطلعها ؛ وربما قصد إلى بعض الحدائق والمواقع المنعزلة ، ثم يخرج منها إلى الجبل ويجوب الفضاء الشاسع[٢] ؛ وكان يؤثر ركوب الحمير ولا سيما الشهباء منها — وكان أبوه العزيز أيضاً يؤثر ركوبها — ويخرج دون موكب ولا زينة ، ومعه نفر قليل من الركابية ، ويرتدى ثياباً بسيطة ساذجة ؛ وكان يبدأ كعادته بالتجوال فى شوارع القاهرة ، ويحادث الكافة ، ويستمع إلى ظلامات المتظلمين ، ويفصل فيها لوقته أو يحيلها إلى جهة الاختصاص ، وكانت تنهال عليه الرقاع والعرائض المختومة ، ومنها ما يحتوى السب المثير له ولأسلافه ، أو الطعن المر فيه وفى أسرته ؛ وكان توجيه الرقاع القاذفة إلى الخليفة الفاطمى من الأمور المألوفة ، وكان يتلقى الكثير منها فى القصر أو المسجد أو الموكب ذاته ؛ ففى ذات يوم صادف الركب الخلافى امرأة تمد يدها برقعة كأنها ظلامة ، فتقدم الحاكم وتناولها بنفسه وقرأها ، فإذا فيها أشنع السباب والقذف ، فطلب اعتقال المرأة ، فأجيب أنها تمثال من الورق المقوى قد ألبس ثياب امرأة ؛ فثارت نفسه لذلك الاجتراء ، وأضمر التنكيل بأهل مصر (الفسطاط) . وتقول بعض الروايات إنه نفذ مشروعه فعلا ، فأصدر أمره إلى العرفاء والمقدمين ، بالمسير إلى مصر وحرقها ونهبها والفتك بأهلها ، ووقع الاعتداء المروع بالفعل فى مناظر رائعة من السفك والعيث ؛ ولكن بعض الروايات

---

(١) المقريزى عن ابن أبى طى ، فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧٠ ا .

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٤ ص ٧٣ و ٧٤ ؛ والنجوم الزاهرة عن ابن الصابى ج ٤ ص ١٨٠ ؛ وأبو صالح الأرمنى ص ٤٧ ب .

الأخرى على اتفاقها فى وقوع هذه الجريمة الشنعاء ، ترجعها إلى مناسبة أخرى ، وإلى تاريخ متأخر عن ذلك بنحو خمسة أعوام أعنى إلى أوائل سنة ٤١١ هـ ، ولما كنا نؤثر الأخذ بهذه الرواية الأخيرة ، فإنا نرجئ استعراض هذه الحوادث إلى مكانها المناسب[١] .

وهنا ينحدر عصر الحاكم بأمر الله الى مرحلة جديدة من الخفاء . كانت تلك القوانين المدهشة والأحداث المروعة التى توالت فى الأعوام الأخيرة ، وما يحيط بكل بواعثها من غموض ، وما يحيط بشخصية الخليفة نفسه ، وبأهوائه وتصرفاته الغريبة ، من ضروب الخفاء والروع ، كلها قد بثت الى المجتمع المصرى نوعا من الرهبة والخشوع ؛ ولكن الخفاء فى هذه المرحلة يتجه وجهة أخرى ؛ وبينا يغرب عن فهم الكافة ، إذا به يثير التوجس والروع فى نفوس الخاصة ؛ ذلك لأن الدعوة السرية الفاطمية تذهب عندئذ الى ذروة الغلو والاجتراء ، فتزعم أن الحاكم « إله » يجب أن يعبد وأن تعنو له الجباه .

ولم تسجل الرواية الإسلامية ، مثل هذا الزعم المنكر من قبل إلا فى فرصة واحدة ، هى ظهور المقنع الخراسانى[٢] ؛ وقد كان أقصى ما يطمح إليه الدعاة المغامرون ، أن ينتسبوا إلى الإمامة وربما إلى نوع من الرسالة أو النبوة ؛ وهذا ما ذهب إليه بعض الدعاة المغرقين مثل داعية القرامطة أشد الفرق الإسلامية الثورية غلواً وإغراقا ؛ ولكن الارتفاع بالإنسان إلى قدس الألوهية ، إجتراء لم يسمع به منذ ظهور المقنع أعنى منذ مائتين وخمسين عاماً ، إلا فى عصر الحاكم بأمر الله ؛ وسنرى فيما يأتى أن هناك كثيراً من وجوه الشبه بين الحادثين وبين الدعويين .

* * *

(١) يقول بهذه الرواية ابن الصابى (ويرويه النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨١) ، ويتابعه فى ذلك ابن الأثير (ج ٩ ص ١٠٨) . ويقول بالرواية الثانية الأنطاكى فى تاريخه ص ٢٢٤ و ٢٢٥ ، والوزير جمال الدين المصرى فى (أخبار الدول المنقطعة) ، ويتابعه فى ذلك النويرى فى نهاية الأرب (ج ٢٦ ص ٦٠) ، وهى أرجح فى نظرنا لأنها أكثر اتفاقاً مع المنطق وأكثر دقة فى شرح الأسباب والظروف وإيراد التواريخ .

(٢) ظهر « المقنع » فى خراسان سنة ١٥٩ هـ (٧٧٦ م) فى خلافة المهدى ، وادعى الإمامة ثم الألوهية ، وسنعود الى التحدث عنه فيما بعد .

فى أوائل سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) ، ظهر بمدينة القاهرة رجل يدعى حمزة بن على بن أحمد الزوزنى ، ويعرف باللباد ، ودعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله ، وشرح دعواه فى عدة كتب ورسائل غريبة نتحدث عنها فيما بعد . فمن هو هذا الداعية الجرىء الذى كان لمزاعمه كما سنرى أثر بعيد المدى ؟ إن الروايات المعاصرة والمتأخرة لا تقدم إلينا سوى إشارات موجزة ، وقد استقينا معظم التفاصيل المتعلقة به وبدعوته من رسائله ذاتها ، التى وفقنا إلى قراءتها واستعراضها فى بعض المجموعات الخطية القديمة . وكل ما نعرف عن شخصه أنه فارسى من مقاطعة « زوزن » وأنه كان فى بدء أمره عاملا يشتغل بصنع اللباد ، وأنه وفد إلى القاهرة حوالى سنة ٤٠٥ هـ[1] ، وانتظم بين الدعاة الذين كانت تغص بهم العاصمة الفاطمية يومئذ ، وخاض غمار الجدل الدينى والدعوات السرية التى كانت تضطرم بها يومئذ . ومما تجدر ملاحظته أن معظم الدعاة والملاحدة ، الذين خرجوا على الإسلام وحاربوه باسمه ، ينتمون إلى أصل فارسى ، ومنهم عبد الله بن ميمون القداح ، الذى ترجع إليه بعض الروايات نسب الفاطميين أنفسهم . وفى رسائل حمزة ما يلقى بعض الضياء على شخصيته ، وعلى طبيعة دعوته ومهمته ؛ فهو بلا ريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأوثق الصلات ، وتلقوا وحيه أو استوحوا دعوته واستظلوا فى بثها برعايته ، وكان لهم أكبر الأثر فى التوجيه الخفى لكثير من مسائل العصر ؛ وسنرى حين نعرض إلى مهمته الحقيقية وإلى رسائله الغريبة ، أنه يقدم لنا نفسه أيضاً فى صفة النبوة ، ويصف لنا بعض أعماله بالمعجزات .

والظاهر أن حمزة بن على عكف مدى حين على بث دعوته سراً ، ولم يجاهر بها إلا فى أواخر سنة ٤٠٧ أو أوائل سنة ٤٠٨ هـ ؛ وعندئذ يبدو على مسرح الحوادث الظاهرة ، ويلازم الجلوس فى مسجد ريدان (أو مسجد تبر) بظاهر باب النصر ، ويدعو جهراً إلى عبادة الحاكم ، وينادى بالتناسخ فى الأديان والشرائع وبالحلول ، ويزعم أن الحاكم ليس بشراً ، وإنما هو رمز حل فيه الإله ؛ فاجتمع إليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الإسماعيلية ،

---

(١) أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) .

وتلقب بهادى المستجيبين ، ولقب الحاكم « بقائم الزمان » ، وبث دعاته فى أنحاء مصر والشأم ، ورخص فى أحكام الشريعة ، وأباح الأمهات والبنات وسائر المحارم ، وأسقط جميع التكاليف فى الصلاة والصوم وغيرهما ، فاستجاب له كثير من الكافة ، وكثر جمعه وذاع أمره ؛ وكان الحاكم حين يمر ركبه بالمسجد ، يخرج إليه حمزة ويحادثه طويلا على انفراد ؛ ولم يلبث أن أولاه الحاكم رعايته بصورة ظاهرة ، وبعث إليه وإلى أتباعه بالسلاح ليدافعوا عن أنفسهم وقت الحاجة ، إذ كانوا يوجسون شراً من الكافة ؛ ثم تمادى حمزة فى مشروعه فاتخذ له بطانة قوية من الدعاة والرسل ، ولقب أحدهم وهو إسماعيل بن محمد التميمى « بسفير القدرة » ، وكان ينفذه لأخذ البيعة من الرؤساء والكبراء للحاكم فى صفته الجديدة التى أسبغها عليه حمزة وشيعته ، أعنى باعتباره « قائم الزمان » ، فكان الكثير منهم يضطر إلى التظاهر بالقبول خوفاً من البطش والانتقام[1] .

وفى نفس الوقت الذى ظهر فيه حمزة بهذه الدعوة الجريئة ، ظهر بها عدة من رسله وتلاميذه ، وفى مقدمة هؤلاء حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ، ومحمد بن اسماعيل الدرزى ، وهذان تذكرهما بعض الروايات المعاصرة والمتأخرة ؛ وإسماعيل بن محمد التميمى ،وعبد الله بن محمد القرشى ، وعلى بن أحمد السموقى ، وعبد الله اللواتى ، ومبارك بن على ، وأبو منصور البردعى ، وأبو جعفر الحبال ، وهؤلاء يذكرهم حمزة فى رسائله إلى جانب الدرزى ؛ وقد كان للأخرم والدرزى شأن عظيم فى تلك الحركة ، وكان الدرزى فى المبدأ حليف حمزة وداعيته ، ولكنه انقلب فيما بعد إلى منافسته وخصومته ، كما يقرر لنا حمزة ذلك فى بعض رسائله[2] . وقد اختلفت الرواية فى تواريخ ظهور هؤلاء الدعاة ، فيقول لنا الأنطاكى وهو مؤرخ معاصر ،

---

(١) راجع تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٠ و ٢٢٣ ؛ والمكين ابن العميد ص ٢٦٤ و ٢٦٥ ؛ والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٦٩ ا ؛ وراجع أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) وأورده فستنفلد فى « تاريخ الفاطميين » ص ٢٠٥ و ٢٠٦ .

(٢) راجع المجموعة الخطية المحفوظة بدار الكتب رقم ١٣٢ عقائد النحل ، وهى التى تضم رسائل حمزة بن على كما سنوضح بعد .

إن الدرزى أول من ظهر منهم فى سنة ٤٠٨ ﻫ وأول من أذاع الدعوة بألوهية الحاكم ، ثم ظهر حمزة بعد مقتل الدرزى فى نفس العام ؛ ويتابعه فى ذلك ابن العميد ؛ ويقول لنا الوزير جمال الدين فى « أخبار الدول المنقطعة » ، إن الأخرم كان أول من ظهر بمصر من أولئك الدعاة ، وذلك فى رجب سنة ٤٠٩ ﻫ ، وأن حمزة ظهر من بعده فى سنة ٤١٠ ﻫ ، ثم تبعه الدرزى فى بث الدعوة ؛ ولكن رسائل حمزة التى وقفنا عليها ، تدلى بالعكس بأن حمزة كان أول من ظهر من أولئك الدعاة ، وأول من بث دعوة الألوهية ، وأن ظهوره بالدعوة كان فى سنة ٤٠٨ ﻫ ، وهو ما يقرره لنا صراحة فى خاتمة رسالته الأولى المسماة « بالنقض الخفى »(١) .

وظهر حسن بن حيدرة الفرغانى المسمى بالأخرم بمدينة القاهرة ، عقب ظهور حمزة بقليل ، ودعا إلى مثل ما دعا إليه حمزة من التناسخ والحلول ، وألوهية الحاكم ، وأرسل بمضمون نظريته رقاعا إلى العلماء و القضاة والأكابر ، وذاعت دعوته بسرعة فى جماعة من المغامرين والمرتزقة ، فاستدعاه الحاكم ، وخلع عليه وأركبه فرساً مطهماً ، وسيره فى موكبه ، وأولاه عطفه ورعايته ؛ بيد أنه لم تمض على ذلك أيام قلائل حتى قتل الأخرم ؛ وذلك أنه كان يسير فى ركبه بالقاهرة ذات يوم ، فوثب به رجل من متعصبى السنة ، وأرداه قتيلا ، فتفرق فى الحال صحبه وانهارت دعوته ؛ ونهبت دار الأخرم وطورد أنصاره فى كل مكان ؛ وغضب الحاكم لذلك أيما غضب وأمر بإعدام القاتل فى الحال ؛ وكفن الأخرم بأكفان من القصر ودفن فى حفل رسمى ؛ وحمل أهل السنة صاحبهم ودفنوه مكرماً ، وهرع الناس أياماً لزيارة قبره ؛ ولكن القبر نبش بعد أيام واختفت جثته ، وكان ذلك على ما يظهر من وحى الحاكم ورغبته(٢) .

وقد انتهت إلينا وثيقة تلقى ضوءاً على مضمون نظرية الفرغانى الإلحادية ، وهى عبارة عن رسالة كتبها كبير دعاة الحاكم حميد الدين الكرمانى أثناء

---

(١) راجع المخطوط المشار إليه ص ٥١ .

(٢) مرآة الزمان (المخطوط) المجلد الحادى عشر ج ٣ ص ٤٠٤ ، وأخبار الدول المنقطعة ، وأورده فستنفلد ص ٢٠٤ و ٢٠٥ .

وجوده بالقاهرة ، فى أواخر سنة ٤٠٩ ﻫ ، تحت عنوان « الرسالة الواعظة » ، وفيها يرد على الفرغانى ، ويفند نظريته .

وهذا الرد منصب على ما ورد فى رقعة من الرقاع ، التى كان يذيعها الفرغانى فى شرح مذهب « التأليه » ، والتى تلقى الكرمانى إحداها .

ويمهد الكرمانى فى رده يشرح سمو « الألوهية » ، ومهمة الإمام القائم فى تلقى رسالتها ، ثم يخاطب الأخرم بقوله : « فإن قبلت ، وعن أباطيلك رجعت ، فقد حماك جمال الإسلام ، وتولاك عز الإمام ، وحصلت من أهل الإيمان ؛ وإن أبيت ، وعن الاتعاظ امتنعت إصراراً على ضلالتك التى أنت فيها ، تضل عباد الله ، وتمنعهم من عبادة الله ، وتنقض مراتب حدود الله تعالى وتزيد « ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون » .

ثم يندد بما أقدم عليه الأخرم ، فى رقعته أورسالته من إغفال اسم الله ، واسم النبى ، واسم الأئمة الطاهرين ، وأمير المؤمنين سلام الله عليهم « الذين هدم الله بهم أركان الضلال ، وبين بمكانهم الحرام من الحلال ، ولا يقبل الله إليه عملا من أعمال العباد إلا بولايتهم ، ولا صلاة من الصلوات إلا بالصلاة عليهم » .

ويشرح الكرمانى بعد ذلك كون الله تعالى ليس « بجسم » وهو ما يخصص له فصلا فى كتابه « راحة العقل »[١] ، وكونه ليس هو « المادة » ثم يقول : « وإذا كان الكلام قد أسفر عن الأمر فى أن الله تعالى ليس بجسم ، ولا فى جسم ، وهو متقدس من صفات الجسم على كونه تعالى متقدساً أيضاً عما يدرك بالعقول والأفهام ، فقد ظهر أن العبادة ليست لشخص ، وأن المعبود ليس بشخص ، وظهر كفرك و إلحادك ، نعوذ بالله من الكفر والإلحاد » .

ثم يرد على الأخرم تساؤله عن معنى الإسلام وشرائطه ؟ وعن الشريعة ؟ وكونها محدثة أم قديمة مع الدهر ؟ وكون الشريعة هى الدين أم طريق الدين ؟ ثم سؤاله عن النفس ، وعن العقل ، وما هى غاية الإبداع الذى فوق الروحانيين والجسمانيين ؟

يقول الكرمانى : « فعلم ذلك شريف مثبت فى صحف مكرمة ، مرفوعة

(١) كتاب راحة العقل ص ٤٢ — ٤٤ .

مطهرة ، بأيدى سفرة ، كرام بررة ، وهو عندنا معشر الدعاة ، وديعة من جهة أربابها : الرسول صلى الله عليه ، والوصى عليه السلام ، والقائم فينا عبد الله ووليه ابن نبيه ، الإمام الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، وآبائه الأئمة الطاهرين سلام الله عليهم أجمعين . . علينا أن نؤديها إلى من استحق ممن أقر بفضلهم ، ودان لله تعالى بطاعتهم . وأنت فقد قطعت الأسباب ، وأنكرت الأرباب ، وصرت فى جحودك فضلهم ومنزلتهم مستمراً ، وعلى كنودك لهم وكفرك مستقراً » .

ويعطف بعد ذلك على عناصر دعوة الأخرم ، ويرد عليها على النحو الآتى :

« وأما قول أصحابك : إن المعبود تعالى هو أمير المؤمنين سلام الله عليه ، فقول كفر ، تكاد السموات يتفطرن منه ، وتنشق الأرض ، وتخر الجبال . هذا أن دعوا للإله المعبود غيرا ، فيالجسارة على الله حين جعلوا إليه تعالى شريكاً ما أعظمها ، ويالجرأة على الله تعالى حين جعلوا المعبود غيره تعالى ما أفظعها ، ولقد قالوا عظيما ، وافتروا إثماً مبيناً ، وإن ذلك إلا كفر محض . فما أمير المؤمنين عليه السلام ، إلا عبد خاضع وله طائع ، يسجد لوجهه الكريم ، ويعظمه غاية التعظيم ، وباسمه يستفتح ، وعليه فى أموره يتوكل ، وأمره إليه يفوض ، والله تعالى قد فضله على خلقه ، وجعله من جهة رسوله محمد صلى الله عليه ، خليفة له فى أرضه ، ووسيلة لعباده إلى جنته ، وأوجب طاعته على عباده ، وهو سلام الله عليه يتبرأ إلى الله تعالى ممن يعتقد فيه ذلك . . وهو سلام الله عليه ينفى ما تنسبه أنت وأصحابك إليه عن نفسه . . » .

« وأما قولك وقول أصحابك إن الشريعة والتنزيل والتأويل خرافات ، وقشور ، وحشو ، ولا تتعلق بها نجاة . . . فهوشقاوة تدعو الى حر النيران ، وكفر من عمل الشيطان ، وارتداد عن الإسلام » .

ثم يقول : « فلولا أسدل أمير المؤمنين عليه السلام ستر الأمن على المؤمن والمنافق ، والمسلم والكافر ، حتى استوت الأقدام فيه ، لكان الجواب عن

(١) كتاب راحة العقل ص ٤٢ — ٤٤ .

ذلك التنكيل بك ، ثم قطع الوتين منك ، وتجريد حد السيف عليك » .

ويختتم بقوله : «وبعد فإني أنصحك ، ومن نكال الدنيا والآخرة أحذرك ، وإياك وهذه المقالات الشنيعة ، فلا تعقبك الا البعد عن تعالى الله ، وعن أوليائه عليهم السلام ، ولا تكسبك إلا العاقبة السوء ، ورد عنك من تبعك على ضلالتك ، رد بالإقرار لهم ببطلان ما ارتكبته ، وفساد ما ابتدعته ، ولا يغرنك الإغفال عنك ، وتب إلى الله تعالى ، قبل أن تضيق عليك عرصة الإمهال . . . »[1].

ذلك هو ملخص الرسالة الواعظة ، التي يتصدى فيها الكرماني لدحض دعوة الأخرم الإلحادية . ونحن نعرف أن الكرماني كان من أكبر دعاة الحاكم بأمر الله ، والمدافعين عن سياسته وتصرفاته المذهبية ؛ فإذا كان الحاكم قد أولى الفرغاني عطفه حسبما تقدم ، فهل كان الكرماني يعمل فى هذا الموطن بوحي من نفسه ؟ أم هل كان يمثل دوراً ألقى إليه ، حتى يمكن تغطية موقف الإمام ، أى الحاكم ، عند الحاجة ؟ الواقع أن من الصعب علينا أن نعتبر دفاع الكرماني فى هذا الموطن ، معبرا عنه حقيقة موقف الحاكم ، وقد كان فيما يبدو موقف عطف ورعاية لأولئك الدعاة الملاحدة ، حسبما يتضح مما سردناه فيما تقدم ، وما سنعود الى تبيانه فيما بعد .

وعلى أى حال فإن مقتل الفرغاني لم يضع حداً للدعوة الإلحادية ؛ ولم ين الدعاة لهذا الاعتداء ، ولم تفتر دعايتهم رغم ثورة الشعب وتحفزه للفتك بهم ؛ وكان محمد بن اسماعيل الدرزى ، ويعرف « بأنوشتكين البخارى » وهو من أصل تركى ، فيما يرجح[2] ، أقوى رسل حمزة وأشدهم عزماً وجرأة ؛ وكان يسير على طريقة حمزه فى الدعوة إلى التناسخ والحلول ؛ ويزعم أن روح آدم قد انتقلت إلى روح على ابن أبي طالب ، ثم انتقلت

---

(١) نشرت هذه الرسالة وعنوانها « الرسالة الواعظة فى الرد على الأخرم الفرغاني » من مجموعة خطية من رسائل حميد الدين الكرماني ، بعناية الدكتور محمد كامل حسين ، بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة ، بعدد مايو سنة ١٩٥٢ (ص ١١ — ٢٩) .

(٢) ويقول الأنطاكي إنه يرجع الى أصل أعجمى (ص ٢٢٠) ؛ وكذلك المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ ا .

روح على إلى الحاكم صفوة سلالته ، وشرح الدرزى دعوته وأصول مذهبه فى رسالة قدمها إلى الحاكم ؛ فقربه الحاكم ، وأغدق عليه عطفه ورعايته ، وارتفعت لديه منزلته ، واشتدنفوذه حتى غدا ملاذ الكبراء ، وسفيرهم لديه فى قضاء مطالبهم ورغباتهم[١] ؛ وسمى الدرزى نفسه « بسند الهادى ، وحياة المستجيبين » . و « الهادى » هو حمزة كما رأينا ، وفى ذلك ما يدل على أن حمزة كان السابق والدرزى هو اللاحق ، وأن الرجلين كانا فى البداية على الأقل ، حليفين يعملان لبث الدعوة معاً بمنتهى التعاون والوفاق[٢] .

ولم يكن لهذه المزاعم المغرقة أثر يذكر ، وإن كان بعض الكافة من الجهلاء والمرتزقة ، وبعض الذميين والمنافقين ، قد تظاهروا بقبولها اجتناء للنفع أو اتقاء النقمة ؛ وكان هؤلاء إذا لقوا الحاكم فى ركبه قالوا : السلام عليك يا أحد ، يا محيي ، يا مميت ؛ وأمثال ذلك من الهذر المنكر[٣] . وكثرت الفتن والمناقشات الدينية ، ولاسيما بين أنصار حمزة وأنصار ختكين داعى الدعاة ، وهو المشرف على توجيه الدعوة الفاطمية الأصلية ، وأخذ كل فريق يرمى صاحبه بالكفر والضلال[٤] .

والواقع أن هذه المزاعم السخيفة ، كانت تثير من السخط والإنكار أكثر مما تثير من الروع ، ولولا ما كان يلقاه الدعاة من الحماية الرسمية لكان الشعب قد فتك بهم منذ الساعة الأولى ؛ ولكن السخط لم يلبث أن بلغ ذروته ، وسنحت فرصة الإنفجار أخيراً ، بما أبداه الدعاة من جرأة لا نظير لها . ففى الثانى عشر من صفر سنة ٤١١ هـ ، ركب فريق من أصحاب حمزة على خيول وبغال ، ودخلوا الجامع العتيق (جامع عمرو) عليها ركبانا ، وهم يجاهرون بمذهبهم ؛ وكانت الساحة قد أعدت لجلوس قاضى القضاة ، واحتشد الناس فى جنباتها ينتظرون مقدمه ، فتقدم ثلاثة من الملاحدة واحتلوا منصة القاضى ،

---

(١) مرآة الزمان (المخطوط) الجزء المشار إليه ص ٤٠٥ ، وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ .

(٢) أخبار الدول المنقطعة .

(٣) ابن الصابى ، وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٣ .

(٤) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٤ .

وأخذوا يلقون على الحضور أصول دعوتهم وفكرتهم فى الألوهية ، فضج الناس بالتكبير والتهليل والتضرع لله عز وجل ، وهرع الكافة الى المسجد لرؤية ذلك المنظر الغريب ؛ ولم يلبث أن قدم القاضى فى موكبه الى المسجد ، وهو يومئذ أحمد بن محمد بن أبى العوام ، فأخبره الناس بما حدث ؛ ولما تقدم من المنصة ليتبوأ مجلسه ، قدم إليه أحد الدعاة الثلاثة رقعة من حمزة ، أولها « باسم الحاكم لله ، الرحمن الرحيم » ، وفيها يأمره بالاعتراف بألوهية الحاكم ، وإذاعة ذلك فى الكافة ، فأجاب القاضى محتجاً منكراً ، وأنه سيعرض الأمر على مولاه ، فأغلظ له الدعاة الكلام ، فثار الناس ، ووثبوا بالدعاة الثلاثة فقتلوهم فى الحال ، ثم انقضوا على باقى الملاحدة فمزقوهم تمزيقاً وقتلوهم أشنع قتل ، وانطلقوا فى الجامع يتتبعون أصحاب حمزة واتباعه حيث وجدوا ، ويقتلونهم ثم يحرقونهم ؛ ولما وقف الحاكم على هذه الحوادث ثارت نفسه غضبا ، وأمر بالقبض على قتلة الملاحدة ، فقبض على كثيرين ، وأعدموا ؛ فاشتد سخط الكافة ، وشاطرهم الجند شعورهم ، وأحاط جماعة من الترك بدار مواطنهم الدرزى ، فقاتلهم الدرزى وأصحابه من داخلها ، ثم فر الدرزى ناجياً بنفسه والتجأ الى القصر ، وهدم الجند داره ونهبوا ما فيها وقتلوا عدداً كبيراً من أصحابه ؛ ولما علموا بالتجائه الى القصر ، طالبوا الحاكم بتسليمه باعتباره مواطنهم ، فوعدهم الحاكم أولا بإجابة مطلبهم ، ولما عادوا إليه فى اليوم التالى قيل لهم إن الدرزى قد قتل ، فارتدوا مغضبين ، وقصدوا الى مسجد ريدان حيث يجلس حمزة الزوزنى فلم يجدوا له أثراً [١] .

وفى رواية أخرى ، وهى رواية الأنطاكى ، أن الدرزى قتل أثناء ركوبه فى موكب الحاكم ذاته ؛ قتله مواطنوه الترك على أثر ما شملهم وشمل جميع رجال الدولة ومعظم طبقات الشعب من السخط لمزاعمه الإلحادية المثيرة ، ويأخذ المقريزى بهذه الرواية [٢] ؛ وفى رسائل الدروز السرية ما يشعر بأنه قتل فى سنة ٤١٠ هـ بتحريض حمزة ، وقتل معه عدة من الدعاة الخوارج [٣] .

---

(١) أخبار الدول المنقطعة .

(٢) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٣ ؛ واتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٦٩ ا .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية فى مقال الدرزى .

والحقيقة فيما يرجح ، هى أن الدرزى لم يقتل فى هذا الظرف ، ولكنه اختفى فى القصر أياماً حتى هدأت العاصفة وسكن الجند ، ثم دبر الحاكم له سبيل الفرار ، وعاونه بالمال ، فسار إلى الشام ونزل ببعض قرى بانياس ، وأذاع فى الناس دعوته فكانت أصل مذهب الدروز الشهير الذى سمى باسمه[١] ؛ وأساسه القول بالتناسخ ، وحلول الروح ، وأن الروح المقدس انتقلت من آدم إلى على بن أبى طالب ، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله ؛ وسنرى فيما بعد كيف أن حمزة بن على هو فى الواقع ، مؤسس مذهب الدروز وإمامه الحقيقى ، وإن كان الدرزى يستأثر دونه بانتساب المذهب إليه حتى يومنا .

أما مصير حمزة فتحيطه معظم الروايات بالصمت ، وينفرد الأنطاكى ببيان مصيره ، فيقول لنا إنه فر بعد فقد الحاكم ثم قتل بعد ذلك ، وطورد أنصاره ومزقوا كل ممزق[٢] . بيد أن هنالك ما يدل على أنه لبث قائماً بدعوته حيناً آخر ؛ ذلك أنه توجد لدينا مجموعة خطية أخرى من رسائل الإلحادية[٣] نعتقد من روحها وأسلوبها أنها من تأليف حمزة بن على ذاته ، ومنها رسائل كتبت فى سنة ٤٢٢ ﻫ ، أى بعد التاريخ الذى نتحدث عنه بنحو احدى عشر عاماً ؛ وربما استتر حمزة بمصر حيناً يبث دعايته فى الخفاء ، وربما انتقل إلى الشأم فى أثر زميله الدرزى ؛ بيد أنه لا توجد لدينا تفاصيل شافية عن حركة أولئك الدعاة ، بعد أن انهارت دعوتهم بمصر على النحو الذى قدمنا .

* * *

ماذا كان موقف الحاكم بأمر الله من هذه الحركة الإلحادية المدهشة ؟ لقد كان فيما يرجح موقف تأييد ورعاية ، وهذا ما تقوله معظم الروايات المعاصرة والمتأخرة ؛ وإذا كان من الصعب أن نحدد مدى هذا التأييد ،

---

(١) مرآة الزمان (المخطوط) الجزء المشار إليه ص ٤٠٥ ، وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ .

(٢) تاريخ الأنطاكى ص ٢٣٧ .

(٣) تحفظ هذه المجموعة بدار الكتب رقم ٣٥ عقائد النحل .

ففى وسعنا أن نقول إن الحاكم كان من وراء الدعاة يشد أزرهم ، ويمدهم بالمال والنصح ، ويسهر على حمايتهم من الكافة ؛ وإذا صدقنا ما يقدمه إلينا الدعاة فى هذا الصدد ، فقد نستطيع أن نذهب إلى أبعد من ذلك فنقول إن الحاكم كان يشرف على توجيه الدعوة ، ويشترك فى تنظيمها وتغذيتها بطريقة فعلية ؛ وهذا ما يذكره لنا حمزة فى بعض رسائله كما سنرى[1] ؛ وفى سياق الحوادث وتتابعها حسبما قدمنا ، ما يدل على أن تحطيم الدعوة وتمزيق الدعاة على هذا النحو ، كان ضربة شخصية للحاكم بأمر الله ، وقد ثارت نفس الحاكم غضباً على الجند والكافة ، لأنهم اجترأوا على مطاردة الدعاة وتمزيقهم بهذه القسوة دون اكتراث لما أولاهم من رعاية ظاهرة ، وعول على الانتقام لنفسه وللدعاة ؛ بيد أنه لم يكن ليجرؤ على معاقبة الجند خشية الفتنة ، فلم يلبث أن أظهر الرضى عنهم ؛ ونمى إليه أن أهل مصر (الفسطاط) هم الذين حرضوا الجند والكافة على مطاردة الدعاة وقتلهم ، فعول على أن يختص مصر وأهلها بانتقامه ، وأن ينكل بهم وبمدينتهم شر تنكيل .

وقد أشرنا فيما تقدم إلى حادث المرأة التى صنعت من الورق ، ونصبها أهل مصر فى طريق الحاكم وفى يدها رقعة كأنها ظلامة ، وإلى ما أثارته محتويات هذه الرقعة القاذفة فى نفس الحاكم من الحفيظة والغضب على أهل مصر ، وقلنا إن بعض الروايات ترجع إلى هذه المناسبة وإلى هذا السبب ، إحراق الحاكم لمصر والتنكيل بأهلها ؛ ولكنا لم نأخذ بهذه الرواية ، وآثرنا أن نرى سبب هذا الانتقام الشنيع ، فيما أقدم عليه أهل مصر من مطاردة الملاحدة وتمزيقهم ؛ ولم يذكر لنا الأنطاكى فى روايته المعاصرة قصة المرأة الورق ؛ ولكنه يذكر عن عوامل الفتنة ما يتفق مع الرواية العامة ، وهو أنه لما ذاعت الدعوة الإلحادية ، ذاعت معها بين أهل مصر رقاع تهديدية تنذرهم بالويل والهلاك إذا لم يعتنقوا الدعوة الجديدة ، وأذاع المصريون من جانبهم ، الرقاع القاذفة فى حق الحاكم وتكفيره ونعته بمختلف القبائح ، فثارت نفسه لذلك[2] ؛ ويأخذ الوزير جمال الدين فى تاريخه ، بلب الرواية ،

(١) راجع رسائل حمزة (المخطوط رقم ١٣٣ عقائد النحل) ص ٧٥ .

(٢) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٤ و ٢٢٥ .

ويفصلها لنا تفصيلا حسناً [١]، ويتابعه فى الأخذ بها صاحب « نهاية الأرب » كما قدمنا

اعتزم الحاكم إذن أن ينكل بمصر وأهلها ؛ فاستدعى العرفاء والقادة ونظم معهم خطة العمل ؛ وعهد إلى مقدمى العبيد وغيرهم من الطوائف بافتتاح الهجوم ، فأخذوا يغيرون على أحياء مصر فى هيئة العصابات ، وينهبون الحوانيت والسابلة ، ويخطفون النساء من الدور ، والشرطة تغضى عن جرائمهم ، والحاكم معرض عن كل شكاية وتضرع ؛ وكان ذلك فى جمادى الآخرة سنة ٤١١ ﻫ ؛ ثم اتسع نطاق الاعتداء ، فهاجمت قوى العبيد والترك والمغاربة مصر من كل صوب ، وأضرموا النار فى أطرافها ؛ وهب أهل مصر للدفاع عن أنفسهم ، واستمرت المعارك بين الفريقين ثلاثة أيام ، وألسنة اللهب تنطلق من المدينة القديمة إلى عنان السماء ؛ والحاكم يركب كل يوم إلى الجبل ، ويشاهد النار ، كما شهد نيرون من قبل نيران رومة ، ويسمع الصياح ، ويسأل عن حقيقة الأمر ، فيقال له إن العبيد يحرقون مصر وينهبونها ، فيظهر الأسف والتوجع ، ويقول : ومن أمرهم بهذا لعنهم الله ! وفى اليوم الرابع اجتمع الأشراف والكبراء فى المساجد ورفعوا المصاحف ، وضجوا بالبكاء والدعاء ، فكف الأتراك والمغاربة عن متابعة الاعتداء ، واستمر العبيد فى عدوانهم ، وأهل مصر يدفعونهم بكل ما استطاعوا ؛ وطلب الأتراك والمغاربة إلى الحاكم أن يأمر بوقف هذا الاعتداء الصارخ على أهل مصر وعلى أموالهم ، خصوصاً وأن لهم بين المصريين كثيراً من الأصهار والأقارب ، ولهم فى مصر كثير من الأملاك ؛ فتظاهر بإجابة مطلبهم ، ولكنه أوعز إلى العبيد أن يستمروا فى القتال ، وأن يتأهبوا لمدافعة الترك والمغاربة ؛ فاضطرمت المعارك بين الفريقين ، ودافع الترك والمغاربة عن أهل مصر ، ومزقوا جموع العبيد ونكلوا بهم ؛ ثم هددوا الحاكم باقتحام القاهرة وحرقها ، إذا لم يوضع حد لتلك الجرائم ، فخشى الحاكم العاقبة ، وأمر العبيد بالتفرق ولزوم السكينة ؛ واعتذر لأشراف مصر وزعماء الترك والمغاربة عما وقع ، وتنصل من كل تبعة فيه ، وأصدر أماناً لأهل مصر قرئ على

---

(١) أخبار الدول المنقطعة .

المنابر ؛ وسكنت تلك الفتنة الشنعاء ، بعد أن لبثت الفسطاط بضعة أسابيع ، مسرحاً لمناظر مروعة من السفك والعيث والنهب ، وأحرقت معظم شوارعها ومبانيها وخربت معظم أسواقها ونهبت ، وسبى كثير من نسائها واعتدى عليهن ، وانتحر كثير منهن خشية العار ؛ وتتبع المصريون أزواجهم وبناتهم وأمهاتهم ، وافتدوهن من الخاطفين . ويروى أن أحد الأشراف العلويين قال للحاكم بهذه المناسبة : « أراك الله فى أهلك وولدك ، مثل ما رأينا فى أهلنا وأولادنا ، فقد اطرحت الديانة والمروءة ، بأن رضيت لبنات عمك بمثل هذه الفضيحة ، ولم يلحقك منهن امتعاض ولا غيرة » ، فأغضى الحاكم عن جرأته وقال له : « أنت أيها الشريف محرج ، ونحن حقيقون باحتمالك ، وإلا غضبنا عليك وزاد الأمر على الناس »[1] .

وكان انهيار الحركة الإلحادية ومصرع دعاتها ، وما تلا ذلك من المناظر الدموية ، هو آخر الحوادث الهامة فى ذلك العهد الحافل ، وكانت بداية النهاية ؛ وكانت الخاتمة تدنو مسرعة ، وقد أشرف ذلك العام الملىء بالحوادث — سنة ٤١١ هـ — على نهايته ؛ وأشرف العهد نفسه على الخاتمة ؛ وكانت الخاتمة ذروة الخفاء .

(١) رجعنا فى هذه التفاصيل الى أخبار الدول المنقطعة (وقد أوردها ڤستنفلد ص ٢٠٩ — ٢١٣) . وابن الصابى (وقد وردت فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨١ و ١٨٢) .

الفصل الحادى عشر

ذروة الخفـاء

المجتمع المضطرم . سجـل الحرية للذميين . خفاء شخصية الحاكم . عنصر المؤامرة فى اختفاء الحاكم . ما يرجح هذا الفرض من الظروف والبواعث . الأميرة ست الملك . اعتراضها على سياسة الحاكم وجزعها من العواقب . اتهام الحاكم لأخته . ست الملك والحسين بن دواس . المؤامرة . الليلة المشؤومة . خروج الحاكم الى المقطم . بعض الأعراب يعترضونه . مصرع الحاكم وإخفاء أشلائه . ست الملك تقضى على شركائها فى الجريمة . ورواية القضاعى . خروج رجال الدولة للبحث عن الحاكم . العثور على حماره وثيابه . مصرع الأعراب الذين اعترضوه ليلة الجريمة . رواية الأنطاكى . مغزى هذه الرواية فى تبرئة ست الملك . رواية المسبحى ومغزاها فى تأييد هذه البراءة . مقارنة بين الروايات المختلفة . الريب فى رواية المسبحى . ما يرجح رواية القضاعى . ست الملك روح المؤامرة . الطابع المكياڤيللى لهذه السياسة . خلافة الظاهر ولد الحاكم . إلغاؤه لقوانين أبيه . إعادة الحريات الدينية والاجتماعية . مطاردة الدعاة الملاحدة . ست الملك تتولى إدارة الشؤون . بعض أعمال العنف والسفك . مصرع الوزير خطير الملك وعبد الرحيم ولى العهد وعزيز الدولة . سفارة الى قيصر بيزنطية . وفاة ست الملك .

— ١ —

ها نحن أولاء نقترب من الخاتمة ، ونقترب من الذروة ، خاتمة العهد الذى استعرضنا ، وخاتمة تلك الشخصية العجيبـــة التى ملأت العهد عنفاً واضطراباً وروعة ؛ وذروة ذلك الخفاء الذى كان يغمرها فى حياتها الخاصة والعامة ، ويسبغ على العهد كله لوناً من الطرافة الممزوجة بالرهبة والخشوع .

كان المجتمع المصرى قد بلغ فى هذه الأعوام الخمسة والعشرين ، غاية اليأس والسخط والروع ؛ وكانت قد أضنته تلك الأحداث الهائلة التى توالت عليه ، فقلبت أوضاعه ، وقوضت نظمه من الأساس ، ونكبته فى النفس

والمال غير مرة ، وعصفت بتراثه الروحى وتقاليده الإجتماعية وكل معتقد عزيز لديه ؛ وكانت اليد الحديدية التى تقبض على مصايره ، والنظم العنيفة التى تطوق أعناقه ، تخمد لديه كل نزعة إلى الخروج والمقاومة . بيد أن ذلك الخضوع الذى فرضه عليه تتابع الحوادث وهولها وروعتها لم يكن نهائياً ؛ فلما ظهر دعاة « الألوهية » وبثوا دعوتهم الجريئة ، وكشفوا القناع عن شنيع مزاعمهم ، كان السخط قد بلغ ذروته ، وآذن الانفجار ؛ فثار الشعب بالدعاة وحطم حركتهم ودعوتهم ؛ وإذا كانت القوة الطاغية قد استطاعت أن تخمد الثورة ، وأن تنكل بالمجتمع الثائر ، فإنها لم تخمد لديه كل نزعة إلى النضال والمقاومة ، بل لقد سرت عوامل السخط إلى العسكرية ذاتها ، فأبدت أنها قد ضاقت ذرعاً بهذه الأهواء العنيفة ، وأنها لا تريد أن تكون بعد أداةً للطغيان الأعمى ، والانتقام الذريع . كان الحاكم بأمر الله يجلس عندئذ فوق بركان مضطرم من الأحقاد والشهوات ، وكان يتخبط بين مختلف النيات والمشاريع ، ويرى أداة الطغيان وقد فسدت ، وكادت تفلت من بين يديه القويتين ؛ وبينا يضطرم الشعب سخطاً ، ويرقب فرص الانتقاض والمقاومة ، وبينا يرتجف الطاغية فى أعماق قصره رهبة من المستقبل ، ويمعن فى تدبر الموقف ، ويتلمس الوسائل لتمكين أغلاله وإحكام قبضته ، إذا بيد القدر الأعلى ، تحول مجرى الأمور فجأة إلى وجهة أخرى ، وإذا مشيئته القاهرة تهيئ خاتمة العهد ، وخاتمة الطاغية ؛ فيتنفس المجتمع الصعداء ، وينطلق من أغلاله المرهقة ، دون سفك ونضال .

وقعت المناظر الدموية التى أتينا على وصفها فى جمادى الآخرة سنة ٤١١ هـ واستمرت مدى أسابيع ؛ وصدر فى نفس الوقت سجل (مرسوم) بإبطال المراسيم التى صدرت من قبل فى حق النصارى واليهود ، ورفع الفروض التى ضربت عليهم ، وإطلاق الحرية لهم فى إعادة كنائسهم ، وارتداد من أسلم منهم إلى دينه حسبما قدمنا[1] ، فكان صدور هذا السجل فى هذا الظرف الفياض بالحوادث المثيرة ، عاملا جديداً فى إذكاء السخط على الحاكم ، والريب فى نياته وعقيدته وتغذية المطاعن الشنيعة التى يرمى بها من كل صوب .

---

(١) الأنطاكى ص ٢٣٠ — ٢٣٢ ، وأخبار الدول المنقطعة ، وأبو صالح ص ٤٦ ا .

ومضى على ذلك زهاء شهرين ، وبينا كانت النفوس على اضطرامها ، وجزعها وتوجسها ، إذا بالحدث الأكبر يقع فجأة ، وإذا بالحاكم بأمر الله يغيض من هذه الحياة الدنيا فى ظروف كالأساطير .

كان مصرع الحاكم بأمر الله ، أو بالحرى كان اختفاؤه ، من أعجب مآسى التاريخ وأشدها غموضاً .

ولقد كانت شخصية الحاكم مثال الخفاء ذاته ؛ ولم تكن مظاهر الغموض والتناقض التى تنتاب هذه الشخصية الغريبة فى كثير من المواطن ، لتحجب مظاهر القوة المادية والمعنوية ، التى تتمتع بها فى أحيان كثيرة . بيد أن الخفاء يغمر هذه المظاهر جميعاً ، سواء فى فترات قوتها أو ضعفها ؛ وكان هذا الخفاء المروع يصحب الحاكم فى حياته الخاصة ، وفى تصرفاته العامة ، فى أقواله وفى أفعاله . وأى خفاء أشد من ذلك الذى تنفثه حولها ، شخصية ترتفع فى سماء التفكير ، حتى لتزعم السمو فوق البشر وتهيم فى دعوى الألوهية ، وتنحط مع ذلك فى كثير من نزعاتها وتصرفاتها ، إلى نوع من الشذوذ بل الجنون الغامض ؟

وكان اختفاء الحاكم كحياته لغزاً مدهشاً ، بل كان ذروة الخفاء والروع ؛ وما زالت قصة هذا الاختفاء وظروفه ، وحقيقة عوامله ، مثار الريب والجدل . ركب الحاكم ذات مساء فى بعض جولاته الليلية ، وقصد إلى جبل المقطم ، ثم لم ير بعد ذلك قط لا حياً ولا ميتاً ، ولم يعرف مصيره قط ، ولم يوجد جثمانه قط ، ولم تقدم إلينا الروايات المعاصرة أو المتأخرة ، أية رواية حاسمة عن مصرعه أو اختفائه .

وسوف نستعرض فى هذا الفصل تفاصيل هذه المأساة العجيبة ، على ضوء الروايات المختلفة ، ونستخرج منها بالتمحيص والمقارنة أرجح الفروض ، التى يمكن أن يعول عليها البحث التاريخى ويطمئن إليها .

* * *

هنالك فى سير الحوادث وأحوال العصر ، ما يحمل رغم خفاء المأساة ، وغموض الظروف التى أحاطت بوقوعها ، واضطراب الروايات بشأنها ، على الاعتقاد بأن الحاكم بأمر الله ذهب ضحية المؤامرة ، وأن مصرعه لم يكن

سوى جريمة سياسية ، ارتكبت لتحقيق غايات الملك والسياسة ، وهذا ما تقرره بعض الروايات المعاصرة على اختلافها فى الشرح والتعليل ؛ ولكن من دبر هذه المؤامرة ؟ ومن قام بتنفيذها ؟ وكيف نفذت ؟ وأين ذهبت جثة الحاكم ؟ هذه أمور يحيط بها الخفاء والريب ، وإن كنا نجد الجواب عليها أيضاً فى بعض الروايات المعاصرة .

والحقيقة أن افتراض المؤامرة السياسية ، ربما كان خير تعليل للمأساة . ذلك أن الحاكم بأمر الله كان طاغية خطر الأهواء والنزعات ، سريع الانتقام ، ذريع الفتك ؛ وكانت تضطرم حوله بلا ريب شواظ من البغضاء والسخط ، وقد شمل هذا السخط جميع الطوائف والطبقات ؛ وكان رجال الدولة وأكابر الزعماء والقادة ، يعيشون جميعاً فى جو من الخيانة والروع ، ولا يأمنون على نفس أو مال . ومن المدهش حقاً أن هذه البغضاء المضطرمة ، لم تصب الحاكم من قبل بنارها ، ولم تسحق ملكه وسلطانه ، بل استطاع أن يخمدها فى صدور ذويها ، مدى هذه الأعوام الطويلة . ذلك لأن هذه الشخصية القوية كانت تثير دائماً من الرهبة والروع ، أكثر مما تثير من البغضاء والحفيظة والسخط .

كانت المؤامرة إذن ترقب الحاكم بأمر الله ، ويرصده الموت . ولكن من دبر هذه المؤامرة ، وأقدم على الاضطلاع بتلك المهمة الخطرة ؟ لم يكن مدبرها الأول رجلا من رجال الدولة ، أو زعيما ممن نزلت بهم نقمة الطاغية . ولكن كان مدبرها ، على ما يرجح وتقرره معظم الروايات المعاصرة امرأة ، هى ست الملك أو سيدة الملك ، أخت الحاكم ذاته . وقد أشرنا إلى ست الملك فيما تقدم . كان مولدها بالمغرب فى سنة ٣٥٩ هـ ، وقد عرفت منذ فتوتها بالعقل والحزم وحسن التدبير ، وتسميها الرواية أحياناً « ست الكل » وتنعتها بالسلطانة[١] ؛ وكان أبوها العزيز يحبها ويستشيرها فى كثير من الأمور ويستمع إلى رأيها ونصحها . ولما توفى العزيز استمرت ست الملك على نفوذها فى القصر مدى حين ، وقامت بدور كبير فى تدبير الشؤون وتوجيهها ، فى بداية عهد الحاكم بأمر الله ، فكانت تمده بحسن رأيها وتدبيرها فى كثير من الأمور ،

---

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ ب .

وتسهر على سلامته وسلامة ملكه . وهنالك ما يدل على أن العلائق بين ست الملك وأخيها الحاكم ، كانت فى تلك الفترة الأولى من حكمه ، تتسم بطابع المحبة والمودة الوثيقة ، فقد ذكر لنا المقريزى فى أخبار سنة ٣٨٧ هـ ، أن ست الملك « أهدت إلى أخيها الحاكم بأمر الله ثلاثين فرساً مسرجة ، أحدها مرصع ، وستا وعشرين بغلة مسرجة ملجمة ، وخمسين خادماً ، منها عشرة صقالبة ، وتاج مرصع ، وشاشية مرصعة ، وأسفاط كثيرة من طيب ، وبستان من الفضة مزروع من أنواع الشجر » . وفى حوادث سنة ٣٩٠ هـ ، أن ست الملك « أقطعت إقطاعاً مبلغه ماية ألف دينار ، منها ضياع فى الصعيد ، وأسفل الأرض ، ودور وبساتين »[١] . ولكن الأمور تغيرت مع كر الزمن . ذلك أنه لما استأثر الحاكم بالسلطة ، واندفع فى تيار العنف والإغراق ، وأسرف فى القتل ، وإصدار القوانين والأحكام المتناقضة ، كانت ست الملك تعترضه ، وتسدى إليه النصح وتحذره من العواقب ، فكان يغضب لتدخلها ويردها بغليظ القول واللوم ، ويقصيها عن كل تدخل واشتراك فى الشؤون[٢] .

وكانت ست الملك ترقب تطورات الحوادث فى جزع وتوجس ، وتخشى أن تنقض العاصفة وتضطرم الثورة ، فتحمل عرش الحاكم ومستقبل الأسرة كله ، ويختتم عصر المجد والسؤدد ، فى غمر الدماء والشقاء والذلة ؛ وكان الحاكم من جانبه يحقد على ست الملك ، وينقم عليها تدخلها وقارص لومها . وتضيف الرواية إلى ذلك ، أن الحاكم كان يشدد عليها الحجر والمراقبة ، وينعى عليها سوء مسلكها وفضائحها الغرامية ، ويتهمها بتناوب العشاق عليها ، وأنه هددها بإنفاذ القوابل إليها لاستبرائها ، فكانت لذلك تخشى بطشه وفتكه[٣] . وفى اتهام ست الملك بهذه الفضائح ما يدعو إلى

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٢ ب و ٥٦ أ .

(٢) أخبار الدول المنقطعة (فى فستنفلد ص٢١٥) ؛ ومرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) فى الجزء المشار إليه ص ٤٠٥ ؛ والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٥ و ١٩٥ ؛ ونهاية الأرب ج ٢٦ ص ٦١ .

(٣) ابن خلدون — فى كتاب العبر — ج ٤ ص ٦١ ، والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ ب .

التأمل ؛ ذلك أنها كانت يومئذ قد جاوزت عهد الشباب ببعيد ، وأشرفت على الثانية والخمسين من عمرها ؛ ولم تذكر الرواية عنها ما يشينها قط ، بل نراها تجمع على امتداحها ، والإشادة بحزمها وعقلها وكياستها[١] ؛ وإذن فمن المشكوك فيه أن تنحدر هذه الأميرة الفطنة الحازمة ، فى كهولتها إلى مثل هذا المسلك المشين : وعندنا أن العوامل السياسية التى أشرنا إليها هى كل شىء فى تلك الخصومة ، التى ثارت بين الحاكم وأخته ، وهى التى دفعت ست الملك الى طريق الجريمة .

وبحثت ست الملك حولها بين العناصر الناقمة ، فوقع اختيارها على سيف الدولة الحسين بن دواس زعيم كتامة ليكون حليفها ومنفذ مشروعها : وكانت كتامة من بين القبائل المغربية التى شدت بأزر الدولة الفاطمية ، أقواها وأوفرها عصبية وبأساً ؛ وكانت قد فقدت فى ظل الحاكم بأمر الله كثيراً مما تتمتع به من النفوذ ، وكان زعيمها الحسين بن دواس يعيش بعيداً عن القصر . ويقاطع الحفلات والمواكب الرسمية خشية غدر الحاكم وفتكه ؛ وكان الحاكم يراجعه فى ذلك وينعى عليه مسلكه ، فيزداد إباء وتمسكا ، ويصارح الحاكم بما يخالجه من ريب وجزع ؛ فاتصلت ست الملك سراً بالحسين بن دواس ، وعرضت إليه ما انتهت إليه الأمور من الاضطراب والفوضى ، من جراء تصرفات أخيها ، وتطرفه وإغراقه ، وانتهاكه حرمات الشريعة والإيمان بادعاء الألوهية ، وما يهدد الدولة والإسلام كله من خطر التمزق ، إذا استمر الحاكم فى غيه ، ولم يوضع حد لشنيع تصرفاته وجرائمه ، وأنه لا سبيل إلى تدارك الموقف ودفع الخطر ، غير قتل الحاكم وتولية ولده . فلبى ابن دواس دعوة الجريمة وتعهد بالتنفيذ ، وأخذت عليه الأميرة ميثاقاً بالوفاء والكتمان ، وقطعت على نفسها مختلف المواثيق والعهود ، ووعدته بأنه سيكون مدبر الدولة وصاحب الكلمة العليا فى شؤونها . وعهد ابن دواس بالتنفيذ إلى عبدين من أخلص عبيده ، فخلعت عليهما ست الملك ، ووهبتهما مالا وخيلا وغيرها ، وزودتهما بسكينين ماضيين ؛ واتفق على أن يكون التنفيذ فى مساء اليوم التالى : حينما يخرج الحاكم كعادته ليلا إلى المقطم ،

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٥ و ٢٤٨ .

ويتوغل فيه منفرداً أو مع اثنين من الركابية فقط ، فعندئذ يتم التنفيذ ، ويحقق مشروع الجناة بأيسر أمر[١] .

— ٢ —

وقد أشرنا فيما تقدم إلى شغف الحاكم بالطواف بالليل ، ولا سيما فى جنبات المقطم ؛ ولم يكن ذلك الطواف عبثاً فقد كان الحاكم كأبيه وأجداده يهيم باستقراء النجوم ورصدها . وكان يتوغل فى الجبل ، ويقصد الربى فى مكان يسمى « صحراء الجب » ، وهنالك فى خلوته المنعزلة التى بناها خصيصاً لذلك ، يتأمل النجوم ملياً ويحسب طالعها ، ففى ليلة الاثنين ٢٧ شوال سنة ٤١١ هـ (١٣ فبراير سنة ١٠٢١ م) خرج الحاكم كعادته للطواف فى الجبل . وتصف لنا الرواية منظراً مؤثراً وقع بينه وبين والدته قبيل ركوبه ؛ فقد ذكر الحاكم لوالدته أنه يتوقع فى الغد قطعاً فى طالعه ينذر به ظهور نجم معين ، وأنه يتوجس من ظهوره ، ويخشى أن يصيبها مكروه ولا سيما من أخته ، وأعطى أمه مفاتيح خزانة مليئة بالمال بها خمسمائة ألف دينار ، لتحولها إلى قصرها وتكون ذخيرة لها ؛ فجزعت أمه وكانت تعبده ويعبدها حباً ، وتضرعت إليه ألا يخرج ، فوعدها بذلك . ولبث الحاكم أرقا والضجر يكاد يقتله ، حتى مضى من الليل ثلثاه ؛ وعندئذ قال لأمه لا بد من ركوبى الليلة ، وإلا خرجت روحى . ثم ركب فى الحال حماره الأشهب المدعو بالفخر ، ورافقته بطانته المعتادة ؛ وكان أبو عروس صاحب العسس (كبير الشرطة) يطوف كل ليلة بالقصر مع رجاله ، وهم يضربون الطبول والبوقات الخفيفة ، فإذا خرج الحاكم تبعه فى رجاله حتى أبواب المدينة . وخرج الركب إلى الجبل ، من درب يقال له درب السباع[٢] ؛ ولما وصل إلى الجبل رد أبا عروس ورجاله ، ونسيما صاحب الستر والسيف ، ولم يصحبه سوى اثنين من الركابية[٣] ، ثم سار متوغلا فى شعب المقطم . وكانت

---

(١) مرآة الزمان النسخة الفتوغرافية فى الجزء المشار إليه ص ٤٠٦ .

(٢) سمى كذلك لأن دار السباع كانت تقع فيه ، وكان موقعه فى طريق القرافة الموصل الى مقبرة الشافعى .

(٣) هم الذين يصحبون الركب الخلافى ، ويعنون بركوب الخليفة والدواب التى يركبها .

أخته ست الملك ساهرة ترقب كل حركاته من قصرها ، وهو القصر الصغير أو القصر الغربي المقابل للقصر الخلافى أو القصر الكبير ، فما كادت تعلم بخروجه حتى اتخذت كل أهبتها ؛ وسبق الجناة فريستهم إلى المكان المقصود . وهنا تقول الرواية نقلا عن أبي عروس صاحب الشرطة ، إن الحاكم لما وصل إلى الجبل صعد إلى رابية مرتفعة ، وتأمل النجوم قليلا ثم ضرب يداً على يد وقال : ظهرت يا مشئوم ! ثم توغل قليلا فى شعب الجبل ، فاعترضه فى الطريق عشرة من عرب بنى قرة ، والتمسوا منه صلة وإحساناً ، فأنفذ معهم أحد الركابيين إلى صاحب بيت المال ليحقق ملتمسهم ؛ والظاهر أن اعتراضهم للحاكم على هذا النحو لم يكن عفواً[١] . واستمر الحاكم فى سيره مع الركابى الآخر ، حتى المكان الذى يقصده ، وهو فى شرقى حلوان وقد لاح الفجر . فخرج عبدا ابن دواس من مكمنهما ، وانقضا عليه وطرحاه أرضاً وهو يصيح بهما « ويلكما ماذا تريدان » ، فقتلاه وقطعا ذراعيه ، وشقا جوفه ، واستخرجا أمعاءه ، وقتلا الصبى الركابى ، وقطعا قوائم الحمار ، وحملا أشلاء الحاكم إلى سيدهما فى كساء ، فرافقهما ابن دواس فى الحال إلى ست الملك ، وسلمها الجثة ؛ فدفنتها فى نفس مجلسها . وأنعمت على ابن دواس وعبديه بمال وتحف كثيرة ؛ ودعت فى الحال كبير الوزراء خطير الملك أبا الحسين عمار بن محمد وأخطرته بما وقع ، واستحلفته على الكتمان والطاعة ، وأمرته باستدعاء ولى العهد عبد الرحيم بن الياس من الشأم ، فكتب إليه على لسان الحاكم أن يبادر بالعود ، فعاد بطريق البحر ، وبعثت ست الملك قائد الساحل فاستقبله فى مياه دمياط ، وسار به إلى تنيس وقتله ؛ وهناك روايات أخرى عن مصرعه نشير إليها فيما بعد[٢] . وفرقت ست الملك زهاء ألف ألف دينار بين مختلف الأولياء ، وأذاعت لكى تطمئن الخواطر المضطربة ، ولتقضى على الأقاويل ، أن أخاها سيغيب سبعة أيام وأنه

---

(١) يقول النويرى إن العشرة الذين اعترضوا الحاكم ، إنما هم عبيد ابن دواس أعدهم لتنفيذ الجريمة ، وأنهم سبقوا الحاكم ليلة خروجه الى الجبل ، ثم انقضوا عليه وقتلوه (نهاية الأرب مجلد ٢٦ ص ٥٨) .

(٢) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ١٧٠ .

بمدها بأوامره ، واتخذت كل أهبة لإخفاء الجريمة ، وتدبير ما يجب لاختيار الخليفة الجديد .

وكان أول هم لست الملك أن تقضى على شركائها فى الجريمة ، فيذهب سرها معهم إلى الأبد ، فلما استكملت أهبتها ، وأخذت البيعة للخليفة الطفل أبى الحسن على بن الحاكم بأمر الله بمعاونة ابن دواس ، وأعلن خليفة مكان أبيه فى العاشر من ذى الحجة (٤١١ ﻫ) ، واستوثقت من طاعة كتامة ، وباقى الطوائف والزعماء ، استدعت ابن دواس وكان يعتقد أنه غدا أعظم رجل فى الدولة ؛ وبينا هو فى بعض أبهاء القصر ، صاح نسيم صاحب الستر فى صبيان الخاص بإيعاز ست الملك ، بأن هذا هو قاتل مولانا الحاكم فاقتلوه ، فانقضوا على ابن دواس وقطعوه بسيوفهم إرباً ، ثم قتلوا العبدين اللذين ارتكبا الجريمة ؛ ثم دبرت ست الملك أيضاً مقتل الوزير خطير الملك بعد ذلك بأشهر قلائل ، ولم تفر أحـــداً ممن وقفوا على السر ؛ وتمت هذه الإجراءات الدموية بسرعة وإحكام ، وذهب السر الرهيب مع الجناة إلى الأبد[1]

— ٣ —

هذه خلاصة ضافية لما تعرضه الروايات التى انتهت إلينا عن مصرع الحاكم بأمر الله ، وعن ظروف المأساة وبواعثها . ولكن القضاعى وهو مؤرخ معاصر تقريباً ، كتب روايته بعد ذلك بنحو ثلاثين عاماً فقط ، يضيف

---

(١) أورد هذه التفاصيل عن مصرع الحاكم كثير من المؤرخين وفى مقدمتهم أبو هلال الصابى وقد كتب روايته بعد الحادث بنحو ثلاثين عاما فقط (راجع هذه الرواية فى النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٥ وما بعدها) وكذلك أبو عبد الله القضاعى وكتب بعد الحادث بقليل أيضاً (راجع عيون المعارف – مخطوط بدار الكتب ص ١٨١ و ١٨٢) والذهبى (راجع المخطوط بدار الكتب مجلد ٢٢ فى وفيات سنة ٤١١) وهو ينقل رواية القضاعى ؛ وابن قزأوغلى فى مرآة الزمان (المخطوط الجزء المشار إليه ص ٤٠٥ – ٤٠٨) وابن خلكان (ج ٢ ص ١٦٧ و ١٦٨) وابن الأثير (ج ٨ ص ١٠٨ و ١٠٩) والمقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ ب و ٧٠ ا ؛ وراجع أيضاً أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) وابن العميد (تاريخ المسلمين ص ٢٥٨) وابن العبرى (مختصر تاريخ الدول طبع اليسوعيين ص ٣١٢ و ٣١٣) ونهاية الأرب (ج ٢٦ ص ٥٨) وابن خلدون (ج ٤ ص ٦١) وغيرها .

إلى هذه الرواية فصلا آخر ، فيحدثنا عن خاتمة المأساة. وكيف اكتشفت آثار الجريمة ؛ فيقول إن الحاكم لما سار فى طريقه الى المقطم، وبعث أحد الركابيين مع نفر بنى قرة الذين اعترضوا طريقه ، صرف الركابى الآخر عند قبر « الفقاعى » فى وسط القرافة الكبرى . ولما لم يعد الحاكم كعادته فى صباح اليوم التالى ، خرج القضاة والأشراف والقواد الى الجبل ، فبحثوا عن الحاكم حتى آخر النهار ولم يعثروا له على أثر ، وكرروا الذهاب على هذا النحو ثلاثة أيام دون جدوى ؛ وفى اليوم الرابع أعنى يوم الخميس آخر شوال ، خرج مظفر صاحب المظلة ، ونسيم صاحب الستر ، وابن مسكين صاحب الرمح ، وعدة من زعماء الجند والقضاة ورجال الدولة ، وتوغلوا فى شعب المقطم حتى بلغوا دير القصير ، على مقربة من حلوان ؛ وعكفوا على البحث والتنقيب حتى عثروا بحمار الحاكم الأشهب ، وقد قطعت ساقاه الأماميتان ، وعليه سرجه ولجامه ؛ فتتبعوا الأثر فإذا أثر راجل خلف أثر الحمار ، وأثر راجل أمامه ؛ فتتبعوا ذلك الأثر حتى وصلوا الى البركة الواقعة شرقى حلوان ؛ فنزلها البعض وعثروا فيها بثياب الحاكم ، وهى سبع جباب مزررة لم تحل أزرارها وفيها أثر الطعان ، فعندئذ أيقن الناس بقتله[1] .

ثم تقول الرواية إن ست الملك بعد أن استتب لها الأمر ، وثبت مصرع الحاكم على هذا النحو ، أبدت الحزن عليه ، وأقامت عزاءه بالقصر ثلاثة أيام ، ثم استدعت جماعة العرب الذين اعترضوا سبيل الحاكم ليلة الجريمة التماساً للعطاء، وطلبت اليهم أن يقولوا ما يعرفون عن مقتل الحاكم ، ووعدتهم بالعفو والإحسان إذا أجابوا وإلا أعدمو فى الحال ؛ فأقسموا جميعا بأن لا علم لهم بشىء ، فضربت أعناقهم ؛ وتوسلت ست الملك لستر جريمتها بارتكاب جريمة أخرى ، فكانت كما قال الشاعر[2] :

وأهل خباء صالح ذات بينهم	قد احتربوا فى عاجل أنا آجله
فأقبلت فى الباغين أسأل عنهم	سؤالك بالشىء الذى أنت جاهله

على أن هنالك رواية فى شأن هؤلاء الأعراب ينفرد بها الأنطاكى ،

---

(١) راجع رواية القضاعى فى النجوم الزاهرة (ج ٤ ص ١٩٠ و ١٩١) .

(٢) أخبار الدول المنقطعة (المخطوط) .

وهو مؤرخ معاصر للمأساة[1]، فهو يقول إن الحاكم ليلة خروجه الى المقطم، ومعه صبى ركابى فقط اعترضه سبعة من البدو أو سبعة فوارس من بنى قرة حسبما يروى لنا المقريزى، والتمسوا منه الصلة بجفاء وغلظة، فأجابهم بأنه لا يحمل مالا يدفعه لهم، ولكنه يرسلهم الى متولى بيت المال ابن بدوس ليدفع لهم خمسة آلاف درهم (أو عشرة آلاف على قول المقريزى)، فقالوا إنهم لا يمضون لأنه لا يدفع لهم شيئا، واشتد الجدل بينهم وبينه، فطلبوا اليه أن يرسل معهم الصبى الركابى لينجز لهم ما وعد من عطاء؛ وسار الركابى مع أربعة منهم صوب المدينة، وتخلف الثلاثة الباقون؛ ثم عاد الركابى بعد أن أدى مهمته يبحث عن سيده، فى المكان الذى اعتاد انتظاره فيه، وطال بحثه دون جدوى حتى لقيه مساح بالجبل، فسأله وذكر له صفة الحاكم وصفة حماره، فأخبره أنه رأى هذا الحمار فى طريقه معرقبا، وسار معه الى الموضع الذى شهده فيه.

وفى صباح اليوم التالى سارت الأميرة ست الملك وجميع الأمراء والقواد الى الجبل، يتتبعون أثر الحاكم حتى وصلوا الى دير القصير[2]، وبحثوا فى الدير وجميع المواضع التى كان يرتادها فلم يقفوا له على خبر؛ ثم عثروا

---

(١) بدأ الأنطاكى كتابة تاريخه حسبما يقرر فى مقدمته سنة ٤٠٥ هـ فى أنطاكية، واستمر فى كتابته حتى أوائل عهد الظاهر.

(٢) تحدث أبو صالح الأرمنى فى تاريخه عن دير القصير، وقد كان يومئذ من أعظم الأديار القبطية الملكية، فذكر لنا عنه ما يأتى: «الدير المعروف بالقصير على قرنة الجبل الشرقى. وهذا الدير يشرف منه على بحر النيل المبارك وطرا (وهى البلدة المعروفة القريبة من حلوان)، أنشأه ارغاديوس الكبير بن تدوس الكبير ملك الروم على قبر معلمه القديس أرسانيوس، وسماه باسمه. وكان أرسانيوس هذا قد هرب منه وتعبد فى برية القديس أبو مقار بوادى هبيب ثم انتقل الى هذا الجبل وتعبد فيه. وعرف هذا الدير بدير القصير، ويعيد له عيد عظيم، ويجتمع إليه خلق كثير، وتحت بيعته على الجبل بيعة أخرى نقرت فى الجبل بالأزميل فيها مذبح، وهو بيد الملكيين، وفيه جماعة من رهبانهم. وفى هذا الدير ثمانية كنائس وعليه حصن دائر. وفيه منظرة وفيه مدافن، وتحته مغائر كثيرة نقرت فى الجبل؛ وفيها ما يناهز ستة آلاف راهب» (تاريخ أبى صالح ص ٦٢ — ٦٦).

وقد صدر مرسوم الحاكم فى رمضان سنة ٤٠٠ هـ، بهدم هذا الدير حسبما تقدم فى موضعه (ص ١٣٨ و ١٣٩).

بعد ذلك بثيابه وفيها آثار الطعان والدماء ، ولكنهم لم يجدوا جثته ، فاستدلوا من ذلك على أن البدو الثلاثة الذين تخلفوا عن رفاقهم ، هم الذين قتلوه ودفنوه فى الجبل وأخفوا أثره .

واتجهت مظنة التحريض الى ابن دواس ، وكثرت فى حقه الأقاويل ، فعملت ست الملك على استدعائه الى القصر ، حيث قتل حسبما تقدم ؛ ووجدت ست الملك فى بعض صناديقه ، السكين التى كان يحملها الحاكم فى كمه ، فثبت لدى الجميع حينئذ أنه هو مدبر الجريمة[1] .

وربما كان لهذه الرواية التى ينفرد بها الأنطاكى قيمتها من حيث التفاصيل الجزئية ؛ وليس بعيداً أن يكون هؤلاء الأعراب هم القتلة ، وأن يكون وقوفهم فى طريق الحاكم أمرا مدبرا كما أشرنا إلى ذلك فيما تقدم ؛ ومن جهة أخرى فهى تنفى تهمة تدبير الجريمة عن ست الملك ، وإن كانت تتفق فى اتهام ابن دواس وتخصه بتدبيرها . وإذا كان من الصعب أن نقف عند هذه الرواية ، وأن نؤثر الأخذ بها دون غيرها من الروايات المعاصرة ، نظرا لانفرادها بهذا التفصيل ، فإنه مما يدعو الى التأمل أنها ليست هى الرواية الوحيدة التى تنفى تهمة الجريمة عن ست الملك ، مع اتفاقها فى جوهر الموضوع ، وهو أن الحاكم بأمر الله قد ذهب ضحية المؤامرة والجريمة .

— ٤ —

ذلك أن المقريزى أعظم مؤرخى مصر الإسلامية ، بالرغم من كونه يقدم إلينا فى « اتعاظ الحنفاء » ملخص تفاصيل المؤامرة ، منسوبة إلى ست الملك ، وتفاصيل تنفيذها حسبما تقدم[2] متفقاً بذلك مع معظم المؤرخين ، يعود بعد ذلك فيقدم إلينا رواية أخرى عن مصرع الحاكم بأمر الله ترمى إلى نفى الاتهام عن ست الملك ، ينقلها إلينا عن عز الملك المسبحى ، مؤرخ الدولة الفاطمية ووزير الحاكم وصديقه . ونص هذه الرواية هو أنه « فى المحرم سنة ٤١٥ هـ (١٠٢٤ م) قبض على رجل من بنى حسين ثار بالصعيد الأعلى ، فأقر بأنه قتل الحاكم بأمر الله فى جملة أربعة أنفس تفرقوا فى البلاد ، وأظهر قطعة من

(١) تاريخ الأنطاكى ص ٢٣٣ و ٢٣٤ و ٢٣٨ .

(٢) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٩ ب و ١٧٠ .

جلدة رأس الحاكم وقطعة من الفوطة التى كانت عليه ، فقيل له لم قتلته ، فقال غيرة لله وللإسلام ؛ فقيل له كيف قتلته ، فأخرج سكيناً ضرب بها فؤاده فقتل نفسه ، وهو يقول هكذا قتلته ؛ فقطع رأسه وأنفذ به إلى الحضرة مع ما وجد معه ، وهذا هو الصحيح فى خبر قتل الحاكم لا ما تحكيه المشارقة فى كتبهم من أن أخته قتلته »[1] .

وقد كان المسبحى مؤرخا كبيراً ثقة ، وكان من عظماء الدولة ، ومن معاصرى الحاكم وخاصة جلسائه . والمرجح أنه وقف بنفسه على كثير من التدابير ، التى اتخذت عقب اختفاء الحاكم ، وسمع من المصادر الوثيقة كثيراً من الأحاديث ، التى ذاعت حول مصرعه ؛ وليس ثمة شك فى روايته للواقعة التى ينقلها إلينا عن ذلك الرجل المقبوض عليه . ولكن هل قال ذلك الرجل حقاً ؟ وهل كان حقيقة من قتلة الحاكم بأمر الله ؟ هذا ما نشك فيه ؛ ومن الصعب أن نعتقد أن رجلا أو رجالا من الكافة ، يستطيعون أن يدبروا وأن ينفذوا وحدهم مثل هذه الجريمة الهائلة ، فى مثل هذا الخفاء والإحكام ، اللهم إلا إذا كانوا مأمورين ، يعملون لحساب الرؤوس المدبرة ذات القوة والحول ؛ والظاهر أن الرجل المشار إليه كان من الفدائية أو الدعاة الهائمين ، وأنه أراد أن يجعل من نفسه بهذه الدعوى بطلا وشهيداً .

والمهم فى رواية المسبحى هو أنها تبرىء ست الملك من تبعة الجريمة . وإذن فالرواية تختلف فى شأن ست الملك اختلافاً ظاهراً بين الاتهام والنفى ، ولكن مما يلفت النظر أنها تتفق جميعاً فى أن الحاكم بأمر الله ذهب ضحية الجريمة والمؤامرة ، وأنه توفى قتيلا ، ولم يسفر البحث عن أى أثر لجثته ، ومن الصعب أن يقف المؤرخ عند أحد الرأيين بصورة حاسمة ، بيد أننا نستطيع بتمحيص هذه الروايات ، أن نستخلص منها ما يحملنا على ترجيح رأى بعينه فى شأن المحرض على الجريمة و مرتكبها .

ذلك أن لدينا أربع روايات معاصرة ؛ فأبو هلال الصابى والقضاعى

---

(١) راجع الخطط ج ٤ ص ٧٤ ؛ ولم يصل إلينا تاريخ المسبحى وهو تاريخ مصر الكبير ، ولكن انتهت إلينا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين . وتوجد منه قطعة صغيرة مخطوطة بمكتبة الاسكوريال حسبما نوضح فيما بعد فى ترجمة المسبحى .

يتفقان فى اتهام ست الملك ، وكونها دبرت المؤامرة وقامت على تنفيذ الجريمة ، بمعاونة ابن دواس ورجاله ؛ ويتفق المسبحى والأنطاكى فى تبرئة ست الملك من تبعة هذه الجريمة ؛ والصابى مؤرخ محقق ثقة ؛ وإذا كان قد كتب روايته فى المشرق بعيداً عن مصر ، فالظاهر أنه نقلها عن نفس المصادر التى نقل عنها معاصره القضاعى ؛ وكذلك الأنطاكى فإن روايته عن الحاكم وعن الحوادث المعاصرة من أدق الروايات ، وأحفلها ، فإذا كان يغفل الإشارة إلى ست الملك فربما كان فى إشارته إلى اتهام ابن دواس قرينة غير مباشرة على اتهام ست الملك باعتبارها أقوى شخصية فى القصر يومئذ . وأما المسبحى والقضاعى[1] ، فقد كتب كلاهما فى مصر ، واتصل كلاهما بشؤون الدولة وحوادث العصر اتصالا وثيقاً ؛ وربما كانت رواية المسبحى أقرب إلى التحقيق ، لأنه كان معاصراً للحوادث نفسها ، وكان وثيق الصلة بالحاكم نفسه وكل شخصيات البلاط يومئذ . ولكن المسبحى كان شيعيا يدين بالدعوة الفاطمية ؛ أفلا تسبغ هذه الصفة بعض الريب على روايته ؟ ثم ألا يمكن تكون هذه الرواية ، رواية قصر يغذيها التحفظ والحرص على عدم المساس بشخصيات سامية ، كانت ما تزال ذكراها مقرونة بالإجلال ؟ والظاهر أن حرص المقريزى على نقل هذه الرواية يرجع أيضاً إلى انتمائه إلى الفاطميين ، والعطف على ذكراهم ، وميله إلى الأخذ بما يبرئهم . أما القضاعى فقد كتب بعد ذلك بنحو ثلاثين عاما ، فى عصر تضاءل فيه الحرص على الذكرى ، ولم يكن يخشى المؤرخ أن يتمتع فيه بنوع من حرية الرأى والرواية ؛ هذا إلى أن القضاعى لم يكن شيعيا بل كان سنياً ، وكان فقيها شافعيا ثقة ، وبذا كان أبعد عن التأثر بنفوذ القصر الفاطمى .

وعلى ذلك فربما كانت رواية القضاعى أقرب الروايات كلها إلى الصحة ، خصوصاً وقد أيدتها رواية معاصرة أخرى ، هى رواية الصابى ، وأيدها بعد ذلك كثير من الروايات المتأخرة ؛ وإذا كنا لا نستطيع أن نقف عند جميع شروحها وتفاصيلها ، فقد نستطيع أن نقف عند حقيقة واحدة ، هى أن

(١) توفى المسبحى فى سنة ٤٢٠ ﻫ ، والصابى سنة ٤٤٨ ، والقضاعى سنة ٤٥٤ ﻫ ، ويحيى الأنطاكى سنة ٤٥٨ ﻫ .

الأميرة ست الملك كانت روح المؤامرة ، وكانت هى الراس المدبر للجريمة ؛ وفى ظروف العصر ، وفى تتابع الحوادث كما شرحناها ، وفيما انتهت إليه سياسة الحاكم الدموية وفوراته المذهبية المغرقة ، من إثارة الأحقاد والحفائظ ، ودفع الدولة فى طريق الدمار والانحلال ، ما يؤيد هذا الرأى ؛ بل لقد كان فيما اتصفت به هذه الأميرة النابهة من قوة الخلال ، والفطنة والحزم ، ما يحملها على انتهاج هذا السبيل الدموى ، لتنقذ دولة تصورتها مشرفة على الانهيار ، وملك أسرة تحرص على توطيده وتخليده .

وإذا كان لنا أن نحمل على هذه السياسة المكيافيللية الغادرة ، فقد يخفف من وقعها ، ويشفع فى اتباعها مثل الحاكم ذاته ، ووسائله الدموية المثيرة فى تحقيق أغراض السياسة ؛ وقد تبررها قبل كل شىء خطورة الغايات التى اتخذت سبيلا لتحقيقها .

— ٥ —

ولما طويت صفحة الحاكم ، واستقر فى الأذهان مصرعه ، وصفا جو الإرجاف الذى ثار حول اختفائه نوعاً ، اتخذت الأهبة لتولية ولده أبى الحسن على ؛ وكانت ست الملك قد غدت منذ مصرع أخيها مرجع السلطان والأمر كله فى شؤون القصر والدولة ، وكانت تحرص كل الحرص على كسب الحسين بن دواس ، حتى تكلل خطتها بالنجاح النهائى ؛ فاستدعته إلى القصر ، وأفهمته أنها تعتمد على ولائه وعونه فى إقامة الخليفة الجديد ، فوعدها بمنتهى الإخلاص والطاعة . ثم أخرجت علىّ بن الحاكم ، وألبسته تاج المعز جد أبيه ، وهو تاج مرصع بالجواهر النادرة ، ووضعت على رأسه مظلة مرصعة ، وأركبته فرساً بمركب ذهب ، فخرج وبين يديه رئيس الرؤساء الوزير خطير الملك أبو الحسين عمار ، ونسيم صاحب السيف ، وعدة من الأستاذين المحكنين . فلما برز فى فناء القصر ، تقدم الحسين ابن دواس فقبل الأرض بين يديه ، وحذا حذوه سائر الزعماء والقادة ، وضربت البوقات والطبول ، وعلا التكبير والتهليل ، والخليفة الفتى يسلم يميناً وشمالا . ثم فتحت أبواب القصر ، ودخل الناس جميعاً فسلموا وخدموا ، وتمت البيعة . وكتب إلى بلاد الشام والمغرب بوفاة الحاكم ، وقيام ولده

الظاهر ، وطلب إلى الأمراء والعمال ، أخذ البيعة على نفوسهم ، وعلى من لديهم من سائر الطبقات[١] . وجلس الظاهر على كرسى الخلافة فى يوم عيد النحر (عيد الأضحى) فى العاشر من ذى الحجة سنة ٤١١ ﻫ (مارس ١٠٢١م) أعنى بعد مصرع أبيه بستة أسابيع ، ولقب بالظاهر لإعزاز دين الله . وكان مولده بالقصر الفاطمى فى العاشر من رمضان سنة ٣٩٥ ﻫ ، ومن ثم فقد كان فى مستهل عامه السابع عشر حينما ولى الملك . وأمه أم ولد تدعى رصد ، وقيل بل حرة تدعى آمنة بنت الأمير عبد الله بن المعز ، وان ست الملك كانت تبغض آمنة هذه[٢] . وكان الحاكم قد أنجب من الأولاد عدة . ويذكر لنا المقريزى فى حوادث سنة ٣٩٤ ﻫ ، أنه فى التاسع من صفر من هذه السنة ، ولد للحاكم ولد ، سمى بالحارث ، وكنى بأبى الأشبال ، وكان سابع المولود ، ثم يذكر لنا بعد ذلك فى حوادث سنة ٣٩٥ ﻫ ، بأنه فى يوم الأربعاء العاشر من رمضان ، ولد للحاكم ولد ذكر ، سماه علياً ، وهو الذى تولى الخلافة وتلقب بالظاهر . ومعنى ذلك بأنه إذا كان هذا الولد ، وهو أبو الحسن على ، هو آخر من أنجب الحاكم ، فيكون عدد أولاده ثمانية[٣] ، وربما ولد له بعد ذلك أولاد أخر لا تذكر لنا الرواية عنهم شيئاً ؛ بيد أن المعروف الذى تذكره لنا الرواية من أولاده ، هم أبو الحسن على وهو الظاهر ، وأبو الأشبال الحارث وقد توفى فى حياته فى ربيع الآخر سنة ٤٠٠ ﻫ[٤] ، وابنة تسمى ست مصر (سيدة مصر)[٥] ، وكان أبو الحسن على (الظاهر) قد حجب مذ ترعرع ، مع أمه فى قصر عمته ست الملك خوفاً من سطوة أبيه كما قدمنا ؛ وكان لعمته عليه أعظم نفوذ وتأثير[٦] .

وافتتح الظاهر عهده بإقامة مأتم أبيه فى يوم الخميس ٢٠ ذى الحجة سنة ٤١١ ﻫ فجلل القصر بالسواد ، واستمر البكاء والعويل طول الليل[٧] ،

---

(١) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٧١ ب .
(٢) الأنطاكى ١ ص ٢٠٧ .
(٣) اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ب و ٦٠
(٤) نهاية الأرب (المخطوط) ج ٢٦ ص ٦٠ .
(٥) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٢ .
(٦) الأنطاكى ص ٢٣٥ .
(٧) نهاية الأرب (المخطوط) ج ٢٦ ص ٦١ .

وأسبغت بذلك على المأساة صفتها الرسمية ، واختتمت فترة طويلة من الهمس والإرجاف والريب .

وأخذ الظاهر بوحي عمته ست الملك ، فى نقض سياسة أبيه تباعاً ، فألغى أحكام التحريم الصارمة ، ورخص للناس فى شرب النبيذ والفقاع ،وفى سماع الغناء وتنظيم الملاهى ، وفى أكل الملوخيا والسمك ، وجميع ما حرم الحاكم من قبل . بيد أن أعظم خطوة اتخذها فى هذا السبيل ، هى إلغاء سياسة الإضطهاد الدينى ، والعود إلى سياسة التسامح الفاطمية ، التى سار عليها المعز والعزيز من قبل ، فأصدر سجلا إلى النصارى واليهود بإعلان سياسة التسامح ، وأنهم أحرار فى عقائدهم وفى شعائرهم ، وأنه لا إكراه فى الدين ، وأن يزيلوا من أنفسهم ما تخيلوه ، ويتحققوا أنهم يحملون على حكم الصيانة والرعاية ، وينزلون منزلة أهل الحياطة والحماية ، من آثر منهم الدخول فى الإسلام اختياراً من قلبه وهداية من ربه ، فليدخل فيه مقبولا مبروراً ، ومن آثر بقاءه على دينه من غير ارتداد ،كان عليه ذمته وحياطته ، وعلى جميع أهل الملة حفظه وصيانته[1] .

وهكذا بدأ عهد جديد من السكينة والسلام ، وتنفس الجميع الصعداء ؛ وأبدى الظاهر اعتدالا وروية ،وكان عاقلا جواداً يجنح الى الحلم والتواضع[2] ، وينبو عن سياسة العنف التى أمعن فيها أبوه . وكان يشغف باللهو والشراب والغناء ، وكثيراً ما يعتكف بالقصر بين مجالى اللهو ، بينما تشرف عمته على تدبير الشؤون بقوة وذكاء وحزم . وفى أوائل عهده ، طورد الملاحدة بمنتهى الشدة ،وقبض على زعمائهم وشيعتهم ، وقتل كثيرون منهم ، وصدرت الأوامر بتتبعهم فى سائر الأنحاء ، وأطلق من استتاب منهم ورجع عن غيه ؛ وهرب زعيم الدعاة حمزة بن على ، ولكنه أخذ بعد ذلك ثم قتل حسبما أشرنا الى ذلك فيما تقدم . ورأت ست الملك أن تعيد النظر فى جميع الإقطاعات والمنح التى قررها الحاكم ، والتى غدت عبئاً ثقيلا على موارد الدولة ، فألغت معظمها ، وأبطلت كثيراً من الرواتب والأرزاق التى قررت دون حكمة ،

(١) الأنطاكى ص ٢٣٥ .

(٢) مرآة الزمان الجزء المشار إليه ص ٤٠٩ ، والأنطاكى ص ٢٣٥ .

وردت ما أبطله الحاكم من المكوس ، وارتجعت جواهر ثمينة كان الحاكم وهبها وما تنازل عنه من حقوق الخزينة[١] فانتظمت بذلك مالية الدولة وتحسنت مواردها .

ورفع الحظر المرهق الذى فرضه الحاكم على النساء منذ سنة ٤٠٤ ه ، وأطلقت لهن حرية الخروج من منازلهن ، والتصرف فى شئونهن ، وارتياد ما يرغبن ارتياده من أماكن النزهة والتفرج . فتنفس النساء الصعداء ، وهرعن الى الشوارع والميادين والحوانيت فرحين مغتبطين ، بعد أن كابدن محنة الاحتجاب فى ظلمات المنازل زهاء سبعة أعوام ، واستردت القاهرة أوضاعها الطبيعية ، وسادها البشر والإيناس .

ولم يخل عصر الظاهر من بعض أعمال العنف التى اقتضتها بواعث السياسة القديمة ؛ فقد رأت ست الملك بعد أن قضت على ابن دواس ومعاونيه أن تقضى على الوزير خطير الملك مدبر الدولة ، إما لأنه كان على علم بشىء من أسرار المؤامرة والجريمة التى زهق فيها الحاكم حسبما أشرنا إلى ذلك من قبل ، وإما لأنها خشيت من نفوذه وتأثيره على الظاهر ، ومن انقياد الظاهر اليه وشغفه بملازمته ومنادمته ؛ فدبرت مصرعه ، وقتــل فى ربيع الأول سنة ٤١٢ ه ، لأشهر قلائل من جلوس الظاهر . وكان ولى العهد السابق عبد الرحيم بن إلياس قد استقدم حسبما تقدم من دمشق بالحيلة والملاطفة ، واعتقل منذ مقدمه ، فرأت ست الملك أيضا أن فى بقائه خطرا على العرش ، فدست عليه من قتله . ويقال أيضا إنه مات مسموما من فاكهة مسمومة أرسلت اليه . بيد أن هنالك رواية أخرى بأنه توفى منتحرا بسكين أدخلها فى بطنه ، وأن الظاهر حينما بلغه أمره ، بعث اليه القضاة والشهود فأثبتوا اعترافه ؛ وكان مصرع ولى العهد فى أواخر سنة ٤١٤ ه قبل وفاة ست الملك بقليل[٢] .

ونمى الى ست الملك أن عزيز الدولة فاتك الوحيدى والى حلب ، ينوى الخروج والعصيان والاستقلال بحكم المدينة ، فلجأت الى مصانعته وأرسلت

---

(١) الأنطاكى ص ٢٣٧ .

(٢) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٣ و ١٩٤ .

اليه خلعا وأموالا ، ودست عليه فى نفس الوقت غلامه بدرا ليدبر مقتله ، وبذلت له وعوداً كبيرة ؛ ونفذ بدر جريمته على يد فتى هندى كان يهواه فاتك ، فطعنه الفتى أثناء سكره فى بعض مجالس أنسه ، واستأثر بدر بعد مصرع سيده بحكم المدينة ، وأقرته ست الملك على ولايته[1] .

وعنيت ست الملك أيضا بأمر السياسة الخارجية : فبعثت نيقفور بطريرك بيت المقدس ، سفيرا الى باسيل الثانى قيصر قسطنطينية ، ليعمل على عقد أواصر التفاهم ، والصداقة بين الدولتين ، ويقفه على ما اتخذه بلاط القاهرة من الإجراءات لتحرير النصارى ، ورفع الإرهاق عنهم وحمايتهم فى أنفسهم وأموالهم ، وتجديد الكنائس ولاسيما كنيسة القيامة ، وما ترجوه مصر من عقد السلم والتفاهم مع الدولة البيزنطية ، واستئناف العلائق التجارية معها ؛ ولكن هذه السفارة لم تثمر ثمرتها لأن ست الملك توفيت قبل أن يوفق البطريرك الى أدائها[2] . بيد أن الهدنة المنشودة عقدت بين الدولتين بعد ذلك بأربعة أعوام (سنة ٤١٨ هـ) ، وأعيد المسجد بقسطنطينية كما أعيدت كنيسة القبر المقدس ، وأذن لمن أظهر الإسلام أيام الحاكم قسراً عنه ، أن يعود إلى النصرانية ، فعاد إليها كثير منهم[3] .

ولبثت هذه الأميرة القوية النابهة منذ مصرع أخيها ، مدة ثلاثة أعوام ، تسهر على مصاير الدولة ، وعلى توطيد دعائمها ، وتوجيه شؤونها بفطنة وبراعة ؛ ثم توفيت فى أواخر سنة ٤١٤ هـ ، وقد بلغت الخامسة والخمسين[4] .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٩٥ .

(٢) الأنطاكى ص ٢٤٤ .

(٣) المقريزى فى الخطط ص ١٦٩ .

(٤) هذه رواية الأنطاكى ، وفى رواية أخرى أنها توفيت سنة ٤١٥ هـ .

الفصل الثانى عشر

معترك الأساطير

غموض المأساة . روايات من نوع آخر . الرواية الكنسية المعاصرة . رواية أبي صالح الأرمني . رواية ابن العبرى . قصة شروط شبيه الحاكم . مدلول هذه الروايات . أسطورة قبطية عن مصير الحاكم . عقلية الكنيسة فى هذا العصر . عصر الاضطهاد والمعجزات . الروح الذى أملى على الكنيسة مزاعمها . نظرية الإختفاء . بعض قرائن تدل بهـا . الشك فى مصرع الحاكم . مزاعم الدعاة الملاحدة . السجل المعلق على المشاهد . كيف يستعرض حمزة أعمال الحاكم ويعللها . ما يقوله عن بواعث اختفائه . تبشيره برجعته . القيمة التاريخية لهذا السجل . إغفال الرواية لذكره . رسالة الغيبة . ما يقوله الداعى عن غيبة الحاكم . استغلال الدعاة لهذا الزعم . اتخاذه أصلا من أصول مذهبهم . تصويرهم الخرافى لرجعة الحاكم . إشارة حمزة الى هذه الرجعة . اشتقاق هذه النظرية من فكرة المهدى المنتظر . قولهم فى رجعة على وبنيه . هل للدعاة يد فى اختفاء الحاكم أو فى مصرعه ؟ رأى المستشرق ميللر . رجحان نظرية المؤامرة والجريمة . فتنة سكين الداعى .

— ١ —

لم يكن اختفاء الحاكم فى تلك الليلة الشهيرة ، ليلة الاثنين السابع والعشرين من شوال سنة ٤١١ هـ (١٣ فبراير ١٠٢١ م) ، واجتماع مختلف القرائن والآثار على مصرعه بيد الجناة ، خاتمة حاسمة لعهده وسيرته وذكراه . أجل أعلنت وفاة الحاكم ، وأقيم ولده أبو الحسن على مكانه فى كرسى الخلافة ، وذلك يوم النحر (عاشر ذى الحجة سنة ٤١١ هـ) لأسابيع قلائل من اختفائه ، ولقب الظاهر لإعزاز دين الله ، وبدأت الخلافة الفاطمية عهداً جديداً ؛ ولكن ذكرى الخليفه الذاهب ، لبثت تغمر الأفق مدى حين ، وتثير فى المجتمع مختلف الفروض والأساطير . ذلك أن أدلة الجناية لم تكن واضحة ، ولم يقم دليل قاطع على القتل أو الوفاة ؛ ومن جهة أخرى فإن الحاكم بأمر الله لم يكن فيما زعموا ، شخصية عادية يغمرها العدم كما يغمر سائر البشر ،

وتطوى آثارها من ذلك العالم لتغيض فى العالم الآخر ، بتلك البساطة التى أحاطت باختفائه . ألم يكن الحاكم شخصية خارقة تهيم فى الخفاء ، وتزعم الإتصال بعوالم الغيب ، وترنو إلى مدارك السمو فوق البشر ؟ ألم يقدمه الدعاة السريون إلى الناس بأنه « ناطق الزمان » ، وأنه إله وروح حل فى صورة البشر ؟ وهل من كانت هذه خواصه ومزاعمه ، يسرى عليه قانون الفناء كما يسرى على جميع الناس ؟

لقد أجمع معظم الروايات المعاصرة والمتأخرة كما رأينا على أن الحاكم ذهب ضحية المؤامرة والجريمة ، على اختلاف بينها فى مدبرى المؤامرة ومرتكبى الجريمة ، ولكن هذه الروايات ليست كل شىء فى تلك المأساة العجيبة ؛ فهنالك طائفة أخرى من روايات ذات نوع خاص ودلالة خاصة ، لا تأخذ بنظرية المؤامرة والجريمة ، ولكنها تؤيد فكرة الاختفاء العمد والهجرة الأبدية ، وتسبغ بذلك على ذهاب الحاكم لونا من الخفاء الغامض ، كذلك الذى يغمر شخصيته وحياته كلها ؛ وإذا كانت هذه الروايات تجنح فى مجموعها إلى نوع من الأسطورة ، فإنها مع ذلك تدخل فى عداد التاريخ وتستحق الدرس بهذه الصفة ، خصوصاً وأن ما تقدمه إلينا من التفاصيل والوقائع ليس فى ذاته مستحيلا ولا خارقا .

وأول رواية من هذا النوع رواية كنسية كتبت فى عصر الحاكم ذاته ، ووردت ضمن سير البطاركة أو سير البيعة المقدسة ، فى ترجمة الأنبا زخاريا البطريرك القبطى المعاصر للحاكم ؛ وخلاصتها أن الحاكم خرج إلى الجبل ذات ليلة ، وسار فى الجبل ومعه ركابى واحد إلى أن بلغ حلوان ؛ ثم نزل عن حماره ، وأمر الركابى أن يعرقبه ففعل ، ثم أمره بالانصراف إلى القصر وتركه بمفرده ، فعاد الركابى كما أمر ؛ فلما لم يعد إلى القصر فى اليوم التالى ، سأل رجال القصر هذا الركابى عن سيده ، فأجابهم بأنه تركه فى حلوان ، وعاد وحده نزولا على رغبته ، فمضوا فى طلبه ، فوجدوا الحمار معرقباً ، وبحثوا عن الحاكم فى كل موضع ، فلم يجدوه ولم يقفوا له على خبر أو أثر[١].

---

(١) وردت هذه الرواية الكنسية بتفاصيلها التى أوردناها فى المخطوط الكنسى الذى سبقت الإشارة إليه .

ووردت فى تاريخ الكنائس المنسوب لأبى صالح الأرمنى ، والذى كتب فى أواخر القرن السادس الهجرى رواية مماثلة نصها : « وبهذه الناحية (أى حلوان) نزل الإمام الحاكم بأمر الله عن الحمار الذى كان راكبه ؛ وتقدم إلى الركابى الذى كان يصحبه إلى حيث يذهب بأن يعرقب الحمار ، وذهب هو وحده إلى داخل البرية ولم يرجع يعود ، ولا عرف أين توجه إلى يومنا هذا . وكان ذلك فى سنة إحدى عشرة وأربعمائة »[1] .

ويشير مؤرخ نصرانى آخر ، هو ابن العبرى الذى كتب تاريخه فى أواخر القرن السابع الهجرى إلى مثل هذا الرأى ، فيقول فى حوادث سنة ٤١١ ﻫ : « وفيها فقد الحاكم بن العزيز بن المعز العلوى صاحب مصر ، ولم يعرف له خبر » ، ثم ينقل قصة طوافه ومصرعه عن رواية القضاعى التى أوردناها فيما تقدم ، وذلك على سبيل الرواية والترديد فقط[2] .

وتقول الرواية الكنسية أيضاً : « ولم تزل الناس مدة غيبة الحاكم وإلى أن انقضت مدة ولده يقولون إنه بالحياة . وكثير كانوا يتزيون بزيه ، ويقول كل واحد منهم أنا الحاكم ، يتراءون للناس فى الجبال حتى يأخذوا منهم الدنانير » . ثم تروى لنا قصة رجل يسمى « شروط » كان نصرانياً وأسلم ، ثم تعلم السحر والشعوذة ، وكان يشبه الحاكم شبهاً عجيباً ، ولو أنه أطول منه بقليل ؛ فلما اختفى الحاكم ظهر فى الناس باسم « أبى العرب » ، وادعى أنه الحاكم ، والتف حوله بعض الناس ، وكان يطالب الأغنياء بالمال ، ويقول لهم إنه سيعيده إليهم عند رجعته إلى مملكته ؛ ثم استتر طيلة عهد الظاهر ، وهو مستمر على دعواه حتى اعتقد كثير من الناس أنه الحاكم ، وأنه يخفى نفسه لأمر مكتوم لا يعرفه سواه ؛ وفى أوائل عهد المستنصر نزح إلى البحيرة ونزل عند بعض البدو ، وتظاهر بالنبوة ومعرفة الغيب ، واستمر فى دعواه أنه الحاكم وأنه يعتزل الحياة العامة ، حتى ينتهى قطع طالعه الذى يخشاه ؛ ولما ذاع أمره . واهتمت السلطات بمطاردته توارى عن الأنظار ، ولبث مختفياً حتى عرف بأمره البطريرك سانونيوس ، وأنفذ إليه مالا وتعهده بعونه ورعايته[3] .

---

(١) تاريخ أبى صالح الأرمنى ص ٥٢ ب .

(٢) مختصر تاريخ الدول ص ٣١٢ و ٣١٣ .

(٣) المخطوط الكنسى المشار إليه .

وأول ما يلفت النظر فى هذه الرواية الكنسية ، هو أنها لا تشير أية إشارة إلى فكرة المؤامرة أو الجريمة ، بل لا تشير مطلقاً إلى فكرة الوفاة ، ولكنها تميل فى مجموعها إلى تأييد فكرة الغيبة والاختفاء ، وتستأنس فى ذلك بالإشاعات والأساطير التى ذاعت فى ذلك الشأن منذ اختفاء الحاكم ، واستمرت ذائعة أيام ولده الظاهر .

على أن الرواية الكنسية لا تقف عند ذلك الحد . ذلك أن ابن العبرى يحدثنا عن مصير الحاكم بعد اختفائه ، ويقول لنا إن كثيراً من الناس اعتقدوا حين اختفائه أنه لجأ إلى مكان بالصحراء واعتنق النصرانية ، ثم ترهب وقضى أيامه هنالك ؛ ثم يقول إنه ، أى المؤرخ ، حينما كان بدمشق سمع بعض كتاب الأقباط ، يقولون إن الحاكم حينما اشتد فى مطاردة النصارى ، ظهر له يسوع المسيح كما ظهر لبولس الرسول فآمن به ، وتوارى سراً فى الصحراء حتى توفى[1] .

ومما يجدر ذكره أن هذه الأسطورة — أى أسطورة تنصر الحاكم وترهبه — ليست هى الأولى من نوعها ، فقد نسب جده المعز لدين الله إلى مثل ما نسب إليه ، وزعمت الرواية الكنسية أن المعز تأثر بما شهده من معجزة نصرانية ، هى تحرك جبل المقطم لدى صلوات الأحبار النصارى وتضرعاتهم ، فنزل عن الخلافة لولده العزيز وتنصر وترهب ، ودفن بإحدى الكنائس[2] . ويجب لكى نقدر مغزى هذه الروايات الكنسية أن نذكر الظروف التى نشأت فيها ، وأن نذكر موقف الكنيسة القبطية ، ونفسية المجتمع النصرانى فى عصر الحاكم بأمر الله ؛ فقد عانت الكنيسة وعانى النصارى فى هذا العصر ، ضروباً مرهقة من الإضطهاد المادى والمعنوى ، وجازت الكنيسة شر محنة نزلت بها منذ عصر الإضطهاد الرومانى ، فهدمت بيعها وأديارها ، ونهبت أموالها ، وبدد تراثها

---

(١) لم ترد هذه الرواية فى جميع التراجم العربية التى انتهت إلينا من تاريخ ابن العبرى ؛ ولكن الظاهر أنها وردت فى الأصل السريانى . وقد كتب ابن العبرى تاريخه بالسريانية ثم ترجم بعد ذلك ؛ وأوردها المستشرق دى ساسى فى كتابه **Religion des Druses : I. p. 417** .

(٢) كتاب الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج ٢ ص ٢٤٨ . وراجع كتابى « مصر الإسلامية » ص ٧٨ وما بعدها .

المقدس ، وثل الأحبار كل هيبة ونفوذ ، وامتحن الكثير منهم ، وعانى المجتمع النصرانى من القوانين والفروض الجديدة شر ما تعانيه أقلية مضطهدة ، من ضروب العسف والذلة والإرهاق ؛ ومن ثم فإن الروايات الكنسية المعاصرة تصور لنا هذا العصر ، عصر استشهاد للكنيسة ورعاياها ، وتحدثنا فى مواطن عديدة عن مختلف المعجزات النصرانية ، التى ظهرت فى هذا العصر ، والتى كانت الكنيسة تستمد منها العزاء والصبر على مغالبة المحنة ؛ ومنها قصة فتى مسلم يسمى ابن رجاء تأثر بمعجزات المسيح فتنصر وترهب ، ورسموه قديساً باسم بولس ولقبوه بالواضح ؛ ومنها قصة أبى نجاح النصرانى ، وكان من أعيانهم وأكابرهم ، فأراد الحاكم أن يرغمه على الإسلام فأبى فأمر بجلده حتى توفى ، وزعمت الأسطورة أن الماء كان يقطر من لحيته أثناء ضربه ، وأن المسيح ظهر له وتولى سقايته أثناء تعذيبه ؛ وقصة الرئيس فهد الوزير ، فقد قتله الحاكم لأنه أبى الإسلام ، وأمر بإحراق جثته ، ولكن النار لم تؤثر فيها ؛ وقصة البطريرك زخاريا فقد اعتقله الحاكم وطرحه للسباع لتأكله ولكنها نفرت منه ولم تمسه بأذى[1] ؛ وغير ذلك من الخوارق المزعومة ، التى تدل على روح الكنيسة وعقليتها فى هذا الظرف العصيب ، وعلى جنوحها إلى الاستعانة بسيل من الأساطير والمعجزات الجديدة ، لتأييد هيبتها المصدوعة ، وتقوية نفوس رعاياها المؤمنين بقدرتها وسلطانها .

فهل نعجب إذا كانت الرواية الكنسية ، تحدثنا عن مصير الحاكم بأمر الله بهذا الروح ذاته ، فتحيط هذا المصير بأسطورة من أساطيرها ، وتضيف بذلك معجزة إلى معجزاتها ؟ إن فى تقديم الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمى ، فى ثوب النادم المستنيب ، يبدو له المسيح ، فيرتد عن دينه ويعتنق النصرانية ، ثم يترهب ، ويقضى بقية حياته فى بعض الأديار النصرانية ، لأعظم معجزة تقدمها الكنيسة إلى المؤمنين ، وأعظم ظفر تستطيع أن تصوره لرعاياها ، فى هداية ذلك الذى أنزل بهم شر البلايا والمحن أعواماً مديدة ، ثم انتهى به المطاف إلى أن غدا جندياً من جند المسيح. إن هذه الخاتمة لأعظم عقاب للآثم ، وأعظم ترضية للكنيسة والمؤمنين ، وأبلغ انتقام يمكن أن تنزله الكنيسة بخصيمها .

---

(١) راجع المخطوط الكنسى المشار إليه .

— ٢ —

ولا ريب أن التاريخ لا يمكن أن يحفل بمثل هذه الأسطورة ، التى لم يؤيدها أى دليل أو أية قرينة سوى الرواية الكنسية التى تنفرد بترديدها ، والتى تنم فى الحال عما وراءها من الغايات والبواعث ؛ بيد أن هنالك فى الرواية الكنسية الأولى شيئاً واحداً يمكن الوقوف به ، وهو ما تنوه به من اختفاء الحاكم أو غيبته دون الإشارة إلى مصرعه بصورة من الصور . ذلك أن هذه النظرية — نظرية الإختفاء — لم تكن دون صدى فى حوادث العصر ووثائقه . وإذا استبعدنا فكرة المؤامرة والجريمة مدى لحظة ، واستبعدنا ما ينسب إلى الأميرة ست الملك ، من أنها هى التى دبرت مصرع أخيها على الوجه الذى بسطنا ، فإن الحوادث والقرائن الأولى التى أعقبت لية السابع والعشرين من شوال ، تسبغ على فكرة الإختفاء مسحة من الإحتمال . ذلك أن مصرع الحاكم أو وفاته ، لم يكن أول ما خطر لرجال القصر والدولة ، بل كان أول ما خطر لهم فكرة الغيبة ، فخرجوا فى أثر الحاكم عدة مرات يبحثون عنه ويستقصون أثره قبل أن يؤمنوا بمصرعه ؛ ولبث الكرسى الخلافى شاغراً مدى ستة أسابيع حتى يوم عيد النحر (العاشر من ذى الحجة) ، ولم تعلن بيعة الخليفة الجديد حتى استقر لدى رجال الدولة أن الحاكم لقى حتفه بصورة من الصور ، أو على الأقل قد ذهب إلى غير ما عودة ؛ بيد أن فكرة مصرعه مهما كانت الصورة التى صورت بها ، ومهما كان الذين نسب تدبيرها أو تنفيذها إليهم ، لم تكن فيما يبدو من روايات العصر وأحاديثه ، حقيقة مقررة ، ولم تكن رأى السواد الأعظم من الناس . بل لقد أشارت بعض الروايات التى سلمت بمصرع الحاكم إلى صدى هذا الشك فى مقتله ، فنرى ابن خلكان مثلا يقول فى ترجمة الظاهر ولد الحاكم ما يأتى : « وكانت ولايته بعد أبيه بمدة ، لأن أباه فقد فى السابع والعشرين من شوال سنة إحدى عشرة وأربعمائة ؛ وكان الناس يرجون ظهوره ، ويتبعون آثاره إلى أن تحققوا عدمه ، فأقاموا ولده المذكور فى يوم النحر »[1] .

هذا وقد ألقى الدعاة الملاحدة ، أعنى حمزة بن على وصحبه ، فى اختفاء

---

(١) ابن خلكان ج ١ ص ٤٦٣ .

الحاكم فرصة لإذكاء دعوتهم وتغذيتها ، واتخذوا من هذا الإختفاء وظروفه الغامضة ، مستقى جديداً للزعم والإرجاف ؛ فزعموا أن الحاكم لم يقتل ولم يمت ، ولكنه اختفى أو ارتفع إلى السماء ، وسيعود عند ما تحل الساعة فيملأ الأرض عدلا ، وأضحى هذا الزعم أصلا مقرراً من أصول مذهبهم .
وقد انتهت إلينا فى هذا الزعم ، أى زعم الغيبة والرجعة ، وثيقة هامة بقلم كبير الدعاة حمزة بن على ذاته ، وفيها يشرح لنا ظروف هذا الإختفاء وبواعثه على ضوء دعوته وأصول مذهبه . وإليك ما جاء فى تلك الوثيقة الهامة التى تقدم رغم غرابة شروحها ومزاعها إلى المؤرخ مادة للتأمل :

يقدم إلينا حمزة رسالته بهذا العنوان « نسخة السجل الذى وجد معلقاً على المشاهد فى غيبة مولانا الإمام الحاكم » وهى التى يفتتح بها رسائله فى متن الدعوة وأصولها حسبما نذكر بعد .

ويؤرخ الداعى هذه الرسالة بشهر ذى القعدة سنة ٤١١ ﻫ أعنى عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل ، ويفتتحها بدعوة الناس إلى المبادرة « بالتوبة إلى الله تعالى ، وإلى وليه وحجته على العالمين وخليفته فى أرضه ، وأمينه على خلقه أمير المؤمنين » وأنه قد سبق إليكم ، أعنى إلى الناس « من الوعد والوعظ والوعيد من ولى أمركم وإمام عصركم ، وخلف أنبيائكم ، وحجة باريكم وخليفته ، الشاهد عليكم بموبقاتكم ، وجميع ما اقترفتم فيه ، من الإعذار والإنذار ، ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع واهتدى ، وجاهد نفسه عن الهوى ، وآثر الآخرة عن الدنيا ، وأنتم فى وادى الجهالة تسبحون ، وفى تيه الضلال تخوضون وتلعبون ، حتى تلاقوا يومكم الذى كنتم به توعدون » .

وإن أمير المؤمنين قد أسبغ على الناس نعمه ، ولم يفر عليهم شيئاً منها ، ولم يبخل عليهم بجزيل عطائه ، ولم يشاركهم فى شىء من أحوال هذه الدنيا « نزاهة عنها ورفضاً منه لها على مقداره ومكنته ، لأمر سبق فى حكمته ، وهو سلام الله عليه أعلم به ، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه ، ما لم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم . . . ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق ، ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى ، بل منة منه عليكم ولطفا بكم

ورأفة ورحمة ، واختباراً ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، ولتعرفوا قدر ما خصكم به فى عصره ، من نعمته وحسن مننه ، وجميل لطفه وإحسانه ، وعظيم فضله دون من قد سلف من قبلكم » .

وأنه قد أجرى عليهم الأرزاق والنعم ، من الذهب والفضة والخيل المسومة والإقطاع والضياع ، ورفعهم إلى ذرى المراتب ، وشرفهم بأرفع الألقاب ، حتى غدوا سادة يحكمون ويطاعون ، وعاشوا فى نعماء ورغد ، فأقبلوا على الدنيا واغتروا بها ؛ وظنوا أنها سبيل الفوز فى الآخرة ، وتظاهروا بالطاعة ، فى حين أنهم متمسكين بالمعصية ، ثم يقول الداعى :

« ثم من نعمه الباطنة عليكم ، إحياؤه لسنن الإسلام والإيمان ، التى هى الدين عند الله ، وبه شرفتم وطهرتم فى عصره على جميع المذاهب والأديان ، وميزتم من عبدة الأوثان ، وأبانهم عنكم بالذلة والحرمان ، وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم . . . وانقادت الذمة إليكم طوعاً وكرهاً ، فدخلوا فى دين الله أفواجاً ، وبنى الجوامع وشيدها وعمر المساجد وزخرفها ، وأقام الحج والجهاد ، وعمر بيت الله الحرم ، وأقام دعائم الإسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفق فى سبيله ، وخفر الحاج بعساكره ، وحفر الآبار ، وآمن السبيل والأقطار ، وعمر السقايات ، وأخرج على الكافة الصدقات ، وستر العورات ، وترك الظلمات ، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات ، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً ، وفتح لكم أبواب دعوته ، وأيدكم بما خصه الله من حكمته ، ليحثكم على طاعته وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام ، فشينتم العلم والحكمة ، وكفرتم الفضل والنعمة ، وآثرتم الدنيا كما آثروها قبلكم بنو إسرائيل فى قصة موسى عليه السلام ، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام ، وغلق باب دعوته وأظهر لكم الحكمة ، وفتح لكم خارج قصره دار علم حوت من جميع علوم الدين وآدابه ، وفقه الكتاب فى الحلال والحرام والقضايا والأحكام . . . وأمدكم بالأوراق والدواة والحبر والأقلام ، لتدركوا بذلك ما تمضون به وتستبصرون . . . » .

ثم يقول حمزة بعد أن يستعرض أعمال الحاكم على هذا النحو إنهم أى الناس ، لم يزدادوا إلا ضلالا وإثماً وتمادوا فى غيهم وفجورهم ، وينعى على

الناس هذه النازلة الأليمة ، ويحذرهم من عواقبها . ثم يقول مشيراً إلى اختفاء الحاكم : « فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه ، من عظم إسراف الكافة أجمعين ، ولذلك خرج من أوساطكم ، قال الله ذوالجلال والإكرام : « وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم » ، وعلامة سخط ولى الله تعالى تدل على سخط الرب تبارك وتعالى . فمن دلائل غضب الإمام ، غلق باب دعوته ورفع مجالس حكمته ، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره ، ومنعه عن الكافة سلامه ، وقد كان يخرج إليهم من حضرته ، ومنعهم من الجلوس على مصاطب سقائف حرمه ، وامتناعه عن الصلاة بهم فى الأعياد وفى شهر رمضان ، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الأذان ولا يذكرونه ، ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ولا يقبلوا له التراب ، وإنهاؤه جميعهم من الترجل عن ظهور الدواب ، ثم لباسه الصوف على أصناف ألوانه ، وركوبه الأتان ، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة فى موكبه ، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره ، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم ، وهم عن جميع ذلك فى غمرة ساهون . . . » ومن ثم « فقد ترك ولى الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى ، يخوضون ويلعبون فى التيه والعمى ، الذى آثروه على الهدى » .

ويختتم الداعى رسالته الغريبة ، بتكرار الدعوة إلى التوبة والاستغفار ، وأن يتجه المؤمنون بأبصارهم إلى الطريق التى سلكها أمير المؤمنين « وقت أن استتر » وأن يجتمعوا فيها بأنفسهم وأولادهم ، وأن يطهروا قلوبهم ، ويخلصوا نياتهم لله رب العالمين ، وأن يتوسلوا إليه بالصفح والمغفرة ، وأن يرحمهم بعودة وليه إليهم. . . « والحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين أثراً ولا تكشفوا له خبراً ، ولاتبرحوا فى طريق يتوسل جميعكم . . . فإذا أطلت عليكم الرحمة ، خرج ولى الله أمامكم باختياره راضياً عنكم ، حاضراً فى أوساطكم ، فواظبوا على هذا ليل نهار ، قبل أن تحق الحاقة ويغلق باب الرحمة ، وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة ، وقد أعذر من أنذر . . الخ» .

ويؤرخ الداعى رسالته بذى العقدة سنة إحدى عشر وأربعمائة ، وينعت

نفسه فيها بمولى دولة أمير المؤمنين ، ويذيلها بالحث على نسخها وقراءتها والعمل بما فيها[١] .

وهذا السجل يعتبر وثيقة مدهشة ، وربما كان بروحه وأسلوبه أقوى رسائل الدعاة وأهمها ، ومما يلفت النظر بنوع خاص ما يطبعه من حرارة وأسى ؛ وإذا كنا لا نستطيع أن نؤمن بأن الداعى يصدر فيه عن إيمان حقيقى ، فإنه ينم على الأقل عن براعة الداعى ، فى عرض ما يريد أن يعتبره الناس أساساً لعقيدة مدهشة ؛ هذا إلى أن هذا « السجل » يعتبر وثيقة تاريخية هامة ، بما يقدمه إلينا عن أعمال الحاكم وتصرفاته المختلفة ، فى بادئ عهده ثم فى خاتمته .

على أنه مما يلفت النظر أيضاً أن الروايات الإسلامية والنصرانية ، المعاصرة والمتأخرة ، لا تشير أية إشارة إلى هذا « السجل » ، الذى يقول لنا الداعى إنه وجد معلقاً على المشاهد ؛ ولو وقعت مثل هذه العلانية فى إذاعة السجل بمساجد مصر لما أغفلت الرواية الإشارة إليها ، ولعل الدعاة حاولوا إذاعته فلم يفلحوا ، وقد اشتدت عليهم وطأة المطاردة ، عقب مصرع الحاكم كما رأينا ، فلاذوا بالاختفاء والاستتار ، وأصدر الظاهر ولد الحاكم سجله الشهير بالتبرؤ من تلك المزاعم الخارقة حسبما نذكر بعد .

وإلى جانب هذه الوثيقة ، التى كتبها حمزة بن على عقب اختفاء الحاكم ، والتى يحاول فيها أن يعلل هذا الاختفاء وأن يشرح بواعثه ، وأن يطمئن المؤمنين على رجعة سيده ومولاه ، توجد بين رسائل الدعاة وثيقة عنوانها « الغيبة » تمس نفس الموضوع من ناحية أخرى ، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بثلاثة أشهر عن لسان قائم الزمان (أى الحاكم بأمر الله) بقلم داع مجهول . والظاهر أن كاتبها هو المقتنى أحد أكابر الدعاة وأحد « الحدود الخمسة » حسبما نوضح بعد ، وقد وجهت إلى أهل الشام خاصة ، وفيها يذكرهم قائم الزمان بالعهد الذى قطعوه ، ويحذرهم من الدجال الذى يزعم أن الألوهية انتقلت إليه ، والذى عاند الموحدين وحاصرهم ، ويقول إن

---

(١) ورد هذا السجل فى مجموعة خطية قديمة تحفظ فى دار الكتب برقم ٣٧ عقائد النحل وقد نشرناه كاملا فى نهاية الكتاب فى قسم الوثائق .

الدين لا يصح إلا عند الامتحان ، ثم يخاطب الموحدين بقوله :

« معشر الموحدين ، إذا كنتم تتحققون أن مولاكم لا تخلو الدار منه ، وقد عدمته أبصاركم ... و إذا فسدت المعدة ضرت البصر ؛ فهكذا إذا كانت المادة واصلة إلى النفوس الصحيحة ، فينظروا صورة الناسوت نظراً صحيحاً ، وإذا كانت المادة من فعل الأبالسة ومادة النطقاء والأنس وشرائعهم ، فيفسد النظر وما ينظر إلا بشر .

« واعلموا معاشر الموحدين لمولانا الحاكم المعبود ، سبحانه وتنزه عن الحد والمحدود ، أن قائم زمانكم يطالبكم ، وقد شهدتم فى مواثيقكم بعضكم على بعض ، بما شرطتموه على نفوسكم ... »[١] .

ثم يشير إلى أن كثيراً من الموحدين ، ارتدوا عما كانوا أقروا به وهو الاعتراف بألوهيته ، ويحذرهم من سلوك هذا الطريق ؛ ويشير إلى « الدجال » ويقول إنه قتـل الكثيرين بسبب عبادة الحاكم ؛ وإن المولى غنى عن عبادتهم ، وإنما هى أعمالهم ترد عليهم . ثم يقول : « ألم تعلموا أن مولاكم يراكم من حيث لا ترونه . . معشر الإخوان أحسنوا ظنكم بمولاكم ، يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم » .

ويلوح لنا أن هـذا « الدجال » المشار إليه فى هذه الرسالة إنما هو عبد الرحيم بن إلياس ولى العهد ، ووالى الشام ؛ فقد اشتد فى مطاردة الدعاة ، حينما ظهرت دعوتهم بالشأم ، وفتك بكثير من أتباعهم وأنصارهم ، وهو ما تشير إليه الرسالة .

تلك هى النظريات والشروح الغريبة التى لجأ اليها الدعاة السريون لتفسير اختفاء الحاكم وغيبته ؛ ولا ريب أن اختفاء الحاكم على هذا النحو الفجائى ، كان ضربة شديدة للدعاة ، فقد كان الحاكم ملاذهم وحاميهم ، وكان شخصه محور دعوتهم وعماد مزاعمهم ؛ فلما اختفى الحاكم انهارت الدعوة فى مصر بسرعة ، وتفرق الدعاة فى مختلف الأنحاء اتقاء المطاردة . ولكن الدعاة ألفوا فى هذا الظرف ذاته مستقى جديداً لدعوتهم ، فقد اختفى الحاكم

(١) وردت هـذه الرسالة فى المجموعة المخفوظة بدار الكتب برقم ٥٤ عقائد النحل ، والمجموعة المحفوظة برقم ٢٠ عقائد النحل مع شرح لها .

ولكن الى رجعة ، وليس على المؤمنين أن يعرفوا أين اختفى ، ولكن عليهم بالصلاة والاستغفار حتى يرضى عنهم ، ويعود إليهم عندما تحل الساعة ؛ ذلك لأنه اختفى غضباً عليهم لما أمعنوا فيه من الآثام والخطايا ، ولن يظهر إلا عندما تصفو قلوب المؤمنين وتصفو نياتهم ؛ وفى هذا الاختفاء ذاته ، دليل ساطع على ألوهيته وخارق قدرته ، وهو فى السماء أو فى الأرض روح بلا جسم ، يشرف على عباده « وإنه ليراهم من حيث لا يرونه » .

هذا وقد مضى الى اليوم على مصرع الحاكم تسعمائة وثمانية وثلاثون عاما ، ولا يزال الموحدون يؤمنون برجعته ويرقبونها ؛ ولم يقل لنا الدعاة أنى ومتى تكون هذه الرجعة من عالم الأبدية ، وكل ماهنالك أن حمزة يقول للمؤمنين فى رسالته الشهيرة ، « إنه متى أطلت عليهم رحمة الله ، خرج ولى الله إمامهم باختياره ، راضياً عنهم حاضراً فى أوساطهم . . » . ويكرر الدعاة هذه الإشارة الغامضة الى مثول الحاكم ورجعته فى رسائلهم ، ولا سيما رسالة الغيبة التى أشرنا إليها ، فيقولون : « إن مولاكم لا تخلو منه الدار وقد عدمته أبصاركم » « إن مولاكم يراكم من حيث لاترونه » « أحسنوا ظنكم بمولاكم ، يكشف لكم عن أبصاركم ما قد غطاها من سوء ظنكم » وأمثالها من الإشارات والعبارات الرمزية الغامضة . وخلاصة مزاعمهم فى ذلك هو أنه متى حلت الساعة ، يقوم جند الموحدين من ناحية الصين ، ويقصدون الى مكة فى كتائب جرارة ، وفى غداة وصولهم يبدو لهم الحاكم على الركن اليمانى من الكعبة ، وهو يشهر بيده سيفاً مذهباً ، ثم يدفعه الى حمزة بن على فيقتل به الكلب والخنزير ، وهما عندهم رمز الناطق والأساس ؛ ثم يدفع حمزة السيف الى محمد « الكلمة » وهو أحد الحدود الخمسة ، وعندئذ يهدم الموحدون الكعبة ، ويسحقون المسلمين والنصارى فى جميع أنحاء الأرض ، ويملكون العالم الى الأبد ، ويبسطون سلطانهم على سائر الأمم ؛ ويفترق الناس عندئذ الى أربع فرق : الأولى الموحدون وهم « العقال » أو « العقلاء » ، والثانية أهل الظاهر وهم المسلمون واليهود ، والثالثة أهل الباطن وهم النصارى والشيعة ، والرابعة المرتدون وهم « الجهال » أو « الجهلاء » ؛ ويعمد حمزة الى أتباع كل طائفة غير الموحدين ، فيدمغهم فى الجبين أو اليد بما يميزهم من

غيرهم ، ويفرض عليهم الجزية وغيرها من فروض الذلة والطاعة ، وأما أصحابه فالعقلاء منهم يصبحون أرباب السلطة والمال والجاه فى سائر أنحاء الأرض[١] .

والظاهر أن هذه المزاعم الأخيرة فى سحق أبناء الأديان الأخرى ، مستمدة من أقوال حمزة ذاته فى رسالته المسماة « النهاية والبلاغة فى التوحيد » إذ يقول : « وعن قريب يظهر مولانا جل ذكره سيفه بيدى ، ويهلك المارقين ويشهر المرتدين ويجعلهم فضيحة وشهرة لعيون العالمين ؛ والذى يبقى من فضلة السيف تؤخذ منهم الجزية وهم صاغرون ، ويلبسوا الغيار وهم كارهون »[٢] .

تلك هى نظرية الدعاة السريين ومزاعمهم فى غيبة الحاكم وفى رجعته ، وهى نظرية فى منتهى الإغراق والجرأة ، بيد أنه لا ريب فى سخفها ، وقد ألفى الدعاة بعد انهيار دعوتهم فى مصر ، ملاذا لهم فى الشأم ، فوجهوا اليها أنظارهم ، وحاولوا بشروحهم ومزاعمهم الجديدة ، أن يستبقوا ولاء شيعتهم وأنصارهم هنالك ، ومازالت ثمة بقية من شيعتهم الى يومنا وهم طائفة الدروز .

بيد أن الدعاة لم يكونوا مبتدعين أيضا فى نظريتهم الجديدة ؛ فقد رتبوا فكرة اختفاء الحاكم ورجعته على فكرة قديمة ، هى فكرة بعض غلاة الشيعة فى المهدى المنتظر . ومنذ عصر على بن أبى طالب تتبوأ هذه الأسطورة مكانها . ويزعم هؤلاء الغلاة ، وهم الرافضة ، أن عليا لم يمت ، ولكنه حى غائب عن أعين الناس مستقر فى السحاب ، صوته الرعد ، والبرق سوطه ؛ ومنهم من يقول مثل هذا القول فى ابنه محمد بن الحنفية ، وأنه مستقر فى جبل رضوى من أعمال الحجاز ؛ ويقول آخرون وهم فرقة الإثنا عشرية ، إن هـــذا الإمام المنتظر ، هو محمد بن الحسن العسكرى (وهو أيضا من ولد على) ، وإنه لم يمت ، ولكنه اختفى وغاب عن الأنظار ، ولا يزال مختفيا

---

(١) لخصنا هذه الشروح الأخيرة عن كتاب مخطوط عن طوائف لبنان لم يعرف مؤلفه ، وهو محفوظ بدار الكتب رقم ١٦ م .

(٢) توجد هذه الرسالة فى مجموعة دار الكتب (رقم ١٣٣ عقائد النحل) ، وسنعود الى ستعراض محتوياتها بعد .

الى آخر الزمان ، ثم يخرج فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا [١] .

فالقول باختفاء الحاكم مستمد من هذه الأسطورة القديمة ؛ وقد كانت هذه الأسطورة ، أعنى أسطورة الغيبة والرجعة ، وما يكتنفها من الرموز والغموض ، مبعث الخفاء دائما ؛ وكان هذا الخفاء ذاته مبعث الخشوع والروع فى المجتمعات الساذجة المؤمنة ، وكان مبعثا لأكثر من دعوة بالنبوة والإمامة ، بل كان مبعثا لدعوى الألوهية ذاتها . أليس منتهى الخفاء والروع أن يغيض الحاكم على هذا النحو الى حيث لا يعلم أحد ؟ وقد رأى الدعاة أن يستغلوا هذا الخفاء فى تأييد دعوتهم ، وأن يبثوا بين المؤمنين جوا من الرهبة والخشوع ، لذكرى ذلك الذى اختفى ليعود حين تحين الساعة ، « والذى يرى ولا يرى » .

على أن هناك نقطة غامضة فى موقف الدعاة إزاء هذا الاختفاء ، إذا سلمنا بأن الحاكم اختفى ولم يقتل ؛ ذلك هو الدور الذى يحتمل أن يكون قد أداه الدعاة فى هذا الاختفاء ذاته . فهل للدعاة يد ما فى هذا الإختفاء ؟ وهل دبروه أو اشتركوا فى تدبيره ؟ أليس من المحتمل أن يكون الدعاة هم الذين أقنعوا الحاكم بأن يختفى تقوية للدعوة ، وتمكينا للزعم بألوهيته لدى الأولياء والكافة ؟ بل نستطيع أن نتساءل أيضا ، أليس من المحتمل أن يكون الدعاة قد فكروا فى اغتيال الحاكم خدمة لدعوتهم ، وأنهم دبروا مؤامرة لاغتياله أو اشتركوا فى تدبيرها ، واستطاعوا أن يحكموا تدبير جريمتهم ، لكى يستغلوا بعد ذلك فكرة الإختفاء على النحو الذى أسلفنا ؟ هذه أسئلة قد تخطر على الذهن فى مثل هذا الموطن ، خصوصا وقد كان حمزة وصحبه أهلا لكل اجتراء ، ولا تبعد فكرة الجريمة عن أولئك الذين اجترأوا على زعم الألوهية البشرية ، وسفكوا فى سبيلها دماء الأبرياء . بيد أن هذه مسائل يحيط بها الظلام المطبق ، ولا يقدم التاريخ إلينا عنها أية لمحة أو ضياء ، ومن المستحيل أن نعاملها بأكثر من فروض عارضة ، وستبقى أبد الدهر على التاريخ لغزاً مغلقاً .

بيد أنه من الغريب أن تلقى هذه الفروض المغرقة سبيلها الى دوائر البحث

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ص ١٦٥ .

الحديث . فنرى المستشرق ميللر مثلا يأخذ بنظرية اختفاء الحاكم ويعلق عليها بما يأتى : « أما إن أخته قد دبرت قتله لخوفها من تنفيذ وعيده لها بالقتل ، فهو حديث خرافة ، والواقع أن مصيره لم يعرف قط ، وعندى أنه طبقاً لكل ما نعرفه من حياته ، قد رأى استحالة تحقيق مبادئه فى مصر ، فاعتزل الحياة واختفى فى مكان ما ، ليقضى حياته بعيداً عن الأنظار ، لكى يعتقد أنصاره على الأقل أنه هو « الناطق » حقيقة (ناطق الزمان) وأنه سيعود من رمسه آخر الزمان فى شخص الإمام أو المهدى ؛ وهذا ما لا يزال ماثلا الى اليوم فى عقائد الدروز »[1] .

أما نحن فما زلنا نرجح نظرية المؤامرة والجريمة . وسواء أكانت المؤامرة من تدبير ست الملك ، أم من تدبير ابن دواس ، أم كانت من تدبير الدعاة أنفسهم ، وسواء أكان الذى ارتكب الجريمة هم عبيد ابن دواس ، أم البدو الذين اعترضوا الحاكم ليلة اختفائه ، أم آخرون لم يعرفوا ؛ وسواء أكانت البواعث السياسية أم البواعث الدينية هى التى أملت بتدبير المؤامرة وارتكاب الجريمة ، فإن ما لدينا من الروايات والقرائن ، على أن الحاكم قد زهق ضحية الجريمة ، يرجح فى نظرنا كل فرض آخر مما استعرضنا .

وليس من المستحيل أيضا ، أن يكون الحاكم قد اختفى من تلقاء نفسه ، أو بتحريض الدعاة ، لبواعث أومشاريع خيالية أو جنونية قامت فى نفسه ؛ بيد أن هذا الفرض يبدو فى نظرنا من الضعف والإغراق ، بحيث لا نجد له موضعاً من التاريخ .

* * *

هذا والظاهر أن فكرة اختفاء الحاكم بأمر الله ، لبثت مدى حين تردد بين آونة وأخرى حتى أوائل عهد المستنصر بالله ، أعنى بعد وقوع الحادث بنحو ربع قرن . وقد أشرنا فيما تقدم الى قصة ذلك المشعوذ الذى تسمى « بأبى العرب » وزعم حينا أنه الحاكم ثم توارى بعد ذلك . بيد أن هنالك قصة أخرى من هذا النوع كادت أن تحدث فتنة حقيقية ؛ ففى رجب سنة ٤٣٤ هـ (١٠٤٣ م) فى أوائل عهد المستنصر ، ظهر بمدينة مصر شخص

---

(١) Von Müller : Ibid ; B. I. p. 633

يدعى « سكين » كان يشبه الحاكم فى بعض ملامحه ، وادعى أنه الحاكم ، وأنه بعث بعد موته وعاد من غيبته ؛ وقد كان سكين من عصبة الدعاة السريين منذ أيام حمزة ، وقد ورد ذكره فى بعض رسائلهم . والظاهر أن الدعاة أرادوا بدفعه الى هذه المغامرة ، أن يحاولوا إثارة الفتنة التى خمدت ، وأن يطبقوا نبوءاتهم وما بشروا به فى رسائلهم من رجعة الحاكم بصورة عملية ؛ فالتف حوله فل الملاحدة من شيعة الدعاة ، الذين يعتقدون أو يتظاهرون بالاعتقاد فى هذه الخرافة؛وفى ظهر ذات يوم سارسكين وأصحابه الى القاهرة ، وقصدوا الى القصر الكبير ، ولما حاول الجند منعهم نادى الملاحدة بأنه الحاكم ، قد عاد من غيبته ، فارتاع الجند مدى لحظة ، ثم ارتابوا فى الدعى فقبضوا عليه ، وحملوا على صحبه ، واشتبك الفريقان فى معركة حامية ضجت لها أرجاء القصر ، وقتل من الملاحدة عدد كبير وأسر الباقون ، وصلب سكين وأصحابه وقتلوا بالنبال شر قتلة[1] .

وكانت هذه آخر مغامرة من نوعها ، ولا نسمع بعد ذلك شيئاً عن أولئك الدعاة الملاحدة أو دعوتهم بمصر ، ولا نجد بعد ذلك أثراً لأسطورة غيبة الحاكم أو رجعته ، إلا فى الشأم حيث استقرت الدعوة فى بعض أنحائه ، ورسخت حتى يومنا .

---

(١) ابن الأثير ج ٩ ص ١٧٧ ، وأبو الفدا ج ٢ ص ١٦٦ .

الفصل الثالث عشر

عصر الخفـــاء

عصر الخفاء فى مصر الإسلامية . الشبه بينه وبين عصر الخفاء الأوربى . ما يحيط بالدولة الفاطمية من الغموض والخفاء . اتشاح الخلفاء الفاطميين بهـذا اللون الخفى . ما يقول المعز فى كتابه الى القرمطى . شغف الخلفاء الفاطميين بأمور الغيب والتنجيم . بعض روايات فى ذلك . خفاء الرسوم الفاطمية ومجالس الحكمة . عصر الحاكم ذروة الخفاء . الشغف بالمجهول والخارق . ما تقوله الأسطورة عن الحاكم . إبطال التنجيم . عيون الحاكم وجواسيسه . اختفاء الحاكم عامل فى إذكاء الخفاء . عصر الخفاء الإســلامى وعصر الخفاء الأوربى . تماثل المزاعم والدعوات . الفارق بين العصرين .

كان عصر الحاكم بأمر الله ذروة الخفاء فى تاريخ مصر الإسلامية ؛ وكانت شخصية من أعجب ما عرف التاريخ : شخصية يحيط بها الخفاء من كل ناحية ، وتثير من حولها الدهشة والروع ، فى كل تصرفاتها العامة والخاصة ، ويلازمها الخفاء لا فى هذه الحياة الدنيا وحدها ، ولكن فى الحياة الأخرى أيضاً ، حيث تغادر هذا العالم فى ظروف كالأساطير ؛ وذهن هائم مضطرم ، كما أنه يهبط فى تصرفاته أحياناً إلى ضروب مثيرة من التطرف والتناقض والشذوذ ، فإنه يرتفع أيضاً إلى ضروب من الحكمة والسمو تحمل على التقدير والتأمل . وكانت هذه الشخصية العجيبة تفيض من خفائها ، على المجتمع الذى تقبض على أقداره ومصايره ، وتطبع العصر كله بطابعها العجيب .

ولقد كان النصف الأخير من القرن العاشر الميلادى (النصف الأخير من القرن الرابع الهجرى) عصر الخفاء فى مصر الإسلامية ، كما كان القرن الثامن عشر عصر الخفاء فى أوربا ؛ وكما امتاز عصر الخفاء الحديث بالتعلق بالمجهول والخارق ، والتطلع إلى مدارك الغيب ، وذيوع الدعوات الإلحادية ، وقيام الجمعيات السرية المختلفة ، فكذلك يمتاز عصر الخفاء فى مصر الإسلامية ،

بنزعة إلى استكشاف الغيب ، وإحياء عصر الخوارق ، وقيام الفرق الدينية السرية ، وبث الدعوات الإلحادية المغرقة . ويرجع هذا التشابه بين العصرين إلى ظاهرة تاريخية معروفة ، هى أن عصور الخفاء فى جميع مراحل التاريخ ، تلتقى جميعاً على اختلاف الظروف والأحوال فى نقطة واحدة ، هى التعلق بالخارق والمجهول ، وهى قبلة يتجه إليها الذهن البشرى فى جميع العصور والمجتمعات .

قامت الدولة الفاطمية بالمغرب فى ظروف غامضة ، وكانت إمامتها ثمرة دعوة سرية يغمرها الخفاء والريب ؛ وكان أول خلفائها عبيد الله المهدى ، شخصية غامضة لم يستطع التاريخ أن يقف على حقيقتها أو يتقصى نسبتها ، وقدم الفاطميون إلى مصر يحيط بهم وبأصلهم ونسبتهم وغاياتهم نفس الغموض والريب ، وقد كان هذا الخفاء الذى يغمر هـــذه الدولة القوية ، من أسباب قوتها ، واتسامها فى نظر الكافة بميسم المقدرة الخارقة .

وبدت الخلافة الفاطمية منذ قيامها بمصر فى سنة ٣٦٢ ﻫ بهذا المظهر الخاص ، وهبت على المجتمع المصرى فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، ريح من هذا الخفاء الذى تنفثه الخلافة الفاطمية حولها أينما حلت ؛ وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون على الاتشاح بهذه الحجب القاتمة ، التى لا تنفذ إليها أبصار الكافة ، ولا تكشف عما وراءها من المقاصد ؛ بل لقد كان هذا التعلق بالخفاء يتخذ فى أوائل الدولة الفاطمية صورة رسمية ، فنجد الخلفاء الفاطميين يدعون معرفة الغيب ، ويظهرون بمظهر القدسية والارتفاع إلى ما فوق البشر[1] . وفى الكتاب الذى وجهه المعز لدين الله إلى زعيم القرامطة ، وهو الكتاب الذى أشرنا إليه فيما تقدم ، ما يفصح عن هذه الدعوى بصراحة ، ففيه يقول المعز مشيراً إلى أدلة إمامتهم : « وكل ذلك دلالات لنا ، ومقدمات بين أيدينا ، وأسباب لإظهار أمرنا ، هدايات وآيات وشهادات ، وسعادات قدسيات ، إلهيات أزليات ، كاينات منشآت ، مبديات معيدات ، فما من ناطق نطق ، ولا نبى بعث ، ولا وصى ظهر ، إلا وقد أشار إلينا ، ولوح بنا ، ودل علينا فى كتابه وخطابه ، ومنار أعلامه ، ومرموز كلامه ، فيما هو موجود

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢٠ .

غير معدوم ، وظاهر وباطن ، يعلمه من سمع الندا ، وشاهد ورأى من الملأ الأعلى » ثم يقول : « وليعلم من الناس من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ، وأنواره الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات ، ومصابيحه البينات ، وبدايعه المنشآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ، لا يخرج منا أمر ، ولا يخلو منا عصر »(١) .

وكان هذا التطلع إلى مدارك الغيب ، يبدو فى شغف الخلفاء الفاطميين بالفلك والتنجيم ، وكان المعز وولده العزيز يشغف كلاهما برصد النجوم واستقراء ما وراءها من الأحداث . ويروى أن المعز وقف أثناء مباحثه فى استقراء النجوم والطوالع على « قطع » فى طالعه ، يقتضى اختفاءه عن وجه الأرض حولا كاملا ، وأنه نزل فعلا على إشارة النجوم ، فاستخلف ولده العزيز على العرش ، ثم اختفى تحت الأرض فى سرداب صنعه لذلك ، واستمر فى اختفائه سنة كاملة ؛ وكان المغاربة ، وهم أولياء الدولة الفاطمية ، إذا رأوا غماماً سائراً ، ترجل الفارس منهم إلى الأرض ، وأومأ بالسلام يشير إلى أن المعز فيه . ثم خرج المعز بعد اختفائه ، وقد أحاط به سياج من الرهبة والخشوع(٢) .

ومما يروى أيضاً فى دعوى الخلفاء الفاطميين فى المقدرة على استكشاف الغيب ، أن العزيز بالله صعد المنبر ذات يوم فرأى رقعة كتب فيها :

بالظلم والجور قد رضينا وليس بالكفر والحماقه
إن كنت أعطيت علم غيب فقل لنا كاتب البطاقه

ويروى لنا المقريزى فى شغف الخلفاء الفاطميين ، بأمور الغيب والطلسمات السحرية ، أنه اطلع على كتاب عتيق عنوانه « وصية الإمام العزيز بالله لولده الحاكم بأمر الله » يتناول فيه مؤلفه ذكر الطلسمات المختلفة ، التى رصدت على أبواب القصر الفاطمى ، وما أودع فيه من القوة الروحانية لقهر الأعداء

---

(١) اتعاظ الحنفاء (طبعة القاهرة) ص ٢٥٤ و ٢٥٧ . وقد أثبتنا نص هذا الكتاب كله فى قسم الوثائق لأهميته .

(٢) مرآة الزمان (المخطوط) فى الجزء المشار إليه ؛ ونقله النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٧٠ و ٧١ ، وابن الأثير ج ٨ ص ٢٢٠ .

وسحق المنافقين ، وينقل إليا المقريزى أيضاً قصة طلسم ، وجد أيام الظاهر بيبرس فى بناء بعض أبواب القصر الفاطمى القديم ، وهو عبارة عن صنم نحاسى صغير ، يجلس على كرسى أقيم فوق قاعدة هرمية ، وبيده صحيفة بها كتابة باللغة القبطية القديمة ، فلما ترجمت وجد أنها طلسم صنع للظاهر بن الحاكم ، وبه رقى وعزائم ودعوات إلى الله ، بحراسة مصر وثغورها وصرف كيد الأعداء عنها[1] .

بل كان الخفاء يغمر رسوم الدولة الفاطمية ووسائلها وخططها ؛ وقد رأينا كيف عنيت الخلافة الفاطمية منذ استقرارها بمصر ، بتنظيم دعوتها المذهبية السرية وبثها ، وكيف كانت هذه الدعوة تلقى فى مجالس الحكمة ، أحياناً بالقصر وأحياناً بالجامع الأزهر ، وكيف كان يشرف على إلقائها قاضى القضاة نفسه ، ثم داعى الدعاة الذى يليه فى المرتبة والمنصب . وقد صدرت فى عهد الحاكم بأمر الله سجلات عديدة ، بإسناد أمر الدعوة إلى قاضى القضاة ، وتكليفه قراءة ما يقرأ من مجالس الدعوة وكتبها بالقصر ؛ وأحياناً يعبر عن ذلك فى السجل « بأخذ الدعوة على الناس ، وقراءة ما يقرأ على من دخل الدعوة » . وفى سنة ٤٠٠ هـ ، صدر سجل بقطع مجالس الحكمة التى كانت تقرأ على الأولياء فى يومى الخميس والجمعة ؛ ثم صدر فى العام التالى سجل بإعادتها . وكما كانت مجالس الحكمة تتردد أحياناً بين التقرير والإلغاء ، فكذلك كان شأن النجوى أو الإتاوة الإختيارية التى كان يدفعها الأولياء والداخلون فى الدعوة ، فقد كانت تتقرر أحياناً وتلغى أخرى . وإذ كانت الحكمة فى تلك العصور تعنى نوعاً من الفلسفة الحرة ، فإن مجالس الحكمة كانت حسبما نبين بعد ، مزيجاً من الشروح الدينية المذهبية ، والفلسفة الإلحادية ، وكانت لدقتها وخطورتها ، تحاط بسياج من التحفظ والتكتم ، لا ينفذ إليه سوى الخاصة من ذوى الأذهان الحرة . ثم كان قيام دار الحكمة فى عهد الحاكم بأمر الله ، فغدت مثوى الدعوة السرية الفاطمية ، واحتشد فيها الدعاة والنقباء السريون من كل ضرب ، وظهر فى أواخر العهد حمزة وشيعته يبشرون بدعوتهم المغرقة ، وغمر المجتمع المصرى سيل من هذه

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٩٤ و ٢٩٥ .

الدعوات الإلحادية الخفية ؛ وشخصية الحاكم من وراء ذلك كله ، تزداد تعقيداً وخفاء ، وتبث من حولها الدهشة والروع .

ولقد كان عصر الحاكم بأمر الله ذروة الخفاء فى تاريخ مصر الإسلامية ؛ ولم تزدهر الدعوة إلى الخفاء والشغف به ، والتطلع إلى المجهول والخارق ، قدر ازدهارها فى هــذه الفترة ، التى ذاعت فيها الدعوات السرية ذيوعاً غريباً ، ونفذت إلى الطبقات الدنيا من المجتمع ، بعد أن شملت الطبقات العليا . وكان الحاكم نفسه إمام هذه الحركة يغذيها بتصرفاته وقدوته وغريب أطواره ؛ وكان هذا الذهن الهائم المضطرم كأسلافه ، أشد ما يكون شغفاً باستقراء النجوم واستكشاف الغيب ؛ وقد أنشأ الحاكم بفلاة المقطم منزلا خاصاً يخلو به ، ومرصداً يرصد منه النجوم ؛ وقد رأينا كيف كان الحاكم يكثر الخروج ليلا إلى ربى المقطم ، وإلى فضاء البرية ، ويستطلع النجوم ويهيم فى استقرائها ، وكيف أنه حسبما تقول الرواية خرج إلى الجبل ليلة اختفائه ، يدفعه الوقوف على أمر فى طالعه ، نبأته به الكواكب . وللرواية فى ذلك طائفة من الأساطير ، منها أنه كان يخدم زحل وطالعه المريخ ، ويسفك الدماء تقرباً إليه ، وأن الشيطان كان يتشبه له فى صورة هذا الكوكب ، ويخاطبه فى أمور كثيرة ، وأنه من أجل ذلك لبس الصوف الأسود ، وأطلق شعره حتى تدلى على كتفيه ، وجنح إلى التقشف والزهد[١] ؛ وفى هذه الأساطير التى ترجع إلى عصر الحاكم ذاته ، ما يفصح عما كان يغمر هذه الشخصية المدهشة ، من ألوان الخفاء المثير المروع معاً .

والظاهر أيضاً أن الحاكم كان يعمل على إذكاء هذا الخفاء المحيط بشخصه بأساليب منظمة . ومن ذلك أنه رتب عصبة بارعة من الجواسيس والمخبرين ، يطوفون بالأسواق والدور والمجالس بالليل والنهار ، ويرفعون إليه أخبار الناس ، وما يقع فى جنبات مصر وبين الأسر ، من خفى الحوادث والأسرار ؛ وكان يستعين فى ذلك بالنساء ولاسيما العجائز ، فكان وقوفه على هذه الأنباء الخفية ، مما يثير الدهشة ويحمل البسطاء على الاعتقاد فى خارق مقدرته[٢] .

---

(١) المخطوط الكنسى المشار إليه ، والنجوم الزاهرة (عن مرآة الزمان) ص ١٧٧ .

(٢) المخطوط الكنسى ، والمكين ابن العميد ص ٢٥٩ .

وكان الحاكم يشجع الفلكيين والمنجمين ويغدق عليهم عطاءه ؛ ولكن الظاهر أن ريح الخفاء والتطلع إلى مدارك الغيب ، وصلت فى سنة ٤٠٤ هـ ، إلى حد من الإغراق الذى ينذر بالفوضى ، وخشى الحاكم من عواقب هذا الشغف بالتنجيم ، وسيطرة المنجمين على عقول الكافة ، فأصدر سجلا بتحريم صناعة التنجيم والكلام فيها ، وأن ينفى المنجمون من المملكة ، وقد رأينا كيف استغاث المنجمون بقاضى القضاة ، فعقد لهم التوبة من هذه الصناعة المريبة ، وأعفوا من قرار النفى .

ثم كان اختفاء الحاكم فى تلك الظروف ، التى تشبه الأساطير فى غموضها وخفائها ، وانعدام كل أثر يدل على مصيره ، أو يلقى ضوءاً حاسما على ظروف اختفائه أو مصرعه ، فكان ذلك عاملا جديداً فى إذكاء شغف الخفاء ، والتطلع إلى ما وراء الغيب ، وإذكاء الدعوات السرية المغرقة ، التى اتخذت من هذا الاختفاء مستقى جديداً لمزاعمها وأساطيرها .

كان اختفاء الحاكم نهاية النهاية ، وذروة الذروة ، فى هذا الخفاء المغلق الذى لبث يغمر حياته ، ويطبع كل عصره ، ويثير فى هذا الأفق المزعج ظلمات فوق ظلمات .

* * *

وبعد فإنا نجد تماثلا عجيباً بين خواص هذه الفترة المدهشة ، من تاريخ مصر الإسلامية ، وبين خواص عصر الخفاء الحديث ، الذى يملأ صحف القرن الثامن عشر ، بأعجب الروايات والسير ، فقد احتشد فى هذا القرن طائفة كبيرة من الدعاة السريين الذين يتشحون بأثواب الخفاء المغلق ، مثل يعقوب فرنك أو (البارون فون أوفنباخ) ويوسف بلسامو (أوكاليوسترو) والكونت سان جرمان ، والدكتور فوك ، وغيرهم من أقطاب الدعاة والمشعوذين السريين ؛ وقامت جمعيات سرية عديدة فى ألمانيا وفرنسا ، وذاعت محافل البناء الحر (الماسونية) فى جميع أنحاء أوربا ؛ وهبت على المجتمعات الأوربية ريح شاملة من الخفاء ، ونفذت إلى كثير من نواحى الحياة العامة والخاصة معاً ، وأحدثت هذه العوامل الخفية الغامضة ، أثرها فى كثير من حوادث العصر السياسية والاجتماعية .

ومع أن أولئك الدعاة السريين الذين ظهروا فى أوربا فى هذا العصر ، لم يذهبوا إلى حد الدعوة إلى النبوة أو الألوهية كما وقع فى عصر الخفاء الإسلامى ، فإنهم جميعاً سلكوا نفس المنهج ،الذى يملى به الخفاء فى كل عصر ، فتحدثوا عن استكشاف الغيب ، وعن المجهول والخارق ، وعن سر الحياة والموت ، وعن الخلود فى هذه الدنيا ؛ وكان بعضهم مثل كاليوسترو يزعم النفاذ إلى أسرار الغيب ، ويعقد لذلك جلسات خاصة يقوم فيها ببعض الرسوم الشرقية القديمة ؛ وبعضهم يزعم الخلود كالكونت سان جرمان ؛ وكان هذا الداعية المشعوذ يزعم أنه عاش قرونا ، وأنه عاصر كليوباتره ملكة مصر ، ويوليوس قيصر ، وأنه عرف المسيح وكان من أصدقائه ، وعرف معظم ملوك أوربا فى مختلف العصور ، وغير ذلك من المزاعم الخارقة ؛ وكانت هذه المزاعم على غرابتها وطابعها الخرافى ، تلقى لدى الكافة ذيوعاً كبيراً ، فتذكى خيالهم ، وتثير فيهم الدهشة والروع .

وإذا تأملنا نظم الجمعيات السرية التى قامت فى هذا العصر ، ألفينا بينها وبين نظم الدعوة الميمونية ،والدعوة السرية الفاطمية ومراتبها ، شبها عجيباً[1] ، سواء فى التدرج فى المراتب أو تحرى الغايات والمقاصد الإلحادية ، أو حشد الدعاء والمؤمنين . ويرجع ذلك بلا ريب إلى أن كثيراً من الجمعيات والفرق السرية الأوربية ، كانت تستقى معظم نظمها وأصولها من الفلسفة والدعوات اليهودية المختلفة ، وأن الدعوات اليهودية كانت بدورها تستقى من المشرق ، أو أنها كانت ذات أثر كبير فى توجيه حركات الخفاء المشرقية .

بيد أن هناك فارقاً جلياً بين العصرين ، فقد كانت دعوة الخفاء فى المشرق يغلب فيها العنصر الروحى ، وكانت تميل إلى حشد الأولياء وتكوين العقائد والمبادئ قبل كل شىء ؛ ولكنها كانت فى الغرب يغلب فيها العنصر المادى ، وكانت أكثر ميلا إلى اجتناء الثمرات المادية .

(١) سنتحدث عن الدعوة الميمونية والدعوة السرية الفاطمية بإفاضة فى القسم الثانى من هذا الكتاب .

الكتاب الثانى

الدعوة السرية الفاطميـــة

الفصل الأول

ماهية الدعوة ومذهب التأويل

الإمامة عماد السياسة الفاطمية . حرص الخلافة الفاطمية على ظفرها المعنوى . التجاؤها الى سلاح الدعاية المنظمة . الدعوة المذهبية . اتسامها بفقه آل البيت . الدعوة السرية . داعى الدعاة . مجالس الدعوة . سجل بإقامة الداعى وشرح مهامه . تصوير الكرمانى لمعنى التأويل . ما ورد فى المجالس المستنصرية . تفسير رمزى للبسملة . الرموز الرقمية . السبعة والاثنا عشر . تأويل للوضوء والصلاة . تأويل الآيات القرآنية . التأويل عماد مجالس الحكمة . اضطرام الدعوة المذهبية فى عصر الحاكم . قيام جامعة دار الحكمة . مهمتها فى بث الدعوة .

نعرض الآن إلى ناحية أخرى هى أخطر نواحى عصر الحاكم بأمر الله ، وأخطر نواحى العصر الفاطمى كله ، وقد آثرنا أن نتركها جانباً خلال التحدث عن الحاكم وعن حوادث عصره ، وأن نعالجها فى قسم خاص بها .

تلك هى خواص السياسة الفاطمية الدينية ، وأسرار الدعوة الفاطمية المذهبية ، ووسائلها وغاياتها .

قامت الدولة الفاطمية على أسس الدعوة الشيعية فى ظروف غامضة ، واتشح الخلفاء الفاطميون بثوب الإمامة الدينية ، وردوا نسبتهم إلى على بن أبى طالب وفاطمة ابنة النبى ، ومساق إمامتهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق من ولد الحسن بن على ، ومن ثم كانت تسميتهم أيضاً بالإسماعيلية . وكانت هذه الإمامة ملاذ السيادة الفاطمية وعمادها لدى الكافة ، وكان الخلفاء الفاطميون يحرصون جد الحرص على صفة الإمامة وعلى توطيدها ونشر لوائها بمختلف الوسائل ، إذ هى شعارهم الأسمى ، وعماد سلطانهم الروحى ، ومعقد مطامعهم السياسية . وقد استطاعت الخلافة الفاطمية أن تجنى غير بعيد ثمرة كفاحها وظفرها ، فبسطت ظلها بعد إفريقية على مصر والشام والحرمين ؛ وكان هذا الإنضواء تحت لواء الخلافة الفاطمية يتخذ قبل كل شىء لون الظفر

السياسى . بيد أن الخلافة الفاطمية كانت تحرص على أن تحقق ظفرها المعنوى إلى جانب ظفرها المادى ، وأن تغزو عقائد المجتمعات التى يدفعها الفتح أو تحملها السياسة على الانضواء تحت لوائها ، ومن ثم كان نشاط الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها المذهبية ، وفى العمل على توطيد دعائمها ، وتمكين نفوذها المعنوى إلى جانب سلطانها السياسى .

ولما استقر الفاطميون بمصر ، وغدت مصر منزلهم ومثوى ملكهم ودولتهم ، شعرت الخلافة الفاطمية بالحاجة إلى مضاعفة جهودها المذهبية ؛ ذلك أنها لم تجد فى مصر ، كما وجدت فى قفار المغرب الساذجة مهداً خصباً لدعوتها ، بل ألفت فى مصر مجتمعاً متمدناً عركته الأحداث الدينية والسياسية ، فكان عليها أن تتوسل لغزوه بكل الوسائل السياسية والفكرية . ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية فى بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية وغزو الأذهان بطرق منظمة ؛ لأنه إذا كان التشريع وسيلة لسيادة الكافة وتحقيق الطاعة الظاهرة ، فإن الدعاية المنظمة هى خير الوسائل لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة . وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين إلى تبوء الملك ، فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى ، كانت الدعوة السرية وسيلتهم إلى حمايتها وتدعيمها ، فكان لهم دعاة فى سائر الأقطار الإسلامية ؛ وكانت مصر منزل ملكهم وخلافتهم ، منبر هذه الدعوة ومركزها ومجمعها ، تنساب منه إلى جنبات الإمبراطورية الفاطمية الشاسعة ، وإلى سائر الأقطار الإسلامية الأخرى .

وليس أدل على ما كانت ترتبه الخلافة الفاطمية من عظيم الأهمية على بث دعوتها المذهبية ، واتخاذها وسيلة نافذة لحشد المؤمنين والكافة تحت لوائها ، مما ورد فى كتاب المعز لدين الله الى الحسن الأعظم زعيم القرامطة من تلك العبارة القوية التى يشير فيها المعز الى عناية الخلافة الفاطمية ببث دعوتها فى مختلف الأقطار : « فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم ، إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ، ويدلون علينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف للغات ، واختلاف الألسن ؛ وفى كل جزيرة وإقليم ، رجال منهم يفقهون ،

وعنهم يأخذون ، وهو قول الله عز وجل : وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »[١] .

وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صبغة رسمية ؛ ومذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة ، نراها تنتظم فى القصر الفاطمى ، وتتخذ صورة الدعوة الى قراءة علوم آل البيت (علوم الشيعة) والتفقه فيها ؛ وكان يقوم بإلقاء هذه الدروس المذهبية أيام المعز والعزيز بنو النعمان ، وهم أسرة مغربية نابهة تولت قضاء مصر زهاء نصف قرن ؛ وكانت تلقى أحيانا فى القصر ، وأحيانا فى الجامع الأزهر ، وأحيانا كان يشترك فى إلقائها بعض عظماء الدولة مثل الوزير ابن كلس ، وزير المعز ثم ولده العزيز ، فقد كان يتولى قراءة علوم آل البيت وشرحها للكافة بنفسه ، وله فى الفقه الشيعى رسالة مشهورة تعرف بالرسالة الوزيرية[٢] . وينوه المسبِّحى ، مؤرخ الدولة الفاطمية ، بإقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس المذهبية ، فيقول لنا إنه فى ربيع الأول سنة ٣٨٥ هـ جلس القاضى محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم آل البيت على الرسم المعتاد ، فمات فى الزحام أحـد عشر رجلا فكفنهم العزيز بالله[٣] . بيد أن هذه الدعاية المذهبية الظاهرة كانت ستاراً وتمهيداً لدعاية أخرى كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ، ويشرف على تنظيمها وتلقينها زعيم دينى كبير ، يشغل منصبا هاما فى ديوان الخاص وينعت بداعى الدعاة . وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطط الدينية التى أنشأتها الدولة الفاطمية ، كما كان داعى الدعاة من أغرب الشخصيات الرسمية التى خلقتها ؛ وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاة فى الرتبة ويتزيا بزيه ويتمتع بمثل امتيازاته ، وينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين فى العلوم

(١) نشرنا نص كتاب المعز بأكله فى نهاية الكتاب فى قسم الوثائق .

(٢) سبقت الإشارة الى ابن كلس فى غير موضع ، وهو الوزير أبو الفرج يعقوب بن كلس ؛ وكان فى الأصل يهودياً ، ثم أسلم أيام كافور ، ووزر للمعز ثم العزيز ، وكان عالماً أديباً ، واشتهر بحمايته للعلوم والآداب ، وهو أول من أدخل التـدريس المنظم بالجامع الأزهر فى عهد العزيز ، وكانت وفاته سنة ٣٨٠هـ (راجع المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٢٠٧ و ج ٣ ص ٩–١١) .

(٣) المقريزى عن المسبحى ، الخطط ج ٢ ص ٢٢٦ .

الدينية ، وفى أسرار الدعوة الفاطمية ، ويعاونه فى نشر الدعوة اثنا عشر نقيباً وعدة كبيرة من النواب يمثلونه فى سائر النواحى . وكانت هذه الدروس الخاصة تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقته فى إيوان القصر الكبير ، وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعى بالقصر ، وهو المسمى « بالمحول » وكان من أعظم الأبنية وأرحبها ، فإذا انتهت القراءة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعى ، فيمسح على رؤسهم بعلامة الخليفة ، ويأخذ العهد على الراغبين فى دخول المذهب ، ويؤدى له النجوى من استطاع ، وهى رسم اختيارى قدره ثلاثة دراهم وثلث يجبى من المؤمنين للإنفاق على الدعوة والدعاة . وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضاً لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذهب ، ورجال الدولة والقصر ، ونساء الحرم والخاص ، ويسودها التحفظ والتكتم ، ويحظر شهودها على الكافة ، وتعرض فيها الدعوة الفاطمية السرية على يد دعاة تفقهوا فى درسها وعرضها ؛ وكان تلقين هذه الدعوة هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة ، بل كان فى الواقع أهم غاية يراد تحقيقها . وكان للكافة أيضاً نصيب من تلك المجالس ، فيعقد للرجال مجلس بالقصر ، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر ، ويعقد مجلس للأجانب الراغبين فى تلقى الدعوة ؛ وكان الداعى يشرف على هذه المجالس جميعاً إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه ؛ وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقاً لمستوى الطبقات والأذهان ، فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة ، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا[١] .

وقد انتهت إلينا وثيقة رسمية هامة هى سجل فاطمى بإقامة داعى الدعاة ، وبيان مهمته واختصاصاته ، وما يجب عليه اتباعه لإذاعة الدعوة ؛ وقد جاء فيه بعد الديباجة شرحاً لمقاصد الدعوة ما يأتى : « وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الإمامة والأئمة ، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين ؛ يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه ، وتغذية أفهامهم

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ . وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ .

بلبانها ، وإرهاف عقولهم ببيانها ، وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوقيفهم من علومها على ما يلحب لهم سبل الرضوان ، ويفضى بهم إلى روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدى فى جوار الجواد المنان . . . » .

ومنها فى شرح واجبات الداعى وطرق تلقين الدعوة : « وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ، ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه . . . ، ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك . . . ولا تلق الوديعـة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ، وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات إلى نور البراهين والآيات ؛ واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ؛ وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ؛ واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ، ودل على اتصال الممتل بالممنون ؛ فإن الظواهر أجسام ، والبواطن أشباحها ؛ والبواطن أنفس ، والظواهر أرواحها ، وإنه لا قوام للأشباح إلا بالأرواح ، ولا قوام للأرواح فى هذه الدار إلا بالأشباح ، ولو افترقا لفسد النظام ، وانتسخ الإيجاد بالإعدام . . . » .

« واتخذ كتاب الله مصباحاً تقتبس أنواره ، ودليلا تقتفى آثاره ، واتله متبصراً ، وردده متذكراً ، وتأمله متفكراً ، وتدبر غوامض معانيه ، وانشر ما طوى من الحكم فيه ، وتصرف مع ما حلله وحرمه ، ونقضه وأبرمه ، فقد فصله الله وأحكمه ، واجعل شرعه القويم الذى خص به ذوى الألباب ، وأودعه جوامع الصلوات ومحاسن الآداب ، سبباً تتبع جادته ، وتبلغ فى الاحتجاج محجته ، وتمسك بظاهره وتأويله ومثله ، ولا تعدل عن منهجه وسبله . . . »(١)

---

(١) راجع صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ وما بعدها .

وفى هذا السجل الذى أثبتنا نصه كاملا فى آخر الكتاب ، أكثر من إشارة إلى سرية الدعوة ، والحرص على تلقينها إلى المستنيرين والخاصة ؛ وفيما أوردنا من فقراته بالأخص إشارات إلى ما تمتاز به الدعوة من المعانى والتأويلات الظاهرة والباطنة ، وهى المقصودة ببثها وتلقينها .

وقد عرضنا من قبل ، فى حديثنا عن الإمامة ، إلى ما ينسب إلى الأئمة من ادعاء الغيب والمقدرة على إتيان الخوارق ، ورأينا كيف يؤيد بعض الدعاة الإسماعيلية هذه المزاعم فى كتبهم ، بل وكيف يرفعون بعض الأئمة إلى مرتبة النبوة ، وينسبون إليهم بالفعل إتيان الخوارق والمعجزات ، وكيف ينفى بعض الدعاة من جهة أخرى نسبة هذه المزاعم إلى الأئمة . ثم رأينا بعد ذلك كيف كان الخلفاء الفاطميون يتجهون إلى التعلق بمدارك الغيب ، ويغلب عليهم شغف الخفاء .

على أن هذه المسألة ليست إلا ناحية واحدة من مسألة أخرى متعددة النواحى ، وهى تتعلق بالدعوة الإسماعيلية ذاتها ، وما يحيطها الدعاة به من ضروب الخفاء والغموض ، والتوسل إلى ذلك من القول بالتأويل والدعوة الظاهرة والباطنة ،والمعنى الظاهر والمعنى الباطن وهو ما ينوه به السجل المذكور ، ومنطوق الرموز والأرقام ، وأمثال ذلك ، مما يراد به أن تلقى على الدعوة الإسماعيلية ، أو الدعوة الفاطمية ، هالة من الخفاء والروع ، تجعلها فوق إدراك الكافة .

ويقدم إلينا الداعى حميد الدين الكرمانى ، داعية الحاكم بأمر الله ، وهو من متكلمة الإسماعيلية وفقائهم ودعاتهم ، فى كتابه « راحة العقل » تصويراً فلسفياً لمسألة الظاهر والباطن ، يقول فيه ، إن التربية والهداية فى وجودها تابعة لوجود الدعوة الظاهرة والدعوة الباطنة ، كما أن وجود اليبوسة تابع لوجود البرودة التامة والحرارة التامة ؛ والدعوة الظاهرة التى هى العبادة العملية ، على الحرارة التامة ، والسياسة التابعة فى وجودها للدعوة الظاهرة الحافظة لنظام الأمور على اليبوسة التابعة فى وجودها للحرارة التامة الحافظة لصور الأجسام ؛ والدعوة الباطنة التى هى العبادة العملية التى تتأول عن الدعوة الظاهرة ، وتعدل كل موجود فيها ، وضعا فى موضعه ، على البرودة التامة ، التى تعدل

الحرارة التامة ، فتكون فيها الحياة والتعليم والعلوم والهداية ، إلى الولاية التابعة فى وجودها للدعوة الباطنة التى تجمع الأنفس إلى طريقة واحدة فى توحيد الله تعالى ، فتجعلها شيئاً واحداً ، على الرطوبة التى تصل أجزاء الجسم الكثيف بعضها ببعض ، وذلك يوجب عن كون الباب جامعاً لأمور الدعوة الظاهرة التى هى الأمور الشرعية والأمور السياسية . إن النار جامعة لطبيعتين هما الحرارة واليبوسة . وعن كون الحجة جامعاً لأحكام الدعوة الظاهرة ، وتعليم الدعوة الباطنة التى هى العبادة العملية . أن الهواء جامع لطبيعتين هما الحرارة والرطوبة . وعن كون الداعى جامعاً للدعوة الباطنة التى هى العبادة العملية والتعليم والهداية إلى الولاية . أن الماء جامع لطبيعتين هما البرودة والرطوبة[1] .

وقد وردت فى « المجالس المستنصرية » إشارات عديدة إلى مسألة الظاهر والباطن ، ترينا إلى أى حد كان الدعاة يعتمدون على هذه المسألة فى إثارة الخفاء والروع فى نفوس « المؤمنين » . فمن ذلك قول الداعى فى المجلس الأول : « وارجعوا فى المشكلات إلى من جعله الله بهدايتكم خير كفيل ، فإن الظاهر والباطن كالروح والجسد إذا اجتمعا ، انقدحت الفوائد ، وعرفت المقاصد ، وأدركت النفس بتوسط الحواس ، ما فى العالم من البدائع ، فاستدلت بوجود الصنعة على معرفة الصانع »[2] ؛ وقوله فى المجلس الثانى معلقاً على الآية : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » ، « فمن عبد الله تعالى بظاهر دون باطن ، أو بباطن دون ظاهر ، فهو كمن يعبده على حرف ، لأن كل كلمة تفيد معانيها ، ولا تنتهى إلى الغاية فيها ، خصصناكم بإعادة القول فى بيان تأويلها »[3] .

ويلجأ الدعاة فضلا عن ذلك إلى رموز الأرقام ، ويذهبون فى ذلك مذاهب خيالية ؛ فمن ذلك تفسير الداعى « للبسملة » وكلماتها وحروفها ، وكون كلماتها الأربع ، تشتمل على تسعة عشر حرفاً ، منهم « بسم الله » سبعة أحرف ، إشارة إلى الأئمة السبعة الذين فى كل عصر منهم إمام يؤدى إلى أهل عصره

---

(١) راحة العقل فى السور السادس ، المشرع الثانى ، ص ٢١٣ و ٢١٤ .

(٢) المجالس المستنصرية ص ٢٧ .

(٣) المجالس المستنصرية ص ٢٩ .

ما أقامه الله تعالى لتأديته ، و « الرحمن الرحيم » ، وحروفها إثنا عشر ، مثل على الحجج الإثنى عشر الذين بهم الإمام فى جزائر العرض الإثنى عشرة للإبلاغ عنه . ومن التسعة عشر حرفاً التى تتكون منها البسملة ، عشرة أحرف خمسة تتكرر ، وخمسة لا تتكرر ؛ فالخمسة التى لا تتكرر هى مثل الحدود العلوية لأنها باقية فى كل شريعة لا تتغير ولا تتكرر ، والخمسة الأحرف التى تتكرر ، فهى مثل الحدود السفلية التى تتردد فى كل دور[١] .

والرموز الرقمية المفضلة لديهم هى السبعة ، والإثنا عشر ؛ فعبارة « لا إله إلا الله » بها سبعة فصول وإثنا عشر حرفاً ، والصلاة سبع مراتب تتفاضل فيها صلاة المصلين ، والإمامة فى الصلاة تجب لسبعة متفاضلى الرتب ؛ ودعائم الإسلام سبعة فرائض ، وإثنتا عشرة سنة ؛ والزكاة تؤخذ من سبعة أشياء ، وسننها اثنا عشر ؛ وكذلك الصوم ، فإنه ينقسم على أقسام منها سبعة واجبة ، وإثنا عشر مسنونة ، يفصلها الداعى . وكذلك فريضة الحج ، فهى كثيرة الأسابيع ، من ذلك أن الطواف بالبيت سبعة أشواط ، والسعى بين الصفا والمروة سبع مرات ، ورمى كل عقبة من عقبات الجمار بسبع حصيات ، ومتى أحرم الحاج فإنه يمنع من سبعة أشياء ، وسنن الحج اثنا عشر ، إلى غير ذلك[٢] .

ويقدم إلينا الداعى فى « المجالس المؤيدية » تأويلات لمعانى الأرقام من واحد إلى تسعة عشر ؛ ثم يتبع ذلك بتحليل مستفيض لعبارة « لا إله إلا الله » من حيث كلماتها وأحرفها ، ومقاطعها ، ففيها أربع كلمات وسبعة مقاطع ، وعدد حروفها اثنا عشر ؛ ويشرح لنا ما يقابل هذه الحروف والمقاطع ، فالأحرف الثلاثة التى منها تركيب الجملة (وهى الألف واللام والهاء) تقابل الجواهر الثلاثة الشمس والقمر والنجوم ؛ والكلمات الأربع تقابل الحرارة واليبوسة والبرودة والرطوبة ، والمقاطع السبعة المدبرات السبعة ، والحروف الإثنا عشر ، البروج الإثنا عشر ؛ وأمثلتها من الأرض على النحو الآتى : الجواهر الثلاثة : الطول والعرض والعمق . الكلمات الأربع : التراب والمعادن والنبات

---

(١) المجالس المستنصرية ، فى المجلس الثالث ص ٣٥ .

(٢) راجع المجالس المستنصرية ص ٣٧ و ٥٢ و ٥٩ و ٦٦ و ٧٢ و ٧٥ و ٧٦ .

والحيوان . المقاطع السبع : الأقاليم السبعة . الحروف الإثنا عشر : الجزائر الإثنا عشر . وأمثلتها من الأيام هى : الجواهر الثلاثة : ماض ومستقبل وحال . الكلمات الأربع . الفصول الأربع . المقاطيع السبع : الأيام السبعة : الحروف الإثنا عشر : الشهور الإثنا عشر(١) .

ويعترف الأستاذ إيفانوف بأن النظرية الإسماعيلية الباطنية كانت تنطوى على إيمان راسخ بحقيقة هذه التعليلات فى عالم المرئيات ، وأن هذه الفكرة كانت بالنسبة لها فرضاً لا يقبل الجدل . ثم ينوه بما كان لهذه الأفكار الخرافية من قوة هائلة تطوى أمامها الحقائق التاريخية وتثنى بلا رحمة لتوافق منطقها(٢) .

على أن التمسك بأذيال الغموض يبدو أشد فيما اصطلح عليه الدعاة من الالتجاء إلى التأويل ، أعنى تأويل الآيات القرآنية وتفسيرها بغير ما يدلى به ظاهرها ؛ وهم يقولون إن نص القرآن موجب للتأويل ومثبت له . ويستشهدون على ذلك بالآية « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم » ، وأن النبى هو أول الراسخين فى العلم وأفضلهم ؛ ثم يقولون أيضاً بتأويل الفرائض من حيث الظاهر والباطن . والخلاصة أن كل ظاهر لديهم له مقابل من الباطن ، وكل باطن له تأويل ظاهر . وكل منهما يكمل الآخر . وهذا عندهم هو مذهب « التأويل » . ولهم فى ذلك محاولات وأفانين مدهشة . فالطهارة والصلاة ، ورسومها وأوضاعها ، كلها تؤول ، إلى جانب حكمتها الظاهرة ، بمعانيها الباطنة ؛ فالطهارة مثلا هى فى الظاهر الغسل والوضوء ، وهى فى الباطن التطهير بالعلم ، وما يوجبه العلم من أحداث النفوس ، والماء مثله مثل العلم ، فكما يطهر الماء الظاهر من أحداث الأبدان الظاهرة ؛ كذلك يطهر العلم من أحداث النفوس الباطنة . وغسل الوجه ، وهو أول الفرائض ، فالوجه فى التأويل الباطن مثله مثل النبى ، فى عصره ، والإمام فى زمانه ، فكل واحد منهما يتوجه أهل عصره إلى الله تعالى وهو وجه الله الذى يؤتى من قبله . والصلاة فى التأويل مثلها مثل دعوة الحق ، وهى فى الظاهر مما تعبد الله عز وجل عباده المؤمنين به بها ، ليثيبهم عليه ، وذلك مما أنعم الله عز وجل

---

(١) المجالس المؤيدية (الملحقة بالمجالس المستنصرية) ص ١٥٥ و ١٥٧ .

(٢) Rise the Fatimids p. 17

به عليهم ، وقد أسبغ عليهم نعمة ظاهرة وباطنة ، فظاهر النعمة فى الصلاة إقامتها فى الظاهر بتمام ركوعها وسجودها ، ومفروضها ومسنونها ، وباطن النعمة كذلك فى إقامة دعوة الحق فى كل عصر . والركوع والسجود هو الواجب فى ظاهر الصلاة . والواجب فى باطنها الذى هو دعوة الحق ما قد تقدم القول به من اعتقاد طاعة الإمام ، والحجة فيما تجب الطاعة فيه لكل واحد منهما ، فمثل الركوع مثل طاعة الحجة ، ومثل السجود من طاعة الإمام ، ومثل ما كان من الصلاة ركعتين مثل الطاعة للإمام والحجة ، كل ركعة بواحد منهما ، وما كان منها أربع ركعات ، فمثل الإثنتين الأولتين مثل ما يجب للإمام ، والأخرتين مثل ما يجب للحجة . . . الخ[١] .

ثم هناك تأويل الآيات القرآنية ، وهو عنـدهم أعمق وأغزر مواد التأويل . وقد أورد لنا الداعى من ذلك أمثلة لا حصر لها . فهو يقدم لنا مثلا تفسيراً لكلمة « ألم » ، الواردة فى الآية « ألم . ذلك الكتاب لا ريب فيه » ، فهو قسم من الله ، بألف مأخوذة من الله ، و« ل » مأخوذة من جبرائيل ، و« م » مأخوذة من محمد ، فوافق بهذا القول أهل التأويل ، ويمضى بعد ذلك فى تفسير الأحرف المماثلة ، بتأويلات مختلفة . وانظر مثلا تأويله لكلمة الفساد فى قوله تعالى « وإذا قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض ، قالوا إنما نحن مصلحون » ، فالفساد هنا ، هو القتل وإخافة السبيل وما يجرى مجراه ، وهذا هو الظاهر . وأما الباطن فيصح من حيث أنه إذا قتل نبى أو وصى أو إمام ، وقتل قتلا طبيعياً أو قتلا من حيث سلب المنزلة أو الدفع عن المكانة ، قتل الناس جميعاً ، قتل النفوس بانقطاع مواد بركاته منهم ، وموتهم من طريق الهدى بتخليه عنهم . والقتل هو سلبهم مقامات الوصى والأئمة ، وغلبهم إياهم ، وإشعارهم شعار الملك والإمامة من لا يستحقه[٢] .

ومثل آخر من أمثلة التأويل هو تفسيرهم لقوله تعالى « مثلهم كمثل من استوقد ناراً » أى علق بحبل الرسول المؤيد صاحب السلطان من عند الله سبحانه المؤيد ، والمجد المشيد . « فلما أضاءت ما حوله » أى استفاضت

(١) المجالس المؤيدية ص ١٤٧ و ١٤٨ و ١٦١ و ١٦٢ و ١٦٣ و ١٦٩ و ١٧٣ .

(٢) المجالس المؤيدية ص ١٨٤ .

أنوار النبوة يميناً وشمالا ، وتفرعت بوصاية الوصى ، وإمامة الأئمة من ذريته . « ذهب الله بنورهم » ، أى بحظهم من تلك الأنوار لما تداخلهم من الحسد والاستكبار[١] .

وكتبهم ورسائلهم تفيض بهذا النوع من الشروح الكلامية المذهبية . ويعلق الأستاذ إيڤانوف على ذلك بقوله « إن قصة « التأويل » هو أن تكشف الحكمة الإلهية الخفية ، وقد كان يلجأ إليه كثيراً ؛ وبالرغم من أن الفلاسفة وأكابر المتكلمين كانوا يتجنبونه ، فإن الأقل علماً كانوا يخوضون فيه بكثرة » ثم يقول بأن هذه « التأويلات » كانت تمزج بالآراء الكبالية ، والاعتقاد فى السحر ، والأرقام ، والقيم العددية للحروف الأبجدية وغيرها[٢] .

ونكتفى بما تقدم من الأمثلة عن التأويلات الفاطمية لمسألة الظاهر والباطن . وعن التعلق بخفاء الرموز والأرقام . ومن الواضح أن معظم تلك التأويلات الباطنة ، تتجه دائماً إلى تعزيز نظرية الإمامة وتقديسها ، واعتبارها هى المحور الأساسى ، الذى تدور حوله قواعد الدين والإيمان .

وإذاً فقد كانت الدعوة الدينية ، فى يد أولياء المذهب ، أداة واضحة لتحقيق أغراض السياسة ، وتدعيم السلطان الزمنى ، الذى سعوا إلى تحقيقه فى الخفاء زهاء قرنين ، والذى كانت الخلافة الفاطمية أعظم مظاهره المادية .

وقد كانت هذه التأويلات الباطنة فى معظم الأحيان عماد الشرح والجدل فى مجالس الحكمة الشهيرة التى اتخذتها الخلافة الفاطمية سبيلا لبث دعوتها المذهبية ؛ وقد استمرت هذه المجالس حتى أواخر الدولة الفاطمية ، وألغيت أثناء ذلك أكثر من مرة لظروف خاصة ، ولكنها لبثت دائماً من أهم رسوم الخلافة الفاطمية وخططها .

وفى عصر الحاكم بأمر الله اتخذت مجالس الحكمة أهمية خاصة ، ونظمت فى معهد رسمى خاص يعمل لبث الدعوة الفاطمية السرية ، ويكون مركز الوحى والتوجيه ؛ وقد يبدو غريباً أن تتخذ الخلافة الفاطمية هذه الخطوة

---

(١) المجالس المؤيدية ص ١٨٣ .

(٢) Brief Survey of the. Evolution of Ismailism p. 51 « والكبالا » هى علم الطلاسم والخفاء عند اليهود .

الجريئة ، على يد الحاكم بأمر الله ، وهو ذلك الذهن المضطرم الهائم ؛ ولكن هذا الذهن كان بطبيعة تكوينه وميوله ، واتجاهه إلى عوالم الخفاء والغيب ، حرياً باتخاذ هذه الخطوة ؛ وكانت ظروف العصر واتساع نطاق الدعوة الفاطمية ، واضطرام المعركة المذهبية بين الخلافة الفاطمية وخصومها ، مما يدعو لقيام هذا المعهد ، ليشرف بطريقة منظمة تدعمها الرعاية الرسمية ، على بث الدعوة الفاطمية وتوجيهها .

هذا المعهد الفريد فى صحف الدعوات السرية هو دار الحكمة المصرية ، أو دار العلم ؛ أنشأها الحاكم بأمر الله فى العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥ هـ (مارس سنة ١٠٠٥ م) . ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر ، الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد أو بالحرى هذه الجامعة الغريبة ، ذلك لأن دار الحكمة كانت جامعة حقة تضم عدة حلقات وكليات دينية وعلمية وأدبية ؛ وأفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر الصغير بجوار باب التبانين ، تعرف بدار مختار الصقلبى ، وقسمت إلى عدة أقسام أو مجالس : للقرآن ، والعلوم الدينية ، والفلك ، والطب ، والنحو ، وعلوم اللغة ؛ وعين لها أقطاب الأساتذة فى كل علم وفن ، وعنى بتأثيثها وزخرفتها عناية فائقة ، وحملت إليها من خزائن القصر مجموعات عظيمة من الكتب فى سائر العلوم والفنون ، لتكون رهن البحث والمراجعة ؛ ورصدت للإنفاق عليها وعلى أساتذتها وموظفيها وخدمها أموال ضخمة ، ووقف الحاكم عليها قسما من أملاكه الخاصة ضمن وقفيته الشهيرة التى أشرنا إليها فيما تقدم ؛ وكان التعليم فيها حراً على نفقة الدولة ، ويمنح الطلبة والباحثون جميع الأدوات الكتابية ، ولهم أن يقرأوا وينسخوا ما شاؤوا من الكتب ، وأن يستمعوا إلى ما شاؤوا من الدروس والمحاضرات ؛ فهرع إليها الطلاب من كل صوب ، وأفردت للنساء فيها مجالس خاصة . ويصف لنا المسبحى وهو معاصر وشاهد عيان ، ما اتخذ لإنشاء دار الحكمة من عظيم الأهبة والعناية ، وما اجتمع فى مكتبتها العظيمة من نفائس المراجع والكتب « مما لم يجتمع مثله لأحد قط من الملوك »(١) . واتخذت دار الحكمة فى البداية طابعاً حراً ، فدعى إليها

(١) المقريزى عن المسبحى فى الخطط ج ٢ ص ٣٣٤ و ٣٣٥ ، وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٩ ب ، والنجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٢ .

الأساتذة من المذهبين الشيعة والسنة ، وقرئت بها فضائل الصحابة ؛ ولكن أبعد عنها أساتذة السنة فيما بعد ، وقتل بعضهم ، وتأكدت بذلك صفتها المذهبية الخاصة[1] ؛ وكان داعي الدعاة هو الذي يشرف على سير الدراسة فيها ، وهو الذي يرتب لها الدعاة والأساتذة طبقاً لما يرسم من الخطط والغايات[2] .

كانت دار الحكمة فى ظاهرها جامعة حرة علنية ، يلتحق بها من شاء ويدرس ما شاء من مختلف العلوم والفنون ؛ ولكن هذا المظهر العلمى لم يكن فى الواقع إلا ستاراً للغاية الأصلية التى أنشئت دار الحكمة لتحقيقها ، وهى بث الدعوة الفاطمية السرية بطريقة علمية منظمة ، تمتزج فيها النظريات والآراء الفلسفية بالأصول والمبادئ المذهبية ، وتكون أبعد أثراً فى غزو الأذهان والعقائد من مجالس القصر ،وبذا تجتمع جهود الدعاة فى مركز رئيسى ، يحتشد فيه المؤمنون من كل صوب ، ليقوموا فيما بعد بقسطهم فى حمل الدعوة وبثها فى سائر المجتمعات والأنحاء .

---

(١) النجوم الزاهرة ج ٤ ص ٢٢٣ .

(٢) المقريزى ج ٢ ص ٢٢٦ .

الفصل الثاني

مراتب الدعوة السرية

الدعوة الفاطمية ومراتبها التسع . الدعوة الأولى . الدعوة الثانية . الدعوة الثالثة . الدعوة الرابعة . الدعوة الخامسة . الدعوة السادسة . الدعوة السابعة . الدعوة الثامنة . الدعوة التاسعة والأخيرة . العهد الذى يؤخذ على المدعو . عناصر الدعوة الفلسفية الحرة . محاولة لإنكار صحة هذه الدعوة . حملة الأستاذ إيفانوف عليها . ما يعزز صحتها لدينا . الاتفاق على عناصرها الإلحادية . أقوال القاضى النعمان فى سريتها . مراتب الدعوة كما يعرضها الكرمانى . أدلة من مرسوم داعى الدعاة .

— ١ —

نستطيع بعد كل ما تقدم أن نقول إنه من الحقائق التاريخية الثابتة ، أن الخلافة الفاطمية كانت لها دعوة مذهبية خاصة ، وهذه حقيقة سجلها مؤرخو الدولة الفاطمية أنفسهم كالمسبحى وغيره ، ونقلها المؤرخون المتأخرون ، وأن العمل على بث هذه الدعوة بين الناس ، كان حسبما بينا فى الفصل السابق ، من الأمور الهامة التى أولتها الخلافة الفاطمية عناية فائقة ، وقد أنشأت لذلك نظاماً خاصاً يقوم على تنفيذه رهط كبير من الدعاة ، وعلى رأسهم داعى الدعاة ، وأن هذه الدعوة كانت تلقى على المؤمنين فى القصر الفاطمى ، وفى الجامع الأزهر ، ثم بعد ذلك فى دار الحكمة : كل هذه حقائق تاريخية لا شك فيها .

ولكن ماذا كان موضوع تلك الدعوة الفاطمية ؟ وهل كانت تلقى إلى جميع الناس الذين يودون الاستماع إليها ؟ أم هل كان منها ثمة مجالس عامة ، ومجالس سرية خاصة لا يشهدها سوى الخاصة من المستنيرين ؟ وما الذى كان يلقيه الدعاة فى تلك المجالس ؟ هنا موضع الجدل .

لقد أورد لنا المؤرخون المتأخرون مثل النويرى والمقريزى ، مما أدركوه من بقايا تراث الشيعة — بالرغم من تبدد معظم هذا التراث — شذوراً ضافية من محتويات الدعوة السرية وتفاصيلها . ومن الطبيعى أن تكون مادتها الأولى ما تقوم عليه الدعوة الشيعية الفاطمية من الأصول والمبادئ ، وأن تعرض شئون النبوة والإمامة والعقيدة الدينية طبقاً لهذه الأصول ؛ ولكن سنرى من مراجعة هذه التفاصيل ، أن الدعوة الفاطمية تذهب إلى أبعد من ذلك ، وأنها تستحيل فى النهاية إلى عقيدة فلسفية حرة ، مشبعة بألوان واضحة من الإنكار والإلحاد .

كانت الدعوة تجرى على نسق الجمعيات السرية ، فى مراتب متدرجة فى الأهمية والخطورة ؛ ومراتبها تسع ، يعرضها الدعاة بالتعاقب ، طبقاً لاستعداد التلاميذ وأهليتهم لتلقيها ، فلا يصل إلى مراتبها العليا إلا من كان موضع الثقة والإفضاء ، حريصاً على السر ، وكان من الأولياء المخلصين ؛ ولا يتسع المقام هنا لإيراد هذه الدعوات التسع بنصها وتفاصيلها ، ولكنا رأينا أن نكتفى بأن نقدم خلاصة وافية لمضمون هذه الدعوات وذلك على النحو الآتى :

الدعوة الأولى

يفتتح الداعى دعوته بسـؤال المدعو[1] عن بعض المسائل الدينية والشرعية ، وبعض المسائل الطبيعية والمشكلات الغامضة ، فإن كان المدعو عارفاً بما سئل أقره الداعى ، وإلا فإنه يعرضها عليه للبحث والتأمل ؛ ثم يلقنه أن الدين أمر مكتوم يجهله السواد والكافة ، وأن انصراف الناس عن الأئمة الصادقين الذين نصبوا لهم ، وأقيموا لحفظ شرائعهم يؤدونها على حقيقتها ، ويعرفون بواطنها ، هو أصل الشر والخلاف فى الأمة الإسلامية ؛ وأن الناس لما عدلوا عن الأئمة ونظروا فى الأمور بعقولهم ، وقلدوا سفلتهم ، وأطاعوا سادتهم وكبراءهم اتباعا للملوك وطلباً للدنيا ، التى هى ملك الآثمين وأجناد الظلمة وأعوان الفسقة ، الذين يحبون العاجلة ، ويجتهدون فى طلب الرياسة على الضعفاء ، ومكايدة رسول الله وأمته ، وتغيير كتاب الله عز

---

(١) ويعبر خصوم الإسماعيلية عن المدعو بالغر أو المخدوع .

وجل ، وتبديل سنة نبيه ، ومخالفة دعوته ، وإفساد شريعته ، ومعاندة الخلفاء الأئمة من بعده ، وبذا فسدت أحوالهم وانحدروا إلى أنواع الضلالات ؛ وأن دين محمد ، لم يجئ بما يحقق الأمانى والشهوات الزائلة ، ولا بما تعرفه الدهماء والكافة ، وإنما هو علم خفى ، وهو سر الله المكتوم الذى يرتفع عن الابتذال ، ولا يطيق حمله وينهض بأعبائه إلا ملك مقرب أو نبي مرسل أو عبد مؤمن اصطفاه الله . فإذا آنس الداعى من المدعو ارتياحاً وقبولا ، انتقل به إلى طائفة من المسائل الأخرى .

وفى هذه المرحلة يجتهد الداعى أن يثير طلعة المدعو ، بالإشارة إلى بعض المسائل الغامضة المتعلقة بأصل الخليقة والعالم الآخر وتركيب جسم الإنسان وغيرها . ومن ذلك تساؤل الداعى ، ما تبديل الأرض ، وما عذاب جهنم ؛ وما إبليس وما الشياطين ، وأين مستقرهم ، وما يأجوج ومأجوج وهاروت وماروت ؛ ولم جعلت السموات سبعا ، والأرضون سبعا ، والمثانى من القرآن سبع ؛ ولم فجرت العيون اثنى عشر ، ولم جعلت الشهور اثنى عشر شهرا ؛ وأين الروح وكيف صورها ومستقرها ؛ وما معنى قول النبي خلقت حواء من ضلع آدم ، وما معنى قول الفلاسفة ، الإنسان عالم صغير ، والعالم إنسان كبير . ثم يسأل الداعى عن أعضاء الإنسان وحكمتها العددية والتشريحية . وينتهى إلى القول بأن الله الذى خلق الإنسان ، حكيم غير مجازف ، وأنه فعل جميع ذلك لحكمة ، وله فيها أسرار خفية ، حتى جمع ما جمع ، وفرق ما فرق ، فكيف يسع المرء الإعراض عن هذه الأمور . ألا يدلكم هذا على أن الله أراد أن يرشدكم إلى بواطن الأمور الخفية ، وأسرار فيها مكتومة ، لو تنبهتم لها وعرفتموها لزالت عنكم كل حيرة ، ودحضت كل شبهة ، وظهرت لكم المعارف السنية ، ألا ترون أنكم جهلتم أنفسكم التى من جهلها ، كان حرياً أن لا يعلم غيرها . فإذا آنس الداعى أن نفس المدعو قد تعلقت بما أثار من الأمور ، وبدأ يسأله عن معانيها وتفاسيرها ، استمهله حتى يجيء وقت الإفضاء ؛ ثم يتلو عليه بعض الآيات فى الوفاء بالعهد وتوكيد الأيمان ؛ ويطالبه بالعهد الذى يجب أن يقطعه كل مدعو على نفسه بالوفاء والكتمان ، وفيه يتعهد « بألا يفشى لهم سراً ، وألا يظاهر عليهم أحداً ،

وألا يطلب لهم غيلة ، وألا يكتمهم نصحاً ، ولا يوالى لهم عدواً » . ثم يطالبه بعد ذلك بمبلغ من المال يقدره رسما للدخول فى الدعوة ، فإذا امتنع عن القيام بما تقدم وقف به الداعى عند هذا الحد ؛ وإذا أجاب ، انتقل به الداعى إلى الدعوة الثانية .

الدعوة الثانية

ولا ينتقل الداعى بالمدعو إلى هذه الدعوة إلا إذا آنس فيه قبولا ، ووثق بحرصه وكتمانه ؛ وعندئذ يلقنه أن الله تعالى لم يرض فى إقامة حقه وما شرعه لعباده ، إلا أن يأخذوا ذلك من أئمة نصبهم للناس ، وأقامهم لحفظ شريعته على ما أراد تعالى ؛ ويستدل الداعى على ذلك بما ورد فى كتبهم ، فاذا أيقن أن المدعو قد اقتنع بنظرية الإمامة ، انتقل به إلى الدعوة الثالثة .

الدعوة الثالثة

وهى مرتبة على الدعوة الثانية ، وعلى رسوخ نظرية الأئمة المختارين فى نفس المدعو ؛ وفيها يلقن المدعو أن هؤلاء الأئمة سبعة ، قد رتبهم الله تعالى كما رتب السموات والأرضين والكواكب ، وغيرها من جلائل الموجودات ، وجعلها سبعاً . وهؤلاء الأئمة السبعة هم : على بن أبى طالب ، والحسن بن على ، والحسين بن على ، وعلى بن الحسين الملقب بزين العابدين ، ومحمد ابن على ، وجعفر بن محمد الصادق ؛ والسابع هو القائم صاحب الزمان ؛ وأنهم أى الشيعة مختلفون فى هذا القائم ، فمنهم من يقول إنه هو محمد بن إسماعيل ابن جعفر دون أبيه إسماعيل ؛ ومنهم من يعد إسماعيل بن جعفر إماماً ، ثم يعد ابنه محمد بن إسماعيل من بعده . فإذا استقر فى ذهن المدعو أن الأئمة سبعة ، وبعد بذلك عن نظرية الإمامية الإثنى عشرية ، تلا على الداعى بقية الأئمة الذين يعتقد فى إمامتهم . وهكذا يقف الداعى بالمدعو عند رأى الإسماعيلية فى إمامة إسماعيل ثم ولده محمد ، ويلقى إليه أن محمداً بن إسماعيل عنده علم المستور وبواطن الأمور ، وعلم التأويل ، وأن دعاته هم الوارثون لعلمه دون سائر طوائف الشيعة ، ويؤيد ذلك بما ورد فى كتبهم من الأدلة والأقوال .

الدعوة الرابعة

وهى بدء التحول إلى المراتب العليا ، ولا ينتقل الداعى بالمدعو إليها إلا إذا وثق من حسن انقياده وإيمانه بما تقدم ؛ وعندئذ يلقنه أن الأنبياء المعتبرين ، الناسخين للشرائع ، الناطقين بالأمور ، كالأئمة سبعة فقط ، وكل منهم لا بد له من صاحب يأخذ عنه دعوته ويحفظها على أمته ، ويكون له ظهيراً فى حياته ثم يخلفه بعد وفاته ، ويتخذ له كنبيه ظهيراً يخلفه ، ويسير كل مستخلف على هذا المنوال ، إلى أن يأتى منهم على تلك الشريعة سبعة ، ويقال لهؤلاء السبعة الصامتون ، لأنهم ثبتوا على شريعة واحدة واقتفوا أثراً واحداً ، ويقال لأولهم (السوس) ؛ فإذا انقضى هؤلاء السبعة ، فلا بد من أن يبدأ دور ثان من الأئمة ، يفتتحه نبى ناطق ينسخ شريعة من مضى ، ويخلفه على النحو المتقدم سبعة من الصمت ، وهكذا حتى يقوم النبى السابع من « النطقاء » فينسخ جميع الشرائع المتقدمة ، ويكون هو صاحب الزمان الأخير ؛ وكان أول الأنبياء « النطقاء » آدم وظهيره (أو سوسه) ولده شيث ؛ وخلفه سبعة من الأئمة الصمت على شريعته ؛ ثم جاء نوح ثانى النطقاء وظهيره ولده سام ، فنسخ شريعة آدم ، وخلفه السبعة الصمت على شريعته ؛ وكان ثالث النطقاء إبراهيم الخليل ، وظهيره ولده إسماعيل ، فنسخ شريعة نوح ؛ وكان رابعهم موسى بن عمران ، وظهيره أخوه هرون ؛ وخامسهم المسيح عيسى بن مريم وظهيره شمعون الصفا ؛ وسادسهم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، فإنه نطق بشريعة نسخ بها كل الشرائع المتقدمة ، وكان ظهيره وسوسه على بن أبى طالب ؛ وكان السبعة الصمت يتعاقبون دائماً بين كل ناطق وآخر على النحو المتقدم ؛ فلما توفى محمد سادس النطقاء ، تلقى دعوته على بن أبى طالب وهو أول السبعة الصمت ؛ وجاء من بعده ستة صمتوا على الشريعة الإسلامية ، وحملوا تراث أسرارها ، وهم ابنه الحسن ثم ابنه الحسين ثم على ابن الحسين ، ثم محمد بن على ، ثم جعفر بن محمد ، ثم إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو آخر الصمت من الأئمة المستورين ، وأما السابع من النطقاء فى هــذا الدور ، فهو « قائم الزمان » ؛ وعند الإسماعيلية (والفاطميون إسماعيلية) أنه محمد بن إسماعيل بن جعفر ، وأنه هو الذى انتهى إليه علم

الأولين ، ووقف على بواطن الأمور ومدارك الغيب ، وعلى جميع الكافة الانقياد له ؛ لأن الهداية فى موافقته ، والضلال والحيرة فى مخالفته

الدعوة الخامسة

والإمامة الإسماعيلية هى لب الدعوة الفاطمية المذهبية ؛ فمتى انتهى المدعو إلى تلقى فكرة الإمامة على النحو المتقدم انتقل به الداعى إلى الدعوة الخامسة ، وهى مترتبة على ما قبلها ؛ وفيها يقرر الداعى أنه لابد مع كل إمام قائم كل عصر حجج متفرقون فى الأرض ، وعدتهم أبداً اثنا عشر رجلا فى كل زمان ، كما أن عدد الأئمة سبعة دائماً . ويستدل الداعى على ذلك بأمور منها ، أن الله تعالى لم يخلق شيئاً عبثاً ، ولا بد فى خلق كل شىء من حكمة ؛ وإلا فلم خلق النجوم التى بها قوام العالم سبعة ، وجعل أيضاً السموات سبعا ، والأرضين سبعا ، والبروج اثنى عشر ، والشهور اثنى عشر ، ونقباء بنى إسرائيل اثنى عشر ، ونقباء رسول الله من الأنصار اثنى عشر نقيباً ، وهكذا . ثم ينتقل الداعى إلى الدعوة السادسة .

الدعوة السادسة

وفى الدعوة السادسة يتحدث الداعى عن شرائع الإسلام وفرائضه من الصلاة والزكاة والصوم والحج وغيرها ، ويعلم المدعو أن هذه الشرائع والفروض ترجع فى الواقع إلى معان وحكم أخرى غير الظاهرة ، وأنها وضعت على سبيل الرموز لمصلحة العامة ، حتى يشتغلوا بها عن بغى بعضهم على بعض ، ولكى تصدهم عن الفساد فى الأرض ، وتكفل خضوعهم وحسن طاعتهم ، وذلك حكمة من الناصبين للشرائع ، وقوة فى حسن سياستهم لأتباعهم ، وإتقاناً منهم لما رتبوه من النواميس ونحو ذلك . فإذا استقر فى ذهن المدعو أن أحكام الشريعة كلها وضعت على سبيل الرمز لسياسة العامة ، وأن لها معانى أخرى غير ما يدل عليه الظاهر ، انتقل الداعى بالمدعو إلى ميـــدان الفلسفة ونظريات الفلاسفة ، مثل أفلاطون وأرسطو وفيثاغورس وغيرهم ، وأخذ يعلمه أن منطق العقل هو المعول عليه فى الأمور ، وأنه يجب ألا يؤخذ بالأخبار والأشياء المنقولة ، وإنما يجب الأخذ بالأدلة العقلية دون غيرها .

وفى هذه المرتبة ، تبدأ مهمة الدعاة الحقيقية ، وهى العمل على هدم العقيدة الدينية .

الدعوة السابعة

ولا بد أن يتيقن الداعى فى هذه المرتبة ، أن المدعو قد تأهل باقتناعه واستعداده ، إلى الانتقال إلى مرتبة أعلى ، وعندئذ يلقنه أن صاحب الشريعة لا يستغنى بنفسه ، ولا بد له من صاحب معه يعبر عنه ليكون أحدهما الأصل والآخر يصدر عنه ؛ وهذا إنما هو إشارة العالم السفلى لما يحويه العالم العلوى ؛ ويستدل الداعى على ذلك بأن مدبر العالم فى أصل الترتيب وقوام النظام ، صدر عنه أول موجود بغير واسطة ، ولا سبب نشأ عنه ، وهذا ما يشير إليه قوله تعالى « إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون » إشارة إلى أن الأول فى الرتبة والآخر هو القدر الذى قال فيه « إنا كل شىء خلقناه بقدر » . ويستدل كذلك بأقوال وقرائن أخرى من كلام الفلاسفة والمتصوفة مما هو مبين فى كتبهم .

الدعوة الثامنة

وهى قائمة على تسليم المدعو بجميع ما تقدم فى المراتب السابقة ؛ وفيها يُعلم المدعو أن مدبر الوجود ، والصادر عنه ، إنما هو تقدم السابق على اللاحق ، تقدم العلة على المعلول ، فكانت الأعيان كلها ناشئة وكائنة عن الصادر الثانى ؛ ومع ذلك فالسابق عندهم لا إسم له ولا صفة ، ولا يعبر عنه ولا يحدد ، فلا يقال هو موجود ولا معدوم ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ؛ وهكذا سائر الصفات ، فإن الإثبات عندهم يقتضى شركة بينه وبين المحدثات ، والنفى يقتضى التعطيل ؛ وقالوا ليس بقديم ولا محدث ، بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته ، كما هو مبسوط فى كتبهم . ثم إن التالى يلحق بمنزلة السابق ، والصامت فى الأرض يدأب فى أعماله ، حتى يصير بمنزل الناطق سواء ، وأن الداعى يدأب فى أعماله حتى يبلغ منزلة السوس ، وهكذا ؛ وأن معجزات الأنبياء ، إنما هى أشياء تنتظم بها سياسة الجمهور ، وتشمل الكافة مصلحتها بترتيب من الحكمة يحوى معانى فلسفية ، تنبئ عن حقيقة ما يشتمل

عليه العالم بأسره من الجواهر والأعراض ، وأنها تكون تارة رموزاً يعقلها العالمون ، وتارة تكون بإفصاح يعرفه كل الناس ، وأن القرآن والقيامة والثواب والعقاب وغيرها ، معناها غير ما يفهمه الكافة ، وغير ما يتبادر إلى الذهن ؛ وأنها ليست إلا حدوث أدوار تقع عند انقضاء أدوار من أدوار الكواكب وعوالم اجتماعاتها ، من كون وفساد ، جاء على ترتيب الطبائع ، كما بسطه الفلاسفة فى كتبهم .

الدعوة التاسعة

وفى الدعوة التاسعة والأخيرة ينتقل المدعو إلى ميدان العلوم الفلسفية والطبيعية وما بعد الطبيعة ، ويدخل حظيرة الأسرار الأخيرة ؛ فيعلم المدعو أن ما ذكر من الحدوث والأصول ، إنما هى رموز الى معانى المبادئ وتقلب الجواهر ، وأن الوحى إنما هو صفاء النفس ، فيجد النبى فى فهمه ما يلقى إليه ويتنزل عليه ، فيبرزه الى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله ، الذى ينظم به النبى شريعته حسبما يرى من المصلحة فى سياسة الكافة ؛ ولا يجب العمل بهذه الشريعة إلا بحسب الحاجة فى رعاية مصالح الدهماء ، وليس على العارف المستنير أن أن يعمل بها ؛ وأن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع ، إنما وجدوا لسياسة العامة ، وأن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة ، وأن الإمام إنما يوجد فى العالم الروحانى إذا صرنا بالرياضة فى المعارف إليه ، وظهوره إنما هو ظهور أمره ونهيه على لسان أوليائه ، الى غير ذلك من التعاليم الفلسفية والشروح الإلحادية[1] .

ويلحق بهذه الدعوة السرية ، عهد يؤخذ عند بدء الدعوة على

---

(١) راجع خطط المقريزى (ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٣٣) حيث وردت الدعوات التسع مفصلة . وقد لخصنا الدعوات تلخيصاً وافياً ، ولم نغفل منها إلا ما يدخل فى باب التكرار .

وقد ترجم المستشرق دى ساسى هذه الدعوات الى الفرنسية فى كتابه **Réligion des Druses** (**Introduction LXXIV et suiv.**) ، وترجمها أيضا المستشرق كازانوفا بعنوان **Doctrine** (**Secrete des Fatimides**) ، وذلك فى مجلة المباحث الأثرية الشرقية **B. d'Archéologie Orientale** ، وقرن ترجمته ببعض شذور عن دعوة القرامطة والإسماعيلية ، ولكنه لم يفطن الى رسائل الدعاة السريين ولم ينتفع بها .

المدعو ، كفالة بالإخلاص والكتمان ، وقد صيغ فى نصوص خطيرة رهيبة ، هذا بيانها :

يطلب الداعى إلى المدعو أن يحلف ويقول : « جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه ، وذمته وذمة رسله وأنبيائه وملائكته ، وكتبه ورسله وما أخذه على النبيين من عهد وميثاق ، أنك تستر جميع ما تسمعه وسمعته ، من أمرى ومن أمر الإمام ، وأمور أشياعه وأتباعه وولده وأهل بيته ، فلا تظهر من ذلك قليلا ولا كثيراً ، إلا ما أطلقت لك أن تتكلم به ، أو أطلقه لك صاحب الأمر ، فتعمل فى ذلك بأمرنا ولا تتعداه ؛ وليكن ما تعمل عليه قبل العهد وبعده بقولك وفعلك ، أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وتشهد أن الجنة حق وأن الموت حق ، وأن البعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ؛ وتقيم الصلاة وتؤتى الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت الحرام ، وتجاهد فى سبيل الله ، وتوالى أولياءه ، وتعادى أعداءه ، وتقوم بفرائض الله وسننه وسنن ورسوله ، ظاهراً وباطناً وعلانية وسراً وجهراً . وقد جعلت على نفسك الوفاء بذلك : قل نعم ؛ فإذا قال المدعو نعم ؛ قال الداعى : وعليك الصيانة وأداء الأمانة ، على ألا تظهر شيئاً أخذ عليك فى هذا العهد ، فى حياتنا ولا بعد وفاتنا ، ولا فى حال غضب أو رضى ، ولا رغبة أو رهبة ، ولا طمع أو حرمان ؛ وجعلت على نفسك عهد الله وميثاقه أن تمنعنى وجميع من أسميه لك ، ما تمنع منه نفسك ؛ وتنصح لنا ولوليك نصحاً ظاهراً وباطناً ، ولا تخون الإمام وأولياءه وأهل دعوته ، فى أنفسهم ولا فى أموالهم ، وألا تتأول فى هذه الإيمان تأويلا ولا تعتقد ما يحلها ؛ وأنك إن فعلت شيئاً من ذلك ، فأنت برىء من الله ورسله وملائكته ، وجميع ما أنزل الله من كتبه ، وأنت خارج من حزب الله وحزب أوليائه ، وبرىء من حول الله وقوته ، وعليك لعنة الله ؛ ولله عليك أن تحج إلى بيته الحرام ثلاثين حجة ماشياً حافياً ، نذراً واجباً ، وكل ما تملك فى الوقت الذى تخالفه فيه ، فهو صدقة على الفقراء والمساكين ، وكل مملوك لك من ذكر وأنثى ، فهو حرٌ لوجه الله ، وكل امرأة لك أو تتزوجها إلى وقت وفاتك ، فهى طالق ثلاثاً طلاق الحرج ، لا مثوبة لك ولا خيار ولا رجعة ،

وكل ما كان لك من أهل ومال وغيرهما، فهو حرام عليك ؛ والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت ، وكفى بالله شهيداً بيننا وبينك[١]

— ٢ —

تلك هى عناصر الدعوة المذهبية الفاطمية ، ومراتبها السرية ، كما انتهت إلينا ، على يد المؤرخين المتأخرين مثل النويرى والمقريزى وغيرهما . ومن الواضح من تتبع هذه المراتب ، وما تحتويه من صنوف الجدل الطبيعى واللاديني ، أننا نجد أنفسنا أمام دعوة فلسفية حرة ، ترمى إلى هدم العقيدة الدينية العادية ، لدى المستنيرين والخاصة ، واعتبارها أمراً لا يقصد به سوى الدهماء والكافة ، وأن المدعو الداخل فيها ، ينتهى فى مرتبتها الأخيرة ، بفقد العقيدة الإسلامية ، والعقيدة الدينية بأسرها .

ونحن نعتقـــد أنه لا يوجد ثمة ما يدعو إلى الريب ، فيما نقله أولئك المؤرخون من مصادر سابقة ، وربما من المصادر الفاطمية ذاتها ، ولا سيما أن من بينهم المقريزى ، وهو كما أشرنا فى غير موضع ، فاطمى النزعة ، من أنصار الدولة الفاطمية ، والمؤيدين لنسب الخلفاء الفاطميين ؛ وقد آمن بصحة هذه النصوص كثير من النقدة المحدثين .

بيد أنه ، كما بذلت فى الآونة الأخيرة ، عن طريق البحوث الإسماعيلية جهود خاصة لتصحيح نسب الفاطميين وتأييد دعوى انتمائهم إلى آل البيت ، فقد بذلت فى نفس الوقت جهود مماثلة ، للتشكيك فى صحة هذه الدعوة السرية الفاطمية ، وتبيان أنها حديث خرافة ، يجب الإغضاء عنه .

وقد كان الأستاذ إيڤانوف ، أيضاً ، رائد هذه الجهود . وهو يخصص لها كتاباً أسماه « موجز فى تطور المذهب الإسماعيلى »[٢]

---

(١) اعتمدنا فى إيراد نص هذا العهد على المقريزى (ج ٢ ص ٢٣٤ و ٢٣٥) ، وعلى كتاب الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادى (طبع مصر) ص ٢٨٩ و ٢٩٠ ، ولم نغفل فى إيراده أيضاً سوى التكرار .

(٢) وعنوانه كما سبق : **Brief Survey of the Evolution of Ismailism (Brill, Leiden 1952)** ، وقد عنيت بنشره « الجمعية الإسماعيلية » الهندية .

ومن الغريب أن الأستاذ إيڤانوف ، لا يقدم لنا فى هذا البحث دليلا تاريخياً واحداً ، أو نصاً مقنعاً ، فاطميا أو غير فاطمى ، يحملنا على الشك فى أقوال التواريخ المصرية ؛ بل يكتفى بإنكارها ودحضها على النحو الآتى : «لقد أحاط بحقيقة الدعوة الفاطمية كثير من الارتباك وسوء الفهم . ولأسباب ظاهرة ، نرى الأمور المتعلقة بتنظيمها وعملها قد أخفيت ، ولا يوجد فى الأدب الفاطمى أية أخبار مفصلة عنها . وقد كان هذا الكتمان ذاته سبباً فى أن « رواة » العصور الوسطى ، قد أطلقوا العنان لخيالهم ؛ فهم يصفون « مراتب » الدعوة التى لم توجد قط ، والتعاليم المتعلقة بكل منها ، ويقولون لنا كيف أن الدعاة البارعين أو الرسل ، كانوا يتقربون من المسلم المخلص ، ويستدرجونه للإلحاد ، ثم ينتهون به إلى الكفر . والمدهش فى ذلك هو أن كثيراً من الباحثين الغربيين قد صدقوا هذه القصص بإيمان ساذج »[١]

ثم يحمل بشدة على مراتب الدعوة التى أوردها النويرى والمقريزى ويعتبرها خيالية محضة ، وليس فيها شىء من الصحة ، بالرغم من أن بعض أكابر المستشرقين ، مثل دى ساسى ، قد آمنوا بها ونقلوها[٢] .

ونقول نحن ، إنه مما يعزز هذه الروايات التى انتهت إلينا عن الدعوة الفاطمية ، أنها روايات مصرية ، تتحدث عن تراث دولة مصرية ، هى الدولة الفاطمية ، وثانياً أنها نقلت إلينا على يد مؤرخين أتوا بعد ذهاب الدولة الفاطمية بمدة طويلة ، فالنويرى كتب فى أوائل القرن الثامن الهجرى ، وكتب المقريزى فى أوائل القرن التاسع ، ولم يك يحدو أولئك المؤرخين أية بواعث أو خصومات مذهبية حول تاريخ الدولة الفاطمية .

وإنه من المتفق عليه ، وهو ما يؤيده الأستاذ إيڤانوف فيما يبدو ، أن الدعوة الفاطمية كانت تحتوى على كثير من المبادىء الفلسفية الحرة ، أو الإلحادية ؛ وهذا ما يؤيده كثير من المؤرخين ، وفى مقدمتهم ثقاة متزنون مثل الحافظ ابن حجر ، حيث يشير إلى « ما اشتهر من سوء معتقد الفاطميين ، وكون بعضهم نسب إلى الزندقة ، وادعى الألوهية كالحاكم ، وبعضهم فى الغاية

(١) كتاب الأستاذ إيڤانوف المشار إليه ص ١١ .

(٢) كتاب الأستاذ إيڤانوف المشار إليه ص ٥٤ .

من التعصب لمذهب الروافض »(١) ؛ وابن خلدون حيث يشير إلى ما كان عليه الفاطميون « من الإلحاد فى الدين ، والتعمق فى الرافضية »(٢) ؛ ويلاحظ أن ابن خلدون من المؤيدين لنسب الفاطميين .

ويشير الأستاذ إيفانوف إلى ذلك فى غير موضع من بحوثه ، فهو يقول لنا فى كتابه عن « تطور المذهب الإسماعيلى » مايأتى « كان الفاطميون ، تحت تأثير الدعوة الخصيمة ، يبدون أن عقيدتهم الرسمية هى الإسلام روحاً ونصاً ، وأن عقيدتهم السرية وهى عبارة عن مذهب روحى ، لم يسمح لها قط أن تتغلب على دينهم الوضعى . فإذا كان ثمة بين المذهبين تعارض ، فقد كان الإسلام هو الذى يظفر دائما ، وكان « المذهب الآخر » هو الذى يضحى » :

ثم يقول « إن كون الفلسفة الفاطمية ، قد اقتبست من مذاهب الكلام البيزنطية ، يوضح لنا حقيقة حار فى تعليلها الباحثون : وهى أصل الفلسفة الفاطمية . ومن الحقائق المسلم بها أن الدعوة السرية الفاطمية ظهرت فجأة على المسرح التاريخى كاملة ، ثم لم يلحقها بعد ذلك أى توسع أو تهذيب »(٣) .

ويقول لنا فى كتاب آخر من كتبه هو « عقيدة الفاطميين » ، أن محتويات رسائل حمزة ، كانت تعتبر فى نظر الدوائر الفاطمية نظريات إلحادية ، ولكنها فى جوهرها ، كانت إلى حد كبير هى نفس مبادئ الإسماعيلية المتزمتين فى عصر الحاكم . والمبدأ الوحيد الذى كانت تعارضه هو نظرية حلول الإله فى شخص الأئمة المختلفين ، وآخرهم الحاكم ، ومثل هذه الآراء كانت ذائعة فى الدوائر الإسماعيلية المنعزلة ، ولا سيما فى فارس »(٤) .

من المسلم به إذاً ، أن الدعوة الفاطمية ، كانت لها ناحية سرية ، يُضن بها على الكافة ، ولا يفضى بها إلا إلى الصفوة من الناس ، وأن هذه الدعوة السرية كانت تتضمن مبادئ فلسفية إلحادية .

---

(١) الحافظ ابن حجر ، فى كتابه « رفع الاصر عن قضاة مصر » فى ترجمة ابن خلدون (مخطوط بدار الكتب) . وراجع كتابى عن ابن خلدون (الطبعة الثانية ص ٢٠٤) .

(٢) ابن خلدون فى المقدمة ص ١٨ .

(٣) الأستاذ إيفانوف فى كتابه المشار إليه ص ٣٧ و ٤٣ و ٤٤ .

(٤) A Creed of the Fatimids (Bombay 1936) p. 12 & 13 .

وإنه لما يعزز هذا الفرض، بل هذه الحقيقة التاريخية ، ما يقوله لنا الداعية الفاطمى الكبير القاضى النعمان ، عما يجب على الداعى أن يلتزمه إزاء المستجيبين لتلقى دعوته ، فهو يقول : «ثم ينبغى للداعى اختيار أمر من يدعوه ، وتعرف أحوالهم رجلا رجلا ، وتمييز كل امرئ منهم ومعرفة ما يصلح له أن يؤتى إليه ، ويحمله عليه من أمر الله وأمر أوليائه ، ومقدار ما يحمله من ذلك وقدر قوته وطاقته ، ومتى يوصل ذلك إليه ، وكيف يغزوه به ، وامتحان الرجال ، وتعرف الأحوال ، ومقدار القوى ومبلغ الطاقات ، وعلم ذلك هو أفضل ما يحتاج إليه الدعاة فى باب السياسات والرياضات ، فكثيراً ما فسد أمر الداعى من جهله بهذا الباب ، وفسدت دعوته منه »[1] .

ويقول فى موضع آخر : « ولتثبيت أمر أولياء الله حدود وشرائط وآداب ودرجات يرتقى فيها الداخل فى ذلك ، فإذا لم يقف على ذلك أولا فأولا ، ويرتقيه درجة درجة ووصل إليه منه الشىء قبل وصول ما يجب أن يصل إليه قبله هلك ، كما أن الطفل لو حمل عليه الطعام فى حين ولادته لهلك . ولذلك كان علم أولياء الله غير مطلق إلا لمن أطلقوه له ، لأنه لو كان مطلقاً ، لأهلك بعض الناس به بعضاً . . . فلهذا ولامتحان العباد أسر أولياء الله ذلك وأخفوه ، ولو نشروه وأظهروه على حقيقة الواجب فيه ، لما تخلف أحد عنه »[2] .

ويتناول حميد الدين الكرمانى ، داعية الحاكم بأمر الله ، وهو من أعظم أقطاب الكلام الإسماعيلى ، (الفاطمى) ، مراتب الدعوة فى مواضع كثيرة من كتابه الكبير « راحة العقل » ، ويقدمها إلينا فى جداول ودوائر مقارنة . وهو يقول لنا إن مراتب الحدود المؤثرة فى الأنفس هى عشر ، وان هذه المراتب العشر ثلاث منها كلية ، وسبع منها تابعة . فالثلاث الكلية هى الرسالة التى هى إفاضة البركة بتأسيس قوانين العبادة العملية الظاهرة بالتنزيل والشريعة ؛ ثم الوصاية التى هى قبول البركة بكليتها والقيام بها بجميع التنزيل وتأسيس قوانين العبادة العلمية الباطنية بالتأويل ؛ ثم الإمامة التى هى

---

(١) كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة ص ١٣٨ .

(٢) « « « « « « ص ٥٣ .

الأمر وسياسة الأمة كافة على سنن الدين . والسبعة التابعة هى أولا ، فصل الخطاب الذى يتعلق بالباب . وثانياً الحكم فى ترتيب المراتب وارتضاء الآراء والاعتقادات على موازنة الخلق ، وإظهار تأويل الكتاب الذى يتعلق بالحجة . وثالثاً الاحتجاج بالبرهان فى إثبات الحدود العلوية ومراتبها فى وجوداتها ، وتعريف الميعاد الذى يتعلق بالبلاغ . ورابعاً تعليم العبادة العملية ونشر التأويل ، وتعريف الحدود الذى يتعلق بالداعى المطلق . وخامساً تعليم مراسم العبادة العلمية وتعريف الحدود السفلية وأدوارها صغاراً وكباراً الذى يتعلق بالداعى المحصور . وسادساً أخذ العهد والميثاق وتعريف رسوم الدين ، وآداب الدين الذى يتعلق بالمأذون المطلق . وسابعاً المكاسرة والهداية إلى الحق والاعتصام بالحبل الذى يتعلق بالمأذون المحصور . وأن كل مرتبة من هذه المراتب العشر مالكة لما دونها ، ثم لا تنعكس كالناطق الذى يملك ما دونه من المراتب ، والوصى الذى يملك ما دونه ، ولا يملك ما فوقه[١] .

ثم يسجل لنا المراتب المذكورة فى دائرة ، على النحو الآتى : الناطق . الأساس . الإمام . الباب . الحجة . داعى البلاغ . الداعى الناطق . الداعى المحصور . المأذون المطلق . المأذون المحصور . المكاسر . ثم يضعها بعد ذلك فى جدول مقارن ، ويضع أمام كل مرتبة ، مهمتها واختصاصها حسبما تقدم من شرحه[٢] .

وينوه بعد ذلك بما يجب أن يكون عليه الحدود من علم بالكتاب والشريعة وأركانها ، التى بها وجودهم فى عالم الدين حدوداً ، والتى يكون للنفس بها الوجود الأول ، لحاجتها فى استجذاب الأنفس ، وإقامة عمارة بيت العبادة إلى الكتاب والشريعة ، مثل الدعاة إن لم يكونوا عالمين بظاهر الكتاب والشريعة والحجج التى يعتمدون عليها فى الهداية منها ، لم يطرد لهم فعل فيما ترتبوا عليه من منازل عالم الدين ، ولا يكون لهم حظ فى اقتناء السعادة الأبدية ، بل ليسوا بحدود لعالم الدين[٣] .

---

(١) راحة العقل ص ١٣٤ و ١٣٥ .

(٢) راحة العقل ص ١٣٥ و ١٣٨ .

(٣) راحة العقل ص ١٦٨ و ١٦٩ .

ويتوج أقوال أولئك الدعاة الفاطميين عن مراتب الدعوة ، وتدرجها ، وسريتها ، ما ورد فى المرسوم الفاطمى الخاص بتعيين داعى الدعاة ، وهو الذى سبقت الإشارة إليه من قوله : « ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع . . . وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله »[1]

ويتوجها أيضاً ، ذلك القسم الخطير بالكتمان الذى يطلب إلى المستجيبين أداؤه عند دخولهم فى الدعوة ، والذى أوردنا نصه فيما تقدم .

---

(١) نشرنا نص هذا المرسوم بأكمله فى نهاية الكتاب فى باب الوثائق .

الفصل الثالث

نشأة الدعوة وتطوراتها

أصل الدعوة السرية الفاطمية . ميمون بن ديصان القداح . استتاره بالتشيع . تأسيسه لمذهبه . انتسابه لآل البيت . تنظيمه لدعوته . موضوع هـذه الدعوة وأصلها المجوسى . الباطنية ومبادؤهم الدهرية . مايقول داعيتهم عبيد الله بن الحسن. عرض الشهرستانى للفكرة الباطنية . شرح الغزالى لمذهبهم . حكمة التسمية . غاية هذه الدعوة . برنامج ابن ميمون كما يعرضه دوزى . عبد الله بن ميمون والحسين الأهوازى . استقرار الدعوة فى الشام . فورة القرامطة . أبناء عبد الله . تفرق الدعاة فى سائر الأقطار . أبو عبـد الله الشيعى . عبيد الله المهدى . قيام الدولة العبيدية بإفريقية . التماثل بين مبادئ القرامطة والباطنية والفاطمية . رواية اسماعيلية تؤيد وحدة الدعوتين . ولاء القرامطة للخلافة الفاطمية ثم خروجهم عليها . كتاب المعز الى القرمطى ودلالته . الدعوة الفاطمية والمجتمع المصرى . تحررها من وسائل الضغط والإكراه . إلغاء مجالس الحكمة .

رأينا مما تعرضه عناصر تلك الدعوة السرية الفاطمية التى كانت تلقى على الأولياء والمؤمنين فى مجالس القصر الفاطمى ثم بجامعة دار الحكمة ، أنها لم تكن سوى دعوة فلسفية حرة صيغت بمنتهى الذكاء والمهارة ، ونظمت مراتبها بدقة مدهشة ، تنم عن براعة أولئك الذين صاغوها ، وفائق فهمهم لنفسية الكافة ، وتدلى بأنهم كانوا أئمة عصرهم ، فى التأويلات الكلامية والشروح الإلحادية . ولا ريب أن الخلافة الفاطمية كانت ترمى ببث هذه الدعوة ، إلى غاية سياسية أكثر منها دينية : أن يحشد المستنيرون والخاصة تحت لواء الخلافة الفاطمية ، وأن يجعلوا من إمامتها علما للزعامة الدينية فى العالم الإسلامى ، وأن يكونوا سفراءها لدى المؤمنين والكافة ، يحركونهم لتأييد كلمتها ، وتوطيد سلطانها وتنفيذ غاياتها . تلك هى الغاية الحقيقية لتنظيم الدعوة السرية وبثها على هذا النحو ، واتخاذها أداة لغزو العقول والعقائد ، من طريق الدين

والفلسفة الكلامية . بيد أن هذه الدعوة المدهشة لم تكن جديدة فى الواقع ، ولم يبتدعها الفاطميون ولا الحاكم بأمر الله ، ولكنها اشتقت من الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية السرية ، التى نظمت فى أواخر القرن الثانى من الهجرة فى جنوب فارس ، وأسفرت بادئ ذى بدء عن فورة القرامطة فى البحرين ، ثم غزت إفريقية بعد ذلك ، وأسفرت عن قيام الدولة الفاطمية فى أواخر القرن الثالث.

وقد نشأت هذه الدعوة ونظمت مبادؤها السرية لأول مرة ، على يد جماعة من الثوريين الملاحدة بزعامة أبى شاكر ميمون بن ديصان البونى المعروف بالقداح . وقد سبق أن عرضنا إلى قصة آل القداح فيما يتعلق بمسألة نسب الخلفاء الفاطميين . ونعود هنا فنعرض إليها بإيجاز من ناحيتها المتعلقة بنشوء الدعوة الباطنية . كان ميمون القداح حسبما تقدم ، داعيةً ملحداً تفقه فى درس الأساطير الدينية ، والبحوث الكلامية والجدل الفلسفى ، ومتآمراً وافر الإقدام والجرأة ؛ وكان فارسياً مجوسياً من سبى الأهواز ، ثم تظاهر بالإسلام والتشيع . وقد كانت فارس فى ذلك العصر معقل الدعوة الشيعية ، وكان معظم الدعاة الملاحدة الذين عملوا لغزو العقيدة الإسلامية وهدمها ، فُرساً يضطرمون بغضاً للإسلام والعروبة . وبدأ ميمون حياته مولى لجعفر بن محمد الصادق وهو عند الشيعة من الأئمة المختارين ، واستتر بالتشيع والدعوة لآل البيت ؛ ثم قبض عليه مع جماعة من أصحابه وزجوا إلى سجن الكوفة ، وواليها يومئذ عيسى بن موسى ، وذلك فى أواخر عهد المنصور (نحو سنة ١٤٥ هـ) ؛ وفى السجن وضع ميمون وأصحابه دعوتهم ، وأسسوا مذهبهم الشهير ، وهو المعروف بمذهب الباطنية . وخرج ميمون من السجن يحمل دعوته ، وانضم إليه كثير من غلاة الرافضة[1] والحلولية[2] وادعى أنه من ولد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق[3] ؛ وانتشرت دعوته فى جنوب

---

(١) الرافضة أو الروافض فرقة من غلاة الشيعة ، وهم أتباع ابن سبا القائل بألوهية على . ومنهم فرقة سميت كذلك ، لأنهم رفضوا رأى زيد بن على بن الحسين بن على فى الامتناع عن لعن أبى بكر وعمر .

(٢) الحلولية أصحاب مذهب الحلول ، وهو القول بحلول الألوهية فى على والأئمة المختارين من بنيه ، وهو يوافق رأى النصارى فى اعتبار المسيح إلها حلت به الروح القدس .

(٣) كتاب الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ .

فارس وفى جنوب العراق والبحرين ؛ وانبث دعاته فى كل مكان يسترون ظاهراً بالتشيع ، ويعملون فى الخفاء لبث مبادئهم الإلحادية ، ويخاطبون كل طائفة بما يلائم ميولها وتفكيرها . ولجأ ميمون حيناً إلى بيت المقدس مع جماعة من أصحابه انقاء المطاردة ، وهنالك بثوا دعوتهم ومبادءهم ؛ وكانوا يتوسلون للتأثير فى الكافة بأعمال التنجيم والسيمياء ، وبعض التجارب الكيميائية التى كانوا يحذقونها[١] . وحمل الدعوة بعد ميمون ولده عبد الله ، وكان مثله ذكاء وبراعة ، وتبحراً فى المباحث الفقهية والكلامية ، والنظريات الفلسفية الحرة ، فنظم الدعوة ، وصاغها فى تسع مراتب ، ودعا لإمامة آل البيت الذين يزعم الانتساب إليهم ، وكان يدعى العلم بالغيب والأسرار الروحية والعلوم الخفية ، ويزعم أنها انتهت إليه من جده محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق ، وهو فى زعم الشيعة مستودع العلوم والأسرار الخفية .

ماذا كان قوام هذه الدعوة الإلحادية ، وماذا كانت غايتها الحقيقية ؟ يرى كثير من المتكلمين أنها كانت ترمى إلى نشر المجوسية بالتأويلات التى يتأول بها دعاتهم على القرآن والسنة ، ويستدلون بذلك على أن إمامهم وزعيمهم الأول ، وهو ميمون بن ديصان كان مجوسياً ، ويستدلون أيضاً بما قاله البرذهى وهو من زعمائهم فى بعض رسائله « إن المبدع الأول أبدع النفس ؛ ثم إن الأول والثانى دبرا العالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع ؛ وهذا ما يطابق قول المجوس أن اليزدان خلق أهرمن ، وأنه مع أهرمن مدبران للعالم ، غير أن اليزدان فاعل الخيرات وأهرمن فاعل الشرور[٢] .

ويقول عبد القاهر البغدادى ، إن الباطنية يرفضون المعجزات ، وينكرون الوحى ، ويزعمون أن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العامة بالنواميس والحيل ، طلباً للزعامة بدعوى النبوة والإمامة . وكل واحد منهم صاحب دور مسبع إذا انقضى دوره سبعة ، تبعه دور آخر ؛ ويقولون إن النبى هو الناطق ، وإن الوحى أساسه تأويل نطق الناطق على ما تراه يميل إليه هواه ؛ وأنهم أى الباطنية ، تأولوا لكل ركن من أركان الشريعة تأويلا ، فزعموا

---

(١) نهاية الأرب للنويرى (المخطوط) ج ٢٦ ص ٢٢ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٧ و ٢٧٨ .

أن معنى الصلاة موالاة إمامهم ، والحج زيارته وإدمان خدمته ، والصوم هو الإمساك عن إفشاء سر الإمام ، والزنا هو إفشاء سرهم بغير عهد وميثاق ، وأن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها . ويرى عبد القاهر من ذلك ، أن الباطنية هم دهرية زنادقة يقولون بقدم العالم ، وينكرون الرسل والشرائع كلها ، لميلهم إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع ؛ ويستدل على ذلك بما ورد فى رسالة بعث بها عبيد الله بن الحسن القيروانى أحد دعاتهم إلى الحسن ابن سعيد الجنابى زعيم القرامطة يوصيه فيها « أن ادعُ الناس بأن تقترب إليهم بما يميلون إليه ، وأوهم كل واحد منهم بأنك منهم ، فمن أنست منه رشداً فاكشف له الغطاء ، وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا . . . » ثم يقول : « إن الجنة هى نعيم الدنيا ، وان العذاب إنما هو اشتغال أصحاب الشرائع ، بالصلاة والصيام والحج والجهاد ، وان أهل الشرائع يعبدون إلها لا يعرفونه ، ولا يحصلون منه إلا على اسم بلا جسم . . . »[1] .

وذكر الشهرستانى « أن الباطنية القديمة ، قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج ، فقالوا فى البارى تعالى إنا لا نقول هو موجود ولا لا موجود ، ولا عالم ولا جاهل ، ولا قادر ولا عاجز ، وكذلك فى جميع الصفات ، فإن الإثبات الحقيقى ، يقتضى شركة بينه وبين سائر الموجودات فى الجهة التى أطلقنا عليه ، وذلك تشبيه ، فلم يمكن الحكم بالإثبات المطلق والنفى المطلق . . . وقالوا فى القدم إنه ليس بقديم ولا محدث بل القديم أمره وكلمته ، والمحدث خلقه وفطرته ، أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل ، ثم بتوسطه أبدع النفس الثانى الذى هو غير تام . . . وقالوا لما اشتاقت النفس إلى كمال العقل ، احتاجت إلى حركة من النقص إلى الكمال ، واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة ، فحدثت الأفلاك السموية ، وتحركت حركة دورية بتدبير النفس ، وحدثت الطبائع البسيطة بعدها ، وتحركت حركة استقامت بتدبير النفس أيضاً ، فتركبت المركبات من المعادن والنبات والحيوان والإنسان ، واتصلت النفوس الجزئية بالأبدان ، وكان نوع الإنسان متميزاً عن سائر الموجودات ، بالاستعداد الخاص لفيض تلك

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٧٨ و ٢٧٩ و ٢٨٠ .

الأنوار ، وكان عالمه فى مقابل العالم كله ؛ وفى العالم العلوى عقل ونفس كلى ، وجب أن يكون فى هذا العالم عقل شخص هو كل ، وحكمه حكم الشخص الكامل البالغ ، ويسمونه الناطق ، وهو النبى »[١] . ونلاحظ أن بعض هذه الشروح يرد بموضوعه وأحياناً بنصه ، فى الدعوتين السابعة والثامنة من الدعوة السرية الفاطمية :

ويلخص الإمام الغزالى فى رسالته التى وضعها للرد على الباطنية ، مذهب الباطنية فيما يأتى : « أما الجملة فهو أنه مذهب ظاهره الرفض ، وباطنه الكفر المحض ، ومفتتحه حصر مدارك العلوم فى قول الإمام المعصوم ، وعزل العقول عن أن تكون مدركة للحق لما يعتريها من الشبهات ، ويتطرق إلى النظار من الإختلافات ، وإيجاد لطلب الحق بطريق التعليم والتعلم ، وحكم بأن المعلم المعصوم هو المستنصر[٢] ، وأنه مطلع من جهة الله على جميع أسرار الشرائع ، يهدى إلى الحق ، ويكشف عن المشكلات ، وأن كل زمان لا بد فيه من إمام معصوم ، يرجع إليه فيما يستبهم من أمور الدين : هذا مبتدأ دعوتهم ؛ ثم إنهم بالآخـــرة يظهرون ما يناقض للشرع ، وكأنه غاية مقصدهم ، لأن سبيل دعوتهم ليس بمتعين فى فن واحد ، بل يخاطبون كل فريق بما يوافق رأيه ، بعد أن يظفروا منهم بالانقياد لهم والموالاة لإمامهم ، فيوافقون اليهود والنصارى والمجوس على جملة معتقداتهم ، ويقرونهم عليها : فهذه جملة المذهب ؛ وأما تفصيله فيتعلق بالإلهيات والنبوات والإمامة والحشر والنشر »[٣] .

فهذه الأقوال والشروح التى يقدمها إلينا أقطاب المتكلمين ، عن دعوة ابن ميمون الإلحادية ، وهى التى عرفت أيضاً بالدعوة الباطنية والإسماعيلية ، تلقى كثيراً من الضياء على طبيعة هذه الدعوة وغاياتها ، وإنما عرفت

---

(١) الشهرستانى : الملل والنحل (على هامش الفصل والنحل) ج ٢ ص ٢٩ و ٣٠ .

(٢) هو الخليفة المستنصر بالله الفاطمى ولد الخليفة الظاهر لإعزاز دين الله ، وقد حكم من سنة ٤٢٧ هـ إلى سنة ٤٨٧ هـ ، وكان معاصراً للإمام الغزالى (٤٥٠ — ٥٠٥ هـ)

(٣) رسالة الرد على الباطنية Streitschrift des Gazali gegen die Batinija-Sekte المطبوع بعناية المستشرق جولدسيهر ص ٧ و ٨ .

بالدعوة الباطنية نسبة إلى قول دعاتها بالإمام الباطن أو المستور ؛ أو لقولهم بأن لكل ظاهر باطناً ، ولكل تنزيل تأويلا ، وربما عرفوا بذلك أيضاً لأنهم كانوا يكتمون مباده‌هم ويلقونها سراً إلى الكافة ؛ وعرفت بالإسماعيلية لقول دعاتها بإمامة إسماعيل بن جعفر الصادق ، فولده محمد المكتوم ، فولده جعفر ، ثم ولده محمد الحبيب ، وهو عندهم آخر الأئمة المستورين ؛ ويسميهم خصومهم بالديصانية ، نسبة إلى مؤسس مذهبهم ميمون بن ديصان ؛ وبالملحدة لإمعان دعوتهم فى الإنكار والإلحاد[1] .

وعلى أى حال فليس من ريب فى أن الدعوة الباطنية ، كانت ترمى إلى غزو الأذهان المؤمنة ، والعمل على هدم العقيدة الإسلامية ، بل والعقيدة الدينية بأسرها ، وهى غاية تبدو واضحة فى سياق الدعوات السرية ، ولا سيما الدعوات الأخيرة . وقد عمل عبد الله بن ميمون لتحقيق هذه الغاية ببراعة مدهشة ، فنظم صحبه ودعاته فى جمعية سرية هائلة انبث دعاتها فى سائر الأقطار . ويصف لنا العلامة المستشرق رينهارت دوزى برنامج ابن ميمون المدهش فى هذه النبذة القوية :

« أن يدمج الغالبين والمغلوبين فى هيئة واحدة ، وأن يجمع فى حظيرة جمعية سرية هائلة ذات مراتب عدة ، بين أحرار المفكرين — الذين لا يرون فى الدين سوى وسيلة لاستعباد الشعب — وبين الغلاة من جميع الطوائف ، وأن يجعل من المؤمنين آلات صماء تمد المتشككين بالقوة ، وأن يحمل الظافرين على قلب الدول التى شادوها ، وأن ينشئ حزباً كبيراً مؤتلفاً منظما ، يرفع فى الوقت المناسب — إن لم يكن شخصه — فعلى الأقل أبناءه إلى العرش : هكذا كانت غاية عبد الله بن ميمون ، وهى فكرة عجيبة نفذها بحذق مدهش وبراعة نادرة ، وخبرة عميقة بأسرار القلب البشرى ، وكانت الوسائل التى ابتدعها غاية فى الخبث وفى الدهاء .

« ولم يبحث ابن ميمون عن أنصاره الحقيقيين بين الشيعة الخلّص ، ولكن بين الثنوية والوثنيين وطلاب الفلسفة اليونانية ، ولم يكن يعتمد إلا على الطائفة الأخيرة ، وإليهم وحدهم استطاع أن يفضى بسره وخفى عقيدته ؛

---

(١) راجع الشهرستانى ج ٢ ص ٥ و ٢٩ ؛ وابن خلدون — المقدمة — ص ١٦٨ .

وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وسخرية ، وأن باقى البشر أو — الحُمُر كما يسميهم — ليسوا أهلا لفهم هذه المبادئ ؛ غير أنه تحقيقاً لغايته لم يعف عن مؤازرتهم ، بل كان يلتمسها ، ويحذر فى نفس الوقت ، من أن يحشد الأنفس المخلصة الطائعة ، إلا فى المرتبة الأولى لدعوته ، وكان دعاته الذين عرفوا أن أول ما يجب عليهم هو إخفاء حقيقة عواطفهم واعتناق آراء سامعيهم ، يظهرون فى أثواب مختلفة ، ويحادثون كل طبقة باللغة التى تروق لها ؛ يغنمون العامة والبسطاء بأعمال الشعوذة فيعتبرونها معجزات ، أو يثيرون فضولهم بالألغاز والأحاديث الخفية ، ويلبسون أمام المخلصين قناع الزهد والفضيلة ، ويتظاهرون أمام الصوفية بالتصوف ، ويكشفون عما خفى من معان الغيب ، ويشرحون الأساطير ورموزها ...

« أسفرت هذه الوسائل عن نتيجة مدهشة ، هى أن جمهوراً عظيما من أناس يعتنقون مذاهب مختلفة ، كانوا يعملون معا لتحقيق غاية لا يعرفها سوى القليل منهم »[١] .

وهكذا حمل عبد الله بن ميمون دعوة أبيه ونظمها ببراعة مدهشة ، وبث إليها روحاً قوياً جديداً ، واتخذ بلدة ساباط[٢] مدى حين مركزاً لدعوته ، وهو يستتر بثوب عميق من التشيع والورع والدعاء لآل البيت . وكان عبد الله بارعاً فى طب العيون وعلاجها ، وفى أعمال التنجيم والكيمياء ، وكانت براعته فى هذه الشؤون وسيلة للتأثير فى الكافة ؛ ولكن السلطات لم تلبث أن شعرت بخطورة هذه الحركة ، فنشطت إلى إخمادها ؛ وفر عبد الله أولا إلى البصرة ومعه الحسين الأهوازى من أقطاب شيعته ؛ فلما جدت السلطات فى مطاردته فر مع الحسين إلى الشام ، ونزل ببلدة سلمية من أعمال حمص[٣] ، واتخذها مركزاً للدعوة . وحمل الدعوة من بعده ولده أحمد ، وسير الحسين إلى العراق ، وهناك استطاع مع صحبه الدعاة أن يمهد لإضرام

---

(١) R. Dozy Essai sur L' Histoire de L' Islamisme p. 261 - 62 ، وراجع أيضاً الفرق بين الفرق ، حيث يتحدث عن وسائل الباطنية ص ٢٨٤ و ٢٨٥ .

(٢) وهى من أعمال المدائن القديمة فى جنوب الفرات .

(٣) نهاية الأرب للنويرى (المخطوط) ج ٢٦ ص ٢٣ .

الشرارة الأولى فى تلك الثورة الملحدة ، ونعنى ثورة القرامطة التى ابتدأت فى جنوب العراق فى حدود الثمانين (سنة ٢٨٠ هـ) ، على يد الفرج بن عثمان الفاشانى المعروف بذكرويه ، وحمدان بن الأشعث المعروف بقرمط ، وهو الذى تنسب إليه القرامطة . وكانت الدعوة قد اجتاحت جنوب فارس كله ، وانسابت إلى البحرين والإحساء ؛ وعاث القرامطة حيناً فى جنوب العراق ، وغزوا الشأم غير مرة ، واستقرت دولتهم بعد ذلك فى البحرين فى أواخر القرن الثالث ؛ وعصفت مبادؤهم الإباحية الملحدة بالعالم الإسلامى ، وهزوا بغزواتهم العنيفة أسس الدولة العباسية ، ولبثوا مدى حين خطراً على الشأم ومصر حسبما بينا فيما تقدم[1] .

وخلف أحمد بن عبد الله بن ميمون فى حمل الدعوة الباطنية ابنه الحسين ثم أخوه محمد المعروف بأبى الشلعلع ؛ وكانت الدعوة قد ثبتت واستقرت ، وقويت شوكة أئمتها ودعاتها ، وكثرت أموالهم ورسلهم ؛ وبعث محمد بدعاته إلى المغرب وعلى رأسهم أبو عبد الله الحسين بن أحمد المعروف بالشيعى ، فنشر الدعوة هنالك وأخذ يبشر بظهور الإمام المهدى المنتظر ؛ ثم قام بالدعوة سعيد بن الحسين ؛ ويقول بعض المنكرين لنسب الفاطميين إن سعيداً هذا ليس ولد الحسين ، وإنما هو ولد زوجه اليهودية رباه ولقنه أسرار الدعوة ، واختاره للزعامة والإمامة من بعده[2] ؛ وسعيد هــذا هو الذى فر إلى المغرب ، حينما همت السلطات بالقبض عليه وإخماد دعوته ؛ ففر إلى مصر ومنها إلى إفريقية ، وهنالك زعم أنه من ولد إسماعيل بن جعفر الصادق أو بالحرى من ولد على وفاطمة ، وتسمى بعبيد الله المهدى أبى محمد ، وزعم أنه الإمام المنتظر ؛ وكان أبو عبد الله الشيعى قد مهد له سبيل الدعوة ، واجتذب إليه عدة من القبائل البربرية القوية ؛ فاستطاع عبيد الله بعــد خطوب وأحداث جمة أن يجتنى لنفسه ملك الأغالبة ، وأن يؤسس دولة العبيديين أو الدولة الفاطمية بإفريقية (سنة ٢٩٦ هـ — ٩٠٩ م) . وتوطدت دعائم الدولة الجديدة بسرعة ، ولم تلبث أن غلبت على المغرب كله ،

---

(١) راجع الفصل الرابع من الكتاب الأول .

(٢) سبق أن عرضنا لهذه الرواية مفصلة فى الفصل الثالث من الكتاب الأول .

ثم افتتحت مصر ، واتخذتها مستقراً ومنزلا (٣٥٩ — ٣٦٣ هـ)[١] .

هكذا نشأت الدعوة الباطنية وتطورت ؛ وقد سبق أن عرضنا لمسألة نسب الخلفاء الفاطميين بإفاضة ، وإنما نقصد هنا بإيراد هذه الخلاصة عن أئمة الدعوة المتعاقبين ، أن نبين ما هنالك من صلة قوية بين نشأة الدعوة الباطنة والدعوة السرية الفاطمية ، بل يمكن القول بأن الدعوة الفاطمية السرية إنما هي الدعوة الباطنية بذاتها ، وهي دعوة ابن ميمون السرية بموضوعها ومراتبها ، وهي التي قامت عليها ثورة القرامطة الإباحية ؛ وقد نعت الباطنية بالمشرق بالقرامطة والمزدكية والملحدة ، دلالة على اتحاد دعوتهم ومبادئهم[٢] ؛ وكان القرامطة يلقنون الدعوة لأنصارهم حسبما فصلناها ؛ ويورد النويري عن الشريف أبي الحسن الدعوة بنصها ومراتبها التسع منسوبة إلى القرامطة[٣] . وفي ذلك دليل أيضاً على اتحاد الدعويين .

ومن جهة أخرى ، فإن هنالك في المصادر الإسماعيلة ذاتها ما يدل على أن الدعوة السرية الفاطمية ، تمت بصلة وثيقة إلى الدعوة التي كان يعتنقها القرامطة في البداية ؛ فنحن نعرف أن الدعاة القرامطة ، نشأوا في أكناف الدعوة الشيعية ، وتحت ظل أئمة سلمية المستورين ؛ وسواء أكان أولئك الأئمة هم أبناء ميمون القداح ، أم كانوا حقيقة من آل البيت ، فإن فورة القرامطة كانت من ثمار وحيهم ، وقد لبثت موالية لهم مدى حين . وقد وقفنا على ما يلقي الضوء على هذه الحقيقة التاريخية ، في بعض المصادر الإسماعيلية التي نشرت أخيراً ، وهو الرسالة المسماة « باستتار الإمام » .

ففي هذه الرواية الإسماعيلية ، أن المهدي لما بلغ أشده ، وهو بمقره بسلمية ، عهد بالدعوة إلى أبي الحسين بن الأسود ، وفوض إليه مطلق

---

(١) لخصنا هذه الرواية عن نهاية الأرب للنويري (المخطوط) ج ٢٦ ص ٢٢ و ٢٣ . ويلاحظ أنه مع اتفاق هذه الرواية في جوهرها مع رواية ابن رزام التي سبق أن أوردناها في بداية الكتاب (راجع الفهرست لابن النديم ص ٢٦٤ — ٢٦٦) ، فإن هناك بعض اختلاف في تسلسل بني عبد الله بن ميمون . وراجع المقريزي في الخطط ج ٢ ص ١٥٨ و ٢٣٣ و ٢٣٤ .

(٢) الشهرستاني ج ٢ ص ٢٩ .

(٣) نهاية الأرب ج ٢٣ — ١ ص ٥٩ وما بعدها .

الرأى ؛ فكان مما فعله أبو الحسين أن خلع أبا القاسم بن أبى محمد عن دعوة الكوفة ، فغضب أبو القاسم وأخواه لذلك ، وكتبوا إلى المهدى يشكون إليه ، فلم يأبه لشكواهم ، فاعتزموا قتله ؛ ونمى ذلك إلى المهدى ، فبادر بالرحيل من سلمية ومعه ولده أبو القاسم وحاجبه جعفر ، وترك قصره ودوره وأمواله ، وسار خفية حتى نزل ببلدة الرملة من أعمال فلسطين .

وجاء الإخوة المعزولون إلى سلمية فعلموا باختفاء المهدى ، فعملوا على تأليب بعض القبائل الموالية للدعوة ضد طغج والى دمشق ، وقاتلوه وهزموه ؛ وجاءت لنجدته الجند من مصر ، واستمر القتال بين الفريقين . وسار أبو مهزول ، أخو أبى القاسم إلى الرملة ، ووقف على مقر المهدى ، واستدعاه للرجوع إلى الشام حيث استقر له الأمر ، فأعطاه المهدى كتاباً لأخيه ، فعاد إلى أخيه وهو على دمشق وسلمه كتاب المهدى . ثم جمع أبو القاسم جنده ، واقتتل مع عسكر مصر ، فقتل فى الموقعة ؛ ولكن أخاه أبا مهزول قاتل من بعده وهزم عسكر مصر ، ثم سار إلى حمص فأطاعته . وسار بعد ذلك إلى سلمية فقبض على الهاشميين الذين بها . وقدم عندئذ جيش من قبل الخليفة لقتاله ، فاقتتل الفريقان وهزم جند بغداد ، ووجدت فى متاع قائدهم رسائل أرسلها الهاشميون إلى الخليفة يستنصرون به ، فقبض أبو مهزول على زعمائهم وأعدمهم ، ثم بعث إلى المهدى بالرملة يستدعيه إلى الشام ، فأرسل إليه المهدى يعده بالقدوم ، ومضت أربعة أشهر دون أن يحضر . وفى تلك الأثناء قدم جيش آخر من بغداد بقيادة محمد بن سليمان ، فبعث القرمطى (أبو مهزول) جنده لقتاله . وقبض القرمطى على رجال المهدى ونسائه وعبيده بالقصر وقتلهم ، ولم تمض أيام حتى ارتد عسكره منهزما أمام جند الخليفة ، ففر القرمطى إلى تدمر ، ولكنه طورد وقبض عليه ، وأخذ إلى الخليفة المعتضد ببغداد حيث شهر وأعدم ، ولكنه اعترف قبل إعدامه بمكان المهدى ، وأنه هو الذى أمره بالخروج .

ولما وقف المهدى على تطور الحوادث على هذا النحو ، بادر بالفرار من الرملة الى مصر ، وبعث المعتضد رجاله للبحث عنه فى سائر الآفاق .

ولكنه استطاع أن يجتنبهم جميعاً ، حتى وصل إلى المغرب ، وكان من أمره ما هو معروف[1] .

وقد استظل القرامطة ، فى بدء أمرهم بلواء الخلافة الفاطمية ، ودعوا لها مذ قامت بإفريقية ، واستمد زعماؤهم منها العهد . ويقول لنا المقريزى : « إن القرامطة كانوا أولا يمخرقون بالمهدى ، ويوهمون أنه صاحب المغرب ، وأن دعوتهم إليه ، ويراسلون الإمام المنصـــور إسماعيل بن محمد القائم ابن عبيد الله المهدى ، ويخرجون إلى أكابر أصحابهم ، أنهم من أصحابه ، إلى أن افتضح كذبهم بمحاربة جوهر لهم»[2] . وهكذا شملت الخلافة الفاطمية القرامطة فى البداية بتأييدها ورعايتها الروحية ، تعضيداً لهم فى وثباتهم ضد الدولة العباسية ، خصيمتها المذهبية والسياسية . وفى كتاب المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم ، ما يكشف عن هذه الحقيقة ، وهو أن حركة القرامطة فى البحرين قامت كذلك تحت أكناف الدعوة الإمامية ، وأنها لبثت حيناً موالية للفاطميين ، فى ظل قائدها الحسن بن بهرام المعروف بأبى سعيد ، وولده سليمان المسمى بأبى الطاهر ، وأن الفاطميين وهم فى المغرب ، كانوا يعتبرونها جناحهم فى المشرق ، لمدافعة الخلافة العباسية ، ومهاجمتها وبث الاضطراب إلى ربوعها[3] . فلما تغالى القرامطة فى غيهم ، وخرجوا عن كل حد ، وزاد عيثهم وسفكهم ، وغزوا مكة ، وفتكوا بالحاج ، واقتحموا البيت الحرام ، واقتلعوا الحجر الأسود (٣١٧ هـ — ٩٢٩ م) ، تطورت العلائق عندئذ بين الدعاة القرامطة ، وبين الخلفاء الفاطميين ، وغدت مسألة منافسة وخصومة مضطرمة . ولما ذهب القرامطة فى جرأتهم إلى مهاجمة الدولة الفاطمية ذاتها فى الشأم ، وانتزعوا منها دمشق ، وقتلوا قوادها ورجالها ، ثم هاجموها فى مصر ذاتها ، ليقضوا ثمة على ملكها الفتى ، تنكرت لهم ،

---

(١) نشرت رسالة « استتار الإمام » ، وهى المنسوبة لأحمد بن محمد النيسابورى بعناية الأستاذ إيفانوف بمجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة بالمجلد الرابع الجزء الثانى (ديسمبر سنة ١٩٣٦) (ص ٨٩ — ١٠٧) .

(٢) اتعاظ الحنفاء — المطبوع ص ٢٥٠ .

(٣) اتعاظ الحنفاء — المطبوع ص ٢٥٩ .

وأنكرت ثورتهم ، وتبرأت منهم ومن أعمالهم ودعوتهم . وفى كتاب المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم ، الذى سبقت الإشارة إليه ، ما يلقى ضياء على طبيعة العلائق بين القرامطة والخلافة الفاطمية ، وتطورها من الولاء إلى الخصومة المضطرمة ، ففيه ينوه المعز بما له ولآبائه من صفة الإمامة ، ويشير إلى ما كان لهم من الولاية والوصاية على زعماء القرامطة أسلاف الحسن ، وإلى ما كانوا ينشدونه من رعاية الأئمة الفاطميين وبركاتهم ، وأنهم لم ينتصروا على جيوش الدولة العباسية إلا بفضل هذه الرعاية الروحية ؛ ثم يندد بانشقاق الحسن عن الدعوة الفاطمية ، ويسوق إليه الإنذار والتحذير من عواقب تصرفه ، وينوه بقدس الإمامة الفاطمية ، وصفاتها الخارقة ، ودلالاتها المعجزة[1] .

فإذا كانت الدعوة الفاطمية توصف أحياناً بأنها دعوة القرامطة ، فإنما ذلك يرجع فقط إلى الناحية الزمنية ، بمعنى أن القرامطة ، ولاسيما قرامطة الكوفة والشأم ، كانوا يعتنقون هذه الدعوة ، قبل أن تنحدر حركتهم إلى ما انحدرت إليه بعد ذلك ، من ضروب التطرف والسفك والإباحة والإلحاد المغرق ، وهى التى طبعت حركتهم فى البحرين .

* * *

وقد أشرنا من قبل إلى اهتمام الخلافة الفاطمية بتنظيم دعوتها المذهبية ، وتلقينها إلى المؤمنين فى سائر الأقطار على يد الدعاة والحجج المختلفين : وكانت مصر بالطبع ، هى أهم مراكز بث الدعوة السرية الفاطمية . ومن المحقق أن مجالس الدعوة التى كانت تعقد بالقصر ، كانت من أهم المجالس ، وأوفرها سرية وتكتما ، وأرقاها من حيث مستوى الطوائف التى تشهدها . ولقد جاء قيام دار الحكمة متوجاً لهذه السياسة التقليدية فى العمل على بث الدعوة السرية ؛ ومع أن مجالس القصر ألغيت ثم أعيدت غير مرة ، فإن دار الحكمة استمرت عصرا فى تأدية رسالتها الخطيرة ، تبث العقائد والمبادئ الفاطمية الخفية والظاهرة . وكانت جهودها السرية أخطر وأشد أثراً فى توجيه الحركة الروحية فى مصر . بيد أنها لم توفق كثيراً إلى تحقيق الغاية التى عملت لها ، ولم تستطع

---

(١) نشرنا كتاب المعز المشار إليه الى الحسن الأعصم برمته فى نهاية الكتاب ، فليراجع هنالك .

بالأخص أن تطبع المجتمع المصرى ، بطابع عميق من الفكرة المذهبية التى كانت مستقرها ومبعثها . ذلك أنه من الحق أن ننوه هنا بأن الخلافة الفاطمية ، وإن كانت تحرص كل الحرص على بث دعوتها المذهبية بمختلف الوسائل الممكنة ، فإنها لم تكن تلجأ فى ذلك إلى أى وسيلة للضغط أو الإكراه الأدبى أو المادى ، بل كانت تترك أمر الدعوة والاستماع إليها ، حراً من كل قيد وضغط ، وكان الناس يستمعون إليها أحراراً بمحض اختيارهم ، ويقبلونها أو يرفضونها وفق مشيئتهم ؛ وليس أدل على ذلك من أن الأمة المصرية ، التى كانت تحيط عرش الخلفاء الفاطميين بمحبتها وإعجابها وولائها ، لبثت من الناحية المذهبية ، طوال عهد الدولة الفاطمية محتفظة بمذهبها السنى ، لا تبغى به بديلا .

وفضلا عن ذلك ، فإن دار الحكمة حينما رفعت القناع عن غاياتها الحقيقية ، وبالغت فى جهودها فى بث الدعوة السرية ، كانت هذه الجهود بالعكس عاملا فى بث أسباب السخط على تلك السياسة ، التى رسمت للاستئثار بتوجيه العقائد والضمائر ، وبث مبادئ الإنكار والإلحاد ، واضطرت الخلافة الفاطمية غير بعيد أن تعدل عن هذا الإغراق فى محاولة بث العقائد المذهبية . وفى عصر المستنصر بالله اضطربت شؤون الدعوة السرية ، كما اضطربت جميع شؤون الخلافة الفاطمية ، وفقدت دار الحكمة كثيراً من نفوذها وأهميتها ، فلا نكاد نقع على ذكرها فى هذا العصر . ثم انتهى أمير الجيوش الأفضل شاهنشاه بإلغائها وإغلاقها فى أوائل القرن السادس ، أيام الآمر بأحكام الله (٤٩٧ — ٥٢٤ هـ) لما أثارته يومئذ من المجادلات المذهبية العنيفة ؛ وأعادها المأمون البطائحى وزير الآمر سنة ٥١٧ هـ على نمط المدارس العادية ، واستبعدت منها مجالس الحكمة والدعوة السرية ، فاستمرت بشكلها الجديد حتى نهاية الدولة الفاطمية[١] .

تلك هى الظروف التاريخية والمذهبية التى نشأت فيها الدعوة السرية الفاطمية وتطورت ، وتلك هى الوسائل التى لجأت إليها الخلافة الفاطمية فى تنظيم هذه الدعوة وبثها ؛ وقد كانت مجالس القصر ودار الحكمة بلا ريب من

---

(١) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٣١٧ و ٣٣٥ .

أقوى هذه الوسائل وأسطعها ؛ وكان تنظيم الخلافة الفاطمية لدعوتها المذهبية على هذا النحو المدهش ، مما يشهد لها بكثير من الفطنة والبراعة فى سبر أغوار المجتمع وتفهم عقليته . وإذا كانت مجالس الحكمة لم تحقق كل غايتها ، ولم تنجح كثيراً فى تحويل الشعب المصرى عن صفته المذهبية ، فلا ريب أنها قد فعلت كثيراً لتوطيد الدولة الفاطمية ، وتوطيد إمامتها المذهبية وسلطانها السياسى ، كما فعلت كثيراً لتقويض الدعوات المذهبية الخصيمة ، ولكنها ألقت فى الوقت نفسه سحباً كثيفة من الريب على عقيدة الفاطميين الدينية .

الفصل الرابع

النظريات والرسائل الإلحادية

تحول الدعوة الفاطمية الى وجهة جديدة . كتب الدعاة السرية . أصول مذهبهم . فكرة الحلول فى الإسلام . مزاعم ابن سبا . مزاعم الروافضة والإمامية . الرجعة عند الفاطميين . تطبيق فكرة الحلول . المقنع الخراسانى . رسائل حمزة بن على . وصفه للحاكم بالنعوت الإلهية . كيف يبسط مذهبه . حملته على الإسلام . إشارته الى مجالس الحكمة . تأويله لأصول الإسلام . تلقبه بهادى المستجيبين . بدء عهد قائم الزمان . استعراض لرسائل حمزة . إشارته الى اشتراك الحاكم فى وضعها . شرحه لفكرة الألوهية . حديثه عن القرامطة والإمامية . أقواله الرمزية . ما ينسب للدعوة من المبادئ الإباحية . موقف الحاكم من هـذه الدعوة . استعراض حمزة لتصرفات الحاكم وتعليله لها . انتحاله لصفة النبوة . مقارنات تاريخية . استمرار الدعوة بعد اختفاء الحاكم . أكابر الدعاة . الحدود الخمسة . الرسائل الإلحادية الأخرى . خلاصة محتوياتها . ماكتبه حمزة منها . ماكتبه الدعاة . رسائل المقتنى . رسائل أخرى .

كانت هذه المرحلة الأولى التى اجتازتها الدعوة الفاطمية السرية ، منذ نشأتها حتى عصر الحاكم بأمر الله ، مرحلة عامة ترمى فيها إلى غايات عامة شاملة حسبما بينا ؛ ولكنها تنحرف فى عصر الحاكم إلى ناحية خاصة ، وتقصد فوق غاياتها الأصلية إلى غاية خاصة ، ثم تسفر غير بعيد عن نتائج عرضية مدهشة ، لم تنشدها الخلافة الفاطمية ولم تعمل لها ؛ وإنما عمل لها رهط من الدعاة المغامرين الذين ألفوا فى معترك الدعوة السرية الفاطيمة ، وفيما بلغته فى عصر الحاكم من القوة والاضطرام ، وألفوا فى ظروف العصر ذاته ، وفيما سرى إلى المجتمع يومئذ من عوامل الاضطراب الفكرى والروحى ، مهداً خصباً للمغامرة ، وإفساد العقول والضمائر ، وإضرام نار فتنة دينية من نوع جديد .

وقد عرضنا فى فصل سابق إلى أولئك الدعاة المغامرين الذين احتشدوا بمصر فى ذلك العهد ، وعلى رأسهم حمزة بن على الزوزنى ، والحسن الفرغانى الملقب بالأخرم ، ومحمد بن إسماعيل الدرزى ، وما أذاعوا يومئذ فى المجتمع المصرى من دعوات ومزاعم جريئة ، وما أثاروا بأعمالهم ومزاعمهم من الحوادث والفتن الدموية . وسنحاول هنا أن نستعرض طبيعة هذه الدعوة الإلحادية وخواصها ، وما كان لها من نتائج وآثار مدهشة ؛ وإذا كانت الرواية الإسلامية لم تعن بالإفاضة فى شأنها ، ولم تحاول أن تبسط لنا أصولها وقواعدها ، كما فعلت بمبادئ الفرق الثورية الأخرى ، فإنه قد انتهت إلينا لحسن الحظ طائفة من الوثائق الهامة ، التى تلقى كبير ضوء على حقيقة هذه الدعوة ، وعلى نظمها وتطورها ، وعلى شخصية أولئك الدعاة وحركاتهم ومبادئهم ومزاعمهم التى بشروا بها ، واتخذوها مادة لإنشاء عقيدة جديدة ودين جديد ما يزال قائماً إلى يومنا .

ولهذه الوثائق أهمية خاصة فى هذا التعريف . ذلك أن معظمها من إنشاء كبير الدعاة وزعيمهم حمزة بن على ذاته ، وفيها يستعرض حمزة كثيراً من أصول دعوته ، ويؤيدها بمختلف الشروح والمقارنات ، ويتحدث عن وسائله فى بثها ، وعن معاونيه من أكابر الدعاة الذين أوفدهم إلى مختلف الأقطار ؛ فهى من هذه الناحية تعتبر إنجيلا لهذه الدعوة الإلحادية التى تقوم فى جوهرها على الزعم بألوهية الحاكم بأمر الله حسبما قدمنا ؛ بيد أن لهذه الوثائق أهمية تاريخية أيضاً ، إذ توجد بينها طائفة من الرسائل التى تشير إلى بعض أحداث العصر ومسائله ، وتعرض لنا فى شأنها وجهات نظر خاصة لم يعن بها المؤرخ العادى ؛ وهى بذلك تلقى ضياء خاصاً على بعض النواحى الغامضة فى عصر الحاكم بأمر الله .

وتحتفظ دار الكتب المصرية بطائفة من هذه الوثائق فى عدة مجموعات خطية ، بيد أنها ليست كل ما انتهى إلينا منها ؛ وفى مكتبة باريس الوطنية مجموعة أتم وأوفى ؛ بيد أنه مما يدعو إلى الغبطة أن مجموعة دار الكتب ، تحتوى على عدة من رسائل الدعوة الأصلية ، وهى أهمها جميعاً ؛ وسيكون حديثنا عن هذه الوثائق شاملا ، وسنبين خلال الحديث ما لدينا منها ، وما وفقنا إلى الاطلاع عليه من غيرها .

— ١ —

رأينا فيما تقدم كيف ثارت الفتنة الدينية بمصر ، حينما جاهر الدعاة بمذهبهم فى المسجد الجامع[1] ، وكيف طورد الدعاة ومزق شملهم ، وتوارى زعيمهم حمزة بن على ، وفر زميله وداعيته الدرزى أو أنوشتكين إلى الشأم ؛ وكيف انتشرت دعوتهم بعد ذلك فى الشأم ، فكانت أصل مذهب الدروز الشهير . وإذن فمذهب الدروز مستمد فى الواقع من دعوة حمزة وتعاليمه ، وهو بذلك شعبة من الدعوة السرية الفاطمية حسبما صاغها حمزة وتلاميذه ؛ وحمزة هو فى الحقيقة مؤسس مذهب الدروز ، وهو رسولهم « وهاديهم » كما سنرى :

ونستطيع أن نلخص مذهب حمزة أو مذهب الدروز فى نقط جوهرية ثلاث :

الأولى : التناسخ ، فمذهبهم أو دينهم ينسخ جميع الأديان والشرائع السابقة ، وهو فى زعمهم خاتم الأديان وإليه منتهى الهداية والإيمان ، وأن الحاكم بأمر الله هو بذلك « ناطق النطقاء » جاء بعد النطقاء الستة الذين تقدموه وكان آخرهم محمد ؛ وهو قائم الزمان جاء بعد السبعة الصمت الذين جاءوا بعد محمد[2] .

والثانية : الحلول أو حلول الروح ، فروح آدم أصل البشر قد انتقلت الى على بن أبى طالب ، ثم انتقلت روح على إلى الحاكم بأمر الله .

والثالثة : ألوهية الحاكم بأمر الله ، فالحاكم ليس إنساناً كباقى البشر ؛ ولكن الروح الإلهية حلت به واتخذت صورته ؛ وهذا هو فى الواقع أساس المذهب وعماده الجوهرى .

ونرى قبل أن نبسط دعوة حمزة بن على كما يصوغها لنا فى رسائله ، أن نقول إن حمزة لم يكن أول مبتكر لهذه النظرية الإلحادية المدهشة ، وهى فكرة حلول الألوهية فى إنسان من البشر ؛ فهى أولا فكرة الحلول النصرانية كما هو معروف ، وقد صاغها قبله أكثر من داعية فى الإسلام . ففى عصر على

---

(١) هو جامع عمرو .

(٢) راجع ص ٢٦٩ من هذا الكتاب .

ابن أبي طالب ذاته ، حينما بدأت الدعوة الشيعية ، قام عبد الله بن وهب ابن سبا المعروف بابن السوداء وبالسبائى ودعا لعلى بالإمامة ، وأنه وحى النبي وخليفته فى أمته ، وأنه يعود بعد موته ؛ فنفاه على وأحرق عدة من دعاته ؛ ولما قتل على زعم ابن سبا أن علياً لم يمت ، وأنه حى حلت فيه الصفة الإلهية ، وأنه هو الذى يجىء فى السحاب ، والرعد صوته والبرق سوطه ، وأنه لا بد أن ينزل إلى الأرض فيملأها عدلا كما ملئت جوراً . وقد كان مذهب ابن سبا مبعث الغلاة من الرافضة ؛ ومثله يقول الإمامية من الشيعة برجعة الإمام وبالمهدى المنتظر ، وأنه يظهر فى آخر الزمان فيملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً ، على اختلاف بينهم فى تعيين هذا الإمام المنتظر . وعلى أساس هذه الفكرة أيضاً يقول الإمامية بأن الجزء الإلهى يحل فى الأئمة بعد على ، وأنهم استحقوا الإمامة بطريق الوجوب ؛ وهى من أصول الدعوة الفاطمية ، وبها يقول الخلفاء الفاطميون فى ظهور أولهم عبيد الله المهدى[1] ؛ بل نرى فكرة الرجعة هذه فى وثيقة فاطمية رسمية ، هى رسالة المعز لدين الله إلى زعيم القرامطة ، وهى التى أشرنا إليها فيما تقدم ، إذ يقول فيها : « فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ، ويأخذون تبعتنا ، ويذكرون رجعتنا »[2] .

وقد لبثت هذه النظرية الحلولية تتردد بين آن وآخر فى بيئات الثورة على الإسلام ، وكان من أسطع الأمثلة فى تطبيقها ظهور المقنع الخراسانى فى منتصف القرن الثانى للهجرة ؛ فقد ظهر هذا الداعية ، فى سنة ١٥٩ هـ (٧٧٦ م) ، وكان قصاراً من أهل مرو واسمه هاشم بن حكيم ، وكان دميما شنيع الخلقة يخفى وجهه بقناع من الذهب ، وأدعى الألوهية وأن الله حل أولا فى صورة آدم ، ثم فى صورة نوح ، ثم ترددت صورته فى الأنبياء حتى محمد ، ثم حلت فى شخص على ، وانتقلت إلى أبى مسلم الخراسانى ، ثم حلت فيه أى فى المقنع . وقد ذاعت هذه الدعوة الجريئة بين القبائل التركية البدوية فى شمال فارس ، ولبث المقنع أعواماً طويلة يغالب جنود

(١) خطط المقريزى ج ٤ ص ١٨٢ ، والفرق بين الفرق ص ١٥ و ٤٤ و ٤٥ .

(٢) اتعاظ الحنفاء (طبع القاهرة) ص ٢٦٠ .

الخلافة التى جردت لمحاربته ، ولما انتهت بمحاصرته فى قلعته المنيعة فى « بستام » ورأى ألاّ مناص من الموت ، أحرق نفسه مع جماعة من أتباعه (سنة ١٦١ هـ) ، ولم توجد جثته ولا حطامه ، فزاد أصحابه — وهم المقنعية أو المبيضة — فيه فتنة وقالوا رفع إلى السماء[١] .

والآن لنر كيف يبسط لنا حمزة بن على دعوته فى رسائله . ولنبدأ بالمجموعة الأولى ، وهى التى تعتبر متن الدعوة وإنجيلها . وتوجد من هذه الوثيقة نسختان خطيتان بدار الكتب ، الأولى كاملة والثانية تنقص رسالتين عن الأولى ، وعن نسخة باريس[٢] .

الأولى عنوانها : « نسخة السجل الذى وجد معلقاً على المشاهد فى غيبة مولانا الإمام الحاكم » وهو الذى تحدثنا عنه فيما تقدم ؛ وفيه يشرح حمزة أسباب غيبة الحاكم ، ويعلل اختفاءه بغضبه على أمته لما اقترفت من الآثام والخطايا ، رغم ما أفاض عليها من فضله ونعمه ، واعتزامه أن يتركها تهيم فى الضلال والغواية ؛ ويتخذ من بعض تصرفاته أدلة على هذا الغضب ، ثم يحذر المؤمنين من البحث عنه أو استقصاء آثاره ، ويقول إنه سيظهر ويعود لأمته حين تحل الساعة . وقد ذيلت هذه الرسالة بتاريخ كتابتها وهو شهر ذى الحجة سنة ٤١١ هـ ، أى عقب اختفاء الحاكم أو بعده بأيام قلائل .

والثانية عنوانها : « السجل المنهى فيه عن الخمر » ، وفيها يتحدث عن مرسوم تحريم النبيذ وحكمة ذلك التحريم ؛ وتاريخها ذو القعدة سنة ٤٠٠ هـ ، وهو التاريخ الذى صدر فيه مرسوم التحريم للمرة الثانية .

وتأتى بعد ذلك ثالثة الرسائل وعنوانها : «خبر اليهود والنصارى» ، وفيها خلاصة للمناقشات التى يقول إنها جرت بين الحاكم بأمر الله وبين اليهود والنصارى ، حول دعوته إياهم للدخول فى شريعته ؛ وقد أشرنا إلى محتوياتها فيما تقدم[٣]

---

(١) ابن الأثير ج ٦ ص ١٣ و ١٧ ، والفرق بن الفرق ص ٢٤٣ و ٢٤٤ .

(٢) يحمل المخطوط الأول رقم ٣٧ عقائد النحل ، ويحمل المخطوط الثانى رقم ١٣٣ عقائد النحل . ومرجعنا هنا هو النسخة الثانية نظراً لوجودها بين أيدينا . وقد رجعنا الى النسخة الأولى فقط فيما يتعلق بالرسالتين الأوليين .

(٣) راجع ص ١٧٠ من هذا الكتاب .

ثم تأتى بعدها صورة كتاب بعث به زعيم القرامطة إلى الحاكم بأمر الله يهدده ، ويطلب إليه التسليم ، ورد الحاكم عليه ، ينذره بشر العواقب[١] .

بعد ذلك يبدأ متن الدعوة وأصولها الحقيقية . ويفتتح الداعى (حمزة) رسائله بما يسميه « ميثاق ولى الزمان » وهو نص العهد الذى وضعه لأولياء الدعوة كى يقطعوه على أنفسهم عند اعتناقها ، وفيه التبرؤ من جميع الأديان الأولى ، والتعهد بالدعوة للدين الجديد أى عبادة الحاكم[٢] ؛ ويليه « الكتاب المعروف بالنقض الخفى » يرفعه الداعى إلى « الحضرة اللاهوتية » ، وفيه يحدثنا عن أصل العالمين وبدء الخليقة فى عبارة غامضة ، ويقول إن أصل العالم هو البرودة والحرارة ؛ ويقدم لنا بعد ذلك خلاصة موجزة عن معركة على ومعاوية ، وبدء الحركة الشيعية ؛ ثم يصف الحاكم بأنه : « مولانا القائم بذاته ، المنفرد عن مبتدعاته ، جل ذكره ؛ أورا العالم قدرة لاهوتية ما لم يقدر عليه ناطق فى عصره ، ولا أساس فى دهره »[٣] . ويفتتح حمزة جميع رسائله بتوجيه النعوت الإلهية إلى الحاكم فيسميه « مولانا البار العلام ، العلى الأعلى ، حاكم الحكام ، من لا يدخل فى الخواطر والأوهام ، جل ذكره عن وصف الواصفين ... » وأمثالها من النعوت المغرقة ؛ ويسميه فى جميع مراحل الدعوة « قائم الزمان » ، و« ناطق النطقاء » . ويعرض الداعى بعد ذلك فى عنف وجرأة إلى قواعد الإسلام ، وإلى ما يلقى بشأنها فى مجالس الحكمة الفاطميــة ؛ وهنا نستطيع أن نظفر بلمحة جديدة من الضياء على موضوعات تلك المجالس السرية الشهيرة من أحد أكابر دعاتها . وأول ما نعرف هو أن السرية كانت قاعدة أساسية لهذه المجالس ، وأن من يجرؤ

---

(١) يقول الداعى فى وصف كتاب القرمطى « إنه نسخة ما كتبه القرمطى الى مولانا الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين عند وصوله الى مصر » (ص ٩ من المخطوط) . ولا توجد فى حوادث عصر الحاكم كله أية إشارة تفيد الى وصول القرامطة الى مصر ، بل ولا الى الشأم . والظاهر أن هذا الكتاب قد وجهه القرمطى الى الحاكم من الإحساء .

(٢) راجع ص ١١ — ١٣ من المخطوط المشار إليه ، وقد أثبتنا نص هذا الميثاق فى قسم الوثائق فى نهاية الكتاب .

(٣) ص ٢٥ من المخطوط .

على إفشاء مناقشاتها يعتبر منافقاً وخارجاً يستحق اللعنـــة والعقاب[١] .
ويتناول الداعي هنا بعض النقط والشروح الخاصة ؛ فيحدثنا عن الزكاة مثلا بأنها فى الحقيقة ليست كما تلقى إلى الناس ، بل هى الاعتراف بولاية على ابن أبى طالب والأئمة من ذريته ، والتبرى من أعدائه أبى بكر وعثمان ، وأن معناها الباطن هو فى الحقيقة « توحيد مولانا جل ذكره ، وتزكية قلوبكم وتطهيرها من الحالتين جميعاً ، وترك ما كنتم عليه قديماً »[٢] . وعن الصوم بأنه من الناحية الباطنة ، صيانة القلوب بتوحيد مولانا جل ذكره . أما الحج ورسومه فيحمل عليها الداعى بشدة ، ويصفها بأنها « من ضروب الجنون » ؛ وليس أدل على ذلك من أن « قائم الزمان » (الحاكم) قد قطع الحج والكسوة النبوية أعواماً طويلة ؛ ومعنى الحج فى الحقيقة والباطن « هو توحيد مولانا »[٣] . وأما ترك الحاكم للصلاة والنحر (فى عيد الأضحى) فهو تحليل ذلك للعباد ؛ وقد أبطل الحاكم صلاة العيد وصلاة الجمعة بالأزهر ، وأسقط الزكاة ، ومعنى ذلك أنه يحل للعباد (عباده) ، أن يقتدوا به فى ذلك « إذ كان إليه المنتهى ، ومنه الابتدا فى جميع الأمور »[٤] .

ويؤرخ الداعى هذا القسم التمهيدى من دعوته ، بشهر صفر سنة ثمان وأربعمائة من الهجرة (٤٠٨ هـ) ، ويقول لنا إن هذه السنة ، هى أول سنين ظهور عبد مولانا ، ومملوكة ، هادى المستجيبين ، المنتقم بسيف مولانا جل ذكره ... الخ » . ومعنى ذلك أن حمزة بن على كان ينتحل فوق صفة الداعى ، صفة النبوة والرسالة ، وهو بهذه الصفة « هادى المستجيبين » ، والواقع أنه ينتحل هذه الصفة فى جميع أحاديثه ؛ وهو يرجع بدء رسالته إلى هذا التاريخ . وقد ذكرنا فيما تقدم أن حمزة ظهر بدعوته فى القاهرة فى أواخر سنة ٤٠٧ أو أوائل سنة ٤٠٨ هـ ؛ وفى بعض الروايات أنه ظهر بعد هذا التاريخ فى سنة ٤٠٩ أو ٤١٠[٥] ، وهو ما تنقضه أقوال الداعى ومنطق

(١) ص ٣٩ من المخطوط .
(٢) ص ٣٥ من المخطوط .
(٣) ص ٤٤ من المخطوط .
(٤) ص ٢٩ و ٣٠ و ٣٤ من المخطوط .
(٥) أخبار الدول المنقطعة ، وتاريخ الأنطاكى ص ٢٢٣ .

الحوادث ذاته . بيد أنه لا ريب فى أن حمزة كان يبث دعوته سراً قبل ذلك بعدة أعوام . وإذن فسنة ٤٠٨ هـ هى بدء الرسالة ، وهى « أول سنين قائم الزمان » أعنى بدء الدعوة بألوهية الحاكم بأمر الله ، حسبما يقول الداعى فى رسالته المسماة « بدء التوحيد لدعوة الحق » ؛ وهى أيضاً بدء تاريخ الدروز المقدس (سنة ١٠١٧ م) .

وفى رسالة « التوحيد لدعوة الحق » يدعو حمزة صراحة إلى « ألوهية » الحاكم ، ويحاول أن يبرر إبطاله لأحكام الشريعة ، بأن محمداً قد نسخ كل الشرائع السالفة ، فكذلك ينسخ الحاكم بأمر الله شريعة محمد ، وينشئ له شريعة خاصة[١] ، وهذا هو لب المذهب وعماده كما بينا . وفى الرسالة التالية وهى « ميثاق النساء » يتحدث الداعى عن واجبات النساء فى الطاعة والتوحيد والبعد عن الدنس ، وألا يشغلن قلوبهن بغير توحيد « مولانا » ، وأن يكن سادقات وفيات فى طاعته ، وأن يتركن ما كن عليه من قبل[٢] . وفى رسالة « البلاغ والنهاية فى التوحيد » يوصى الداعى بعبادة الحاكم والإقرار بوحدته ، ويقول إنه رفعها بنفسه إلى « الحضرة اللاهوتية » فى شهر المحرم الثانى من سنيه المباركة (المحرم سنة ٤٠٩) ، وأنها نسخت عن خط قائم الزمان بغير تحريف ولا تبديل[٣] . وفى هذه العبارة ما يستوقف النظر ؛ ذلك أنها قد تعنى أن الحاكم بأمر الله اشترك مع الداعى فى وضع هذه الرسائل ، أو أنها وضعت بإشرافه ، وأنه كان من وراء الدعاة يرعى الدعوة ويشجعها بنفسه ؛ فهل يقول حمزة حقاً ، أم أنه يحاول فقط أن يسبغ بهذا الزعم قوة على دعوته فى نظر الأولياء والكافة ؟ وفى هذه الرسالة التى تنسب للحاكم ، يعرض حمزة ثانى المبادئ الجوهرية فى مذهبه وهو مبدأ الحلول ، فيزعم أنه من الخطأ أن يعتبر الحاكم ابناً للعزيز أو ينعت بأنه أبو على ؛ ذلك أنه فى زعمه هو « المولى

(١) ص ٥٣ و ٥٤ من المخطوط .

(٢) يجدر بنا أن نشير هنا الى أن حمزة وباقى الدعاة يكتبون كلمة الصدق وكل ما اشتق منها بالسين فيقولون السدق ، والسادق ، وحقاً وسدقاً ، وغيرها ، وذلك لتأويلات معينة يزعمونها (راجع ص ٧٣ من المخطوط) .

(٣) ص ٧٤ من المخطوط .

سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان » وأنه يظهر فى صورة بشرية « كيف شاء وحيث شاء »[١] . ثم يحاول الداعى فى الرسالة التالية ، وعنوانها « الغاية والنصيحة » أن يقيم المفاضلة بين الإسلام أو دين محمد والدين الجديد . وفى الرسالة التى عنوانها « كتاب فيه حقائق ما يظهر » يحاول أن يبرر بعض تصرفات الحاكم حسبما نفصل بعد . وفى الرسالة التالية وهى « السيرة المستقيمة » يحدثنا عن آدم وأصل الخليقة ، ويقول لنا إن القرامطة هم الإسماعيلية فى عرف الفرس ، وأنهم هم الموحدون ، وفى هذا القول دليل آخر على ما هنالك من علاقة أو وحدة بين دعوة القرامطة والدعوة الفاطمية السرية[٢] ؛ ثم يحدثنا عن تعاقب الشرائع ، ويزعم أن الإسلام قام بالعنف والسيف ، وأن الشريعة الإسلامية اختتمت بمحمد بن إسماعيل ، وأن آخر خلفاء إسماعيل هو عبيد الله المهدى (مؤسس الدولة الفاطمية) وأن القائم هو الحاكم[٣] . وفى الرسالة الموسومة « بكشف الحقائق » يلجأ الداعى إلى العبارات الرمزية ويقول « والآن فقد دارت الأدوار ، وظهر ما كان مخفيا من مذهب الأبرار ، وبان للعاملين ما جعلوه تحت الجدار ، وعادت الدائرة إلى نقطة البيكار ، فألفت هذا الكتاب بتأييد مولانا البار ، الحاكم القهار ، العلى الجبار ، سبحانه وتعالى عن مقالات الكفار ، وسميته كشف الحقائق » . فهل يكون عنوان الرسالة ، وهو كشف الحقائق ، عنواناً لهذه المجموعة من رسائل حمزة وشروحه ؟ هذا ما تدلى به عبارة الداعى . وفى هذه الرسالة يزعم الداعى أن الإله بشر يأكل ويشرب ، وليس كما زعموا من التجرد عن الصفات البشرية . وفى الرسالة التالية والأخيرة وعنوانها « سبب الأسباب » يتخذ الداعى صفة الهادى والمعلم الأكبر بتفويض مولاه ، ويفند أقوال بعض المنكرين لدعوته .

هذا ومما يجدر ذكره أنه فضلا عما ذهبت إليه الدعوة ، من إبطال فروض الإسلام الأساسية كالصلاة والصوم والزكاة ، والحج ونسخ الشريعة الإسلامية

---

(١) ص ٨٦ من المخطوط .

(٢) ص ١٨٧ من المخطوط .

(٣) ص ٢٠٠ و ٢٠٢ و ٢٠٨ من المخطوط .

كلها ، فإن بعض الروايات تنسب إليها طائفة أخرى من المبادئ الإباحية المثيرة مثل إباحة الخمر والزنا ونكاح البنات والأمهات والإخوات ، وإباحة أموال المخالفين ودمائهم[١] . وهذه مبادئ القرامطة الإباحية بلا ريب ، وقد طبقت فى مجتمع القرامطة مدى حين ، وذكرها داعية القرامطة عبيد الله بن الحسن القيروانى فى رسالته إلى زعيم القرامطة سليمان بن الحسن الجنابى ، وهى الرسالة التى أشرنا إليها فيما تقدم . ويقول هذا الداعية عن مسألة عشرة المحارم فى رسالته ما يأتى : « وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل ، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليست له زوجة فى حسنها ، فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى . ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته وبنته من الأجنبى ، ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبٰت ، وخوفهم بغائب لا يعقل وهو الإله الذى يزعمونه ، وأخبرهم بكون مالا يرونه أبداً من البعث من القبور والحساب والجنة والنار ... الخ »[٢] . وقد ردد كثير من المؤرخين المعاصرين والمتأخرين هذه التهم ، بل يرددها البحث الحديث أيضاً[٣] . بيد أننا لم نجد فى رسائل حمزة ما يدل على أنه دعا إلى مثل هذه المبادئ المثيرة ، أو أنها طبقت بالفعل فى مجتمع الملاحدة ، كما طبقت فى مجتمع القرامطة ، إذا استثنينا ما يتعلق بإباحة أموال المخالفين ودمائهم ؛ بل نرى بالعكس حمزة يدعو النساء إلى العفة والحصانة والتجمل بالخلق الفاضل ، « والتبرى من كل عيب ودنس ... وأن يجنبن أنفسهن عن الشهوات والشبهات ، وارتكاب الفواحش والمنكرات ، لينتفعن بإيمانهن » ، ويشير إلى « المؤمنات الحافظات لما فرض عليهن ، المحصنات إلا لبعولتهن » ، ويحرم الخلوة على الداعى بامرأة بمفردها خشية الفتنة والشك ، ويدعو إلى حجاب

---

(١) تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٣ ؛ والذهبى (المخطوط) مجلد ٢٢ فى وفيات سنة ٤١١ ؛ ومرآة الزمان (النسخة الفتوغرافية) الجزء المشار إليه ص ٤٠٥ ؛ وأورده النجوم الزاهرة ج ٤ ص ١٨٤ ؛ والعميد ابن المكين ص ٢٦٥ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٨١ .

(٣) Silvesre de Sacy : Exposition de la Religion des Druses V. II. p. 700

المرأة وحشمتها ورصانتها[١] ، ولم يسمع فى عصرنا عن طائفة الدروز وهم بقية أولياء الدعوة ، أنهم يعتنقون هذه المبادئ الإباحية فى عشرة المحارم ، بل المعروف أنهم يحرمون الخمر ، ويتمسكون بحجب المرأة وحشمتها ؛ والظاهر أن هذه الإباحية أو أن شيئاً منها ، ما يزال يمثل فى طائفة النصيرية ، وهى طائفة باطنية أخرى نشير إليها فيما بعد .

ومن جهة أخرى فليس ثمة ما يدل على أن الدعوة الفاطمية الأصلية ، قد انحدرت فى وقت ما إلى مثل هذه الإباحية الإجتماعية المروعة ، وإن رماها بذلك خصومها العباسيون فى محاضر القدح الرسمية التى سبقت الإشارة إليها[٢] .

هذه خلاصة موجزة لتلك الدعوة الإلحادية الغريبة ، التى اضطلع بها ذلك الداعية المغامر حمزة بن على ، والتى كادت تحدث عند ظهورها ثغرة خطيرة فى صرح الإسلام ومبادئه الحقيقية ، كتلك التى أحدثتها فورة القرامطة قبل ذلك بنحو قرن ، والتى قامت حسبما يزعم الدعاة بتأييد الحاكم ورعايته . والواقع أنه من الصعب أن نحدد مركز الحاكم إزاء هذه الدعوة التى انتحلت من شخصيته عماداً ، وزعمت أنها ترفعه إلى قدس الألوهية ؛ بيد أن فى منطق الحوادث ، وملخص الرواية ، ما يدل على أن الدعاة كانوا يتمتعون فى بث دعوتهم بالرعاية الرسمية ، وأن الحاكم كان يعنى بحمايتهم من شر الخصومة والمطاردة ؛ وقد يكون أيضاً أنه كان يرقب بثها ويتتبع سيرها بعين الرضى ، وأنه ربما كان يمد الدعاة بالمال والنصح ؛ بيد أنه ليس ثمة ما يدل على أنه اشترك فى إنشائها وصياغتها ، كما يزعم الداعى فى أكثر من موضع فى رسائله .

— ٢ —

وليست الشروح الكلامية هى كل ما يعنى به الداعى ؛ فهو يعنى خلالها بأن يستعرض تصرفات الحاكم بأمر الله ، ويحاول أن يدافع عما يطبعها من

(١) راجع رسالة حمزة الموسومة « بميثاق النساء » فى المخطوط المشار إليه ص ٦٨ — ٧٢ .

(٢) رددت هذه التهم فى محضر القدح الرسمى الذى وضعه بلاط بغداد طعناً فى حق الخلفاء الفاطميين (راجع ص ٥٥ من هذا الكتاب) .

الشذوذ والتناقض ، وأن يفسرها بما يلائم دعوته ويؤيدها . أجل لقد كان فى تصرفات هذا الذهن الهائم المضطرم ما يبعث على التأمل ؛ وما يجب أن يحمل لا على الشذوذ والتخريف ، ولكن على الحكمة والسمو إلى ما لا يرتفع الذهن العادى إلى فهمه وتعليل بواطنه : هكذا يقدم الداعى إلينا تصرفات مولاه الحاكم ؛ فإذا كان الحاكم قد ترك الصلاة والنحر ، وإذا كان قد أبطل صلاة العيد وصلاة الجمعة بالأزهر ، وأسقط الزكاة عن الناس ، فمعناه تحليل ذلك للكافة[1] ؛ وإذا كان الحاكم يتبع أحياناً سياسة الإضطهاد بالنسبة للنصارى واليهود ، فذلك لأنه يريد أن يهلك المرتدين والمارقين ، ومن بقى منهم يؤدون الجزية ، وهم اليهود ، ويجب عليهم وعلى النصارى المرتدين عن التوحيد ، وهم المنافقون ، أن يلبسوا أزياء خاصة ، وأن يعلقوا فى صدورهم وآذانهم أثقالا خاصة من الرصاص[2] ؛ وإذا كان الحاكم يؤثر التقشف فى مأكله وملبسه وركوبه ، فيركب الحمير مجردة من الديباج والحلى الذهبية ، فذلك لحكمة باطنة يؤولها الداعى بآيات من القرآن ، ويفسرها بدلائل رمزية غامضة[3] ؛ وإذا كان الحاكم يخرج من سرداب القصر إلى البستان ، وإذا كان يرتاد بستان المقس وغيره من بساتين القاهرة ، ويطوف أحياناً فى المدينة ، فذلك أيضاً لحكم باطنة لا تدركها الكافة ؛ وما يرتكبه أهل الفساد بجوار هذه البساتين من ضروب الفحشاء والمنكر إنما يرتكب فى طاعته ![4] .
وما يرتكبه الحاكم من ضروب البطش والسفك ؟ إنه مظهر لسطوة الحاكم « الإلهية » فهو يفتك بأكابر الدولة دون خوف ولا حرج كما فعل مع برجوان ، ووزيره ابن عمار ، ومع آخرين من الأكابر والزعماء ؛ ثم هو يخرج بالليل دون ركب ولا سلاح ، لا يخشى نقمة ولا اعتداء ، ويخمد كل ثورة وخروج عليه ، وكثيراً ما ينفرد بنفسه فى « جب الصحراء » دون خوف من أحد من عسكره أو بطانته ، وتلك أعمال وصفات ليست للبشر .

---

(١) ص ٢٩ — ٤٣ من المخطوط .

(٢) ص ٩٧ و ٩٨ من المخطوط .

(٣) ص ١٤٧ و ١٤٨ من المخطوط .

(٤) ص ١٥٠ ، والظاهر أن بعض محال اللهو والقصف كانت تقع بجوار هذه البساتين .

هكذا يفسر لنا حمزة أعمال الحاكم وتصرفاته ؛ فما اعتبره المعاصرون شذوذاً وإسرافاً ثم جنوناً فى بعض الأحيان ، وما تسمه الرواية بميسم التناقض والإغراق والتخريف أحياناً ، إنما هو فى زعم الداعى ، السمو فوق مدارك البشر ، والتمتع بصفات ليست للبشر ؛ ومهما يكن فى ذلك التفسير من غلو وتخريف ، فهو محاولة سفسطائية جريئة ، لتبرير ما لم تبرره الشرائع والمجتمع ، وما لم يبرره التاريخ .

ثم إن حمزة لا يقف عند الدعوة لسيده ومولاه ، بل يدعو لنفسه أيضاً ؛ فإذا كان الحاكم هو « الإله » فإن الداعى هو رسوله ونبيه ، ومن ثم فإن حمزة الذى يتسمى خلال رسائله « بهادى المستجيبين » كما رأينا ، ينتحل النبوة صراحة ، ويزعم أن هذه النبوة قد أيدت بالمعجزات التى أسبغها عليه مولاه الحاكم[1] . ألم يشتبك عشرون من رجاله مع مائتين من عسكر خصمه ، فلا يقتل من أصحابه سوى ثلاثة ، وينهزم الخصوم ؟ ألم تنشب موقعة أخرى فى المسجد بين قلة من أنصاره وكثرة من خصومه فينتصر الصحب دائماً ؟[2] فهذه أعمال تخرج عن طاقة البشر ، وهى من معجزات الداعى .

* * *

وقد كتبت هذه الرسائل التى هى متن الدعوة وأساسها بين صفر سنة ٤٠٨ ، وأواخر سنة ٤٠٩ هـ . وسنة ٤٠٨ (١٠١٧ م) وهى كما رأينا أولى سنى قائم الزمان (الحاكم) ، وأولى سنى ظهور حمزة « عبده ومملوكه هادى المستجيبين » . ولكن الحاكم زهق فى أواخر شوال سنة ٤١١ ، فماذا حدث لتلك الدعوة بعد ذهابه ؟ لقد كان اختفاء الحاكم على ذلك النحو الغامض مستقى جديداً للدعاة ، فأذاعوا أنه اختفى ليظهر فى وقت آخر ، وأنه رفع إلى السماء ، وأن فى هذا الاختفاء ذاته ما يؤيد الزعم بألوهيته[3] ، وأذاع حمزة رسالته الشهيرة (السجل) عن اختفاء الحاكم ، وعلل اختفاءه بغضبه على أمته لما اقترفت من الآثام ، وبشر برجعته حين تحل الساعة . ووجه الداعى

---

(١) ص ١٣٠ من المخطوط .

(٢) ص ١٣٣ من المخطوط .

(٣) راجع ص ٢٣٦ من هذا الكتاب .

إلى أهل الشأم فى ذلك الشأن رسالة خاصة عنوانها « الغيبة » ، يناشد الموحدين فيها أن يحرصوا على ولائهم وعهدهم ، ويزعم أن الإله سيظهر فى صورة بشرية أخرى[1] ؛ ومعنى ذلك أن الدعوة لم تخمد باختفاء الحاكم ، بل اتخذ هذا الاختفاء وسيلة لإذكائها كما قدمنا ، ومن المحقق أنها استمرت بعد ذلك عصراً آخر ، بل هنالك ما يدل على أن حمزة بن على ، لبث قائماً بدعوته بعد الاختفاء مدى أعوام ؛ ففى مجموعة خطية أخرى تحتفظ بها دار الكتب ، عدة رسائل أخرى تتعلق بالدعوة ودعاتها ، ويبدو من موضوعها وأسلوبها وألفاظها ، أنها ربما كانت من تأليف حمزة بن على ذاته ، وقد ذيلت بتواريخ وضعها فى جمادى الآخرة من سنى ولى الحق العاشرة ، وفى صفر سنة إحدى عشرة من سنى قائم الزمان ، وفى السنة الرابعة عشرة من سنى قائم الزمان . . . الخ ؛ وعهد قائم الزمان يبتدئ كما تقدم فى سنة ٤٠٨ هـ ، ومن ثم فقد كتبت هذه الرسائل بين سنة ٤١٨ و ٤٢٢ هـ[2] .

وقد رأينا أن حمزة اختفى حين اضطرام الفتنة بالقاهرة فى أوائل سنة ٤١١ هـ ، ولم يعرف مصيره بوجه التحقيق ؛ ولعله لبث مختفياً بمصر مدى حين ، كما تدل على ذلك لهجة رسالته عن اختفاء الحاكم ؛ والظاهر أنه قصد إلى الشأم حيث كانت الدعوة قد سبقته . وأخذت تنتظم وتتوطد فى حوران ، ولعله ارتد إلى وطنه فارس معقل الدعوة السرية الباطنية ، ولبث هنالك متصلا برسله ودعاته فى الشام .

وعلى أى حال فليس من ريب فى أن الدعوة استمرت على يد رسل حمزة وأكابر دعاته . ويذكر حمزة لنا فى رسائله الأخرى أسماء بعض هؤلاء الزعماء الذين اصطفاهم للوكالة عنه ؛ ففى رسالة عنوانها « نسخة سجل المجتبى » يوجه الكلام إلى « أخيه وصهره » أبى إبراهيم إسماعيل بن محمد التميمى ، ويقول لنا إنه اختاره ليكون خليفته على سائر الدعاة والمأذونين والنقباء والمكاسرين ، ويسميه « صفوة المستجيبين ، وكهف الموحدين » ؛ وفى رسالة أخرى عنوانها « تقليد الرضى سفير القدرة » ، يختار المدعو عبد الله بن محمد بن

---

(١) وردت هذه الرسالة فى مجموعة دار الكتب المحفوظة برقم ٥٤ عقائد النحل .

(٢) توجد هذه الرسائل ضمن المجموعة المحفوظة برقم ٥٤ عقائد النحل .

وهب القرشي ، ويلقبه « بسفير القدرة ، فخر الموحدين ، وعماد المستجيبين » ؛ وفى ثالثة وهى رسالة المقتنى يختار أبا الحسن على بن أحمد السموقى ، ويكنى بالمقتنى بهاء الدين ليكون « جناحه الأيسر » ؛ وأما « جناحه الأيمن » فهو سلامة بن عبد الوهاب . ويعرف حمزة وهؤلاء الأربعة بالحدود الخمسة المعصومين ؛ وقد كان هؤلاء هم أقطاب الدعوة بلا ريب ، يتولون مناصب الزعامة والإشراف ، وكان مقدمهم وكبيرهم إسماعيل بن محمد التميمى ، شاعراً يصوغ الدعوة ويشيد بها فى قصائده ، وله قصيدة طويلة عنوانها « شعر النفس » ، يشيد فيها بقدس الحاكم وخواصه الإلهية[1] ، وله أيضاً عدة رسائل أخرى فى تأييد الدعوة وشرحها . وكان ثمة إلى جانب هؤلاء الرؤساء الأقطاب ، عدة كبيرة من الدعاة والرسل مثل عبد الله اللواتى ، ومبارك بن على ، وأبو منصور البردعى ، وأبو جعفر الحبال ، وغيرهم ممن وردت أسماؤهم فى رسائل الدعوة ؛ وكان لكل داعية جهة أو منطقة خاصة يختص ببث الدعوة فيها مع نقبائه ومعاونيه ؛ وهكذا كان جيش حقيقى من هؤلاء الدعاة السريين يغمر الأمم والعواصم الإسلامية ، ويحمل إليها جراثيم الإلحاد والثورة على الإسلام .

— ٣ —

هنالك طائفة كبيرة أخرى من الرسائل الإلحادية التى وضعها حمزة وصحبه فى شرح الدعوة وتأييدها ، وفى التعليق على بعض حوادث العصر ، وهى تربى على المائة ، ولدينا منها بدار الكتب أكثر من سبعين رسالة ، فى مجموعات أربع[2] ، غير المجموعة التى شرحناها والتى تتضمن متن الدعوة وأصولها ؛ وهى بقلم حمزة بن على فقيه الدعوة وإمامها .

ويشترك حمزة أيضاً فى وضع كثير من هذه الرسائل الأخرى ، بيد أن منها ما كتبه زملاؤه ومعاونوه من أقطاب الدعاة ؛ وقد رأينا استكمالا للبحث أن نستعرض طائفة من هذه الرسائل بإيجاز .

وأهم المجموعات الأربع فيما يظهر هى المجموعة التى تحمل رقم ٥٤ عقائد

---

(١) توجد هذه القصيدة ضمن المجموعة المشار إليها .

(٢) تحمل هذه المجموعات الأرقام الآتية ٥٤ و ٣٥ و ٢٠ و ١٣٨ عقائد النحل .

النحل ؛ وهى تضم زهاء ثلاثين رسالة منها بعض رسائل حمزة التى شرحناها ؛ وتفتتح برسالة عنوانها « الرسالة الدامغة للفاسق . الرد على النصيرى لعنه المولى فى كل كور ودور » ، وفيها رد وتفنيد لمزاعم هذا الداعية الخصيم أعنى النصيرى [1] ؛ وتليها « الرسالة الموسومة بالرضى والتسليم » ، وفيها حملة شديدة على الدرزى وبعض أتباعه الذين خرجوا على حمزة ؛ و « رسالة التنزيه » ، وفيها ذكر خمسة من أقطاب الدعوة ، وذكر خمسة يقابلونهم من خصومها ؛ و « رسالة النساء الكبيرة » ، وفيها ما يفرض على النساء اتباعه ؛ و « الصيحة الكامنة » وفيها شرح لبعض المعارك التى وقعت بين الدعاة وخصومهم ؛ و « نسخة سجل المجتبى » و « تقليد الرضى سفير القدرة » و « تقليد المقتنى » وفيها يقلد حمزة بعض زملائه وكالته حسبما قدمنا ؛ و « رسالة إلى أهل الكدية البيضا » و « شرط الإمام صاحب الكشف » وفيها شرح أحكام الطلاق بين الموحدين ؛ و « رسالة خمار بن جيش السليمانى » ، وفيها طعن شديد على خمار هذا ؛ و « الرسالة المنفذة إلى القاضى » ، وهى موجهة إلى قاضى القضاة ابن أبى العوام ، وفيها يناقشة الداعى فى معرفة نفسه ، ويسخر من آرائه ويتوعده بالويل ، وقد كان ابن أبى العوام من خصوم الدعاة ؛ و « المناجاة ، مناجاة ولى الحق » وفيها نص أدعية وصلوات موجهة إلى الحاكم ؛ و « الدعاء المستجاب » وفيها أيضاً دعاة وصلاة ؛ و « التقديس دعاء السادقين ، دعاء لنجاة الموحدين والعارفين » وعنوانها ينم عن موضوعها ؛ و « ذكر معرفة الإمام ، وأسماء الحدود العلوية روحانياً وجسمانياً » وفيها ذكر لصفات الإمام الروحية والجسمية ، وذكر لمقدمى الدعاة المأذونين ؛ و « رسالة التحذير والتنبيه » وفيها ينوه حمزة بدعوته وأهمية رسالته ، وبما سيلقى المنكرون من ضروب العقاب ؛ و « الرسالة الموسومة بالإعذار والإنذار » وفيها يخاطب حمزة بعض الخوارج على الدعوة ، ويدعوهم للعودة إلى الحق ؛ و « رسالة الغيبة » وهى من الرسائل الهامة ، وبقلم المقتنى فيما يرجح ، وقد كتبت بعد اختفاء الحاكم بقليل ، وفيها يخاطب الداعى أهل الشأم ، ويناشد

(١) لا نعرف من هو « النصيرى » هذا الذى يحمل عليه الداعى فى هذه الرسالة ، والذى تنسب إليه طائفة النصيرية فيما يظهر .

الموحدين أن يحرصوا على ولائهم وعهدهم ، ويبشرهم بظهور الإله فى صورة بشرية أخرى ؛ و « كتاب فيه سيم العلوم ، وإثبات الحق وكشف المكنون » وفيها تقسيم للعلوم وتصنيف لها بقلم زعيم الدعاة الملقب بالروح ، وهو إسماعيل ابن محمد التميمى ؛ و « رسالة الشمعة » وهى بقلمه أيضاً ، وفيها يقارن الدعاة الرؤساء الخمسة بأجزاء الشمعة الخمسة ؛ ورسالة « الراشد والهداية » بقلم الروح أيضاً ، وفيها نصح وتحذير للموحدين ؛ و « شعر النفس » وهى قصيدة لإسماعيل التميمى أو الروح ، وهى التى أشرنا إليها فيما تقدم وفيها يشيد الشاعر بخواص الحاكم « الإلهية » ؛ ثم تختتم المجموعة برسالة عن الفرائض المقررة ، ودعاء يتلى فى سبيل معرفة الإمام .

وقد كتبت معظم الرسائل المتقدمة بقلم حمزة بن على حسبما ينص فى كثير منها ، بيد أنها هنالك عدة منها ، كتبت بقلم صهره وكبير دعاته إسماعيل التميمى .

وأما المجموعة الثانية ، وهى التى تحمل رقم ٣٥ عقائد النحل فتحتوى على اثنتى عشرة رسالة ، وتوصف فى أولها بأنها « الجزء الأول من سبعة أجزاء » توضع لتفسير مذهب الداعى فى إمامة القائم ؛ ويبدو من موضوعاتها وأسلوبها أن معظمها قد كتب بقلم حمزة ؛ وتفتتح « بالرسالة الموسومة بالتنبيه والتأنيب والتوبيخ والتوفيق » وهى موجهة إلى اثنين من الدعاة المنكرين هما معد بن محمد وطاهر بن تميم ، وفيها يسدى الداعى نصحه ويقول إنه تجب المجاهرة بدين التوحيد أثناء غيبة الحاكم ؛ وتاريخ هذه الرسالة ، هو السنة الرابعة عشرة من سنى قائم الزمان (٤٢٢ هـ) . وتليها عدة رسائل بتقليد منصب الدعوة إلى بعض الدعاة ، ولا سيما الداعى سكين الذى انتخب ليتقلد أمر الدعوة فى الشأم والذى مثل من بعد دوراً فى رجعة الحاكم ؛ ثم تليها « الرسالة الموسومة بالتعنيف والتهجين » وفيها يوجه النصح والتحذير إلى جماعة من زعماء قبيلة كتامة ؛ ورسالة موجهة لأهل الوادى ؛ ثم رسالة هامة عنوانها « الرسالة الموسومة بالقسطنطينية المنفذة إلى قسطنطين متملك النصرانية » وفيها يدعو الداعى قسطنطين ابن أرمانوس قيصر قسطنطينية[1]

(١) هو القيصر قسطنطين الثامن ابن رومانوس الثانى وقد حكم من سنة ١٠٢٥ الى سنة ١٠٢٨ م .

ورجال دولته وأحبار كنيسته الى دعوته ، ويفند عقائدهم بأسلوب ينم عن تمكنه من موضوعه ، وتاريخ هذه الرسالة السنة الحادية عشرة من سنى قائم الزمان (٤١٩ ﻫ) ؛ وتليها الرسالة المسيحية وهى موجهة إلى النصارى أيضاً ؛ ثم « الرسالة الموسومة بالتعقب والافتقاد إزاء ما بقى علينا من هدم شريعة النصارى الفسقة الأضداد » وقد وجهت أيضاً إلى أحد أمراء قسطنطينية وهو ميخائيل بافلاجونين زوج الإمبراطورة زوى ، وفيها يحمل الداعى على النصارى حملة شديدة ، ويؤيد أقواله بنصوص كثيرة من الإنجيل وبها تختتم المجموعة .

وتختلف تواريخ هذه الرسائل بين السنة العاشرة ، والسنة الرابعة عشرة من سنى ولى الحكم أو سنى قائم الزمان ، أعنى بين سنتى ٤١٨ و ٤٢٢ ﻫ ، فإذا صح أن منها ما هو من وضع حمزة ، فإن حمزة يكون قد استمر بعد اختفاء الحاكم عدة أعوام أخرى ، يشرف على الدعوة ويغذيها بقلمه وجهوده .

وتضم المجموعة الثالثة[١] ثلاث عشرة رسالة ، كتب معظمها بقلم المقتنى حسبما نص فيها ؛ وأولادها « الرسالة ، الموسومة بالإيقاظ والبشارة لأهل الغفلة وآل الحق والطهاره » وفيها يوجه الداعى الحديث إلى أهل العراق وأهل فارس ، ويبشرهم بظهور حمزة ، وقد كتبت فى السنة الخامسة عشرة من ظهور قائم الزمان (سنة ٤٢٣ ﻫ) ؛ والثانية هى « الرسالة الموسومة بالحقائق والإنذار والتأديب لجميع الخلائق » ، وهى بقلم المقتنى وفيها يوجه الكلام إلى أهل الشام والعراق ، ويحمل على دخلاء الدعوة الذين أضلوا المؤمنين بمزاعمهم الخاطئة ، وتاريخها السنة السابعة عشرة من سنى قائم الزمان ؛ والثالثة هى « الرسالة الموسومة بالشافية لنفوس الموحدين » وهى بقلم المقتنى أيضاً ؛ والرابعة « رسالة العرب » وهى موجهة إلى أهل الشام والعراق والحجاز واليمن وإلى بعض زعماء العرب ، وقد أرخت سنة ٤٢٢ ﻫ ؛ والخامسة « رسالة اليمن وهداية النفوس الطاهرات ولم الشمل وجمع الشتات » وتاريخها السنة السابعة عشرة من سنى قائم الزمان ، وفيها يوجه الداعى الخطاب إلى أهل اليمن ؛ والسادسة « رسالة الهند » وهى موجهة إلى الموحدين

---

(١) تحفظ هذه المجموعة بدار الكتب تحت رقم ١٣٨ عقائد النحل .

فى الهند ، وتاريخها السنة السابعة لقائم الزمان ؛ والسابعة الموسومة « بالتقريع والبيان وإقامة الحجة لولى الزمان » وهى موجهة إلى أهل مصر والقاهرة ؛ والثامنة « الرسالة الموسومة بتأديب الولد العاق من الأولاد » ؛ والتاسعة « الرسالة الموسومة بالقاصمة للفرعون الدعى » ، وهى بقلم المقتنى ، وقد أرخت فى السنة الثامنة عشرة لقائم الزمان ، وفيها يحمل الداعى على بعض خصومه ؛ والعاشرة وعنوانها « كتاب إلى اليقظان » وهى بقلم المقتنى أيضاً وفيها يطلب إلى بعض معاونيه أن يدرس أحوال بعض المؤمنين ؛ والحادية عشرة وهى « الرسالة الموسومة بتمييز الموحدين الطائعين من حزب العصاة الفسقة الناكثين » وهى بقلم المقتنى أيضاً ؛ والثانية عشرة وعنوانها « من دون قائم الزمان والهادى إلى طاعة الرحمن » ؛ والثالثة عشرة والأخيرة « رسالة السفر إلى السادة فى الدعوة لطاعة ولى الحق الإمام القائم المنتظر » ، وهى بقلم المقتنى ، وقد أرخت بالسنة الثانية والعشرين من سنى قائم الزمان أعنى سنة ٤٣٠ هـ ، وفيها يوجه الداعى الكلام إلى شيوخ البحرين ، بقية القرامطة ؛ وفى تاريخها المتأخر ما يدل على أن المقتنى لبث بعد اختفاء إمامه حمزة قائماً بالدعوة حتى أوائل عهد المستنصر بالله .

والمجموعة الرابعة ، وهى التى تحمل رقم ٢٠ عقائد النحل ، تحتوى على عدة شروح دينية وفقهية شيعية عن بعض المسائل والصفات ، كالصدق والدعاء والتحذير والنميمة والتقديس والإعذار وغيرها ، وذكر لبعض الوقائع التى حدثت للدعاة ، وهى بلا عنوان ولا خاتمة ، وهى ترتبط فى موضوعاتها بما تقدم من الرسائل ارتباطاً شديداً ؛ بيد أنه يبدو من أسلوبها ولهجتها أنها ليست من تأليف حمزة ، وفى ركاكة أسلوبها وتفكيرها ما يحمل على الاعتقاد بأنها كتبت بقلم أحد أصاغر الدعاة ؛ وأهم ما فيها هو رسالة « الغيبة » التى سبقت الإشارة إليها ، والرسالة التى أرسلت إلى ولى العهد عبد الرحيم بن إلياس وهو فى دمشق ، وفيها ينصح الداعى بأن يرفع القناع ، وأن يظهر عبادة الحاكم وأن يعترف بألوهيته ، وألا يتقرب إليه بنسب ما .

هذا ما تحتفظ به دار الكتب المصرية من رسائل حمزة بن على وأصحابه ، وفيها كثير مما يلقى ضياء على أصول هذه الدعوة الإلحادية الغريبة ، التى

استحالت منذ عصره إلى عقيدة جديدة ، ومذهب جديد هو مذهب الدروز .

بيد أن مجموعة باريس تحتوى على طائفة كبيرة أخرى من هذه الرسائل ومنها عدة بقلم حمزة بن على ؛ ومنها ما هو بأقلام بعض أكابر الدعاة ؛ ولا يتسع المقام هنا لتناولها وتعدادها جميعاً ، خصوصاً وأنها ذات أهمية ثانوية بالنسبة لما استعرضناه من رسائل الدعاة الأساسية ؛ ولهذا نكتفى بأن نشير هنا إلى بعضها مما يتعلق ببعض المسائل والموضوعات الهامة .

فنها عدة رسائل وجهت إلى العراق والشام والحجاز واليمن وإلى أهل مصر باعتناق الدعوة أيضاً ، وعدة رسائل أخرى موجهة إلى بعض الدعاة الذين انقلبوا على المذهب يحمل عليهم فيها وتفند أقوالهم ومطاعنهم ، وقد كتب معظم هذه الرسائل بقلم داعية من أكابر الدعاة هو « المقتنى » ، والظاهر أنه هو الذى تولى بعد اختفاء حمزة مهمة الرد على خصومه ومقارعتهم الحجة فيما ينكرون من دعوته ؛ وفيها ما يوضح ما أصاب الدعوة بعد اختفاء حمزة من الانقسام والتفرق ، وما وقع بين الدعاة من ضروب النقاش والجدل .

وقد استعرض المستشرق دى ساسى فى كتابه عن مذهب الدروز ، عناوين هذه الرسائل وملخص موضوعاتها ، وهى تبلغ زهاء الستين(١) .

---

(١) De Sacy ; ibid ; V. I. p. 475 et suiv.

الفصل الخامس

مذهب الدروز

إغراق الدعوة الإلحادية . كون الدعاة من الأجانب . فارس مهد الثورة على الإسلام . مقاومة المجتمع المصرى للدعوة . مذهب الدروز . مبادؤهم الجوهرية . تظاهرهم بمختلف الأديان . موقفهم من الإســلام . دعوى الألوهية البشرية . كيف يشرحها الداعى . الدروز والقرآن . حرصهم على كتمان عقائدهم . العقلاء والجهلاء . اجتماع الخلوات . بعض صفات العقلاء . بعض رسومهم فى الزواج والمواريث . إجازتهم للرهبنة . استسلامهم للقدر . الدروز ليسوا عرباً . من هو مؤسس المذهب الحقيقى . حمزة والدرزى . حمزة إمام المذهب الحقيقى . ضعف الدعوة وسقمها . تبرؤ مصر والخلافة الفاطمية منها . سجل التبرء فى عهد الخليفة الظاهر . طائفة النصيرية .

هذا ما وسع المقام عرضه من أصول تلك الدعوة الإلحادية الغريبة التى وضعها حمزة بن على وصحبه ، وهذا ما وسع استعراضه من وثائقها وشروحها ؛ وإنها لصفحة من أغرب صفحات الثورة على الإسلام ، وأشدها غلواً وإغرقا . ولقد عرف الإسلام منذ عصره الأول ، كثيراً من هذه الحركات الثورية الملحدة ، السرية والعلنية ، وعرف كثيراً من الفرق الخارجة المنكرة ، التى يستظل معظمها بلواء الشيعة والإمامة ؛ وقد كانت النبوة فى كثير من الأحيان مثار الجدل أو موضع الادعاء ؛ ولكن هذه الحركات أو الفرق الثورية لم تذهب قط إلى ما ذهب إليه أولئك الدعاة المغرقون ، الذين حاولوا فى جرأة مدهشة أن يرفعوا إلى قدس الألوهية إنسانا من البشر ، وأن يجعلوا من دعوتهم ديناً جديداً يدعون كافة البشر إلى اعتناقه ؛ وإذا كان أولئك الدعاة قد استظلوا بلواء الخلافة الفاطمية ، وبدأوا دعوتهم شعبة من الدعوة السرية الفاطمية ، ورفعوا فوق عرش ألوهيتهم المزعومة خليفة فاطمياً ، فإن الدعوة السرية الفاطمية على ما يطبعها من ضروب الإنكار والإلحاد ،

وما تذهب إليه من التناسخ فى الشرائع ، لم تذهب إلى هذا الحد من الإغراق ، والتهجم على قدس الألوهية ؛ بل هنالك ما يدل على أن الدعوة الفاطمية ، كانت تنكر هذه الدعوة الإلحادية الجديدة ، وتخاصمها ؛ وكان أصحاب حمزة أو أصحاب الهادى إذا لقوا أصحاب داعى الدعاة — وهو يومئذ حتكين — لعن بعضهم بعضها ، ورمى كل فريق صاحبه بالمروق والكفر(١) .

ونلاحظ من جهة أخرى أن معظم أولئك الدعاة ، الذين اضطلعوا ببث هذه الدعوة الإلحادية المغرقة فى مصر ، لم يكونوا من المصريين ، بل كانوا من الأجانب الذين اجتذبتهم الخلافة الفاطمية ببهائها ومشاريعها السرية ؛ وقد كان كبيرهم حمزة بن على فارسيا من أبناء ذلك الشعب الفارسى الذى يضطرم بغضاً للإسلام والعرب ، والذى وقف جهوده مدى قرون لمناوأة الإسلام الظافر ، وتقويض أسسه وسلطانه السياسى ، ورمى الإسلام بمعظم الدعاة السريين والملاحدة ، الذين عملوا باسمه لهدم مبادئه وعقائده ؛ وكان الحسن الفرغانى فارسياً كذلك ، وكان الدرزى تركياً أو فارسياً غامض النشأة(٢) .
ومن الصعب أن نعتقد أن هذه العصبة الخفية كانت تعمل مستقلة ،وأنها كانت مبتكرة تعمل لحساب نفسها ؛ وأغلب الظن أنها كانت تعمل لحساب تلك الحركة الثورية الخفية التى كانت فارس مركزها وملاذها ، والتى أضرمت من قبل فورة القرامطة ، وعاونت على ظفر الدعوة السرية الفاطمية ، ولم تقنع فيما بعد بمسلك الخلافة الفاطمية ، وسياستها المستقلة ، وتوفرها على توطيد ملكها السياسى ، فأرادت أن تعمل على إضرام ثورة جديدة فى العالم الإسلامى ، وأن تقوض صرح الإسلام بتقويض مبادئه ، وأن تستأنف ثورة القرامطة المخربة بثورة أخرى ؛ ورأت فى ظروف مصر فى عصر الحاكم بأمر الله فرصة يجب انتهازها ،فبعثت إلى مصر بدعاتها ورسلها يعملون فى ظل الدعوة الفاطمية وليدتها ، وكادت الدعوة أن تضرم بمصر أول شرارة فى الثورة المنشودة .
ولكن المجتمع المصرى لم يحسن استقبال أولئك الدعاة الخطرين ، بل قاومهم وفتك بشيعتهم ، واضطرهم غير بعيد إلى الفرار ، ولم يستطع واحد منهم

---

(١) راجع تاريخ الأنطاكى ص ٢٢٤ .

(٢) يقول الأنطاكى إن الدرزى كان أعجمياً ، ص ٢٢٠ .

أن ينشئ له بمصر فرقة حقيقية من الأنصار والمؤمنين . ولم تثمر الدعوة ثمرتها العملية إلا فى وهاد الشأم حيث انتظمت فى فرقة ملحدة جديدة هى طائفة الدروز التى ما زالت قائمة إلى يومنا ، والتى تضم زهاء مائتى ألف نفس يدينون إلى اليوم بكثير من هذه المبادئ الإلحادية المدهشة .

— ١ —

هذا ونرى أن نقدم ملخصاً للأصول والقواعد التى يطبق بها اليوم مذهب حمزة بين أبناء طائفته أعنى الدروز ؛ فهم على ما دعا إليه حمزة منذ أكثر من تسعة قرون ينكرون الألوهية فى ذاتها ، ويعتقدون فى ألوهية الحاكم بأمر الله وفى رجعته آخر الزمان ؛ ولهم فى تصويرها أقوال مغرقة أشرنا إليها من قبل[١] . وينكرون الأنبياء والرسل جميعاً ، وينكرون أصول الإسلام والنصرانية واليهودية ؛ بيد أنهم ينتسبون ظاهراً إلى الإسلام ، ويتظاهرون أمام المسلمين بأنهم مسلمين ، وأمام النصارى بأنهم نصارى[٢] ؛ ويبغضون فى الباطن جميع أبناء الأديان الأخرى ولا سيما المسلمين ، ويستبيحون دماءهم وأموالهم عند المقدرة ، ويعتقدون أن الشياطين هم باقى الملل ، وأن العقلاء أو خيارهم هم الملائكة ؛ ولا يأخذون بشىء من أصول الإسلام كالصوم والصلاة والزكاة والحج ؛ بل ينكرون أصول الإســلام جميعها والشريعة الإسلامية كلها . والألوهية البشرية ، وهى لب مذهبهم ، عندهم منة المنن ونعمة النعم . وقد أشار إمامهم حمزة إلى ذلك رسالته الموسومة برسالة البلاغ والنهاية فى التوحيد إذ قال : « ولكنه سبحانه قد أظهر لكم بعض قدرته ، وأسبغ عليكم نعمته بغير استحقاق تستحقونه عنده ، ولا واجب لكم عليه بل أنعم عليكم بلطفه ، وقربكم منه برحمته ، وباشركم فى الصورة البشرية ، والمشافهة لكم بالوعية ، لعلكم تدركون بعض ناسوته الأنسية ، على قدر حسب طاقتكم بمعرفة المقام ، وتنظرون إليه بنور التمام »[٣] .

---

(١) راجع ص ٢٣٩ من هــذا الكتاب ؛ وراجع رسائل حمزة فى المخطوط المشار إليه ص ٩٧ و ٩٨ .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية ؛ مقال المستشرق كارا دى فو عن الدروز .

(٣) رسائل حمزة المشار إليها ص ٨٠ .

ويقول لنا الإمام فى مواضع أخرى من نفس الرسالة فى تصوير الألوهية البشرية ما يأتى : « فالحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأن مولانا جل ذكره ابن العزيز أو أبو على ، لأن مولانا سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان ، يظهر فى صورة بشرية ، وصفة مرئية كيف يشاء ؛ وإنما تنظرون العلة التى فيكم بتغير أحوالكم تنظرون صورة أخرى ؛ وهو سبحانه لا تغيره الدهور والأعوام والشهور ، وإنما يتغير عليكم بما فيه إصلاح شأنكم ، وهو تغيير الاسم والصفة لا غير ؛ وأفعاله جل ذكره تظهر من القوة إلى الفعل كما يشاء كل يوم هو فى شأن ، أى كل عصر فى صورة أخرى . . .

« ومثله فى الصورة لا فى الحقيقة ، لأن حقيقته لا تدرك بوهم ، ولا يحيط بعلمه فهم . . . فمثله كمثل شخص ناطق جسمانى وله روح لطيف ، متعلق بذلك الجسد الكثيف ، وله عقل يدير الأشياء بذلك العقل . . . والعقل هو الروح اللطيف ، لكن إظهاره من الجسد الكثيف ، ولا يقدر أحد يقول إن العقل يظهر بلا جسم ، لأن الروح لا تدرك إلا بالجسم ؛ لذلك مولانا جل ذكره بظاهر ناسوته ، عرفنا بلاهوته لا يدرك بالعين ، ولا يعرف بالكيف والأين ، عالم بسركم من قبل أن يختلج فى صدوركم سبحانه وتعالى عما يصفون . . . » .

ويعتقد الدروز فى تناسخ الأرواح ، وانتقالها إلى الأحياء فى صورة الإنسان والحيوان ؛ ويقولون فى القرآن الكريم إنه من صنع سلمان الفارسى الصحابى المشهور[١] .

ويحرص الدروز أشد الحرص على كتمان عقائدهم السرية ، وينكرون ما يؤخذ عليهم منها ، بل يذمونها أمام المعترضين رياء واستتاراً ، وهذه خاصة مأثورة للباطنية . وقد رأينا فى حديثنا عن الدعوة السرية كيف كان

---

(١) هو من مشاهير الصحابة وكان فارسياً ، تنصر أولا ثم سار الى يثرب (المدينة) وقت الهجرة واعتنق الإسلام ، فقربه النبى واعتبره ممثل الفرس بين صحابته . وسلمان شخصية غامضة ، اشتغل بالصوفية وشؤون الفرق الإسلامية ، وقد ظهرت ميوله الشيعية غير بعيد ، وهو معظم عند الشيعة وقبره يزار الى اليوم فى ضواحى المداين القديمة ، ويعتبره النصيرية من أئمتهم ، وتنسب إليه أحياناً أمور خارقة ، والظاهر أنه كان من خصوم الإسلام الباطنيين . وقد توفى حوالى سنة ٣٥ هـ .

الدعاة يتظاهرون أمام كل بما يوافق مشربه وعقيدته ، وهم يتبعون فى ذلك وصايا الأئمة . وقد حرص الدروز على هذا الكتمان المطبق لأصول مذهبهم وعقائدهم طيلة القرون ، ولم تعرف خفايا مذهبهم إلا منذ نحو قرن ، حينما غزا إبراهيم باشا المصرى مناطقهم الجبلية ووقع الغزاة على بعض كتبهم المقدسة ، وعرفت محتوياتها ، واستطاع البحث الحديث أن يكشف عن كثير من حقائق هذا المذهب الغريب ، وما زال الكتمان إلى اليوم عماد حياتهم الروحية . وينقسم المجتمع الدرزى من أجل ذلك إلى طبقتين ؛ طبقة « العقال » أو العقلاء وطبقة الجهال ، والعاقلات والجاهلات بالنسبة للنساء ؛ وينقسم العقال إلى طبقتين أرفعهما طبقة الخاصة وهى طبقة الثقاة ؛ وأما الجهال فهم الكافة الذين لا يعرفون من المذهب سوى مظاهره البسيطة ؛ ويجتمع « العقال » فى أبنية منعزلة فى أعلى الصوامع ، تسمى بالخلوات ، وفى القرى فى منازل سرية شيدت داخل المنازل الأصلية ، فيجتمعون ليلة الجمعة فى ظاهر المنزل ، ويقرأون ما تيسر من المواعظ والحكم المذهبية ، ثم ينصرف الكافة ، ويختلى الخاصة فى البيت الداخلى ، وتغلق الأبواب ويتبادل العقال الإفضاء والأسرار . ومن العقال طبقة تعرف بالمنزهين ، وهم أشد المؤمنين ورعاً وزهداً ، ومنهم من يصوم الدهر أو ينقطع عن الزواج أو يضرب عن أكل اللحم طول حياته ؛ ويتمتع العاقل ببعض الخلال الحسنة فلا يتناول الخمر ، ويلتزم الحشمة فى أحاديثه ، ويقتصد فى طعامه وشرابه : وفى جميع ملاذ الحس والنفس ، لأن الإسراف نقيصة فى خلق الموحدين ؛ وللعقلاء شيخ تقليدى يرجعون إليه فى أمور الدين ؛ ومن ينتظم فى سلك العقال ، يجب عليه أن يوقع ميثاق ولى الزمان ، وهو الميثاق الذى وضعه حمزة إمام المذهب وأشرنا إليه فيما تقدم .

ويجرى الزواج عند الدروز طبقاً للرسوم المعروفة لدى المسلمين من الخطبة والمهر ، ولا يجوز التزوج بأكثر من واحدة ما لم تطلق الأولى ؛ والطلاق عندهم سهل ميسور ، ولا ترد المطلقة بأى وجه ولو بعد زواجها من آخر ، وتحرص المرأة عندهم على الحجاب ، ولا تسفر حتى عن وجهها إلا عيناً واحدة تبصر بها ، ويشتد استتارها من المطلق والخاطب ؛ والزنا عندهم جريمة

لا تغتفر وتسقط مرتكبها إلى الأبد ، ويقال إنه قد يباح الزواج بين الإخوة سراً رغم حظره قانوناً ، وهى مسألة عشرة المحارم التى أشرنا إليها من قبل[١] ؛ بيد أن هذا القول لا سند له من الواقع ، والأخت كالبنت والأم عند الدروز من المحارم ، وربما وقعت عشرة المحارم بين النصيرية ، وهم طائفة باطنية أخرى نشير إليها فيما بعد .

ولا يتبع الدروز المواريث الإسلامية لأنهم ينكرون أحكام الشريعة كما قدمنا ، ولكن الرجل عندهم يوصى بكل ماله لأحد أولاده ، والمرأة لا ترث شيئاً عن أبيها ، ولهم قواعد أخرى فى المواريث خاصة بهم[٢] .

ويجيز الدروز الرهبنة ، ومنهم رهبان وراهبات يعيشون فى بساطة وتقشف ، ولهم فى نفوس المؤمنين مكانة كبيرة ، وهم يؤمنون بالقدر إيماناً شديداً ، ويستسلمون إليه فى كل أعمالهم وتصرفاتهم[٣] .

وينتسب الدروز إلى العرب ، بيد أنه يوجد ريب فى هذه النسبة ؛ والظاهر أنهم من سلالة القدماء الذين سكنوا هذه الوهاد قبل الإسلام[٤] . بيد أنهم يتصفون بكثير من الخلال العربية ، مثل الشجاعة والجود والتعلق بالأصول والأنساب والأحساب .

— ٢ —

وهنا تعرض نقطة ما تزال موضع الجدل وهى : من هو مؤسس مذهب الدروز الحقيقى ؟ إن اسم المذهب والطائفة مشتق من اسم الدَّرَزى أعنى محمد ابن إسماعيل المعروف بأنوشتكين ؛ ولكن ذلك الإشتقاق اللفظى لا يمكن أن يطغى على الحقيقة التاريخية . ذلك أن حمزة بن على فيما نعتقد هو مؤسس

---

(١) هذا ما ذكره دى ساسى فى كتابه (ج ٢ ص ٧٠٠) ، بيد أنا نرتاب فى إمكان وقوع مثل هذه المحرمات اليوم فى المجتمع الدرزى ، وهذا ما تؤكده كتب الدروز حسبما بينا ، وهذا ما أكده لنا بعض أصدقائنا من الدروز المستنيرين .

(٢) استقينا بعض هذه المعلومات عن المجتمع الدرزى ، من كتاب مخطوط « عنوانه تاريخ جبل لبنان » (دار الكتب رقم ١٦ م) وفيه تفاصيل مفيدة عن عقائد الدروز وأحوالهم .

(٣) هذا ما نقله الى صديق مستنير من الدروز .

(٤) دائرة المعارف الإسلامية فى مقال البارون كارا دى فو عن الدروز .

المذهب الحقيقى ، وهو واضع أصوله ومبادئه ، وهو صاحب متنه ورسائله حسبما بينا ؛ وقد وفد حمزة على مصر قبل مقدم الدرزى فيما يرجح ، ووضع أصول مذهبه وبشر بها منذ سنة ٤٠٨ ﻫ ، وهى فى مذهبه أولى سنى قائم الزمان ، أى الحاكم بأمر الله ، وأول سنى ظهور ولى الزمان عبده ومملوكه هادى المستجيبين ، أعنى حمزة ؛ وقد كان حمزة يرتب دعاته وينفذ رسله إلى مختلف الأقطار الإسلامية لبث الدعوة ، وكان له رسله ودعاته فى الشام ؛ فلما وقعت الفتنة بالقاهرة ، فر الدرزى إلى الشام فى سنة ٤١١ ﻫ ، ونزل بأعمال بانياس وبث دعوته هنالك ، فاستجاب لها جمهور من الكافة ، وما لبثت أن انتظمت إلى المذهب المسمى باسمه أعنى مذهب الدروز ؛ بيد أن هذه الواقعة ، أعنى نزوح الدّرزى إلى الشام ليست محققة من الوجهة التاريخية ، فهنالك أكثر من رواية بأنه قتل فى مصر ، وأن مقتله كان فى سنة ٤٠٨ ﻫ أثناء الفتنة(١) ؛ ومن جهة أخرى فإن الدعوة التى أذاعها الدرزى فى الشام ليست إلا دعوة حمزة بن على ذاتها ، حملها الدّرزى وربما حور فيها أو أضاف إليها بعض مبادئه ؛ وقد كان الدرزى فى الواقع من تلاميذ حمزة ودعاته ، وكان يسمى نفسه « سند الهادى » ، أى سند حمزة لأن الهادى هو حمزة ؛ ويشير حمزة فى رسائله إلى ما كان بينه وبين الدرزى من علائق وخصومات ، وذلك فى « الرسالة الموسومة بالغاية والنصيحة » ففيها يحمل على الدرزى ، الذى هو « نشتكين » ، ويقول إنه « تغطرس على الكشف بلا علم ولا يقين ، وهو الضد الذى سمعتم بأنه يظهر من تحت ثوب الإمام ، ويدعى منزلته ، وكان (أى الدرزى) ، من جملة المستجيبين حتى تغطرس وتجبر ، وخرج من تحت الثوب ، والثوب هو الداعى ، والسترة التى أمره بها إمامه حمزة بن على الهادى إلى توحيد مولانا جل ذكره » ، ثم يقول إن الدرزى أنكر التعاليم وتمرد وأثار الجدل بينهما ، وغره ما كان يضربه من زغل الدنانير والدراهم(٢) .

(١) هذه هى رواية الأنطاكى ص ٢٢٣ ، والمكين بن العميد ص ٢٦٤ ، ولرواية الأنطاكى قيمة خاصة لأنه كان قريبا من العصر الذى وقعت فيه الحوادث .

(٢) راجع المخطوط رقم ١٣٣ عقائد النحل ص ١٣٥ — ١٢٨ . ويبدو من إشارة حمزة أن الدرزى كان يشتغل بضرب النقود ، وربما كان يشغل منصباً فى دار الضرب أو ربما كان يشتغل بتزييفها لحسابه وحساب الدعاة .

ويبدو من ذلك جلياً أن حمزة كان يقف من الدرزى موقف الإمام والأستاذ ، وأن الدرزى خرج عليه وعلى مبادئه ، واستقل بعد ذلك ببث دعوته ؛ فإذا كنا نعتبر الدّرزى بذلك مؤسساً لمذهب الدروز ، فيجب ألاّ ننسى أن حمزة هو أول من وضع متنه وقواعده ، وأول من صاغها وحملها ؛ ومن المحقق أن دعوته كانت ذائعة فى الشام قبل أن ينزح إليه الدرزى ، وإن كان الدرزى قد أذكاها بمقدمه ، وأسبغ عليها صبغتها العملية . وما زالت أصول دعوة حمزة هى أصول مذهب الدروز ، وقوامها التناسخ ، وحلول الروح ، وألوهية الحاكم بأمر الله ، واعتباره قائم الزمان ، وانتظار عودته فى آخر الزمان . ثم إن التاريخ الذى يتخذه حمزة بدءاً لدعوته ، وظهور قائم الزمان ؛ وهى سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) هى نفس السنة التى اتخذها الدروز بدء تاريخهم المقدس ؛ وهى التى يؤرخ بها الدعاة من بعده دعواتهم ورسائلهم ؛ وإذن فحمزة هو إمام المذهب ومؤسسه الأول ، وإن كانت حوادث العصر قد أسبغت على الدرزى فضل النسبة دونه ؛ هذا إلى أن الدروز يسمون أنفسهم « بالموحدين » أيضاً ، وهو الاسم الذى يسبغه حمزة على صحبه فى معظم رسائله .

ولا ريب أن حمزة بن على كان نموذجاً قوياً لأولئك الدعاة الملاحدة ، ففى تفكيره وآرائه وشروحه ما يشهد بكثير من الذكاء والبراعة ؛ ولكن إنشاء دين جديد ، والدعوة إلى ألوهية بشر ، محاولة تقصر عنها جهود أعظم الدعاة وأقواهم ؛ ولم يكن حمزة مبتدعاً فى الواقع ، ولم يكن أول من جاهر بمثل هذه الآراء والمبادئ حسبما بينا فيما تقدم ؛ وظاهر أن دعواه مزيج غير متسق من الشروح والأساطير الوثنية واليهودية والنصرانية والإسلامية ، وهى لا تحمل كثيراً من طابع الإبتكار والطرافة ؛ وفى آرائه وتدليله كثير من ضروب التناقض والضعف ، ومن ثم فإنا نراه يلجأ إلى الرموز والخفاء كلما أعيته الحجة شأن الدعاة المشعوذين فى كل عصر ؛ ثم هو فوق ذلك يقدم إلينا دعوته فى أسلوب ركيك ينم عن ضعف بيانه العربى ، وإن كان ينم مع ذلك عن تمكنه من بعض المباحث والشروح الدينية المقارنة :

وإذا كانت مصر قد لفظت هذه الدعوة المثيرة منذ البداية ، ولم يملقها

ويغريها أن تنسب الألوهية إلى واحد من أبنائها ومن خلفائها ، وإذا كانت قد وثبت بالدعاة ومزقت شملهم ، وأخمدت فتنتهم فى مهدها ، فإن الخلافة الفاطمية لم تلبث من جانبها أن جاهرت بإنكارها وتبرئها من تلك الدعوة ، التى انسابت تحت جناحها بالرغم منها ، وكادت أن تصمها فى أنحاء العالم الإسلامى كله بأشنع وصمات الزيغ والإلحاد . ولم تمض على وفاة الحاكم بأمر الله أعوام ثلاثة ، حتى كانت الخلافة الفاطمية قد سحقت هذه الحركة الخطرة ، وطهرت مصر من دعاتها ؛ وقد أوضحت لنا الخلافة الفاطمية موقفها من الدعوة والدعاة بعد الحاكم بأمر الله فى وثيقة رسمية صدرت عن بلاط القاهرة سنة ٤١٤ هـ فى أوائل عصر الظاهر لإعزاز دين الله ولد الحاكم ، ونقلها الينا مؤرخ معاصر هو أبو هلال الصابى . وإليك بعض ما جاء فيها :

« وذهبت طائفة من النصيرية[١] ، إلى الغلو فى أبينا أمير المؤمنين على ابن أبى طالب رضوان الله عليه ، غلت وادعت فيه ما ادعت النصارى فى المسيح ؛ ونجمت من هؤلاء الكفرة فرقة سخيفة العقول ، ضالة بجهلها عن سواء السبيل ، فغلوا فينا غلوا كبيراً ، وقالوا فى آبائنا وأجدادنا منكرا من القول وزورا ، ونسبونا بغلوهم الأشنع ، وجهلهم المستفظع ، إلى ما لا يليق بنا ذكره ؛ وإنا لنبرأ إلى الله تعالى من هؤلاء الجهلة الكفرة الضلال ، ونسأل الله أن يحسن معونتنا على إعزاز دينه ، وتوطيد قواعده وتمكينه ، والعمل بما أمرنا به جدنا المصطفى وأبونا على المرتضى ، وأسلافنا البررة أعلام الهدى . وقد علمتم يا معشر أوليائنا ودعاتنا ، ما حكمنا به من قطع دابر هؤلاء الكفرة الفساق ، والفجرة المراق ، وتفريقنا لهم فى

(١) النصيرية المشار إليهم هنا وفى رسائل الدعاة ، هم طائفة من الباطنية ما تزال منها اليوم بقية فى اللاذقية ، وطرابلس وحماة ودمشق ، وهم كالدروز يتظاهرون بالإسلام ، ويعتقدون فى ألوهية على بن أبى طالب ، وينقسمون كالدروز إلى عقلاء وجهال ، ويعقدون مثلهم اجتماعاتهم الدينية السرية فى الخلوات ، والمعروف أنهم يبيحون عشرة المحارم من البنات والإخوات ونساء بعضهم بعضا ، وعندهم أن المرأة لا يكمل إيمانها إلا بإباحة نفسها لأخيها المؤمن ، بيد أنها لا تبيح نفسها للأجنبى ، وهم يعتبرون المرأة كالحيوان مجردة عن النفس ؛ والظاهر أنهم يرجعون فى الأصل الى نفس الدعوة السرية ، التى اشتق منها مذهب الدروز ، ويعتنقون معظم المبادئ الإباحية التى تنسب إليهم .

البلاد كل مفرق، فظعنوا فى الآفاق هاربين ، وشردوا مطرودين خائفين »[١].

هذا ، وقد أعلن الظاهر فى السجل الذى أصدره بتبرئته من هذه المزاعم المغرقة التى قيلت فى أبيه وأسلافه ، اعترافه إلى الله « بأنه وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون اقتدارا ، ومربوبون اقتساراً ، لا يملكون لأنفسهم موتاً ولا حياة ، ولا يخرجون عن قبضة الله تعالى ، وأن جميع من خرج منهم عن حد الأمانة والعبودية لله عز وجل ، فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، وأنه قد قدم إنذاره لهم بالتوبة إلى الله تعالى من كفرهم ، فمن أصر فسيف الحق يستأصله »[٢] .

وفى ذلك دليل واضح على ما استشعرته الخلافة الفاطمية ، من خطر هذه الدعوات المغرقة على سمعتها وهيبة إمامتها ، وعلى جنوحها بعد ذهاب الحاكم بأمر الله إلى الحرص فى سياستها المذهبية والعود إلى تحفظها القديم .

(١) راجع هذه الوثيقة بأكملها فى النجوم الزاهرة (عن الصابى) ج ٤ ص ٢٤٩ و ٢٥٠ .
(٢) الأنطاكى ص ٢٣٦ .

الكتاب الثالث

خواص العصر الفاطمى

السياسية والاجتماعية والعقلية

الفصل الأول

نظم الدولة الفاطمية

نظام الحكم الفاطمى . نظرية الحكم الإمامية كما يعرضها الكرمانى . ضعف سلطان الخلفاء الفاطميين . طرافة النظم الفاطمية . نشأة الوزارة . ابن كلس أول وزراء الدولة . الوساطة والسفارة . عود الوزارة . الألقاب الوزارية . الانقلاب الوزارى . بدر الجمالى . تغلب رجال السيف . الوزراء الطغاة . المناصب العسكرية والإدارية . النظر فى المظالم . الدواوين . ديوان الإنشاء . أهميته ودقة رسالته . ديوان الجيش . ديوان الجهاد . الجيش الفاطمى . عناصره وعدده وعدته . الأسطول الفاطمى وعدد سفنه . قواعده فى مصر والشام . الدواوين الأخرى . الخطط الدينية . قاضى القضاة . مدى اختصاصه الإقليمى . الأحكام الشرعية فى العهد الفاطمى . تسامح الخلافة الفاطمية فى تطبيقها . داعى الدعاة . الحسبة واختصاصاتها . بيت المال . وظائف القصر والخاص . الأساتذة المحنكون . نقابة الطالبيين . أقسام الدولة الإدارية . الخلافة الفاطمية وغناها الطائل . قصورها وخزائنها العظيمة . النظرية الإمامية فى موارد الدولة . موارد الدولة الفاطمية . الخراج والمكوس . مختلف الضرائب الأخرى . سر غنى الخلافة الفاطمية . أملاك الخلفاء الفاطميين . نشاطهم التجارى الواسع .

— ١ —

من الواضح أن نظام الحكم كان فى ظل الخلافة الفاطمية ، كما كان فى سائر الدول الإسلامية الأخرى ، فى العصور الوسطى ، نظاما مطلقا ، يستأثر فيه الخليفة بجميع السلطات الروحية والزمنية . وقد سارت الخلافة الفاطمية على هذا النحو منذ قيامها بالمغرب ، ثم بعد ذلك منذ قيامها بمصر ؛ فكان الخليفة الفاطمى ، هو الدولة ، وهو صاحب السلطان المطلق . وحكم المعز العزيز والحاكم والظاهر وفقا لهذا الأسلوب ، فى عصر الإزدهار والقوة . وكان هذا الأسلوب المطلق فى الحكم أمرا طبيعيا ، يتفق بالأخص مع نظرية الإمامة الفاطمية .

وإليك كيف يعرض لنا الداعي حميد الدين الكرماني نظرية الحكم الإمامية أو الفاطمية ، بطريقته الفلسفية :

إن الأنفس متصلة من جهة الدعوة الظاهرة التي هي الأمور الشرعية ، والولاية بالباب ، بكونهم شركاء فيها ، والباب متصل بالحجة من جهة السياسة بكونهما شريكين فيها ، والحجة متصل بالداعي من جهة التعليم ، والدعوة الباطنة التي هي الأمور العقلية بكونهما داعيين ، والداعي متصل بالأنفس من جهة التعليم والولاية ؛ فكأن اتصال الأجسام الأربعة بعضها ببعض بكيفياتها ، على مثل ذلك تشبها بالأمور السياسية التي تدور على أربعة ، ملك ووزير وعامل ورعيـــة ؛ فالملك ، ملك بطاعته للإمام ، ثم بوزيره وحواشيه وجنوده ورعيته ؛ والوزير وزير بجيوشه وعماله وأهل مملكته ؛ والعامل عامل بوكلائه ورعيته ، والرعية رعية بجماعتها .

فالملك نافذ الحكم والأمر في الكل ، منيع الجانب عالي السلطان ، عظيم الهيبة ، صعب المزاولة والمجاورة ، مثل النار في نفوذ حكمها فيما دونها من الأجسام ، ومنيع جانبها بسلطان إفراط حرارتها ، وصعوبة الأمر في مزاولتها ومجاورتها ؛ والوزير باتصاله بالملك ، مثل الملك نافذ الأمر ، منيع الجانب عظيم الهيبة ، وباتصاله بمن دونه سهل قريب مثل الهواء الذي بطرفه الأعلى المجاور للنار ، مثل النار منيع الجانب بالهيبة والسلطة ، وإفراط الحرارة ، وبطرفه الذي يلي الماء معتدل سهل ؛ والعامل باتصاله بالوزير ، نافذ الأمر لكنه لا مثل الملك ولا مثل الوزير بل دونهما ، ينفذ أمره فيمن يليهم فقط ؛ مثل الماء الذي نفوذه في الأجسام لا مثل النار ولا مثل الهواء بل ينفذ في الأرض فقط . والرعية لا أمر لها ولا اتصال بالعامل والوزير والملك إلا بالائتمار والطاعة والاتباع والقبول ، والانقياد لأحكام السياسة مثل الأرض التي لا تنفذ في شيء نفوذ غيرها ، ولا لها اتصال بالنار والهواء والماء ولا بقبول أحكامها وأفعالها ، وتأثيرها ، وحفظ ذاتها بذاتها ؛ فكأن الرعية على ذلك متصلة بالملك على ما يصرفه عليه من الأحكام ، كاتصال الأرض بالنار من جهة اليبوسة وقبول آثارها ، ومتصلة بالعامل من جهة الائتمار له إلى ما يدعوها إليه ، والعامل متصل بالوزير من قبل طاعته له ، وقيامه بحمل الأموال إليه كاتصال

الماء بالهواء من قبل الرطوبة التى يجذبها الهواء منه ، والوزير متصل بالملك بالولاية التى جاءته من جهة الملك فى الحماية كاتصال الهواء بالنار ؛ والملك متصل بالإمام القائم مقام الله بما يقبله من أمو الإمام من الحماية والذب كاتصال النار بجسم الفلك الدوار ، وقبولها من تأثير حركتها عليه .

ثم يقدم إلينا الداعى بعد ذلك صوراً جدولية لما تقدم من شرحه ، وتضم « صورة الأمور السلطانية » الشروح الآتية :

إن طاعة الإمام جامعة للملوك والرعايا ، والرعايا تجمع الإعطاء والطاعة ، وأن الوزير يجمع السياسة والجباية ، والجباية جامعة للوزراء والعمال ؛ وأن الملك يجمع الطاعة والسياسة ، والعامل يجمع الجباية والإعطاء ؛ وأن الإعطاء جامع للعمال والرعايا ، وأن السياسة مشتركة(١) .

ونستطيع أن نجمل هذه الشروح الفلسفية لنظرية الحكم الفاطمية ، فى أن الإمام هو رئيس الدولة الأعلى ، وقد يكون هو الإمام الروحى والملك الزمنى معاً ، وقد يكون تحت رياسته ملوك أخر ، يدينون له بالطاعة الدينية والدنيوية ، وهو الحاكم المطلق ، ومن تحته تتدرج السلطات من أعلى إلى أسفل . وأول من يليه من أهل السلطان هو الوزير ، وهو أوثقهم اتصالا به ، وباسمه وبتوجيهه يزاول سلطاته فى الحكم ، ويلى الوزير العمال أو حكام الولايات والثغور ، وهؤلاء يزاولون سلطان الحكم على من دونهم من الرعايا ، وليس للرعيـــة شأن ولا قول ولا رأى ، وليس لها أن تتصل بالعامل أو الوزير أو الملك ، إلا بالطاعة المطلقة والاتباع والقبول ، وأداء الجباية المفروضة . والخلاصة أنها من الناحية الدستورية نظرية الحكم المطلق ، بل هى تمتاز فوق ذلك ، بأن رئيس الدولة الأعلى فيها ، وهو الإمام يمتاز بصفات العصمة والقداسة ، باعتباره قائم الزمان ، وأن قيامه يرجع إلى مشيئة الله .

على أن تمتع الخلافة الفاطمية بهذا السلطان المطلق الروحى والزمنى بمصر ، لم يطل أكثر من سبعين عاماً . ومنذ الشدة العظمى التى وقعت فى بداية عهد المستنصر بالله (٤٥١ هـ — ١٠٥٩ م) تدخل الخلافة الفاطمية فى عهد انحلالها ، وتفقد سلطانها تباعا ، ويبدأ عصر الوزراء الطغاة باستيلاء

---

(١) كتاب راحة العقل فى المشرع الثانى من السور السادس ص ٢١٤ — ٢١٧ .

القائد بدر الجمالى على أزمة الحكم فى سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ، وفى ظل أولئك الوزراء الطغاة الذين تعاقبوا فى الحكم من ذلك التاريخ ، يفقد الخلفاء الفاطميون كل سلطة ، ويصبحون أدوات لينة لا حول لها ولا قوة ، ويستمرون كذلك حتى ذهاب دولتهم ، حسبما نفصل بعد

— ٢ —

كما أن الدولة الفاطمية تمتاز بصبغتها المذهبية العميقة ، فكذلك تمتاز بطرافة نظمها السياسية ؛ وقد كانت الدولة الفاطمية مبتكرة مجددة فى كثير من قواعد الحكم والإدارة ، وفى كثير من الرسوم والنظم ؛ وكانت هذه النظم والرسوم فوق طرافتها الدستورية تطبعها نفس الصبغة الباذخة ، التى تطبع الدولة الفاطمية وسائر مظاهرها ؛ وسنحاول أن نأتى فى هذا الفصل على خلاصة لهذه النظم والرسوم التى عاشت الدولة الفاطمية فى ظلها بمصر زهاء قرنين .

كانت الخلافة الفاطمية خلافة مذهبية شعارها الإمامة الدينية ، وكان لهذه الصفة المذهبية أثرها فى صوغ كثير من النظم والرسوم التى اختصت بها . وقد نشأت الدولة الفاطمية فى قفار المغرب ، دولة عسكرية ساذجة تظللها الصبغة الدينية ، فلما اتسع ملكها وعظم سلطانها بافتتاح مصر والشأم ، شعرت بالحاجة إلى التوسع فى النظم السياسية والإدارية ، التى يقوم عليها هذا الملك الباذخ ، ولم تكتف بالاعتماد على الخطط العسكرية والدينية والمدنية المعروفة ، بل عمدت إلى الابتكار فى تنظيم الأصول والخطط الدستورية ، وفقاً لحاجاتها وغاياتها السياسية والمذهبية . وكانت الوزارة أول خطة رتبتها الدولة الجديدة ، ورتبت لأول مرة فى عهد العزيز بالله . وكان الخليفة يتولى قبل ذلك إدارة الشؤون بنفسه دون واسطة ؛ وكان أول وزراء الدولة الفاطمية أبو الفرج يعقوب بن كلّس ، خلع عليه العزيز لقب الوزارة سنة ٣٦٨هـ ، ولقبه بالوزير الأجل[١] . ومن ذلك الحين قامت خطة الوزارة فى الدولة الفاطمية ، بيد أنها لم تثبت على نمط واحد ، فتارة يستبقى رجل الدولة الأول صفة الوزارة ، وتارة تسبغ عليه صفة أخرى كالوساطة أو السفارة وهى

(١) ابن الصيرفى ، الإشارة الى من نال الوزارة ص ١٩ و ٢١ .

دون الوزارة فى المرتبة[١]. ولما توفى الوزير ابن كلّس سنة ٣٨٠ﻫ ، استبدلت صفة الوزارة بصفة الوساطة والسفارة ، وأطلقت على من تولوا شؤون الدولة العليا بقية عهد العزيز ومعظم عصر الحاكم ، ولقب رؤساء الدولة يومئذ بمختلف الألقاب التى أغدقتها الدولة الفاطمية على رجالها ؛ وقد ابتكرت هذه الألقاب ، ورتبت ، ومنحت لأول مرة لمدبرى الدولة ، فى عهد الحاكم بأمر الله ، وصدرت بها مختلف مراسيم (سجلات) التعيين ؛ فكان منها « أمين الدولة » الذى منح للحسن بن عمار ، أول مدبر لدولة الحاكم ، و « قائد القواد » الذى منح للحسين بن جوهر ، و« أمين الأمناء » الذى منح للحسين بن طاهر الوزان ، و « ثقة ثقاة السيف والقلم » الذى منح لعلى بن صالح الروذبارى ، و« وزير الوزراء » الذى منح لعلى بن جعفر بن فلاح ، و« رئيس الرؤساء » الذى منح لخطير الملك أبى الحسن بن عمار ، آخر وزراء الحاكم ، ووزير ولده الظاهر لإعزاز دين الله ؛ وغير ذلك من الألقاب الفخمة التى توالت فيما بعد . أما الوزراء النصارى ، فكانت تطلق عليهم ألقاب مناسبة أخرى ، مثل فهد بن إبراهيم الذى لقب « بالرئيس » ، ومنصور بن عبدون الذى لقب « بالكافى » ، وزرعة بن نسطورس الذى لقب « بالشافى » .

وكان متولى السفارة والوساطة هو كبير رجال الدولة ومرجعهم الأعلى وله التوقيع عن الحضرة ، ومراجعة الشؤون العامة على يد مختلف الكتاب وأصحاب الدواوين .

ولم تظهر عبارة « الوساطة والسفارة » فى أوائل عصر الحاكم فى السجلات الصادرة ، بتعيين مدبرى الدولة ، الحسن بن عمار ، وخلفه برجوان ؛ ولم تظهر كذلك فى السجل الصادر بتعيين الحسين بن جوهر فى سنة ٣٩٠ ﻫ ، خلفا لبرجوان ، بيد أنه عبر فيه عن مهام تدبير الدولة بأنها « التوقيعات ، والنظر فى أمور الناس ، وتدبير المملكة ، وإنصاف المظلوم » . وقد أوضح لنا السجل الصادر فى سنة ٤٠١ ﻫ ، بتعيين أحمد بن محمد القشورى معنى « الوساطة والسفارة » إذ نص على « تقلده الوساطة والسفارة بين أولياء أمير المؤمنين الحاكم وبينه ، وأمر الرعايا ، وفوضت إليه الأمور ، وعول عليه فيها »[٢] .

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٩ .

(٢) راجع اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٥ ا و ٦٤ ب .

وفى أواخر عهد الحاكم أعيدت صفة الوزارة وتولاها على بن جعفر بن فلاح فى أواخر سنة ٤٠٥ هـ ، ولقب «بوزير الوزراء ذى الرياستين الأمير المظفر قطب الدولة » ؛ واستمرت خطة الوزارة على حالها منذ عهد الظاهر حتى أواخر عهد المستنصر بالله ؛ وكان الأغلب حتى ذلك العهد أن يتولاها رجال مدنيون أو أصحاب أقلام إلا فى فرص قليلة تولاها فيها رجال السيف مثل برجوان ، والحسين بن جوهر قائد القواد ، وعلى بن صالح الروذبارى ؛ ولقب الوزراء يومئذ بمختلف الألقاب الرنانة مثل : « شمس الملك ، عميد الدولة وناصحها » « الأجل الأوحد صفى أمير المؤمنين » « تاج الرياسة وفخر الملك » « سيد الوزراء ظهير الأئمة » « سماء الخلصاء فخر الأئمة » « فخر الوزراء عميد الرؤساء » وغيرها[1] .

وفى أواخر عهد المستنصر بالله حدث انقلاب عظيم فى خطة الوزارة ، وانتقلت من أيدى الوزراء المدنيين أو أصحاب الأقلام كما يسمون ، إلى الوزراء العسكريين أو رجال السيف ذوى السلطان المطلق ؛ وأفضى إلى هذا الانقلاب ما أصاب الخلافة الفاطمية فى عهد المستنصر من أسباب التدهور والضعف ، وما توالى عليها وعلى مصر ، من صنوف المحن والشدائد ، والأزمات الاقتصادية والاجتماعية الغامرة ، وحاجتها إلى رجال أقوياء يستطيعون مغالبة الشدة والنهوض بالدولة من عثارها . وكان أول هذا الثبت الوزير والقائد الكبير بدر الجمالى ؛ تولى الوزارة للمستنصر سنة ٤٦٧ هـ (١٠٧٥ م) ، ونعت بالسيد الأجل أمير الجيوس[2] ؛ وأضحت الوزارة من ذلك الحين وزارة تفويض يستأثر صاحبها بكل السلطات ، وأطلق لقب « أمير الجيوش » على ذلك الثبت من الوزراء العسكريين ، الذين سلبوا الخلافة الفاطمية كل سلطاتها ، ولم يبقوا لها سوى المظاهر الاسمية . ولما توفى بدر الجمالى خلفه فى هذا المنصب ولده الأفضل شاهنشاه وتلقب بنفس ألقابه . ثم اتخذ الوزراء الطغاة من بعده ألقاباً ملوكية ، فتسمى طلائع بن رزّيك وزير الحافظ لدين الله ، بالملك الصالح ، وتسمى ابنه رزيك بالملك العادل ؛ وتسمى

---

(١) الإشارة ال من ذال الوزارة ص ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣٤ و ٣٨ .

(٢) الخطط ج ٢ ص ٣٠٤ .

شاور بن مجير السعدى بالملك المنصور ؛ وتسمى صلاح الدين يوسف بن أيوب أيام وزارته للعاضد خاتمة الخلفاء الفاطميين بالملك الناصر. وكان وزير السيف هو مرجع كل السلطات العسكرية والإدارية والقضائية ، وإليه يرجع أمر الحرب والسلم ، وهو الذى يولى قاضى القضاة وداعى الدعاة بعد أن كان يوليهما الخليفة مباشرة ، وهو الذى يتصرف فى سائر شؤون الدولة العسكرية والدينية . وهكذا استمرت الخلافة الفاطمية منذ بدر الجمالى إلى سقوطها فى سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) زهاء قرن خاضعة لسلطان أولئك الوزراء الطغاة ، يستظلون باسمها ويغتصبون كل سلطاتها ، حتى انتهى آخرهم صلاح الدين بالقضاء عليها واستخلاص ملكها وتراثها[١] .

وإلى جانب الوزارة ، وهى خطة الحكم العليا ، كانت ثمة عدة مناصب عسكرية وإدارية عالية ، منها وظيفة صاحب الباب أو حاجب الحجاب ، وهو الذى يلى الوزير فى المرتبة ، ويتولى النظر فى المظالم ؛ ولم يوجد هذا المنصب إلا فى ظل الوزارة المدنية ؛ أما فى وزارة أصحاب السيف فقد كان الوزير هو الذى يتولى النظر فى المظالم ؛ وقد كان النظر فى المظالم من أشرف الصفات التى يتحلى بها الإمام أو ولى الأمر فى الدولة الإسلامية . وكان الخليفة أو السلطان يجلس فى يوم معين (أو أكثر) من أيام الأسبوع ، بمكان معين من قصره ، ويستمع إلى الظلامات التى يتقدم بها الناس إليه ، ويقضى فيها بنفسه . ولم يجد الخلفاء الفاطميون فى البداية من الوقت ما يسمح لهم بالاضطلاع بأنفسهم بأمثال هذه المهام القضائية لانشغالهم بالثورات والحروب المستمرة . فلما تم الفتح الفاطمى لمصر فى سنة ٣٥٩ هـ ، كان مما فعله جوهر أن جلس بنفسه للنظر فى المظالم فى كل يوم سبت ، ثم عهد بذلك إلى القاضى أبى مرشد عيسى . وقد كان الحاكم بأمر الله يتلقى رقاع المظالم عن يد كتابه أو مدبر دولته ، ويقضى فيها بنفسه ، وقد كان هذا من أخص مهام « السفارة والوساطة » ، بل كان الحاكم يتلقى رقاع المتظلمين خلال طوافه المستمر بشوارع القاهرة ، سواء بالنهار أو الليل . وكان النظر فى المظالم فى نفس الوقت خطة قائمة بذاتها ، عهد بها فى البداية إلى مدبر الدولة ، وذلك

(١) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٣٠٤ و ٣٠٥ . وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٢ و ٤٨٣ .

حسبما يدل عليه السجل الصادر بتعيين الحسين بن جوهر فى سنة ٣٩٠ ﻫ . إذ نص فيه على « إنصاف المظلوم » ضمن المهام التى أسندت إليه : وعهد الحسين إلى وكيله الرئيس فهد « بالتوقيعات فى رقاع الرافعين على رسمه » . ثم أسندت خطة المظالم بعد ذلك إلى قاض خاص ، أو إلى قاضى القضاة ذاته ، كما حدث ذلك حينما أسندت هذه الخطة ، إلى القاضى عبد العزيز ابن محمد بن النعمان ، فى الوقت الذى كان فيه الحسين بن على بن النعمان يضطلع بمنصب قاضى القضاة ؛ فلما صرف الحسين ، عين عبد العزيز قاضياً للقضاة فى شعبان سنة ٣٩٤ ﻫ ، « إلى ما بيده من النظر فى المظالم » . على أن هذه القاعدة القضائية لم تطبق دائماً ، ولا سيما فى أواخر الدولة الفاطمية : إذ كان النظر فى المظالم يتولاه الوزير بنفسه إن كان من رجال السيف أو يتولاه صاحب الباب ، إن كان الوزير من رجال القلم[1] .

ومن الوظائف العسكرية الهامة الأخرى وظيفة الاسفهسلار ، وهو القائد الأعلى للجيش ، وإليه النظر فى أمر الجند وجميع الشؤون العسكرية ؛ ومنها عدة تختص بخدمة الخليفة مثل حامل المظلة ، وهو الذى يحمل المظلة فوق رأس الخليفة فى المجالس والمواكب الخلافية ، وحامل سيف الخليفة : وحامل رمحه ؛ ويتبع هؤلاء حملة السلاح أو الركابية وصبيانهم وهم نوع من الحرس الملكى ؛ ومنها ولاية القاهرة ، وولاية مصر (الفسطاط) .

— ٣ —

وأما الدواوين وهى تماثل مختلف الوزارات فى عصرنا ، فقد كانت تشمل ديوان الإنشاء والمكاتبات ؛ وكان متوليه من أعظم رجال الدولة ومن أقطاب الكتابة والبلاغة ، ويعرف فى الدولة الفاطمية بكاتب الدست الشريف وينعت بالأجل ، ويتولى النظر فى المكاتبات الواردة والصادرة ، وعرضها على الخليفة ، ويستشيره الخليفة فى كثير من الأمور ؛ ويعاونه عدة من أكابر الكتاب منهم صاحب التوقيع بالقلم الدقيق فى المظالم وهو يليه فى الرتبة ، وله من الخليفة مكانة خاصة لأنه جليسه وقارئه ؛ وصاحب التوقيع بالقلم

(١) المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٢٣٧ و ٢٤٥ ؛ وفى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٥ ا و ٥٨ ب ؛ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٣ .

الجليل ، ومهمته أن يشرف على تنفيذ ما يوقع به صاحب القلم الدقيق ؛ وكانت المظالم ترفع أولا إلى صاحب القلم الدقيق ، فيوقع عليها بما يقتضيه أمر الخليفة أو الوزير أو بما يراه هو ، ثم تحمل إلى صاحب القلم الجليل فيفصل فيها ما أجمل الأمر الأول ، وتحمل بعدئذ إلى الخليفة فيوقع عليها ثم تسلم إلى أربابها وينفذ ما فيها[1] .

ولسنا نبالغ إذا قلنا إن ديوان الإنشاء كان أعظم الدواوين قاطبة فى إدارة الحكم الفاطمية ، وكانت مهمته من أخطر وأدق المهام . ففى دولة كالدولة الفاطمية ، لها صبغة مذهبية خاصة ، كانت السجلات أو المراسيم تصاغ فى أساليب عالية ، وكان بث الدعوة المذهبية وعرضها خلال المكاتبات السياسية ، يتطلب أرقى وأبلغ الصيغ البيانية . ولنا فى الكتاب الذى أرسله المعز لدين الله إلى الحسن الأعصم زعيم القرامطة ، أروع مثل لبلاغة العرض وقوته . وكانت الخلافة الفاطمية ، بما لها من السلطة الزمنية والروحية على عدة أقطار هامة تمتد من المغرب خلال مصر إلى آسيا الصغرى شمالا ، وإلى اليمن جنوباً ، يطلب إليها أن تخاطب القصور والأمم المنضوية تحت لوائها بأبلغ وأقوى الأساليب البيانية المقنعة ، الموطدة لإمامتها وهيبتها السياسية . ونستطيع أن نقول ، مما انتهى إلينا من الرسائل والسجلات الصادرة عن الخلافة الفاطمية ، أن ديوان الإنشاء الفاطمى ، قد وفق أعظم توفيق ، فى أداء مهمته ، وأنه استطاع ، على يد أكابر الكتاب والبلغاء ، الذين تعاقبوا فى ولايته ، أن يبتكر أروع الأساليب والصيغ البيانيــة ، فى تدبيج المراسيم والرسائل السياسية .

ويبدو من جهة أخرى أن « البريد » كان تابعاً لديوان الإنشاء ، نظراً لطبيعة عمله فى تولى أمر الرسائل الواردة والصادرة ، وذلك على الأقل فى بداية الدولة الفاطمية ، فقد ورد فى السجل الصادر بتعيين الحسين بن جوهر فى أواخر سنة ٣٨٦ هـ خلفا لابن سورين كاتب الإنشاء أنه « قد رد إليه البريد والإنشاء »[2] .

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩١ .

(٢) إتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥١ ب .

وديوان الجيش والرواتب ولا يتولاه سوى المسلمين ؛ وإلى صاحبه مرجع شؤون الجند والخيل والإقطاعات . ويلحق به ديوان الرواتب وهو المختص بالنظر فى الأرزاق والجرايات ؛ وديوان الإقطاع ، وهو المختص بالنظر فى شؤون الإقطاعات[1] .

وقد كانت الدولة الفاطمية دولة عسكرية من الطراز الأول . وكانت تعتمد ، منذ قيامها بتونس على القبائل البربرية ذات البأس والعصبية ، وكانت الثورات التى اضطرمت ضدها فى إفريقية وفتوحها الأولى التى شملت أقطار المغرب كلها حتى شواطئ المحيط الأطلنطى ، تقتضى أن تكون لها قوات عسكرية زاخرة . ولما اعتزم المعز لدين الله فتح مصر . كانت قواته التى سيرها تحت إمرة جوهر القائد لتحقيق هذا الفتح ، وفقا لأقوال الرواية الإسلامية ، مائة ألف فارس غير المشاة ؛ وإذا كان هذا القول يبدو مبالغاً فيه ، فإنه يدل على أى حال ، على ما بلغته الجيوش الفاطمية فى البداية من الضخامة ، حتى قيل إنه لم يطأ أرض مصر ، بعد جيش الإسكندر المقدونى ، جيش أعظم عدة وعدداً من جيش المعز لدين الله . ومن المحقق أن الجيوش الفاطمية ، لبثت عصراً تحتفظ بمستواها من الضخامة والقوة . نظراً لما كان يقتضيه سير المعارك المستمرة فى الشأم ، ضد القرامطة ثم البزنطيين والأعراب الخوارج ، وفى برقة ضد القبائل البربرية . وأغلب الظن أن الجيش الفاطمى أيام الحاكم بأمر الله ، لم يكن أقل فى عدده وأهباته مما كان عليه أيام العزيز والمعز .

ونحن نعرف طوائف العسكر التى كان يتكون منها الجيش الفاطمى عند مقدمه إلى مصر ، مما اختطته هذه الطوائف عند إنشاء القاهرة المعزية من الأحياء الخاصة بها . فقد كان هناك من طوائف البربر ، كتامة ، ومصمودة ، وزويلة ، والبرقية (نسبة إلى برقة) ؛ وكان هناك الروم ، والترك والديلم ، والجودرية (أتباع جودر) والعطوفية (أتباع عطوف) واليانسية (أتباع يانس) ، ثم الوزيرية ، والمحمودية ، والباطلية ، والمنصورية وغيرهم . وفى أيام العزيز قوى نفوذ الصقالبة والترك والديلم فى الجيش ؛ ثم عاد البربر

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٩٢ ، والخطط ج ٢ ص ٢٤٢ .

فاستردوا تفوقهم ونفوذهم فيه أيام الحسن بن عمار ، ثم كانت رياسة برجوان فعاد إليه نفوذ الترك والصقالبة[1] .

وليست لدينا بعد ذلك عن الجيش الفاطمى ، أنباء وأرقام واضحة ، حتى أواخر الدولة الفاطمية ، حينما عاد الاهتمام بأمر الجيش ، وإحياء قوة الدولة العسكرية ، منذ أيام بدر الجمالى ، وخلفائه الوزراء الطغاة ، حيث يقول لنا المقريزى إن الجيش الفاطمى بلغ أيام الصالح طلائع بن رزيك أربعين ألف فارس ، وستة وثلاثين ألف راجل ، وهذا غير القوى البحرية[2] .

وكان الجيش الفاطمى مزوداً بأجود الأسلحة والذخائر التى كانت معروفة فى ذلك العصر ، ومنها آلات الحصار الضخمة (كالمنجنيقات والدبابات) والأنفاط وغيرها ، وكان للخلفاء الفاطميين عناية خاصة بصنع السلاح والاستكثار منه .

وديوان الجهاد ، ويقال له أيضاً ديوان العمائر ويختص بالنظر فى أمر الأساطيل المدنية والحربية وإنشائها وتسييرها والإنفاق على رجال البحر . وكان للدولة الفاطمية عناية خاصة بإنشاء الأساطيل وحماية الثغور ولا سيما سواحل الشام إذ كانت معرضة لغزوات الأساطيل البيزنطية القوية ؛ وبلغ الأسطول الفاطمى من السفن الحربية وملحقاتها من سفن النقل نحو مائة قطعة من الشوانى والشلنديات والمسطحات والحراقات . وكانت وحدات الأسطول ترابط فى مصر والاسكندرية ودمياط (تنيس) وعيذاب فى البحر الأحمر . وفى مياه الشأم وصور وعكا وعسقلان ، وبلغت جرائد الأسطول أكثر من خمسة آلاف مدونة (كشفا) تحتوى على عدد كبير من المقاتلة البحريين ما بين أمراء بحر ونواب ورؤساء ونواتية ؛ هذا كله عدا أسطول الخليفة الخاص ، وهو يشتمل على نحو خمسين مركباً أعدت للركوب ونقل الغلال والبضائع الخاصة ؛ وكانت إقطاعات الأسطول تعرف باقطات الغزاة ، وكانت دور الصناعة الكبرى بالجزيرة (القاهرة) والإسكندرية ودمياط ، تمد الأسطول بما يحتاجه من مختلف السفن الحربية ، وكذا تصنع بها سفن النقل المدنية[3] ؛

---

(١) راجع الخطط ج ٢ ص ١٧٩ و ١٨٢ و ٢٠٥ .

(٢) الخطط ج ١ ص ١٥٢ .

(٣) الخطط ج ٢ ص ٣٧٣ و ٣٧٤ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٣ .

وديوان المجلس ، وهو مرجع الدواوين كلها ؛ وفيه عدة كتاب يختص كل منهم بمجلس منفرد ، ويتولى صاحبه التحدث فى شؤون الإقطاعات والأرزاق لدى الخليفة مباشرة .

وديوان النظر ، وهو ديوان المال ، ويتولاه وزير ثقة إليه مرجع شؤون الأموال العامة ، وضبط الدخل والخرج والمحاسبات .

وديوان التحقيق ، ويختص بالمقابلة على الدواوين ، ومراجعة أعمالها ، والتحقق من انتظامها كما يدل على ذلك اسمه .

وديوان الأحباس أو الأوقاف ، ويختص بالنظر فى شؤون الأحباس العامة والخاصة ، والإشراف على غلتها وإنفاقها فى وجوهها الشرعية .

وديوان المواريث ، ويختص بشؤون المواريث وضبط أحكامها .

وثلاثة دواوين إدارية هى ديوان الصعيد ، وديوان أسفل الأرض أو الوجه البحرى ، وديوان الثغور ؛ ويعنى كل منها بالنظر فى شؤون الأقاليم الإدارية التى تدخل فى اختصاصه .

— ٣ —

وأما الخطط الدينية فكانت تشمل عدة وظائف خطيرة ، أعظمها وأجلها قدراً منصب قاضى القضاة ، ومنصب داعى الدعاة . وكان قاضى القضاة أعظم زعيم دينى فى الدولة ، وإليه مرجع الأحكام الشرعية فى العبادات والمعاملات والحدود ، أعنى فى الشؤون الدينية والمدنية والجنائية ، والنظر فى شؤون السكة (دار الضرب) ، وشؤون المساجد وأئمتها وسائر المتصرفين فيها ؛ وكان اختصاصه يشمل مصر والشام والمغرب والحرمين ؛ ومركزه العام بالقاهرة المعزية ، وله نواب يختارهم لقضاء الدوائر والأقطار الأخرى . ويصدر سجل (مرسوم) تعيينه من الخليفة نفسه إذا كان الوزير من رجال القلم ، وفى عهد وزراء السيف كان سجل القاضى يصدر من الوزير مباشرة . وقد نقل إلينا القلقشندى نص السجل الذى صدر فى أوائل عهد الحاكم بأمر الله إلى الحسين بن النعمان ، بتوليته قضاء مصر والشام والمغرب والحرمين ، وفيه تفصيل شامل لاختصاصه ، وما يرسم الخليفة له لحسن القيام بواجبه ومهامه[1] ،

(١) صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٤ وما بعدها ؛ وقد أثبتناه فى قسم الوثائق .

ونقل إلينا المقريزى نبذة من سجل تقليد أبى العباس محمد بن عبد الله ابن العوام قضاء القضاة أيام الحاكم بأمر الله ، تبين عناصر اختصاص هذا المنصب الرفيع فى هذا العصر ، ومداه من الناحية الإقليمية ، ومنه يبدو بوضوح حسبما أشرنا فيما تقدم ، أن الخلافة الفاطمية كانت تبسط سلطانها الروحى على الأقل ، فضلا عن برقة والمغرب ، على جزيرة صقلية ، وقد كانت يومئذ تحت حكم المسلمين . وإليك نص النبذة المذكورة : « فقلدك أمير المؤمنين القضاء والعلامة والخطابة بحضرته ، والحكم فيما وراء حجابه ، من القاهرة المعزية ، ومصر وأعمالها ، والإسكندرية ، والحرمين ، وبرقة ، والمغرب ، وصقلية ، مع الإشراف على دور الضرب بهذه الأعمال ، والنظر فى أحباس الجوامع والمساجد ، وأرزاق المرتزقة ، ووجوه البر »(١) .

وقد كانت مصر قبل العهد الفاطمى ، مركز قضاء إقليمى تابع للخلافة المشرقية ، الأموية أو العباسية ، ولكنها غدت منذ قيام الخلافة الفاطمية بها ، مركزاً قضائياً مستقلا بذاته ، تتبعه أقاليم الإمبراطورية الفاطمية الأخرى . وقد لبث القاضى الأكبر فى الأعوام الأولى من الخلافة الفاطمية ، يلقب بالقاضى فقط ، ولكنه منذ أيام العزيز ، لقب « بقاضى القضاة » ، وكان أول من حمل هذا اللقب ، هو أبو الحسن على بن النعمان ، وذلك عند توليه منصب القضاء فى صفر سنة ٣٦٦ هـ(٢) .

وأما عن المتون الشرعية التى كانت مرجعاً للقضاء فى العصر الفاطمى ، فقد كانت بلا ريب متون الفقه الشيعى أو فقه الإمامية الإسماعيلية ، وذلك سواء فى العبادات ، أو المعاملات ، أو الحدود . وكان العلامة الفقيه الشيعى الكبير أبو حنيفة النعمان بن محمد القيروانى ، قاضى المعز لدين الله ، هو أول من وضع متوناً مفصلة فى أحكام الفقه الإسماعيلى ، لبثت طوال العصر الفاطمى ، هى المرجع الأول للقضاء ، بل وما تزال ثمة حتى اليوم ، مرجعاً للأحكام لدى مختلف الطوائف الإسماعيلية . وقد انتهت إلينا عدة من مؤلفات

---

(١) المقريزى فى اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٨ ب .

(٢) السيوطى فى حسن المحاضرة ، ج ٢ ص ١٠١ .

القاضى النعمان ، ومنها بالأخص كتابه الكبير « دعائم الإسلام »[١] ، وهو بلا ريب من أهم متون الفقه الشيعى ، وهو جزءان كبيران ، يتناول الأول منهما شؤون العبادات ، ويتناول الثانى شؤون المعاملات والحدود ؛ و « كتاب الإقتصار »[٢] ، وهو أيضاً من متون الفقه الإسماعيلى .

وبالرغم من أن متون الفقه الإسماعيلى ، كانت هى مرجع الأحكام ، طوال العصر الفاطمى ، فإنها فيما عدا بعض أحكام العبادات ، لم تكن تختلف فى معظمها عن أحكام السنة ، ومن جهة أخرى ، فإنها لم تكن تطبق دائماً على إطلاقها . وكانت الخلافة الفاطمية فى أحيان كثيرة ، بالرغم من طابعها المذهبى العميق ، تنظر بعين التسامح المستنير ، فى أحوال كثيرة ، إلى إغفال بعض الأحكام التى لا تروق لشعبها السنى ، وتركه حراً ليتبع ما يروق له من الأحكام الأخرى . وليس أدل على هـــذه الحرية المذهبية ، من المرسوم الذى صدر فى عهد الحاكم بأمر الله ، فى سنة ٣٩٨ هـ ، فى تفسير بعض الأحكام ، والتوفيق بينها ، وهو المرسوم الذى سبق أن أوردنا نصه من قبل[٣] .

بل لقد كان للخلافة الفاطمية سياسة ثابته ، فى استمالة أهل السنة والجماعة ، وتمكينهم من إظهار شعائرهم على اختلاف مذاهبهم ، وكانت المذاهب السنية المعروفة ، الشافعى ومالك وأحمد (بخلاف أبى حنيفة) ظاهرة الشعائر فى مملكتهم ، وكان مذهب مالك بالأخص ذائعاً ، ومن سأل الحكم به أجيب إلى طلبه[٤] .

وأما داعى الدعاة ، فلم يكن له فى البداية منصب خاص به ، وكانت أعمال الدعوة تضاف إلى قاضى القضاة بسجل خاص . بيد أنه لما ازدادت

---

(١) عنوانه الكامل هو : « دعائم الإسلام ، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، عن أهل بيت رسول الله عليه وعليهم أفضل السلام » . وقد قام بنشر المجلد الأول منه ، وهو المتضمن لأحكام العبادات ، الأستاذ آصف بن على أصغر فيضى سفير الهند الأسبق بمصر ، وصدر عن دار المعارف فى سنة ١٩٥١ .

(٢) وقد نشر كتاب « الإقتصار » أيضا بعناية الأستاذ وحيد ميرزا ، مع مقدمة باللغة الفرنسية وصدر عن دار بريل بليدن فى سنة ١٩٥٧ .

(٣) راجع نص هذا المرسوم فى ص ١٤٧ من هذا الكتاب .

(٤) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٢٤ .

أهمية العمل على بث الدعوة وتشعبت غاياتها ووسائلها ، أنشئ لأعمال الدعوة منصب خاص ، يليه داعى الدعاة . وكان هذا المنصب يلى منصب قاضى القضاة فى المرتبة والاعتبار ، وكان داعى الدعاة يتشبه بالقاضى فى زيه ويتمتع بمثل رسومه وامتيازاته ؛ واختصاصه دينى مذهبى محض ، هو أن يتولى قراءة مذاهب آل البيت وبثها بين الأولياء ، والإشراف على تنظيم الدعوة الفاطمية وأخذ العهود على الداخلين فيها ، وينتخب من بين العلماء المتضلعين فى فقه الشيعة وفى أسرار الدعوة ، ويعاونه فى مهمته اثنا عشر نقيباً وجماعة كبيرة من النواب فى مختلف النواحى ؛ وكان منصبه رغم صفته الدينية يعتبر من مناصب الخاص ؛ وقد اشتهر الداعى بالأخص بتنظيم مجالس الحكمة الشهيرة التى أتينا على ذكرها فيما تقدم ؛ وكان مثل القاضى ، إذا كانت الوزارة لذى قلم صدر تعيينه من الخليفة ، وإن كانت لذى سيف فهو الذى يتولى تعيينه . وقد نقلنا خلال حديثنا عن مجالس الحكمة فقرات من سجل فاطمى شرح فيه اختصاص داعى الدعاة ، وما يجب عليه لبث الدعوة وتلقينها[1] ؛ وقد ضعف شأن داعى الدعاة وتضاءلت أهميته فى أواخر الدولة الفاطمية ، مذ تولى وزراء السيف زمام السلطة ، وألغوا كثيراً من سلطات الخلافة ومشاريعها ورسومها المذهبية .

وكان منصب داعى الدعاة من أغرب المناصب التى اختصت بها الدولة الفاطمية وأشدها طرافة . ونستطيع أن نلمس الشبه واضحاً بين مهامه ونظمه وأساليبه ، وبين مهام الدعاية المحدثة وأساليبها ؛ ففى بعض الحكومات المحدثة توجد وزارة خاصة للدعاية ، وقد كان داعى الدعاة رغم صفته الدينية فى الواقع وزيراً للدعاية بكل معانيها ، وكانت مهمته غزو العقائد الدينية كما تعمل اليوم أداة الدعاية الحديثة على غزو العقائد السياسية ؛ وكانت وسائله تختلف باختلاف عصره وظروفه ، ولكن الغاية المشتركة تبقى واحدة دائماً ، وهى العمل على غزو العقائد والعقول .

ومن الوظائف الدينية الهامة أيضاً منصب المحتسب ؛ واختصاصه الأمر

---

(١) واجع ص ٢٥٦ من هذا الكتاب ؛ وراجع المقريزى فى الخطط ج ٢ ص ٢٢٥ و ٢٢٦ ، وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ . وقد أثبتنا نص هذا السجل فى قسم الوثائق فى نهاية الكتاب .

بالمعروف والنهى عن المنكر على قاعدة الحسبة . ومن ذلك الإشراف على الآداب العامة ، وألا يخلو رجل بامرأة ذات محرم ، وضبط شؤون المكاييل والموازين ، ومراقبة أحوال المطاعم والمشارب العامة ، حتى لا يغش الجمهور ولا يبخس فيما يقدم إليه ، ومراقبة مختلف أهل الحرف والصنائع ، وباعة السلع المختلفة ، ومراقبة الأطباء والكحالين والصيادلة والبياطرة وغيرهم ، والسهر على نظافة المساجد وإنارتها وحمايتها من غشيان الباعة والمتطفلين ، وتنفيذ السجلات الخاصة بالذميين فيما فرض عليهم ، وتأديب المخالفين وزجرهم ؛ وله نواب فى سائر الأقاليم يقومون عنه بمثل هذه المهام ؛ وكانت أعمال الحسبة تسند أحياناً الى متولى الشرطة بمصر والقاهرة[1] ؛ وظاهر أن نظام الحسبة يشبه فى كثير من الوجوه نظام النيابة العمومية فى عصرنا ، فى تتبع بعض أنواع المخالفات والجنح المتعلقة بالمواد الغذائية وضبط الأسعار والصحة العامة ، وان المحتسب يشبه فى مركزه واختصاصاته من بعض الوجوه مركز النائب العام ، فيما يتعلق بهذه الأنواع الخاصة من الجرائم .

ومنها وكالة بيت المال ويتولاها ثقة من العدول ، ويفوض إليه الخليفة النظر فى شؤونه المالية ، وبيع ما يرى بيعه وابتياع ما يرى ابتياعه من المتاع ، والنظر فى شؤون الرقيق ، وإنشاء ما يحتاج إليه الخليفة من الأبنية والسفن وغيرها مما يختص به .

— ٤ —

وكان ثمة الى جانب هـــذا الثبت الحافل من المناصب المدنية والدينية الخطيرة ، طائفة أخرى من المناصب التى تختص بخدمة الخليفة والقصر ،

(١) راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٧ و ج ١٠ ص ٤٦١ . وقد أورد لنا الشيزرى فى كتابه « نهاية الرتبة فى طلب الحسبة » أربعين بابا مما يدخل فى نطاق أعمال الحسبة واختصاص المحتسب فى الإشراف والرقابة . ومن ذلك معرفة المكاييل والموازين . والحسبة على الخبازين ، والقصابين ، والطباخين ، والحلوانيين ، والصيادلة ، والعطارين ، والبزازين ، والمنادين والدلالين ، والخياطين ، والنساجين ، والصباغين ، والأساكفة ، والصيارف والصاغة ، والنحاسين والحدادين ، والبياطرة ، والنخاسين ، والأطباء والكحالين ، ومؤدبى الصبيان ، وأهل الذمة . راجع المؤلف المذكور المنشور بعناية لجنة التأليف والترجمة والنشر (سنة ١٩٤٦) ص ٤ و ٥ . وكذلك الخطط ج ٢ ص ٣٤٢ و ٣٤٣ .

وقد أشرنا منها الى وظائف حامل المظلة وحامل السيف وحامل الرمح . بيد أن أهمها وظائف الأساتذة المحنكين ، وسموا كذلك لأنهم كانوا يدورون العمامة على أحناكهم ؛ ومنهم متولى « شد التاج » وهو الذى يشد تاج الخليفة فى المواكب الرسمية ؛ وصاحب المجلس ، وهو الذى يتولى الإشراف على المجلس الذى يجلس فيه الخليفة ، وإخطار رجال الدولة بحضوره ؛ وصاحب الرسالة وهو الذى يتولى إبلاغ رسالة الخليفة الى الوزير وغيره ، وسمى فى أواخر الدولة بالأمير الثقة ؛ ومتولى زمام القصور ، وهو المشرف على شؤون القصر والخاص بوجه عام ؛ وصاحب الدفتر المعروف بدفتر المجلس وهو المتحدث على الدواوين الجامعة لشؤون الخلافة ؛ وحامل الدواة وهى دواة الخليفة ؛ ومتولى زم الأقارب وهو المشرف على شؤون الأسرة الفاطمية وأعضائها ؛ وزم الرجال ، وهو الذى يتولى إعداد طعام الخليفة والنظر فى شؤون الخدم وصبيان الخاص ؛ ومن الأستاذين أيضاً جمهرة كبيرة أخرى تشغل الوظائف الثانوية بالقصر ويعرفون بالخدم ، وكانت عدتهم تبلغ أحياناً زهاء الألف ؛ ويلحق بهم صبيان الخاص ، وهم الذين يتولون خدمة الخليفة فى حياته الخاصة وعددهم نحو خمسمائة ، ثم صبيان الحجر ، وهم بضعة آلاف[1] ؛ ومن رجال الخاص أيضاً طبيب الخاص وهو طبيب الخليفة وأسرته ، ويعاونه عدة أطباء آخرين ؛ و« قراء الحضرة » وهم الذين يقرأون القرآن بحضرة الخليفة فى مجالسه وفى ركوبه وفى مختلف المناسبات الأخرى ، وعددهم يزيد دائماً على العشرة ، وشعراء الخاص وهم يتبعون ديوان الإنشاء ، وكان منهم بعض أهل السنة ، مما يدل على تسامح الخلافة الفاطمية وسعة أفقها .

وقد أنشئت فى الخلافة الفاطمية لأول مرة هيئة رسمية خاصة للنظر فى شؤون العلوية والمنتسبين الى آل البيت ، وعرفت هذه الهيئة يومئذ بنقابة الطالبيين[2] ؛ وكان يتولى النظر عليها واحد من أكبر شيوخهم وأجلهم قدراً ، يسهر على صحة الأنساب وإثباتها ، ورعاية شؤونهم ، وقضاء مصالحهم ، ويعود مرضاهم ، ويسير فى جنائزهم ، ويسعى فى حوائجهم ، ويعمل على

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨١ و ٤٨٤ و ٤٨٥ .

(٢) نسبة الى على بن أبى طالب .

توثيق أواصر الوفاق والمحبة فيما بينهم . وكان أسوة بأصحاب المناصب الدينية الكبيرة ، يعين بمرسوم (سجل) خاص . ونجد فى عصر الحاكم بأمر الله ، فى حوادث سنة ٣٩٨ ه ، أنه قد « خلع عل الشريف أبى الحسين على بن إبراهيم المرسى لنقابة الطالبين ، وحمل على فرس ، وقرئ سجله فى القصر والجامع » . ولما توفى سنة ٤٠١ ه ، خلع على أبى الحسن على بن أحمد الزيدى وقرئ له سجل بأن يخلفه فى تولى نقابة الطالبين[٢] .

وقد عرفت هذه الهيئة فى العصور المتأخرة « بنقابة الأشراف » ، واتسع نطاق اختصاصها شيئاً فشيئاً حتى أصبحت تشمل سائر من يدعون الانتساب إلى آل البيت وغيرهم من أكابر الصحابة ، وما تزال قائمة حتى عصرنا فيما يطلق عليه اليوم « مشيخة الطرق الصوفية » .

وإنه ليسوغ لنا أن نلاحظ بهذه المناسبة ، أن قيام هذه الهيئة ، كان منذ العصر الفاطمى سبباً فى تشجيع طوائف من الأدعياء لا حصر لهم ، على الانتساب إلى آل البيت وغيرهم ، ومنهم كثير من المحدثين فى الإسلام ، حتى أصبحت أنساب الملايين من أولئك الأدعياء يرجعونها إلى على وبنيه ، وإلى أبى بكر وعمر وغيرهما من صحب الرسول .

وكانت الخلافة الفاطمية تضم ثلاث ممالك أو أقطار كبيرة ؛ هى مصر ، وهى مركز الخلافة العامة ، والشام وإفريقية ؛ ونواب الخليفة فيها يعرفون بالولاة ؛ وللشام واليان ، هما والى دمشق ووالى الرملة ويشمل حكمه سائر فلسطين . وكان القطر المصرى ينقسم إلى أربعة أقاليم أو ولايات هى : ولاية قوص وهى أعظمها وكانت تشمل الوجه القبلى كله ، والشرقية والغربية والإسكندرية وهى أقلها . وأما إفريقية فقد لبثت مدى حين تابعة للخلافة ثم استقلت بشؤونها فيما بعد ، واستأثر الأمراء البربر بالسلطان فيها . ولبثت صقلية كذلك تابعة من الناحية الدينية للخلافة الفاطمية عصراً حتى انتهت بالسقوط فى يد الفرنج النورمان فى سنة ٤٦٤ ه (١٠٧٢ م) . وكانت أعمال الحرمين واليمن أيضا تابعة للخلافة الفاطمية من الوجهة المذهبية ، يدعى فيها للخليفة الفاطمى ، ولكنها كانت مستقلة بشؤونها .

---

(١) راجع صبح الأعشى ج ٣ ص ٤٨٥ و ٤٨٦ . واتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٦٢ ب و ٦٤ ب .

— ٥ —

بقيت كلمة عن الموارد المالية للدولة الفاطمية .

إن الدولة الفاطمية ، تقدم إلينا ببلاطها الفخم ، وغناها وجودها وبذخها الطائل ، أروع الصور والمناظر الملوكية فى تاريخ مصر الإسلامية . وإنه ليصعب على الباحث لأول وهلة أن يتقصى مصادر هذا الثراء العريض ، الذى لبثت الدولة الفاطمية — إذا استثنينا وقت الشدة العظمى — تتقلب فى مهاده منذ قيامها بمصر حتى نهايتها .

ولقد أورد لنا المؤرخون المعاصرون أو القريبون من العصر ، مثل المسبحى ، وابن الطوير ، وابن المأمون ، وابن أبى طى وغيرهم ، ونقله إلينا المتأخرون مثل المقريزى والقلقشندى ، من الروايات والأوصاف المدهشة للقصور الفاطمية ، وفخامتها ، وروعة أبهائها وأثاثها ، ومحتويات خزائنها ، وضخامة حاشيتها ونفقاتها ، وعن مواكب الخلفاء الفاطميين ، وعظمتها وبذخها مايذهل ويذكى الخيال ، وهذا كله إلى ما امتازت به الخلافة الفاطمية طوال عهدها من الجود ، والبذل الغامر ، الذى لا مثيل له فى تاريخ القصور والخلفاء المسلمين .

وكأنما كانت الخلافة الفاطمية لا تعيش لنفسها ، وإنما كانت تعيش للناس ، ولم تكن تقتنى لنفسها بقدر ما كانت تدخره للأعطية والصلات ، التى كانت تنثرها من حولها كالغيث العميم ؛ وإلا ففيم كانت هذه الخزائن العظيمة التى تغص بأوفر وأنفس ما يدخره أعاظم الملوك ؛ خزانة الكتب ، خزانة الكسوات ، خزانة الجواهر والطيب والطرائف ، خزانة الفرش والأمتعة ، خزائن السلاح ، خزائن السروج ، خزانة الخيم ، خزانة البنود ، خزانة الشراب ، خزانة التوابل ، دار الفطرة ، إلى آخر هذا الثبت الحافل[١] . وإنه لما يثير الدهشة حقاً ، ما يعرضه لنا المؤرخون الذين يصفون لنا هذه الخزائن العظيمة ، ليس فقط ما يتعلق بنفاسة محتوياتها ، بل وكذلك مقاديرها الهائلة ، وهو أسطع دليل على غنى الدولة الفاطمية وبذخها الطائل .

---

(١) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٢٥١ — ٢٨٣ ؛ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٤٧٥ — ٤٧٨ .

وإنه لمن العسير أن نعتقد أن الموارد الشرعية العادية يمكن أن تكفى لتحقيق مثل هذا الثراء . والواقع أن للشيعة الإمامية نظرية متواضعة لا يمكن أن تعاون على تفسير هذا اللغز الغامض .

وهذه النظرية تتلخص فى أن مايجب أداؤه من المال إلى ولى الأمر أو الإمام، ينحصر فى أمرين ، الأول الصدقات ، والثانى الأخماس أو أخماس الغنائم .

فأما الصدقات ، فإنهم يعتمدون فى تقريرها على قوله تعالى لنبيه « خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها » . وقوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله » . والمفروض أن تؤدى هذه الصدقات للنبى ، والأئمة من أهل بيته ، لا لتكون هبة وطعمة لهم ، بل باعتبارهم أمناء عليها ، يقبضونها من أهلها ، ويضعونها فى مواضعها ، وهى محرمة عليهم وعلى أهل بيوتاتهم ، وحلال لسائر المسلمين من غيرهم .

وأما الأخماس ، فقد خص الرسول والأئمة من أهل بيته بالأخماس التى رتبها الله فى أموال عباده المؤمنين فى قوله « واعلموا أن ما غنمتم من شىء فإن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » . وقد فسر الإمام جعفر ذلك ، بأن يكون الخمس لأهل البيت خاصة لا يشاركهم فيه أحد ، ويشترك أهل البيت مع بقية الناس فى أربعة أخماس الغنائم فيما شهدوه معهم . أما الخمس الخاص بهم ، فيخصص لأيتامهم وفقرائهم ومساكينهم . وأنه بعد وفاة الرسول ، قد عاد هذا الخمس الى الإمام من أهل بيته ، يعطى منه قرابته وأهل بيته الذين يراهم أهلا لذلك .

وقد انتهى فقهاء الشيعة الى القول بأنه يجب على جميع المؤمنين أن يدفعوا خمس ما غنموه فى كل عصر الى إمام ذلك الزمان من أهل البيت ، مع ما يجب عليهم من الزكاة فى أموالهم . وهنا يتقدم إلينا فقهاء الشيعة بتفسير خاص للغنائم ، فالغنيمة فى رأيهم ليس هو فقط ما أخذ من أيدى المشركين خاصة ، بل إن كل كسب كسبه المرء فهو غنيمة ، وعمدتهم فى هذا التفسير هو الإمام جعفر نفسه إذ يقول « أوجب الله تعالى لنا الخمس فى أموال عباده المؤمنين وجعله لنا حقاً عليهم ، فمن منعنا حقنا ونصيبنا فى ماله لم يكن له عند الله

من حق ولا نصيب » . والخلاصة ، أن الغنيمة عندهم ، هي أى شيء كسبه المرء أو أفاده بأية صورة مشروعة ، وأنه يجب على كل مؤمن أن يخرج الخمس مما كسب أو أفاد وقت تحققه ويدفعه الى الإمام ، وما تبقى بعد ذلك فعليه أن يؤدى عنه الزكاة فى كل عام ؛ وأداء الزكاة أمر واجب ، ومن حق الأئمة أن يجبروا الناس على القيام به[١] .

ومن الواضح أن هذه الموارد التى خصها فقهاء الشيعة بالذكر ، هى الموارد الدينية المحضة . ولكن الدولة الفاطمية ،كانت كسائر الدول الإسلامية المنظمة ، تعتمد فى دخلها العام على الموارد التقليدية المأثورة . وأول هذه الموارد الثابتة الخراج . ولدينا بعض معلومات مفيدة عن حصيلة الخراج فى عهد الدولة الفاطمية ، ففى سنة ٣٥٨ ﻫ ، وهى سنة الفتح الفاطمى جبى جوهر من الخراج ثلاثة ملايين وأربعمائة ألف دينار ؛ وفى سنة ٤٦٦ ﻫ ، فى عهد المستنصر بالله بلغت حصيلة الخراج مليونين وثمانمائة ألف دينار ، وبلغت بعد استيلاء بدر الجمالى على السلطة ، فى سنة ٤٧٨ ﻫ ، ثلاثة ملايين ومائة ألف دينار ؛ وقدر الخراج فى عهد ولده الأفضل بخمسة ملايين دينار . وثانى هذه الموارد فى الأهمية هو المكوس المفروضة على الصادر والوارد . وكانت الثغور أو مداخل البلاد ، وهى دمياط وتنيس ورشيد والإسكندرية وعيذاب وأسوان ، هى أهم مراكز الجباية على تجارة الوارد الأجنبية ، وأهمها جميعا ثغر الإسكندرية ، وكانت نسبة الرسوم على الوارد تبلغ عشرين فى المائة من قيمة البضائع ؛ ويتبع هذه الضريبة ، ضريبة العشر ، وهى تؤخذ على بضائع التجار المسلمين . ثم إن هذه المكوس كانت فضلا عن ذلك تفرض على كثير من أنواع النشاط التجارى والمهنى فى الداخل ، ولا يكاد يفلت منها باب من أبواب الكسب . وتفرض جزية الجوالى ، وهى الجزية القديمة ، على الذميين ، وكان لها فى العهد الفاطمى ديوان خاص ،وكان هنالك أيضاً ما يتحصل من فرق السكة (النقد) ، ومن الأحباس الخيرية . وفضلا عن ذلك ، فقد كان للخلافة الفاطمية موارد أخرى خاصة بها من الإتاوات والهبات التى يطلب إلى المؤمنين أداؤها ،

(١) كتاب دعائم الإسلام ص ٤٥٠ و ٤٥١ ، وكتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة ص ٦٨ — ٧٢ ، وكلاهما للقاضى النعمان .

مثل ضريبتى النجوى والفطرة ، اللتين سبقت الإشارة إليهما ، وكانت كلتاهما ضريبة اختيارية فى ظاهرها ، بيد أن المؤمنين كانوا يتنافسون فى أدائها ؛ وبالرغم من ضآلة مقدارها ، فقد كان الأغنياء منهم ، يدفعون باسمها مبالغ طائلة لخزانة الدعوة .

بيد أن ذلك كله لا يفسر لنا غنى البلاط الفاطمى وبذخه ، وإن كان يلقى ضوءاً على موارد الدولة العامة . والحقيقة فيما يبدو ، هى أن غنى الخلفاء الفاطميين يرجع قبل كل شىء الى أملاكهم الواسعة ، والى اشتغالهم بالتجارة على أوسع نطاق . أما عن الأمر الأول ، فقد كشف لنا الشاعر والرحالة الفارسى ناصرى خسرو الذى زار مصر سنة ٤٣٩ ﻫ (١٠٤٧ م) ، عن طرف منه . فهو يقول لنا إن مدينة القاهرة المعزية ، وهى تضم يومئذ نحو عشرين ألف منزل ، كانت كلها ملكا للخليفة الفاطمى ، وإن المنزل المتوسط ذى الطبقات الأربع يؤجر بنحو أحد عشر ديناراً فى الشهر ، وإن الدكاكين ، وهى تبلغ أيضاً نحو عشرين ألف دكان ، كانت أيضاً كلها ملكاً للخليفة ، ويؤجر الدكان منها بنحو دينارين الى عشرة فى الشهر[١] . نقول وقد كان هذا وحده كفيلا بأن يحقق للخليفة زهاء مليونى دينار فى العام . هــذا الى ما كان يملكه الخليفة الفاطمى من الضياع والبساتين العديدة الواسعة فى مختلف أنحاء القطر . وهذا يفسر لنا مقدرة الخليفة الفاطمى واستعداده الدائم فى مختلف المناسبات ، لأن يقدم الدور والضياع ضمن هباته وإقطاعاته .

وأما عن الأمر الثانى ، وهو التجارة ، فقد كان الخلفاء الفاطميون يحتكرون معظم التجارة الواردة ، هذا فضلا عن اشتغالهم بالتجارة الداخلية ، ولا سيما بتجارة الغلال . وكان لهم أسطول بحرى خاص لنقل بضائعهم الى مختلف البلاد والثغور ، وكانوا يجبون من هذا النشاط التجارى الواسع النطاق أرباحاً طائلة ، تدعم مواردهم بطريقة منظمة مستمرة ، وتمكنهم من الإنفاق بسعة على بلاطهم العظيم الباذخ ، ومن اتباع سياسة البذل الغامر .

---

(١) راجع الترجمة الفرنسية لرحلة ناصر خسرو **Relation du voyage de Nasiri Khosru** ص ١٠٢ و ١٠٩ حيث يصف القاهرة فى عصره .

وقد كان من أعظم العوامل فى اكتسابهم محبة الشعب وولائه وإعجابه .

* * *

هذا خلاصة شاملة للنظم الأساسية ، الدينية والمدنية والعسكرية والمالية التى قام عليها صرح الدولة الفاطمية والحكم الفاطمى بمصر ؛ وفى هذا الاستعراض الموجز ما يدلى بما كان يطبع هذه النظم من روح الابتكار والطرافة فى كثير من نواحيها ، وفيه ما يلقى ضياء على سير الحوادث والشؤون فى العصر الفاطمى .

الفصل الثاني

الأعياد والرسوم الفاطمية

بهاء العصر الفاطمى وبذخه . فخامة المواكب والرسوم الفاطمية . الأعياد الفاطمية الرسمية . الأعياد المذهبية . الفطر والأضحى . سماط الفطر . ركوب الخليفة الى الصلاة . الموكب الرائع . سماط العيد . عيد الأضحى . ركوب الخليفة الى النحر . اشتراكه فى رسوم النحر . توزيع لحوم الأضاحى . المآدب الفاطمية وبذخها الطائل . سماط الحزن . فتح الخليج . ليالى الوقود . المواكب والأنوار الساطعة . الأعياد المصرية القومية . ركوب الخليفة . عطاؤه وبذله . صلاة الجمعة . ما وراء هذا البذخ . رثاء الدولة الفاطمية .

والآن نتحدث عن رسوم الدولة الفاطمية ومراسمها ومظاهرها ومواكبها الباذخة . كان عصر الدولة الفاطمية بمصر من أزهر العصور ، يجتمع فيه كثير من أسباب القوة والعظمة والبهاء . وكانت هذه الدولة الشامخة التى قامت تمثل زعامة الإسلام والخلافة فى ظروف دينية وسياسية خاصة ، أشد الدول الإسلامية حرصاً على أن تطبع الشعب والمجتمع بطابعها الخاص ، وأن تصوغ روح الشعب وعقليته وتفكيره وحياته العامة والخاصة ، وفقاً لمناهجها ورسومها ؛ فنرى الحياة الإجتماعية المصرية فى العصر الفاطمى تتخذ صوراً ومظاهر خاصة ، وتتقلب بين ألوان من البذخ والترف والبهاء ، قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الإسلامية ؛ ونراها أحياناً تمتاز بألوان من التطرف والإغراق المدهش . وقد كانت هذه الحياة الإجتماعية الباهرة المغرقة معاً ، مرآة الدولة الفاطمية ، تشع بكثير من خواص قوتها وفخامتها وبهائها ، ووحى مناهجها السياسية والدينية والعقلية . وكان الشعب المصرى ، على تحفظه فى مشايعة الدولة الجديدة فى مناهجها وغاياتها المذهبية ، يشهد بمرحه المأثور ، هذا الفيض الفاطمى من البذخ والترف والبهاء ، فى إعجاب

وحماسة . أجل كانت مواكب الخلافة الفاطمية ، وحفلاتها الرسمية والشعبية ، ورسومها الفخمة ، ومآدبها الشهيرة ، وبذلها المأثور ، أياما ومواقف مشهودة ، تثير من حولها أيما إجلال وروعة ؛ وكانت أعيادها ومواسمها الباهرة ، ولياليها الساطعة ، مثار البهجة والمرح العام ؛ وما زالت آثار من تلك الرسوم والمواسم الشهيرة تمثل فى كثير من أعيادنا ورسومنا وتقاليدنا الدينية ؛ فإذا رأيت بعض هذه الأعياد والمواسم يجنح إلى نوع من الفخامة ، وإذا رأيت بعض هذه الرسوم يتشح بأثواب من الرونق والبهاء ، فإنما ذلك يرجع فى الأغلب إلى أثر الدولة الفاطمية فى بث هذه الروح البهجة الباذخة ، إلى كثير من نواحى الحياة العامة والخاصة فى مصر الإسلامية .

وقد انتهت إلينا عن هذه المواكب والحفلات والليالى الفاطمية ، صور رائعة من أقلام مؤرخين معاصرين مثل ابن زولاق والمسبحى وابن الطوير وابن المأمون ؛ وقد يخيل إلينا ونحن نستعرض هذه الصور الفخمة أنها ليست من مشاهد العصور الوسطى ، وأنها بالعكس خليقة بأعظم مشاهد العصر الحديث وأروعها[1] . ولم يخل عصر الحاكم بأمر الله رغم اضطرابه من هذه المظاهر والمشاهد الباذخة ، ولا سيما فى البداية ، قبل أن تصدر مراسيم التحريم المدهشة ،وتضطرب لها أوضاع الحياة الاجتماعية . وقد رأينا كيف بدأ الحاكم عهده بإقامة الحياة الليلية ، وكيف كانت القاهرة تبدو فى تلك الفترة بالليل كأنها شعلة مضيئة ، وتضطرم جنباتها بحياة السمر واللهو من كل ضرب ، وكيف ألغيت حياة الليل بعد ذلك فتحولت العاصمة الساطعة المرحة إلى مدينة مقفرة موحشة . وكانت المواكب الخلافية تقام فى بداية عهد الحاكم ، وفقاً لرسومها ومظاهرها الفخمة ، ولكن الحاكم جنح بعد ذلك إلى البساطة ، وزهد فى تلك الرسوم الباذخة . فاختفت لمدى قصير حتى نهاية عهده ، ثم عادت بعد ذلك واستمرت حتى نهاية الدولة الفاطمية . وفى عهد الحاكم أيضاً

---

(١) نقل إلينا المقريزى فى الخطط عن هؤلاء المؤرخين الذين لم تصل كتبهم إلينا ، شذوراً كثيرة ساحرة ، فى وصف الحفلات والمواكب الفاطمية (الخطط ج ٢ ص ٣٤٥ وما بعدها) . وأورد لنا القلقشندى فى صبح الأعشى شذوراً كثيرة منها فيما كتب عن المواكب والحفلات الفاطمية (ج ٣ ص ٤٩٨ وما بعدها) .

ألغى كثير من الأعياد المصرية المشهودة ، وكانت الخلافة الفاطمية تشترك فى إحيائها فى بذخ طائل ؛ بيد أن بعضها كان يقام أحياناً وفقاً للرسوم المأثورة ، ويحتفى بها الشعب أيما احتفاء .

وكانت المواكب والحفلات الفاطمية ، تبلغ ذروة البهاء والبذخ أيام الأعياد والمواسم الرسمية . وكانت الأعياد الدينية الرسمية فى عهد الدولة الفاطمية عديدة منوعة ، ومنها أعياد خاصة بها شرعت لغايات دينية وسياسية . أما الأعياد العامة فهى رأس السنة الهجرية ، وليلة المولد النبوى الكريم ، وليلة أول رجب وليلة نصفه ، وليلة أول شعبان وليلة نصفه ، وغرة رمضان ، ويوم الفطر ، ويوم النحر أو عيد الأضحى . وأما الأعياد المذهبية ، فهى الإحتفال بمولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ومولد ولديه الحسن والحسين ، ومولد زوجه السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبى ، وهى التى ينتسب إليها الخلفاء الفاطميون ، ويوم عاشوراء أو عاشر المحرم ، وهو اليوم الذى قتل فيه الحسين بن على فى كربلاء (سنة ٦١ هـ) . هذا إلى عدة أعياد ومواسم مصرية قديمة ، كعيد فتح الخليج ، ويوم النيروز ، وعيد الشهيد . وكانت الخلافة الفاطمية تحتفل بهذه الأعياد فى فيض من الروعة والبهاء والبذخ ، فينتظم الموكب الخلافى برسومه ومظاهره الفخمة ، وتقام المآدب والحفلات الشائقة ، ويكثر البذل والعطاء ، ويستقبل الشعب هذه الأيام المشهودة فرحاً ، وتغمره البهجة والسعة والمرح . وإليك صور موجزة من هذه المشاهد والمناظر الشهيرة فى تاريخ البذخ والبهاء .

كان الإحتفال بالعيدين — عيد الفطر وعيد الأضحى — من أعظم مشاهد الخلافة الفاطمية ، وكان موكب العيد من أفخم مواكبها وأروعها ؛ ففى ليلة عيد الفطر ، كان ينظم بالإيوان الكبير الذى يواجه مجلس الخليفة ، سماط ضخم يبلغ نحو ثلثمائة ذراع فى عرض سبعة أذرع ، وتنثر عليه صنوف الفطائر والحلوى الشهية مما أعد فى دار الفطرة الخلافية ؛ فإذا انتهى الخليفة من أداء صلاة الفجر عاد إلى مجلسه ، وفتحت أبواب القصر والإيوان على مصاريعها ، وهرع الناس من جميع الطبقات إلى السماط الخلافى وتخاطفوا محتوياته بمشهد من الخليفة ووزرائه . وحينما تبزغ الشمس يخرج الخليفة فى

موكبه إلى للصلاة ويخرج من باب العيد إلى المصلى . ونحن نحيل القارئ على تلك الفصول البديعة الشائقة التى ينقلها إلينا المقريزى عن هذه المواكب الخلافية الرائعة عن المؤرخين المعاصرين(١) ، ونكتفى بأن ننقل إليك هذه الصورة الموجزة من أقوال المسبحى مؤرخ العصر الأول من الدولة الفاطمية ، قال : « وفى يوم العيد ركب العزيز بالله لصلاة العيد ، وبين يديه الجنائب والقباب الديباج بالحلى ؛ والعسكر فى زيه من الأتراك والديلم والعزيزية والإخشيدية والكافورية ، وأهل العراق بالديباج المثقل والسيوف والمناطق الذهب ، وعلى الجنائب السروج الذهب والجوهر ، والسروج بالعنبر ، وبين يديه الفيلة عليها الرجالة بالسلاح والزرافة ، وخرج بالمظلة المثقلة بالجوهر ، وبيده قضيب جده عليه السلام فصلى على رسمه وانصرف »(٢) . فإذا عاد الخليفة من الصلاة كان ثمة سماط آخر أبهى وأروع ؛ فيجلس الخليفة فى مجلسه وأمامه مائدة من فضة يقال لها « المدورة » وعليها أوانى الذهب والفضة ، غاصة بأفخم الألوان وأشهاها ؛ وقبالة المائدة الخلافية سماط ضخم يتسع لنحو خمسمائة مدعو ، وقد نثرت عليه الأزهار والرياحين(٣) ، وصفت على جانبيه الأطباق الحافلة بصنوف الشواء والطيور والحلوى البديعة ، وجلس إليه رجال الدولة والعظماء والأكابر من كل ضرب ، فيأكل من شاء دون إلزام حتى لا يرغم على الإفطار من لا يرى الإفطار فى ذلك اليوم . وعند الظهر ينفض المجلس وينصرف الناس . وهنا نحيل القارئ على ما كتبه ابن الطوير ، ونقله إلينا المقريزى فى وصف هذه المآدب الخلافية الباهرة ، وما كانت تمتاز به من البذخ والإناقة والبهاء ، مما لا يكاد يضارعه شىء فى المآدب الملكية أو الرسمية فى عصرنا(٤) .

وأما عيد الأضحى أو عيد النحر كما كانت تؤثر تسميته فى ظل الدولة الفاطمية ، تنويها بأبرز مظاهره ألا وهو نحر الأضحية ، فقد كان يحتفل به

(١) راجع خطط المقريزى ج ٢ ص ٢١٤ وما بعدها .
(٢) الخطط ج ص ٣٢٣ .
(٣) الخطط ج ٢ ص ٢٢٠ ومن ذلك نرى أن تزيين المائدة بالأزهار ليس عادة محدثة وليس بالأخص عادة غربية .
(٤) الخطط ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢١ .

بركوب الخليفة الى الصلاة على النحو المتبع فى صلاة عيد الفطر ، ثم يخص بسماط حافل يقام فى أول يوم منه . بيد أنه يمتاز بركوب الخليفة فيه ثلاث مرات متواليات فى أيامه الثلاثة الأولى ، ويمتاز بالأخص باشتراك الخليفة نفسه فى إجراءات النحر . وكان قيام الخليفة بهذا العمل من أروع المظاهر والرسوم ، التى جرت عليها الخلافة الفاطمية فى الأعياد العامة . فلنتصور أمير المؤمنين متشحاً بثوب أحمر قان ، يسير فى موكبه ماشيا إلى دار النحر الخلافية — وقد كانت تقوم فى ركن خارجى من القصر — وبين يديه الوزير وأكابر الدولة والأساتذة المحنكون (وهم المشرفون على شؤون الخاص) ؛ وقد أعد فى المنحر برسم التضحية واحد وثلاثون فصيلا وناقة ، أمام مصطبة يعلوها الخليفة وحاشيته ، وقد فرشت حافتها بأغطية حمراء يتقى بها الدم ، وحمل الجزارون كل بيده إناء مبسوطاً يتلقى به دم الضحية ؛ ثم تقدم رؤوس الأضاحى إلى الخليفة واحدة فأخرى ، فيدنو منها وبيده حربة يمسك بها من الرأس ، ويمسك القاضى بأصل سنانها ويجعله فى عنق الدابة فيطعنها به الخليفة ، وتجر من بين يديه ، وهكذا حتى يأتى عليها جميعاً . وكلما نحر الخليفة رأساً جهر المؤذنون بالتكبير . ويقدد لحم الضحية الأولى ويفرق قطعاً صغيرة فى الأولياء والمؤمنين . وفى اليوم التالى ينظم نفس الموكب الخلافى إلى المنحر ، وينحر الخليفة سبعة وعشرين رأساً . وفى اليوم الثالث ينحر ثلاثة وعشرين . ويجرى توزيع لحم الأضحية خلال هذه الأيام الثلاثة على أرباب الرسوم فى أطباق خاصة للتبرك ، ويقوم بالتوزيع قاضى القضاة وداعى الدعاة ، ويخص نقباء الدعوة وطلبة دار الحكمة (دار العلم) بقسط من اللحوم الموزعة . فإذا انقضت رسوم النحر ، خلع الخليفة عند العودة إلى القصر على الوزير ثيابه الحمر ومنديلا ملوكياً بغير سمة ، والعقد المنظوم ؛ فيركب الوزير وعليه الخلع المذكورة فى موكب حافل من القصر ، ويشق القاهرة حتى باب زويلة ، ثم يدخل من باب القنطرة إلى دار الوزارة ، وبذلك تنتهى رسوم النحر .

وكان العزيز بالله أول من سن سنة إعداد الأضحية ، وتفريق لحومها على هذا النحو ، بين رجال الدولة على قدر مراتبهم ؛ وكان ما يخرج منها غير ما ينحره الخليفة بنفسه يبلغ بضعة آلاف من مختلف الأصناف ، هذا عدا

ما يفرق فى أرباب الدولة من الخلع والأموال . وقد نقل المؤرخون المعاصرون إلينا تفاصيل دقيقة عن مقادير النفقة فى تلك المواسم . ومنها أن نفقة سماطى الفطر والأضحى تبلغ زهاء أربعة آلاف دينار . ويذبح من البقر والجاموس والنوق فى أيام النحر نحو ألفين وخمسمائة ، ومن الغنم نحو هذا القدر .

وكانت المآدب الفاطمية من الأحداث الإجتماعية الشهيرة فى هذا العصر . وكان القصر الفاطمى يعنى بتنظيم المآدب والأسمطة الرسمية عناية خاصة ، ويبالغ فى إعدادها وتجميلها ، وكانت تقام فى ليالى الأعياد الرسمية ، وفى رمضان . ففى كل مساء من مستهل رمضان حتى السادس والعشرين منه ، تقام المأدبة الملكية فى البهو الكبير (الديوان) ويرأسها قاضى القضاة ، ويشهدها مئات من الأمراء والكبراء ؛ وفى يوم عيد الفطر ، وفى يوم عيد الأضحى ، تقام مأدبة ملكية رسمية كبرى يشهدها ويرأسها الخليفة بنفسه على النحو الذى ذكرنا ؛ وتقام المآدب الرسمية فى الأعياد والمواسم الأخرى التى ذكرناها ؛ وتقترن الحفلات الرسمية ، بالحفلات والمآدب الشعبية ؛ ويستقبل الشعب هذه المواسم بمظاهر الحبور والبهجة ، إلا يوم عاشوراء ، فقد كان يعتبر يوم حزن عام ، وتعطل فيه الأسواق ، ويخرج المنشدون إلى الجامع الأزهر ، وهنالك يلقون الأناشيد المحزنة فى رثاء الحسين . وفى نفس اليوم يقام بالقصر سماط يسمى سماط الحزن ، وينظم بمنتهى البساطة فى بهو بسيط ، ويجهز بالأصناف الخشنة مثل خبز الشعير والعدس الأسود والجبن ، ويحضره الخليفة ملثما وفى ثياب قاتمة . ويشهده الأمراء ورجال الدولة حفاة ملثمين ، إيذاناً بالحزن العميق[1] .

ومن المواسم الفاطمية الشهيرة ليلة فتح الخليج أو وفاء النيل ، وهو عيد قومى يقع فى آخر يوم من شهر مسرى ، وكان يحتفل به دائماً فى جميع العهود . ولكنه كان كباقى الأعياد فى هذا العهد يمتاز بكثير من الرونق والبهاء ، فيركب الخليفة إلى الخليج فى موكب فخم ، وينصب هنالك سرادق هائل تبلغ مساحته نحو ألف ألف ذراع ، وتنصب فيه قاعة الخلافة ؛ وتوزع الكسى والهبات الملكية ، وتصطف العشارى (السفن) الرسمية فى النيل ، وتصطف

---

(١) الخطط ج ٢ ص ٢٩٠ .

الجنود على الشاطئين . وعند ما يعلن وفاء النيل إلى الخليفة ، تقام عند المقياس مأدبة حافلة ، ويحتفل الشعب المصرى كله بهذا العيد ، وتقام المآدب وتنظم الملاهى ومجالس الأنس والغناء فى كل مكان ويعم الحبور والمرح . وقد ذكرت لنا الرواية المعاصرة أن الحاكم بأمر الله كان يجرى على سنة أبيه وجده فى الركوب لفتح الخليج كل عام ، مما يدل على ما كان لهذا العيد القومى من حرمة خاصة لم تنل منها أحداث العصر[1] .

ومنها ليالى الوقود الأربع ، وهى ليلة مستهل رجب وليلة نصفه وليلة مستهل شعبان وليلة نصفه . وفيها يجلس الخليفة فى منظرة عالية ، أقيمت عند باب الزمرد من أبواب القصر ، وبين يديه شمع ساطع يرى وجهه على ضوئه ، ويركب القاضى من داره بعد صلاة المغرب ، وقد أنير بين يديه الشمع المحمول إليه من خزانة الخليفة ، وعدده ستون شمعة كبيرة من كل جانب ثلاثون ، وبين الصفين المؤذنون يدعون للخليفة والوزير ، ويحجبه ثلاثة من نواب الباب ، وعشرة من حجاب الخليفة ، غير حجاب الحكم المستقرين وهم خمسة فى زى الأمراء ، وفى ركابه القراء يقرأون ، ومن ورائه الشهود على ترتيب جلوسهم فى الحكم ، وحولهم الشمع المنير . ويسير الموكب على هذا النحو إلى ما بين القصرين حتى باب الزمرد ، وينتظم فى الميدان الواقع تحت المنظرة التى يجلس فيها الخليفة ؛ وبعد برهة تفتح إحدى طاقات المنظرة ، ويطل منها الخليفة ، وعلى رأسه عدة من خواص الأستاذين المحنكين ، ويفتح أحد الأساتذة طاقة أخرى ، ويخرج منها رأسه ويده اليمنى ويشير بكمه قائلا : « أمير المؤمنين يرد عليكم السلام » فيسلم بقاضى القضاة أولا بنعوته ، ثم صاحب الباب ، ثم الجماعة الباقية دون تعيين أحد ، ويقرأ القراء بعد ذلك . ثم يلقى خطيب الجامع الأزهر خطبة فى فضائل هذا الشهر ، ويتلوه خطيب الجامع الحاكى بخطبة مماثلة . فإذا انتهت الخطب ، أخرج الأستاذ الأول يده من الطاقة فيرد السلام على الجماعة ، ثم تغلق الطاقتان وينفض الناس ؛ ثم يركب القاضى فى موكبه إلى دار الوزير ، وأحياناً إلى بعض المساجد الجامعة .

---

(١) المقريزى عن المسبحى فى الخطط ج ٢ ص ٣٥٣ .

وفى ليالى الوقود أيضاً ، يخرج الناس إلى الجامع الأزهر ، ويبدو فيها المسجد الشهير كأنه شعلة من النور ؛ وتضاء على حافاته المشاعل والوقدات الساطعة ، ويعقد فى صحنه مجلس حافل من القضاة والعلماء برآسة قاضى القضاة ، ويبعث الخليفة إليهم بسلال من الأطعمة والحلوى ، وتضاء جميع المساجد الأخرى ، وتبدو العاصمة الفاطمية كلها فى حلل بديعة من الأنوار الساطعة ؛ وكانت ليالى الوقود من أشهر المواسم والحفلات التى اختصت بها الدولة الفاطمية[١] .

وكانت ثمة أعياد رسمية أو قومية أخرى ، كانت تقام أحياناً فى فيض من البذخ والمرح ، وأحياناً تفرض فى إقامتها فروض معينة ، وأحياناً تلغى ، وذلك لأنها لم تكن أعياداً إسلامية . وكان منها عيد النيروز أوالنوروز ، وعيد الشهيد القبطيين ، وعيد الميلاد وأعياد الغطاس والشعانين والفصح النصرانية . وقد فرضت فى أوائل الدولة الفاطمية قيود كثيرة على إقامة النيروز والغطاس والشهيد ، وذلك لأن النصارى كانوا يتخذونها فرصة لإقامة المظاهرات الدينية الصاخبة ، ولما كان يقترن بها من إسراف فى اللهو والقصف . وفى عهد الحاكم بأمر الله ألغيت الأعياد النصرانية مدى حين ، حسبما تقدم فى موضعه ؛ بيد أنها كانت فيما خلا هذه الفترة تقام فى ضجيج وبذخ ، وتسطع العاصمة خلالها ، ويشترك الشعب كله فى الاحتفاء بها .

وكان الخلفاء الفاطميون يشهدون فى معظم الأحيان هذه الحفلات والليالى. ويعقد الحفل الخلافى فى إحدى المناظر الملوكية الفخمة ، وكان يوجد منها عدة ، منها منظرة القصر الكبير ، ومنظرة قصر اللؤلؤة ، ومنظرة الجامع الأزهر ، ومنظرة المقس وغيرها ؛ وكان حضور الخليفة بموكبه الرسمى الفخم يبث فى هذه الحفلات والليالى ، كثيراً من البهاء والروعة ، ويبث فى نفوس الشعب كثيراً من الحماسة والبهجة ، ويقترن فى الوقت نفسه بفيض من البذل والعطاء ، اللذين امتازت بهما الدولة الفاطمية طوال عهدها .

وكان الخليفة الفاطمى يركب لصلاة الجمعة بالناس ويخطبهم ثلاث مرات فى العام ، فى الجمع الثلاث الأخيرة من رمضان ؛ الأولى بالجامع الأنور ،

---

(١) صبح الأعشى ج ٧ ص ٥٠١ و ٥٠٢ .

والثانية بالجامع الأزهر ، والثالثة والأخيرة بالجامع العتيق أو جامع عمرو . وكان للخلافة الفاطمية رسوم وتقاليد مذهبية معينة فى إجراء صلاة الجمعة وصفتها لنا روايات العصر . وقد نقل إلينا المقريزى عن ابن الطوير وهو مؤرخ معاصر ، هيئة صلاة الجمعة فى هذه الأيام المشهودة . وخلاصة ذلك أن يركب الخليفة فى موكبه الفخم إلى الجامع ، وقد ارتدى ثياب الحرير البيض الساذجة توقيراً للصلاة ، ويدخل من باب الخطابة . وتتخذ الأهبة منذ الصباح لاستقباله ، فيأتى صاحب بيت المال ، وبين يديه الفرش المختص بالخليفة محمولا بأيدى الفراشين المميزين ، ملفوفاً فى العراضى الديبقية ، فيفرش فى المحراب ثلاث طراحات فاخرات ، إما شاميات وإما ديبقى أبيض منقوش بالحمرة ، واحدة فوق أخرى ، ويعلق ستران يمنة ويسرة ، يكتب فى أولهما بالحرير الأحمر سورة الفاتحة وسورة الجمعة ، ويكتب فى الستر الثانى سورة المنافقين كتابة واضحة . ويصعد قاضى القضاة إلى المنبر ، وفى يده مدخنة لطيفة من الخيزران يقدمها صاحب بيت المال ، وفيها ند خاص بالخليفة ، ويبخر بها ذروة المنبر . فإذا وصل الخليفة بموكبه الفخم من المظلة والآلات ، وبين يديه القراء يرتلون منذ خروجه من القصر ، ومن حوله الجند والركابية ، دخل من باب الخطابة إلى قاعة الخطابة وجلس فيها ، وتحفظ المقصورة من خارجها بترتيب أصحاب الباب واسفهسلار الجند ، ومن الداخل حتى الباب بصبيان الخاص وغيرهم . فإذا أذن بالجمعة دخل إليه قاضى القضاة وسلم عليه بقوله : « السلام على أمير المؤمنين الشريف القاضى الخطيب ورحمة الله وبركاته الصلاة يرحمك الله » ، فيخرج الخليفة وحوله الأساتذة المحنكون والوزراء والأمراء والحرس المسلح ، ويصعد إلى ذروة المنبر تحت القبة المبخرة ، ويقف الوزير بباب المنبر ووجهه إليه ، فإذا جلس أشار إلى الوزير بالصعود ، فيصعد إليه ويقبل يديه ورجليه بحيث يراه الناس ، ثم يزر تلك القبة حتى تصير كالهودج ، ثم ينزل مستقبلا للخليفة ويقف ضابطاً للمنبر . وينهض الخليفة فيلقى خطبة قصيرة من مسطور يعده له ديوان الإنشاء ، يتلو فيها آية من القرآن الكريم ، ثم يصلى على أبيه أى على بن أبى طالب وجده أى النبى عليه السلام ، ويعظ الناس وعظاً بليغاً موجزاً ، ويذكر من سلف من آبائه حتى يصل إلى نفسه ، ويتوسل بدعوات

فخمة تليق به ، ثم يدعو للوزير وللجيوش بالنصر والظفر على الكافرين والمخالفين ، ثم يختتم بقوله « اذكروا الله يذكركم » ، فيصعد إليه الوزير ويفك أزرة القبة ويعود القهقرى ، فينزل الخليفة ، ويقف للصلاة فوق الطراحات المذكورة فى المحراب وحده إماماً ، وخلفه الوزير والقاضى ، ومن ورائهما الأساتذة والأمراء وأصحاب الرتب والمؤذنون بترتيب مخصوص ، فإذا سمع الوزير الخليفة ، أسمع القاضى ، وأسمع القاضى المؤذنين فأسمعوا الناس . ويقرأ الخليفة فى الركعة الأولى ما هو مكتوب على الستر الأيمن ، وفى الركعة الثانية ما هو مكتوب على الستر الأيسر ، فإذا انتهت الصلاة خرج الناس وركبوا تباعاً . ثم يعود الخليفة بموكبه إلى القصر ، والطبول والبوقات تضرب ذهاباً وإياباً . ويتكرر هذا الترتيب والنظام فى المرتين الأخريين[1] .

وكانت هذه الحفلات الدينية الرسمية من الأيام المشهودة تزين فيها المدينة أعظم زينة ، ويكثر الخليفة فيها من الصلات والهبات . وكان الخليفة يركب أيضاً مرة أو مرتين فى الأسبوع للتنزه فى البساتين والقصور الملكية فى ضواحى المدينة ، وفيها أيضاً تنثر الصلات والصدقات .

هكذا كانت الخلافة الفاطمية تحتفى بأعيادها ومواسمها ولياليها فى بذخ طائل ، وهكذا كانت رسومها ومواكبها ومظاهرها مثال الروعة والبهاء . وقد نقل إلينا المؤرخون المتأخرون ، ولا سيما المقريزى ، عن مؤرخى الدولة الفاطمية الذين شهدوا بذخها وفخامتها ، شذوراً رائعة عن هذه الحفلات والليالى المشهودة ، وهى شذور تذكى الخيال إلى الذروة . وكانت الخلافة الفاطمية ترمى بترتيب هذه الرسوم والحفلات الباذخة إلى غايتين : الأولى أن تبث هيبتها الدينية بما تسبغه من الخطورة والخشوع على بعض المظاهر والرسوم المذهبية ، والثانية أن تغمر الشعب المصرى بفيض من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة ، وأن تأسره بمظاهر جودها الوافر ، وأن تنثر عليه ما استطاعت من دواعى البهجة والمرح ، وذلك لكى تكسب ولاءه وعرفانه وتأييده . وقد كانت الخلافة الفاطمية تشعر دائما أنها لم تكسب كل

(١) راجع المقريزى عن ابن الطوير ج ٤ ص ٦١ و ٦٢ ؛ وصبح الأعشى ج ٣ ص ٥٠٩ — ٥١١ .

ولائه ، وأن سياستها المذهبية تبث إلى نفسه شيئاً من الوحشة والريب . بيد أن الدولة الفاطمية كانت بحق دولة البهاء والبذخ الطائل ، وكانت هذه الرسوم والمظاهر الرائعة من بعض مظاهر قوتها وعظمتها وغناها ، وكانت هذه الروح الفخمة الباذخة تطبع كل رسومها ومظاهرها ، فى القصر وفى الخارج ، فى السياسة وفى الدين والإدارة ، وفى الحياة العامة والحياة الخاصة ، وتطبع على العموم كل أعمالها وتصرفاتها .

وللفقيه الشاعر عمارة اليمنى (١) قصيدة مؤثرة فى رثاء الدولة الفاطمية التى شهد آخر مظاهر لرسومها وجودها وبذخها ، وأدرك نهايتها وسقوطها ، وهذا مطلعها :

رميت يا دهر كف المجد بالشلل — وجيده بعد حسن الحلى بالعطل
سعيت فى منهج الرأى العثور فإن — قدَرْت من عثرات الدهر فاستقل

ومنها .

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة — على فجيعتها فى أكرم الدول
مررت بالقصر والأركان خالية — من الوقود وكانت قبلة القُبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد — من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسبلت من أسفى دمعى غداة خلت — رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على مأثُرات من مكارمكم — حال الزمان عليها وهْىَ لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم — واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وفطرة الصوم إذ أضحت مكارمكم — تشكو من الدهر حيفاً غير محتمل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست — ورثَّ منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان فى يوم الخليج لكم — يأتى تجمُّلكم فيه على الجُمَل
وأول العام والعيدين كم لكم — فيهن من وبْلِ جودٍ ليس بالوشل
والأرض تهتز فى يوم الغدير كما — يهتز ما بين قصريكم من الأسل
والخيل تُعرض فى وشى وفى شية — مثل العرائس فى حَلْى وفى حُلل
وما حملتم قرى الأضياف من سعة الأ — طباق إلا على الأكتاف والعَجَل

(١) سنعود الى ذكر عمارة اليمنى فيما بعد .

وما خصصتم ببر أهل ملتكم ... حتى عممتم به الأقصى من الملل

كانت رواتبكم للوافدين وللـ ... ضيف المقيم وللطاوى من الرسل

وللجوامع من إحسانكم نعم ... لمن تصَدَّر فى علم وفى عمل

وربما عادت الدنيا فمعقلها ... منكم وأضحت بكم محلولة العقل

والله لا فاز يوم الحشر مبغضكم ... ولا نجا من عذاب النار غير ولى

أئمتى وهداتى والذخيرة لى ... إذا ارتهنت بما قدمت من عملى

باب النجاة هم دنيا وآخرة ... وحبهم فهو أصل الدين والعمل

نور الهدى ومصابيح الدجى ومحـ ... ـل الغيث أن ربت الأنواء فى المحل

أئمة خلقوا نوراً فنورهم ... من محض خالص نور الله لم يغل[1]

---

(١) ورد هذه القصيدة بأكملها فى الخطط ج ٢ ص ٣٩٢ – ٣٩٤ ، وفى صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٣٠ – ٥٣٢ .

الفصل الثالث

الحركة الفكرية

العلوم والآداب . أثر الروح المذهبية فى سيرها . قوتها فى عهد الدولة الإخشيدية . قيام الأزهر . جامعة دار الحكمة . تقدم الدراسات المذهبية . بنو النعمان . الوزير ابن كلس نصير الحركة الفكرية . الحسن بن زولاق . رعاية الحاكم للعلوم والآداب . عزالملك المسبحى . ركود الحركة الأدبية فى عهد المستنصر . أبو عبد الله القضاعى . أعلام التفكير الآخرون . شعراء هذا العصر . الكتاب والمؤرخون . كتاب الإنشاء . ابن الصيرفى . القاضى الفاضل . ازدهار النثر فى أواخر الدولة الفاطمية . الأعلام الوافدون على مصر . أمية بن أبى الصلت . أبو بكر الطرطوشى . الشعراء الوافدون . عمارة اليمنى .

لم تبلغ العلوم والآداب فى ظل الدولة الفاطمية من التقدم والازدهار ما كان خليقاً أن تبلغه فى ظل هذه الدولة القوية الباذخة . ذلك أن الدولة الفاطمية كانت لظروفها الدينية والسياسية ترمى إلى الإنشاء فى كل شىء ، ولم ترد أن تقوم على تراث الماضى أو أن تستأنف السير به ، ولم يمد لها فى عصر الإنشاء الفنى أكثر من قرن ، ولم يأت منتصف القرن الخامس الهجرى حتى كانت عوامل الانحلال والوهن قد سرت إليها ، وأخذت تقوض من دعائم صرحها الباذخ .

وكانت الروح والإعتبارات المذهبية ، تحول فى الوقت نفسه دون تفتح البحث الحر والأدب الطليق ، فلم تطلق أعنة التفكير والكتابة ، لتزدهر ما شاءت فى آفاقها الحرة ، ولم يزدهر منها إلا ما حبته الروح المذهبية وارتضت أن يزدهر . وكان لذلك أثره فى ضعف الحركة العقلية والأدبية فى العصر الفاطمى . بيد أن هذه البواعث المذهبية ذاتها ، كانت من جهة أخرى عاملا فى ازدهار فنون خاصة من الأدب والكتابة ، فمثلا نجد السجلات والخطب الخلافية ،

ولغة الدواوين الفاطمية ، تمتاز بروعة فى الأسلوب والتعبير ، قلما نجدها فى عهد دولة إسلامية أخرى .

قامت الدولة الفاطمية بمصر ، والحركة العقلية المصرية تجوز طوراً من أطوار قوتها . ذلك أن الدولة الإخشيدية التى استخلص الفاطميون منها تراث مصر ، كانت نصيرة للعلوم والآداب ، وفى ظلها ازدهرت الحركة الأدبية ، ونبغ عدة من المفكرين ، والكتاب الممتازين ، مثل ابن يونس المحدث والمؤرخ ، والفقيه أبو بكر الحداد ، وأبو عمر الكندى المؤرخ ، والأديبين الشاعرين أبو جعفر النحاس وأبو القاسم بن طباطبا الحسينى ، والحسن بن زولاق الفقيه والمؤرخ[1] . ووفد المتنبى على مصر فى عهد كافور (سنة ٣٤٦ هـ) فبثت قصائده الرنانة وبثت حلقاته الأدبية إلى الشعر روحاً جديداً . ولما قامت الدولة الفاطمية بمصر شغلت مدى حين بتوطيد ملكها الفتى ، ولم تول الحركة العقلية كبير عناية . بيد أن الحركة العقلية لم تلبث أن لقيت ملاذها فى قيام الجامعة الفاطمية الكبرى ، أعنى الجامع الأزهر الذى أقيم فى البداية ليكون مسجد الدولة الجديدة ومنبرها الرسمى ، ثم أنشئت فيه منذ عهد العزيز بالله تلك الحلقات الدراسية التى استحالت فيما بعد إلى جامعة حقة . وكانت الدولة الفاطمية تعنى منذ قيامها بناحية معينة من الدراسات الدينية هى الناحية المذهبية ، وفى سبيل بثها وإذاعتها نظمت مجالس الحكمة فى القصر وفى الجامع الأزهر ، وأنشئت جامعة دار الحكمة الشهيرة فى عهد الحاكم بأمر الله حسبما فصلنا ، وأنشئ منصب داعى الدعاة ليشرف على بث الدعوة على يد نوابه ونقبائه . وتولى تدريس الأصول الشيعية وفقه آل البيت منذ البداية ، جماعة من الفقهاء الممتازين ، فى مقدمتهم بنو النعمان ، وهم أسرة مغربية نابهة قدمت إلى مصر فى ركب المعز لدين الله ، وتعاقب بنوها فى قضاء مصر زهاء نصف قرن ، وكان عميدها العلامة أبو حيفة النعمان بن محمد المعروف بابن حيون المتوفى سنة ٣٦٣ هـ ، قاضى المعز لدين الله ، وعمدة فقهاء الشيعة فى عصره ، وهو مؤلف كتاب « دعائم الإسلام » وكتاب « الإقتصار » متنى الأحكام الإماميه

(١) توفى ابن يونس سنة ٣٤٧ هـ وأبو بكر الحداد سنة ٣٤٥ هـ ، والكندى سنة ٣٥٠ هـ وأبو جعفر النحاس سنة ٣٣٨ هـ ، وابن طباطبا سنة ٣٤٥ هـ ، وابن زولاق سنة ٣٨٧ هـ .

وغيرهما من الكتب القيمة . ثم كان عميدها من بعده ولده القاضى أبو الحسن على بن النعمان ، وهو أول من درس فى الجامع الأزهر ، فعقد أول حلقاته سنة ٣٦٥ هـ وقرأ فيها مختصر أبيه فى فقه آل البيت ، وكان فوق تضلعه فى العلوم الدينية ، أديباً شاعراً ، وتوفى سنة ٣٧٤ هـ . فخلفه فى منصبه ومهمته الدراسية ، أخوه القاضى محمد بن النعمان المتوفى سـنة ٣٨٩ هـ ، ثم ولده الحسين بن على بن النعمان الذى تولى القضاء فى عهد الحاكم بأمر الله ، وقتله الحاكم سنة ٣٩٤ هـ . ثم أخوه القاضى عبد العزيز بن النعمان الذى قتله الحاكم سنة ٤٠٣ هـ [1] . وكان لجهود هذه الأسرة النابهة التى قضى عليها الحاكم بأمر الله ، أثر كبير فى بث الدراسات الدينية الشيعية ، وفى توجيه الحركة الفكرية والأدبية فى أواخر القرن الرابع الهجرى .

ويجب ألا ننسى ماكان للوزير ابن كلس ، وزير المعز لدين الله ثم ولده العزيز ، من أثر بارز فى توجيه الأزهر الى مصيره الجامعى ، فقد كان هذا الوزير المستنير أول من رتب للأزهر أول فوج من الأساتذة الدائمين فى عهد العزيز بالله ، وبذلك أسبغ عليه صفة الجامعية المستقرة . وكان ابن كلس نفسه ضليعاً فى الفقه ، شاعراً أديباً يقرأ دروسه بنفسه أحيانا فى الجامع الأزهر وأحياناً بداره ، وقد ألف كتباً فى علوم الدين والفقه وكتاباً فى علم الأبدان ، وكان فوق ذلك نصيراً للحركة الفكرية ، يتعهد العلماء والأدباء والشعراء برعايته ، ويغدق عليهم عطاءه وصلاته ، ويجمعهم فى داره ، فى حلقات علمية أدبية ، كان لها أكبر صدى فى العصر [2] .

وقد أدرك الحسن بن زولاق المصرى ، عميد الحركة الأدبية فى عصر بنى الإخشيد ، الدولة الفاطمية ، وأخذ بقسطه فى زعامة الحركة الأدبية فى عهد المعز والعزيز ، وأولاه المعز عطفه ورعايته ، وألف كتاباً فى سيرة المعز لدين الله ، لم يصل إلينا ، ولكن نقلت إلينا منه شذور كثيرة على يد المؤرخين المتأخرين ، تدلى بأهميته فى وصف أحداث هذه المرحلة الأولى

---

(١) ابن خلكان ج ٢ ص ٢١٩ — ٢٢٣ ، وحسن المحاضرة للسيوطى ج ١ ص ٢٦٨ ، وذيل القضاة (ملحق كتاب قضاة مصر للكندى) ص ٥٨٩ و ٦١٠ و ٦١١ .

(٢) المقريزى فى الخطط ج ٣ ص ٩ .

من عصر الدولة الفاطمية . وتوفى سنة ٣٨٧ هـ فى بداية عصر الحاكم ، وقد أربى على الثمانين .

وفى عصر الحاكم بأمر الله كانت الحركة الأدبية قد استقرت ، واتخذت وجهتها الجديدة فى ظل الدولة الجديدة . وقامت دار الحكمة الفاطمية يومئذ تغذى الحركة العقلية الى جانب الأزهر ، والمسجد الجامع (جامع عمرو) ، الذى كانت حلقاته العلمية والأدبية دائماً عنصراً بارزاً ، فى تكوين الحركة الفكرية المصرية فى تلك العصور . وأولى الحاكم الحركة العقلية شيئاً من رعايته حسبما أشرنا الى ذلك فى موضعه[1] ، فأجزل النفقة لدار الحكمة وزودها بخزائن الكتب الجليلة ، وعقد مجالس المناظرة للعلماء والأدباء ، وغمرهم بصلاته ، وقرب إليه عدة من أقطاب المفكرين والأدباء فى هذا العصر مثل المسبِّحى الكاتب والمؤرخ الكبير ؛ ومحمد بن القاسم بن عاصم شاعر الحاكم وجليسه ، وكان من أشهر شعراء العصر ، وأبى الحسن على بن محمد الشابشتى الكاتب صاحب كتاب الديارات وقد توفى سنة ٣٩٠ هـ ؛ وابن يونس العلامة الرياضى والفلكى صاحب الزيج الشهير الذى ألفه خصيصاً للحاكم ، وكان أيضاً أديباً وشاعراً وقد كتب تاريخا لمصر ؛ وأبى عبد الله اليمنى المؤرخ صاحب تاريخ النحاة ، وسيرة جوهر القائد ، وقد توفى فى سنة ٤٠٠ هـ ، والمهندس البصرى الكبير أبو على بن الحسين بن الهيثم ، وغيرهم ممن تولوا قيادة الحركة الفكرية فى هذا العصر .

ونبغ فى تلك الفترة عدة من أكابر الأطباء ، منهم محمد بن أحمد بن سعيد التميمى طبيب العزيز بالله ؛ وأبو الفتح منصور بن مقشر النصرانى طبيب العزيز أيضاً ، ثم طبيب ولده الحاكم من بعده ، وكانت له منزلة سامية بالقصر ؛ ثم أبو يعقوب بن نسطاس ، وقد خلفه كطبيب للحاكم بأمر الله .

وكان المسبِّحى أعظم شخصية فى الحركة الفكرية فى عصر الحاكم بأمر الله . وهو الأمير المختار عزالملك محمد بن عبد الله بن أحمد الحرانى ، ولد بمصر سنة ٣٦٦ هـ وتوفى سنة ٤٢٠ هـ ، وكان من أقطاب الأمراء ورجال الدولة الفاطمية . تولى بعض المناصب الوزارية والإدارية الهامة فى عصر

---

(١) راجع ص ١٥٥ و ١٥٦ من هذا الكتاب .

الحاكم ، وقربه الحاكم إليه ونال لديه حظوة كبيرة ، وكان من جلسائه وخاصته . وأخذ المسبّحى بقسط وافر فى مختلف علوم عصره ،وشغف بتدوين التاريخ ، وألف فيه عدة كتب منها تاريخه الكبير المسمى « أخبار مصر » ، وهو تاريخ مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والآثار ، وذكر نيلها وخواصها ومجتمعاتها حتى أوائل القرن الخامس الهجرى . ولم يصلنا هذا الأثر الضخم الذى يلقى بلا ريب أعظم ضوء على تاريخ الدولة الفاطمية فى عصرها الأول ، ولكن الشذور التى وصلتنا منه على يد المقريزى وغيره من المؤرخين المتأخرين تنوه بقيمته ونفاسته . وكتب المسبحى كتبا أخرى فى التاريخ والأدب والفلك والاجتماع ، ولكنا لم نتلق شيئاً منها[1] .

وازدهرت الحركة الفكرية المصرية نوعا خلال النصف الأول من القرن الخامس ؛ بيد أنها ضعفت فى أواخر هذا القرن فى عهد المستنصر بالله ، وكانت هذه الفترة غاصة بالمحن والأحداث والفتن الداخلية والخارجية ، فلم تلق الحركة الأدبية كثيراً من الرعاية أو التعضيد ؛ بيد أنها عادت فى أوائل القرن السادس فانتعشت ، واستمرت على انتعاشها وقوتها حتى نهاية الدولة الفاطمية (سنة ٥٦٧ هـ — ١١٧٢ م) .

وظهر من أعلام التفكير والأدب خلال هذه الحقبة جمهرة لا بأس بها ، وإن كانت فى مجموعها وقوتها لا تتناسب مع عظمة الدولة الفاطمية وبهائها . فمنهم القضاعى الفقيه والمحدث والمؤرخ ، وهو أبو عبد الله محمد بن سلامه ابن جعفر القضاعى ، ولد بمصر فى أواخر القرن الرابع وتوفى سنة ٤٥٤ هـ .

---

(١) راجع فى ترجمة المسبحى وذكر مؤلفاته ، ابن خلكان ج ١ ص ٦٥٣ ، وحسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٥ . وقد ورد فى معجم الغزيرى الخاص بمجموعة الكتب العربيــة بالإسكوريال ، والصادر فى سنة ١٧٧٠ م (ج ١) أنه يوجد من تاريخ المسبحى أربعة مجلدات من تاريخ مصر وأرضها وعجائبها ، مرتب حسب السنين لغاية سنة ٤١٤ هـ . بيد أنه لا توجد بمكتبة الإسكوريال اليوم سوى قطعة صغيرة مخطوطة من تاريخ المسبحى هى عبارة عن الجزء الأربعين من أخبار مصر وفضائلها (المجموعة رقم ٥٣٤) . ومعنى ذلك أن المجلدات الأربعة التى أشار إليها الغزيرى ، والتى كانت موجودة فى القرن الثامن عشر ، قد فقدت من مجموعة الإسكوريال ضمن ما فقد من المخطوطات .

وكان من أقطاب الحديث والفقه الشافعي ، وتولى القضاء وغيره من مهام الدولة فى عهد المستنصر بالله . وأوفده المستنصر إلى تيودورا أمبراطورة قسطنطينية سنة ٤٤٧ هـ ، ليحاول عقد الصلح بينهما . وكتب عدة مصنفات فى الحديث والفقه والتاريخ ، منها « الشهاب » و « مسند الصحاب » وهما فى الحديث ؛ و « مناقب الإمام الشافعى » و « أنباء الأنبياء وتواريخ الخلفاء » و « عيون المعارف» وهما مختصران فى التاريخ ، وكتاب « المختار فى ذكر الخطط والآثار » وهو تاريخ مصر والقاهرة حتى عصره[1] .

ومنهم الحوفى النحوى اللغوى ، وهو أبو الحسن على بن إبراهيم بن سعيد ، كان من أئمة الأدب واللغة فى عصره ، واشتغل حيناً بالتدريس فى مصر والقاهرة ، وألف كتباً فى النحو والأدب منها كتاب « إعراب القرآن » وتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

ومنهم أبو العباس أحمد بن هاشم المصرى ، وقد كان من كبار المحدثين والمقرئين ، واشتهر بتدريس علم القراءات ، وتوفى سنة ٤٤٥ هـ .

ومنهم ابن بابشاذ النحوى الشهير ، وهو أبو الحسن طاهر بن أحمد المصرى المعروف بابن بابشاذ ، كان إمام عصره فى النحو واللغة ، وألف فيهما عدة تصانيف ضخمة ، واشتغل حيناً بديوان الإنشاء فى عهد المستنصر بالله ، وتوفى سنة ٤٦٩ هـ .

ومنهم أبو الحسن الرشيد بن الزبير ، وكان متضلعاً فى الرياضيات والهندسة والمنطق ، بارعاً فى النثر والنظم ، وقد توفى قتيلا فى سنة ٥٦٣ هـ .

ومنهم الحافظ أبو طاهر السلفى ، وقد كان إمام عصره فى الحديث والنقد والرواية ، وإليه انتهت رياستها عصراً طويلا ؛ وتوفى سنة ٥٧٦ هـ وقد جاوز المائة من عمره .

ومن الشعراء فى هذه الفترة هاشم بن العباس المصرى ، وقد اشتهر بتصوير الإقليم والطبيعة ؛ وظافر بن القاسم الجذامى الإسكندرى المتوفى سنة ٥٢٩ هـ ؛ وأبو الغمر محمد بن على الهاشمى ، وقد كان من أعظم شعراء هذا العصر ، وتوفى سنة ٥٤٤ هـ ؛ ومحمود بن إسماعيل أبو الفتح الدمياطى كاتب الإنشاء

---

(١) راجع فى ترجمة القضاعى ، ابن خلكان ج ١ ص ٥٨٥ ؛ والسبكى فى طبقات الشافعية ج ٣ ص ٦٣ ؛ وحسن المحاضرة ج ١ ص ١٨٨ .

فى عهد الخليفة العاضد وشيخ القاضى الفاضل ، وكان يعرف بذى البلاغتين ، وقد توفى سنة ٥٥١ هـ ؛ والصالح طلائع بن رزيك وزير العاضد ، وكان شاعراً مجيداً حماسى النزعة ، وفقيها بارعاً فى علوم الشيعة ، صنف كتاباً فى إمامة على ، وتوفى قتيلا فى سنة ٥٥٦ هـ ؛ وعبد العزيز بن الحسين بن الجباب المعروف بالجليس لأنه كان من جلساء الخليفة العاضد ، وتوفى سنة ٥٦١ ؛ والقاضى موفق الدين يوسف بن محمد المصرى المعروف بابن الخلاّل ، كان أعظم شعراء عصره ، وتولى ديوان الإنشاء حيناً فى عهد العاضد مع القاضى الفاضل وتوفى سنة ٥٦٧ هـ ؛ وأبو الفتوح نصر الله بن قلاقس الإسكندرى تلميذ السلفى ، وصاحب الديوان المشهور باسمه ، وقد توفى سنة ٥٦٧ هـ[١] .

ومن الكتاب والمؤرخين الذين ظهروا فى تلك الفترة ، أعنى فى أواخر الدولة الفاطمية ، ابن المأمون البطائحى ، ولد المأمون وزير الخليفة الآمر بأحكام الله ، وقد ألف تاريخاً استعرض فيه كثيراً من نظم الدولة الفاطمية ورسومها فى أواخر عهد المستنصر ، وعهد الآمر ، ومنه ينقل المقريزى فى مواضع كثيرة ؛ وابن القيسرانى أبو محمد بن عبد السلام المعروف بابن الطوير المصرى مؤلف كتاب « نزهة المقلتين فى أخبار الدولتين » وهو مؤلف لم يصلنا ، ولكن المقريزى يدلل على أهميته وطرافته بما يقتبس منه فى أخبار المواكب والحفلات الفاطمية ؛ وابن بركات النحوى تلميذ القضاعى ، وكان من أقطاب اللغة والأدب وتوفى سنة ٥٢٠ هـ ؛ والشريف الجوانى ، وقد ألف كتاباً فى الخطط ، ينقل المقريزى عنه فى مواضع كثيرة . وتوفى سنة ٥٨٨ هـ .

وقد امتازت هذه الفترة الأخيرة من عصر الدولة الفاطمية ، بازدهار النثر وبراعته ، وروعة أسلوبه وافتنانه ؛ وتعاقب فيها فى ديوان الإنشاء عدة من أئمة البيان الرائع ، الذين جعلوا من رسائلهم الخلافية والديوانية نماذج من الفصاحة الباهرة . وكان من هؤلاء أبو الفتوح الدمياطى شيخ القاضى الفاضل ، وابن الخلاّل الشاعر حسبما قدمنا فى ثبت الشعراء . ونبغ منهم بالأخص الوزير أبو القاسم على بن منجب الشهير بابن الصيرفى ، والقاضى الفاضل

---

(١) حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٦٩ و ٢٧٠ .

وكان الأول من أعظم كتاب الدولة الفاطمية ، وتولى ديوان الإنشاء حيناً للخليفة الآمر بأحكام الله ، وكان إمام عصره فى النثر والبلاغة ، وبرع فى النظم أيضاً ؛ ومن مؤلفاته كتاب « الإشارة إلى من نال الوزارة » ألفه للمأمون وزير الآمر بأحكام الله ، واستعرض فيه ذكر وزراء الدولة الفاطمية منذ عصر العزيز بالله حتى عصره ، وتوفى سنة ٥٤٢ هـ وقد جاوز التسعين . وأما القاضى الفاضل فهو أبو على عبد الرحيم بن على البيسانى ثم المصرى ، كان من أئمة النثر والبلاغة ، وتولى فى شبابه ديوان الإنشاء للعاضد ، وبرع فى الكتابة براعة فائقة ، وله طائفة كبيرة من الرسائل تعتبر نماذج حقة للبلاغة الرائعة . ولما سقطت الدولة الفاطمية وزر القاضى الفاضل لصلاح الدين ، ونال لديه حظوة كبيرة ، وكتب القاضى الفاضل أيضاً تاريخ عصره فى حوليات تعرف بالمتجددات ، وتوفى سنة ٥٩٦ هـ .

وقد أورد لنا القلقشندى فى كتابه « صبح الأعشى » ، طائفة كبيرة من السجلات والمراسيم والرسائل القوية : من إنشاء هؤلاء الكتاب الأعلام ، تشهد أساليبها الرفيعة ، وبيانها الساحر ، بما بلغه النثر فى أواخر العصر الفاطمى من القوة والروعة والبهاء(١) .

هذا وقد وفد على مصر فى العصر الفاطمى طائفة من أعلام التفكير والأدب من المشرق والمغرب وكان لهم أثر قوى فى سير الحركة العقلية يومئذ .

ومن هؤلاء الأعلام الوافدين ، العلامة الأندلسى أمية بن عبد العزيز بن أبى الصلت ، وفد على مصر فى أوائل القرن السادس أيام الأفضل شاهنشاه ، وأقام حيناً بالقاهرة يتصل بمعاهدها وعلمائها وأدبائها ، وكان بارعاً فى الرياضة والفلك والموسيقى والعلوم الطبيعية ، أديباً شاعراً فائق النثر والنظم ، وقد ألف كثيراً من الكتب فى مختلف العلوم ، ووضع رسالة عن علماء مصر وأدبائها فى عصره ، وتوفى سنة ٥٢٨ هـ .

ومنهم أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى المتوفى سنة ٥٢٠ هـ . وقد وفد على مصر أيام الآمر بأحكام الله ، وألف كتابه الشهير « سراج الملوك » للمأمون وزير الآمر ، وكان نصيراً للعلوم والآداب . وكان كتاب «سراج الملوك»

---

(١) راجع صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣١٠ وما بعدها .

فتحاً جديداً فى موضوعه ، وهو السياسة الملكية التى يتناولها بإفاضة ممتعة ، ويطرق فيها أبواباً لم تطرق من قبل . وقد نوه ابن خلدون فى مقدمته بأهمية هذا الكتاب وطرافته .

ومن الشعراء الذين وفدوا على مصر أيام الدولة الفاطمية ، وتغنوا بمحاسنها ومغانيها ، أبو حامد أحمد بن محمد الأنطاكى المعروف بأبى الرقعمق الشاعر الماجن المتفنن ، وفد على مصر فى أوائل الدولة ، ومدح المعز وولده العزيز والوزير ابن كلس وتوفى سنة ٣٩٩ هـ ؛ وأبو الحسن على بن عبد الواحد البغدادى المعروف بصريع الدلا ، قدم إلى مصر أيام الحاكم بأمر الله ومدحه ، وهو صاحب المقصورة الهزلية الشهيرة التى يعارض فيها مقصورة ابن دريد ، وتوفى سنة ٤١٢ هـ ؛ وأبو اسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق شاعر المغرب ، وفد على مصر أيام الحاكم غير مرة موفداً من بلاط المغرب إلى البلاط المصرى ليعمل على توثيق الروابط بينهما ؛ ولقى من الحاكم وأخته ست الملك وافر الإكرام والرعاية ، وأشاد بمصر ومحاسنها فى عدة قصائد رائعة ، وكانت وفاته سنة ٤١٨ هـ .

ومنهم الشاعر والفقيه الأشهر أبو محمد عمارة بن أبى الحسن اليمنى ، الذى سبقت الإشارة إليه . قدم إلى مصر لأول مرة سنة ٥٥٠ هـ ، فى خلافة الفائز بالله وفى عهد وزيره الصالح طلائع بن رزيك سفيراً من قبل أمير مكة ؛ ثم وفد عليها مرة أخرى أيام العاضد بالله ، وبقى فيها حتى وفاة العاضد وسقوط الدولة الفاطمية فى سنة ٥٦٧ هـ ؛ ولم يكن عمارة شيعياً ، بل كان فقيهاً شافعياً ، ولكنه لقى من الخلافة الفاطمية ، ومن وزرائها ، من كرم الوفادة ، ومن وافر الرعاية والبر والجود ، ما غمر قلبه بالعرفان وشكر الصنيعة ، وأطلق شاعريته بروائع المديح[1] ، ولبث على ولائه للفاطميين رغم زوال دولتهم ، وأنشأ فى رثائهم قصيدته المؤثرة التى اقتبسنا بعض محتوياتها فيما تقدم . وفى سنة ٥٦٩ هـ اتهم مع جماعة من المصريين العلويين بالتآمر على صلاح الدين ، فقضى عليه بالإعدام معهم ، وأعدم صلباً . وكانت تلك المرثية الرنانة ، من أدلة اتهامه . وله عدة مؤلفات تاريخية ، منها تاريخ اليمن ، وكتاب

---

(١) صبح الأعشى ج ٣ ص ٥٣٢ .

النكت العصرية فى أخبار الوزارة المصرية ، وله أيضاً ديوان شعر فائق .

هذه لمحة موجزة فى سير الحركة الأدبية فى العصر الفاطمى ؛ ولم يكن من خاصة موضوعنا ، أن نتبسط فى التحدث عن النظم والرسوم الفاطمية ، وعن الحركة العقلية فى العصر الفاطمى ؛ ولكنا شعرنا ونحن نكتب عن عصر الحاكم بأمر الله ، وهو فترة من أغرب فترات العصر الفاطمى ، وأشدها غموضاً وخفاء وطرافة ، وأبعدها أثراً فى سير العصر كله ، أن استعراض نظم العصر ورسومه ، وخواصه السياسية والاجتماعية ، مما يلقى ضياء على كثير من نواحى العصر الذى عنينا به ، ويعاون فى فهم كثير من أحداثه وتطوراته .

وثائق وسجلات فاطمية

١

أمان جوهر الى الشعب المصرى

وهو نص الأمان الذى أصدره جوهر الصقلى فاتح مصر الى أهل مصر عند افتتاحها فى شعبان سـنة ٣٥٨ هـ منقول عن كتاب اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء للمقريزى (طبعة القاهرة) ص ١٤٨ – ١٥٣ .

بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا كتاب من جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، لجماعة أهل مصر الساكنين بها ، من أهلها ومن غيرهم ؛ إنه قد ورد من سألتموه الترسل والاجتماع معى ، وهم أبو جعفر مسلم الشريف أطال الله بقاه ، وأبو إسماعيل الرسى أيده الله ، وأبو الطيب الهاشمى أيده الله ، وأبو جعفر أحمد بن نصر أعزه الله ، والقاضى أعزه الله ؛ وذكروا عنكم أنكم التمستم كتاباً يشتمل على أمانكم ، فى أنفسكم وأموالكم وبلادكم وجميع أحوالكم ، فعرفتهم ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وحسن نظره لكم ، فلتحمدوا الله على ما أولاكم ، وتشكروه على ما حماكم ، وتدأبوا فيما يلزمكم ، وتسارعوا إلى طاعته العاصمة لكم ، العايدة بالسعادة عليكم ، وبالسلامة لكم ، وهو أنه صلوات الله عليه ، لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة ، والجيوش المظفرة ، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم ، والجهاد عنكم ، إذ قد تخطفتكم الأيدى ، واستطال عليكم المستذل ، وأطمعته نفسه بالإقتدار على بلدكم فى هذه السنة ، والتغلب عليه وأسر من فيه ، والاحتواء على نعمكم وأموالكم ، حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان المشرق ، وتأكد عزمه واشتد كلبه ، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، بإخراج العساكر المنصورة ، وبادره بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم ، ومجاهدته عنكم ، وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق الذين عمهم الخزى ، وشملتهم الذلة ، واكتنفتهم المصايب ، وتتابعت الرزايا ، واتصل عندهم الخوف ، وكثرت استغاثتهم ، وعظم ضجيجهم ، وعلا صراخهم ،

فلم يغثهم إلا من أرمضه أمرهم ، ومضه حالهم ، وأبكا عينه ما نالهم وأسهرها
ما حل بهم ، وهو مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، فرجا
بفضل الله عليه ، وإحسانه لديه ، وما عوده وأجراه عليه ،استنقاذ من أصبح
منهم فى ذل مقيم ، وعذاب أليم ، وأن يؤمن من استولى عليه المهل ، ويفرخ
روع من لم يزل فى خوف ووجل ، وآثر إقامة الحج الذى تعطل ، وأهمل
العباد فروضه وحقوقه لخوف المستولى عليهم ، وإذ لا يأمنون على أنفسهم
ولا على أموالهم ، وإذ قد أوقع بهم مرة بعـــد أخرى ، فسفكت دماؤهم
وابتزت أموالهم ، مع اعتماد ما جرت به عادته من صلاح الطرقات ، وقطع
عبث العابثين فيها ، ليطرق الناس آمنين ويسيروا مطمئنين ، ويتحفوا بالأطعمة
والأقوات ، إذ كان قد انتهى إليه صلوات الله عليه ، انقطاع طرقاتها لخوف
مارتها ، إذ لا زاجر للمعتدين ولا دافع للظالمين ، ثم تجويد السكة ، وصرفها
إلى العيار الذى عليه السكة الميمونة المنصورية المباركة وقطع الغش منها ،
إذ كانت هذه الثلاث خصال هى التى لا يتسع لمن ينظر فى أمور المسلمين
إلا إصلاحها ، واستفراغ الوسع فيما يلزمه منها ، وما أوعز به مولانا وسيدنا
أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، إلى عبده من نشر العدل ، وبسط الحق ،
وحسم الظلم ، وقطع العدوان ، ونفى الأذى ، ورفع المؤن ، والقيام فى الحق ،
وإعانة المظلوم ، مع الشفقة والإحسان ، وجميل النظر ، وكرم الصحبة ،
ولطف العشرة ، وافتقاد الأموال ، وحياطة أهل البلد ، فى ليلهم ونهارهم ،
وحين تصرفهم فى أوان ابتغاء معاشهم ، حتى لا تجرى أمورهم إلا على ما لمّ
شعثهم ، وأقام أودهم ، وأصلح بالهم وجمع قلوبهم ، وألف كلمتهم على
طاعة (وليه) مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وما أمره به
مولاه من إسقاط الرسوم الجايرة ، التى لا يرتضى صلوات الله عليه بإثباتها
عليكم ، وأن أجيزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه ،
وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية من المتوفى
بها ، فلا استحقاق لمصيرها لبيت المال ، وأن أتقدم فى رم مساجدكم وتزيينها
بالفرش والإيقاد ، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم ،
وأدرها عليهم ، ولا أقطعها عنهم ، ولا أدفعها إلا من بيت المال لا بإحالة على

من يقبض منهم ، وغير ما ذكره مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، مما ضمنه كتابه هذا من ترسل عنكم أيدهم الله ، وصانكم أجمعين بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، من أنكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم ، وتطميناً لأنفسكم ، فلم يكن لذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة ، وشريعة متبعة ، وهى إقامتكم على مذاهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد ، على ما أمر الله فى كتابه ، ونصه نبيه صلى الله عليه فى سنته ، وأجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه . ولكم على أمان الله التام العام الدايم المتصل الشامل الكامل ، المتجدد المتأكد على الأيام وكرور الأعوام ، فى أنفسكم وأموالكم وأهليكم ونعمكم وضياعكم ورباعكم وقليلكم وكثيركم ، وعلى أنه لا يعترض (عليكم) معترض ، ولا يتجنى عليكم متجن ولا يتعقب عليكم متعقب ، وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون ، ويذب عنكم ويمنع منكم ، فلا يتعرض إلى أذاكم ولا يسارع أحد فى الاعتداء عليكم ، ولا فى الاستطالة على قويكم فضلا عن ضعيفكم ، وعلى أن لا أزال مجتهداً فيما يعمكم صلاحه ويشملكم نفعه ، ويصل إليكم خيره ، وتتعرفون بركته ، وتغتبطون معه بطاعة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، ولكم على الوفا بما التزمته ، وأعطيتكم إياه ، عهد الله وغايظ ميثاقه وذمته وذمة أنبيائه ورسله وذمة الأيمة موالينا أمراء المؤمنين قدس الله أرواحهم ، وذمة مولانا وسيدنا أمير المؤمنين المعز لدين الله صلوات الله عليه ، فتصرحون بها وتعلنون بالإنصراف إليها ، وتخرجون إلى وتسلمون علىّ وتكونون بين يدى ، إلى أن أعبر الجسر وأنزل من المناخ المبارك ، وتحافظون من بعد على الطاعة ، وتثابرون عليها وتسارعون إلى فروضها ، ولا تخذلون ولياً لمولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وتلزمون ماأمرتم به ، وفقكم الله وأرشدكم أجمعين .

وكتب جوهر القايد الأمان بخطه فى شعبان سنة ثمان وخمسين وثلثماية ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين الطاهرين الأخيار ؛ وكتب بخطه فى هذا الكتاب : « قال جوهر الكاتب عبد أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين وأبنائه الأكرمين ، كتبت هذا الأمان على ما تقدم به أمر مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه ، وعلى الوفا بجميعه لمن أجاب من أهل البلد وغيرهم ، على ما شرطت فيه ، والحمد الله رب العالمين ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ، وصلى الله على محمد وعلى آله الطيبين » .

٢

كتاب المعز لدين الله الى الحسن الأعصم زعيم القرامطة

وهو نص الكتاب الذى أرسله الخليفة المعز لدين الله الى الحسن بن أحمد القرمطى الملقب بالأعصم حينما زحف بقواته على مصر ؛ وفيه يستعرض المعز خواص الإمامة الفاطمية ومميزاتها ودلالاتها وينوه بقدسيتها وقدرتها الروحية ، ويشير الى ما كان عليه القرامطة من الطاعة للخلافة الفاطمية ، ثم نكثهم لها ، ويتوعد القرامطة بسوء العاقبة . منقول ومكمل عن النسخة المخطوطة من كتاب اتعاظ الحنفاء للمقريزى المحفوظة باستانبول (اللوحات ٣٢ و ٣٣ و ٣٤) .

من عبد الله ووليه وخيرته وصفيه ، معد أبى تميم المعز لدين الله أمير المؤمنين ، وسلالة خير النبيين ، ونجل علىّ أفضل الوصيين ، إلى الحسن بن أحمد .

بسم الله الرحمن الرحيم ، رسوم النطقا ومذاهب الأيمة والأنبيا ، ومسالك الرسل والأوصيا ، السالف والآنف منا ، صلوات الله علينا وعلى آباينا أولى الأيدى والأبصار ، فى متقدم الدهور والأكوار وسالف الأزمان والأعصار ، عند قيامهم بأحكام الله ، وانتصابهم لأمر الله ، الابتدا بالإعذار ، والانتها بالإنذار ، قبل إنفاذ الأقدار ، فى أهل الشقاق والأصار ، لتكون الحجة على من خالف وعصى ، والعقوبة على من باين وغوى ، حسب ما قال الله جل وعز « وما كُنّا معذِّبين حتى نبعث رسولا » و « إن من أمة إلا خلا فيها نذير » وقوله سبحانه « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرةٍ أنا ومن

اتّبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين ، فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به ، فقد اهتدوا ، وإن تـولّـوا فإنما هم فى شقاق » . أما بعد أيها الناس ، فإنا نحمد الله بجميع محامده ، ونمجده بأحسن مماجده ، حمداً دائماً أبداً ، ومجداً عالياً سرمداً ، على سبوغ نعمائه وحسن بلائه ، ونبتغى إليه الوسيلة بالتوفيق ، والمعونة على طاعته ، والتسديد فى نصرته ، ونستكفيه ممايلة الهوى ، والزيغ عن قصد الهدى ، ونستزيد منه إتمام الصلوات ، وإفاضات البركات ، وطيب التحيات ، على أوليائه الماضين ، وخلفايه التالين ، منا ومن آبائنا الراشدين المهديين المنتخبين ، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون . أيها الناس ، « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى فعليها » ليذكر من يذكر وينذر من أبصر واعتبر . أيها الناس ، إن الله جل وعز إذا أراد أمراً قضاه ، وإذا قضاه أمضاه ، وكان من قضائه فينا قبل التكوين أن خلقنا أشباحاً ، وأبرزنا أرواحاً ، بالقدرة مالكين ، وبالقوة قادرين ، حين لا سماء مبنية ، ولا أرض مدحية ، ولا شمس تضىء ، ولا قمر يسرى ، ولا كوكب يجرى ، ولا ليل يجن ، ولا أفق يكن ، ولا لسان ينطق ، ولا جناح يخفق ، ولا ليل ولا نهار ، ولا فلك دوار ، ولا كوكب سيار . فنحن أول الفكرة وآخر العمل ، بقدر مقدور ، وأمر فى القدم مبرور ؛ فعند تكامل الأمر ، وصحة العزم ، أنشأ الله عز وجل المنشآت ، وأبدا الأمهات من الهيولات ، طبعنا أنواراً وظلماً ، وحركة وسكوناً ؛ فكان من حكمه السابق فى علمه ما ترون من فلك دوار ، وكوكب سيار ، وليل ونهار ، وما فى الآفاق من آثار معجزات وأقدار باهرات ، وما فى الأقطار من الآثار ، وما فى النفوس من الأجناس والصور والأنواع ، ومن كثيف ولطيف ، وموجود ومعدوم ، وظاهر وباطن ، ومحسوس وملموس ، ودان وشاسع ، وهابط وطالع ؛ كل ذلك لنا ، ومن أجلنا دلالة علينا ، وإشارة إلينا يهدى به الله من كان له لب سجيح ، ورأى صحيح ؛ قد سبقت له منا الحسنى فدان بالمعنى . ثم انه جل وعلا أبرز من مكنون العلم ومخزون الحكم ، آدم وحواء أبوين ذكراً وأنثى سبباً لإنشاء البشرية ، ودلالة لإظهار القدرة القوية ؛ وزاوج بينهما ، فتوالد الأولاد ، وتكاثرت الأعداد ؛ ونحن نتقل فى الأصلاب الزكية ،

والأرحام الطاهرة المرضية ، كلما ضمنا صلب ورحم ، أظهر منا قدرة وعلم ، وهلم جرا ، إلى آخر الجد الأول والأب الأفضل سيد المرسلين وإمام النبيين أحمد ومحمد صلوات الله عليه وعلى آله فى كل ناد ومشهد ، فحسن آلاؤه ، وبان غناؤه ، وأباد المشركين ، وقصم الظالمين وأظهر الحق ، واستعمل الصدق ، وظهر بالأحَدِيَّة ، ودان بالصمديَّة ؛ فعندها سقطت الأصنام ، وانعقد الإسلام ، وانتشر الإيمان ، وبطل السحر والقربان ، وهربت الأوثان ، وأتى بالقرآن شاهداً (بالحق) والبرهان فيه خبر ما كان وما يكون إلى يوم الوقت المعلوم ، مبيناً عن كتب تقدمت فى صحف قد تنزلت تبياناً لكل شىء ، وهدى ورحمة ونوراً وسراجاً منيراً .

وكل ذلك دلالات لنا ومقدمات بين أيدينا ، وأسباب لإظهار أمرنا ، هدايات وآيات وشهادات ، وسعادات قدسيات ، إلاهيات أزليات ، كاينات منشآت ، مبديات معيدات ؛ فما من ناطق نطق ، ولا نبى بعث ، ولا وصى ظهر ، إلا وقد أشار إلينا ، ولوح بنا ، ودل علينا فى كتابه وخطابه ، ومنار أعلامه ومرموز كلامه ، فيما هو موجود غير معدوم ، وظاهر وباطن يعلمه من سمع الندا ، وشاهد ورأى من الملأ الأعلى ، فمن أغفل منكم أو نسى أو ضل أو غوى ، فلينظر فى الكتب الأولى ، والصحف المنزلة ، وليتأمل آى القرآن وما فيه من البيان ، وليسأل أهل الذكر إن كان لا يعلم ؛ فقد أمر الله عز وجل بالسؤال فقال « فاسئلوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . وقال سبحانه « فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » . ألا تسمعون قول الله حيث يقول « وجعلها كلمة باقية فى عقبه لعلهم يرجعون » . وقوله تقدست أسماؤه « ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم » . وقوله له العزة « شرع لكم من الدين ما وصينا به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه » ، ومثل ذلك فى كتاب الله تعالى جده كثير ، ولولا الإطالة لأتينا على كثير منه . ومما دل به علينا وأنبأ به عنا قوله عز وجل « كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية

يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار ، نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم » . وقوله فى تفضيل الجد الفاضل والأب الكامل محمد صلى الله عليه وعليه (السلام) إعلاما بجليل قدرنا وعلو أمرنا « ولقد آتيناك سبعاً من المثانى والقرآن العظيم » ، هذا مع ما أشار ولوح وأبان وأوضح فى السر والإعلان ، من كل مثل مضروب ، وآية وخبر وإشارة ودلالة ، حيث يقول « وتلك الأمثال نضربهـــا للناس وما يعقلها إلا العالمون» . وقال سبحانه وتعالى « إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب » . وقوله عز وجل « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق » . فإن اعتبر معتبر ، وقام وتدبر ما فى الأرض وما فى الأقطار والآثار ، وما فى النفس من الصور المختلفات ، والأعضاء الموتلفات ، والآيات والعـــلامات والاتفاقات ، والاختراعات والأجناس والأنواع ، وما فى كون الإبداع من الصور البشرية والآثار العلوية ، وما يشهد به حروف المعجم والحساب المقوم ، وما جمعته الفرايض والسنن ، وما جمعته السنون من فصل وشهر ويوم ، وتصنيف القرآن من تحزيبه وأسباعه ومعانيه وأرباعه ، وموضع الشرايع المتقدمة والسنن المحكمة ، وما جمعته كلمة الإخلاص فى تقاطيعها وحروفها وفصولها ، وما فى الأرض من إقليم وجزيرة وبر وبحر وسهل وجبل ، وطول وعرض وفوق وتحت ، الى ما اتفق عليه فى جميع الحروف من أسما المدبرات السبعة والأيام السبعة النطقا ، والأوصيا والخلفا ، وما صدرت به الشرايع من فرض وسنة حدوثه ، وما فى الحساب من آحاد وأفراد وأزواج وأعداد تثاليثه وترابيعه وإثنا عشريته وتسابيعه ، وأبواب العشرات والمئين والألوف ، وكيف تجتمع وتشتمل على ما اجتمع عليه ما تقدم من شاهد عدل ، وقول صدق وحكمة حكيم وترتيب عليم ، فلا إله إلا هو له الأسماء الحسنى والأمثال العلى ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها . وفوق كل ذى علم عليم . ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ، ما نفدت كلمات الله ، وليعلم من الناس من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد ، أنا كلمات الله الأزليات ، وأسماؤه التامات ،وأنوار ه الشعشعانيات ، وأعلامه النيرات .

ومصابيحه البينات ، وبدايعـه المنشآت ، وآياته الباهرات ، وأقداره النافذات ، لا يخرج منا أمر ولا يخلو منا عصر ، وأنا لكما قال الله سبحانه وتعالى « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ولا خمسة إلا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة إن الله بكل شيء عليم » . فاستشعروا النظر فقد نقر فى الناقور وفار التنور ، وأتى النذير بين يدى عذاب شديد ، فمن شاء فلينظر ومن شاء فليتدبر ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين . وكتابنا هذا من فسطاط مصر وقد جئناها على قدر مقدور ، ووقت مذكور ، فلا نرفع قدما ولا نضع قدما ، إلا بعلم موضوع وحكم مجموع ، وأجل معلوم وأمر قد سبق ، وقضاء قد تحقق ، فلما دخلنا وقد قدر المرجفون من أهلها أن الرجفة تنالهم والصعقة تحل بهم ، تبادروا وتعادوا شاردين ، وجلوا عن الأهل والحريم والأولاد والرسوم ، وإنا لنار الله الموقدة التى تطلع على الأفئدة فلم أكشف لهم خبراً ولا قصصت لهم أثراً . ولكنى أمرت بالنـــداء وأذنت بالأمان لكل باد وحاضر ومنافق ومشاقق ؛ وعاص ومارق ، ومعاند ومسابق ، ومن أظهر صفحته وأبدى لى سوءته ، فاجتمع الموافق والمخالف والباين والمنافق ، فقابلت الولى بالإحسان والمسيء بالغفران ، حتى رجع الناد والشارد ، وتساوى الفريقان واتفق الجمعان ، وانبسط القطوب ، وزال الشحوب ، جريا على العادة بالإحسان ، والصفح والامتنان ، والرأفة والغفران ، فتكاثرت الخيرات وانتشرت البركات ؛ كل ذلك بقدرة ربانية وإمرة برهانية ، فاقمت الحدود بالبينة والشهود ، فى العرب والعبيد ، والخاص والعام والبادى والحاضر ، بأحكام الله عز وجل ، وآدابه وحقه وصوابه ، فالولى آمن جذل ، والعدو خائف وجل . فأما أنت الغادر الخاين الناكث البائن ، عن هدى آبايه وأجداده ، المنسلخ من دين أسلافه وأنداده ، والموقد لنار الفتنة والخارج عن الجماعة والسنة فلم أغفل أمرك ، ولا خفى عنى خبرك ، ولا استتر دونى أثرك ، وإنك منى بمنظر ومسمع كما قال الله جل وعز « أنى معكما أسمع وأرى » « ماكان أبوك امرأ سوء وماكانت أمك بغيا » . فعرفنا على أى رأى أصلت وأى طريق سلكت ؛ أماكان لك بجدك أبى سعيد أسوة ، وبعمل أبى طاهر قدوة ؛ أما

نظرت فى كتبهم وأخبارهم ، ولا قرأت وصاياهم وأشعارهم ؛ أكنت غايباً عن ديارهم وما كان من آثارهم ؛ ألم تعلم أنهم كانوا عباداً لنا أولى بأس شديد وعزم سديد وأمر رشيد ، وفعل حميد ، نفيض إليهم موادنا ، وننشر عليهم بركاتنا ؛ حتى ظهروا على الأعمال ودان لهم كل أمير ووال ، ولقبوا بالسيادة فسادوا منحة منا ، وإسما من أسمائنا ، فعلت أسماؤهم واستعلت هممهم ، واشتد عزمهم ، فسارت إليهم وفود الآفاق ، وامتدت نحوهم الأحداق ، وخضعت لهيبتهم الأعناق ، وخيف منهم الفساد والعناد ، وأن يكونوا لبنى العباس أضداد ، فعبيت الجيوش وسار إليهم كل خميس بالرجال المنتخبة والعدد المهذبة ، والعساكر الموكبة ، فلم يلقهم جيش إلا كسروه ولا رئيس إلا أسروه ، وعلى عسكر إلا كسروه ؛ وألحاظنا ترمقهم ونصرنا يلحقهم ، كما قال الله عز وجل « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا فى الحياة الدنيا » « وإن جندنا لهم الغالبون وإن حزبنا لهم المنصورون » .

فلم يزل ذلك دأبهم وعين الله ترمقهم : إلى أن اختار لهم ما اختاره من نقلهم من دار الفنا إلى دار البقا ، ومن نعيم يزول إلى نعيم لا يزول ، فعاشوا محمودين ، وانتقلوا مفقودين إلى روح وريحان ، وجنات النعيم ، فطوبى لهم وحسن مآب . ومع هذا فما من جزيرة فى الأرض ولا إقليم ، إلا ولنا فيه حجج ودعاة يدعون إلينا ، ويدلون علينا ويأخذون بيعتنا ، ويذكرون رجعتنا ، وينشرون علمنا ، وينذرون بأسنا ، ويبشرون بأيامنا ، بتصاريف اللغات واختلاف الألسن ؛ وفى كل جزيرة وإقليم رجال منهم يفقهون وعنهم يأخذون وهو قول الله عز وجل « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم » وأنت عارف بذلك ؛ فيا أيها الناكث الحانث ، ما الذى أرداك وصدك ، أبشيء شككت فيه أم أمر استربت به ، أم كنت خلياً من الحكمة وخارجاً عن الكلمة ؛ فأزالك وصدك وعن السبيل ردك ، إن هى إلا فتنة لكم ومتاع إلى حين ؛ وايم الله لقد كان الأعلى لجدك ، والأرفع لقدرك والأفضل لمجدك ، والأوسع لوفدك ، والأنضر لعودك ، والأحسن لعذرك ، الكشف عن أحوال سلفك وإن خفيت عليك ، والقفو لآثارهم وإن عميت لديك ، لتجرى على سننهم وتدخل فى زمرهم ، وتسلك فى مذهبهم ، آخذاً

بأمورهم فى وقتهم وزيهم فى عصرهم ، فتكون خلفاً قفا سلفاً ، بجد وعزم مؤتلف وأمر غير مختلف ، لكن غلب الران على قلبك ، والصدى على لبك ؛ فأزالك عن الهدى ، وأزاغك عن البصيرة والضيا ، وأمالك عن مناهج الأوليا ، وكنت من بعدهم كما قال الله تعالى « فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً » ثم لم تقنع فى انتكاسك ، وترديتك فى ارتكاسك ، وارتباكك وانعكاسك ، من خلافك الآباء ومشيك القهقرى ، والنكوص على الأعقاب ، والتسمى بالألقاب ، بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ؛ وعصيانك مولاك وجحدك ولاك ، حتى انقلبت على الأدبار وتحملت عظيم الأوزار ، لتقيم دعوة قد درست ودولة قد طمست . إنك لمن الغاوين وإنك لفى ضلال مبين ؛ أم تريد أن ترد القرون السالفة ، والأشخاص الغابرة ؛ أما قرأت كتاب السفر وما فيه من نص وخبر ، فأين تذهبون إن هى إلا حياتكم الدنيا تموتون وتظنون أنكم لستم بمبعوثين ، قل بلى وربى لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ؛ أما علمت أن المطيع آخر ولد العباس وآخر المترائس فى الناس ، أما تراهم كأنهم أعجاز نخل خاوية فهل ترى لهم من باقية ، ختم والله الحساب وطوى الكتاب ، وعاد الأمر إلى أهله والزمان إلى أوله ، وأزفت الآزفة ووقعت الواقعة ، وقرعت القارعة ، وطلعت الشمس من مغربها ، والآية من وطنها ، وجىء بالملائكة والنبيين ، وخسر هنالك المبطلون ؛ هنالك الولاية لله الحق والملك لله الواحد القهار ، فله الأمر من قبل ومن بعد . ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء « يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى وماهم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد » فقد ضل عملك وخاب سعيك ، وطلع نحسك وغاب سعيك ، حين آثرت الحياة الدنيا على الآخرة ، ومال بك الهوى ، فأزال عنك الهدى ؛ فإن تكفر أنت ومن فى الأرض جميعاً فإن الله هو الغنى الحميد . ثم لم يكفك ذلك مع بلائك وطول شقايك ، حتى جمعت أرجاسك (وأنجاسك) وحشدت أوباشك وأقلاسك ، وسرت قاصداً إلى دمشق وبها جعفر بن فلاح فى فئة قليلة من كتامة وزويلة ، فقتلته وقتلتهم جرأة على الله ، ورداً لأمره ، واستبحت أموالهم

وسبيت نساءهم ، وليس بينك وبينهم ترة ، ولا ثار ولا حقد ولا إصرار ، فعل بنى الأصفر والترك والخزر ؛ ثم سرت أمامك ولم ترجع ، وأقمت على كفرك ولم تقلع ، حتى أتيت الرملة وفيها سعادة بن حيان فى زمرة قليلة ، وفرقة يسيرة ، فاعتزل عنك إلى يافا مستكفياً شرك ، وتاركاً حربك ، فلم تزل ماكثاً على نكثك ، باكراً وصابحاً ، وغادياً رايحاً ، تقعد لهم بكل مقعد ، وتأخذ بكل مرصد ، وتقصدهم بكل مقصد كأنهم ترك وروم وخزر ، لا ينهاك عن سفك الدماء دين ، ولا يردعك عهد ولا يقين ، قد استوعب من الردى حيزومك ، وانقسم على الشقاء خرطومك ، أما كان لك مذكر وفى بعض أفعالك مزدجر ؛ أوما كان لك فى كتاب الله عز وجل معتبر حيث يقول « ومن قتل مؤمنا متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما » ، فحسبك بها فعلة يلقاك يوم ورودك وحشرك ، حين لا مناص ، ولا لك من الله خلاص ، ولم تستقبلها وكيف تستقبلها وأنى لك مقيلها ، هيهات هيهات هلك الضالون وخسر هنالك المبطلون ، وقل النصير وزال العشير ، ومن بعد ذلك تماديك فى غيك ومقامك فى بغيك ، عداوة لله ولأوليائه وكفراً لهم وطغياناً وعمياً وبهتاناً ؛ أتراك تحسب أنك مخلد أم لأمر الله راد ، أم يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، والله يتم نوره ولو كره الكافرون . هيهات لا خلود لمذكور ولا مرد لمقدور ، ولا طافىء لنور ، ولا مقر لمولود ولا فرار لموعود ، لقد خاب منك الأمل ، وحان لك الأجل ، فإن شئت فاستعد للتوبة بابا وللنقلة جلبابا ، فقد بلغ الكتاب أجله ، والوالى أمله ، وقد رفع الله قبضته عن أفواه حكمته ، ونطق من كان بالأمس صامتاً ، ونهض من كان هناك خائفاً ، ونحن أشباح فوق الأمر ، والنفس دون العقل ، وأرواح فى القدس نسبة ذاتية وآيات لدنية نسمع ونرى ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وتراهم ينظرون إليك وهم لا يبصرون . ونحن معرضون ثلاث خصال والرابعة أردى لك ، وأشقى لبالك ، وما أحسبك تحصل إلا عليها ، فاختر إما قدت نفسك لجعفر بن فلاح وأتباعك ، بأنفس المستشهدين معه بدمشق والرملة من رجاله ورجال سعادة بن حيان

ورد جميع ما كان لهم من رجال وكراع ومتاع إلى آخر حبة ، من عقال ناقة ، وخطام بعير ، وهي أسهل ما يرد عليك ؛ وإما أن تردهم أحياء فى صورهم وأعيانهم وأموالهم وأحوالهم ولا سبيل لك إلى ذلك ولا اقتدار ؛ وإما سرت ومن معك بغير ذمام ولا أمان فاحكم فيهم وفيك بما حكمت وأجريكم على (إحدى) ثلاث ؛ إما قصاص وإما منا بعد وإما فدى ، فعسى أن يكون تمحيصاً لذنوبك وإقالة لعثرتك ؛ وإن أبيت إلا فعل اللعين فاخرج منها فإنك رجيم وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين ؛ أخرج منها فما يكون لك أن تتكبر فيها وقيل اخسئوا فيها ولا تكلمون ، فما أنت إلا كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلا سما تظللك ولا أرض تقلك ، ولا ليل يجنك ، ولا نهار يكنك ، ولا علم تسترك ، ولا فئة تنصرك ، قد تقطعت بكم الأسباب ، وأعجزكم الذهاب ، فأنتم كما قال الله عز وجل ، مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، فلا ملجأ لكم من الله يومئذ ولا منجا منه ، وجنود الله فى طلبك قافية ، لا تراك ذو أحقاد وثوار أهجاد ورجال أنجاد ، فلا تجد فى السما مصعدا ولا فى الأرض مقعداً ولا فى البر ولا فى البحر منهجا ولا (فى) الجبال مسلكا ولا إلى الهوى سلماً ولا إلى مخلوق ملتجأ . حينئذ تفارقك أصحابك ، ويتخلى عنك أحبابك وتخذلك أترابك ، فتبقى وحيداً فريداً وخايفاً طريداً ، وهايماً شريداً قد ألجمك العرق وكظك القلق ، وأسلمتك ذنوبك وازدراك خزيك ، كلا لا وزر إلى (ربك)[1] يومئذ المستقر ، هذا يوم لا ينطقون ، ولا يؤذن لهم فيعتذرون ، وجوه يومئذ عليها غبرة ، ترهقها قترة ، أولئك هم الكفرة الفجرة . واعلم أننا لسنا بممهلوك ولا مهملوك إلا ريث ما يرد كتابك ، ونقف على فحوى خطابك ، فانظر لنفسك يا شقى ليومك ومعادك قبل انغلاق باب التوبة ، وحلول وقت النوبة ، حينما ينفع نفساً إيمانها ، إن لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً . وإن كنت على ثقة من أمرك ، ومهل فى أمن عصرك وعمرك ، فاستقر بمركزك ، واربع على ضلعك ، فلينالك ما نال من كان قبلك من عاد وثمود وأصحاب الأيكة

(١) وهنا يقف النص الوارد بالنسخة المطبوعة من « اتعاظ الحنفاء » (سـواء تلك التى نشرت بالقدس أو بالقاهرة) ، والتكملة من النسخة المخطوطة (لوحة ٣٤ ب) .

وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد ، فلنأتينكم بجنود لا قبل لكم بها ، ولنخرجنكم منها أذلة وأنتم صاغرون ، بأولى بأس شديد ، وعزم سديد ، أذلة على المؤمنــين ، أعزة على الكافرين ، بقلوب تقية ، وأرواح نقية ، وأنفس أبية ، يقدمهم النصر ، ويشملهم الظفر ، تمدهم ملائكة غلاظ شداد ، لا يعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون ما يؤمرون . فما أنت وقومك إلا كمناخ ضخم ، أو كمراح غنم . فإما نرينك الذى وعدناهم فإنا عليهم لمقتدرون . وأنت فى القفص مصفودا ، ونتوفينك ، فإلينا مرجعهم ، فعندئذ ، تخسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . فأنذركم ناراً تلظى لا يصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى ، فإنهم يوم يرون ما يوعدون ، لم يلبثوا إلا ساعة من نهار بلاغ فهل يهابلك إلا القوم الفاسقون ، فليتدبر من كان واتدبر ، وليتفكر من كان واتفكر ، وليحذر يوم القيامة ، من الحسرة والندامة ، أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى حب الله ، ويا حسرتا على ما فرطنا ، ويا ليتنا نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل ، هيهات غلبت عليكم شقاوتكم وكنتم قوماً بوارا . والسلام على من اتبع الهدى ، وسلم من عواقب الردى ، وانتمى إلى الملأ الأعلى ، وحسبنا الله وكفى ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ، ونعم المولى ونعم النصير ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على نبينا النبى والطيبين من عترته ، وسلم تسليما » .

فأجاب الحسن الأعصم بما نصه :

« من الحسن بن أحمد القرمطى الأعصم ، بسم الله الرحمن الرحيم ، وصل إلينا كتابك الذى كثر تفصيله ، وقل تحصيله ، ونحن سايرون على أثره والسلام ، وحسبنا الله ونعم الوكيل » .

٣

سجل حاكمى بتولية قاضى القضاة

وهو نص السجل الصادر فى سنة ٣٨٩ هـ عن الحاكم بأمر الله، بتولية الحسين بن على بن النعمان قضاء الديار المصرية وأجناد الشام وبلاد المغرب مع النظر فى دور الضرب والعيار وأمر الجوامع والمساجد . منقول عن صبح الأعشى ج ١٠ ص ٣٨٥ – ٣٨٨

هذا ما عهد عبد الله ووليه المنصور أبو على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين ، للقاضى حسين بن على بن النعمان حين ولاه الحكم بالمعزية القاهرة ومصر ، والإسكندرية وأعمالها ، والحرمين حرسهما الله تعالى ، وأجناد الشام ، وأعمال المغرب ، وإعلاء المنابر ، وأئمة المساجد الجامعة ، والقومة عليها والمؤذنين بها ، وسائر المتصرفين فيها وفى غيرها من المساجد ، والنظر فى مصالحها جميعاً ، ومشارفة دار الضرب وعيار الذهب والفضة ، مع ما اعتمده أمير المؤمنين وانتحاه ، وقصده وتوخاه ، من اقتفائه لآثاره ، وانتهائه إلى إيثاره ، فى كل علية للدولة ينشرها ويحييها ، ودنية من أهل القبلة يدثرها ويعفيها ؛ وما التوفيق إلا بالله ولى أمير المؤمنين عليه توكله فى الخيرة له ولسائر المسلمين فيما قلده إياه من أمورهم وولاه .

أمره أن يتقى الله عز وجل حق التقوى ، فى السر والجهر والنجوى ، ويعتصم بالثبات واليقين والنهى ، وينفصم من الشبهات والشكوك والهوى ؛ فإن تقوى الله تبارك وتعالى موئل لمن وئل إليها حصين ، ومعقل لمن اقتفاها أمين ، ومعول لمن عول عليها مكين ؛ ووصية الله التى أشاد بفضلها ، وزاد فى سناها بما عهد أنه من أهلها فقال تبارك وتعالى : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين » .

وأمره ألا ينزل ما ولاه أمير المؤمنين (إياه) من الأحكام فى الدماء والإشعار والإبشار والفروج والأموال ، (عن) منزلته العظمى من حقوق الله المحرمة ، وحرماته المعظمة ، وبيناته المبينة فى آياته المحكمة ؛ وأن يجعل كتاب الله عز وجل وسنة جدنا محمد خاتم الأنبياء والمأثور عن أبينا على سيد الأوصياء ،

وآبائنا الأئمة النجباء ، — صلى الله على رسوله وعليهم — قبلة لوجهه إليها يتوجه . وعليها يكون المتجه . فيحكم بالحق ، ويقضى بالقسط ، ولا يحكم الهوى على العقل ، ولا القسط على العدل ، إيثاراً لأمر الله عز وجل حيث يقول : « فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب » : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » .

وأمره أن يقابل ما رسمه أمير المؤمنين وحده لفتاه برجوان ، من إعزازه والشد على يده ، وتنفيذ أحكامه وأقضيته ؛ والقصر من عنان كل متطاول على الحكم . والقبض من شكائمه ، بالحق المفترض لله جل وعز ولأمير المؤمنين عليه . من ترك المحاملة فيـــه . والمحاباة لذى رحم وقربى ، وولى للدولة أو مولى ؛ فالحكم لله ولخليفته فى أرضه ، والمستكين له لحكم الله وحكم وليه يستكين ، والمتطاول عليه ، والمباين للإجابة إليه . حقيق بالإذالة والنهوض ؛ فليتق الله أن يستحيى من أحد فى حق له ، « والله لا يستحى من الحق » .

وأمره أن يجعل جلوسه للحكم فى المواضع الضاحية للمتحاكمين ، ويرفع عنهم حجابه . ويفتح لهم أبوابه ، ويحسن لهم انتصابه ، ويقسم بينهم لحظه ولفظه ، قسمة لا يحابى فيها قوياً لقوته ، ولا يردى فيها ضعيفاً لضعفه ؛ بل يميل مع الحق ويجنح إلى جهته ، ولا يكون إلا مع الحق وفى كفته ؛ ويذكر بموقف الخصوم ومحاباتهم بين يديه موقفه ومحاباته بين يدى الحكم العدل الديان « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه » .

وأمره أن ينعم النظر فى الشهود الذين إليهم يرجع ، وبهم يقطع فى منافذ القضايا ومقاطع الأحكام ، ويستشف أحوالهم استشفافاً شافياً ، ويتعرف دخائلهم تعرفاً كافياً ، ويسأل عن مذاهبهم وتقلبهم فى سرهم وجهرهم ، والجلى والخفى من أمورهم ، فمن وجده منهم فى العدالة والأمانة ، والنزاهة والصيانة ، وتحرى الصدق ، والشهادة بالحق ، على الشيمة الحسنى ، والطريقة المثلى (أبقاه) ، وإلا كان بالإسقاط للشهادة أولى ؛ وأن يطالع حضرة أمير

المؤمنين بما يبدو له فيمن يعدله أو يرد شهادته ولا يقبله ، ليكون فى الأمرين على ما يحد له ويمثله ، ويأمن فيما هذه سبيله كل خلل يدخله ؛ إذ كانت الشهادة أس الأحكام، وإليها يرجع الحكام ، والنظر فيمن يؤهل لها أحق شىء بالإحكام ؛ قال الله تقدست أسماؤه : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » . وقال تعالى : « والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراماً » .

وأمره أن يعمل بأمثلة أمير المؤمنين له فيمن يلى أموال الأيتام والوصايا وأولى الخلل فى عقولهم ، والعجز عن القيام بأموالهم ؛ حتى يجوز أمرها على ما يرضى الله ووليه من حياطتها ، وصيانتها من الأمناء عليها ، وحفظهم لها ، ولفظهم لما يحرم ولا يحل أكله منها ؛ فيتبوأ عند الله بعداً ومقتاً ، آكل الحرام والموكل له سحتاً ؛ قال الله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيرا » .

وأمره أن يشارف أئمة المساجد والقومة عليها ، والخطباء بها والمؤذنين فيها ، وسائر المتصرفين فى مصالحها ، مشارفة لا يدخل معها خلل فى شىء يلزم مثله ، من تطهير ساحتها وأفنيتها ، والاستبدال بما تبذل من حصرها فى أحيانها ، وعمارتها بالمصابيح فى أوقاتها ، والإنذار بالصلوات فى ساعاتها ، وإقامتها لأوقاتها ، وتوفيتها حق ركوعها وسجودها ، مع المحافظة على رسومها وحدودها ، من غير اختراع ولا اختلاع لشىء منها : « إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً » .

وأمره أن يرعى دار الضرب وعيار الذهب والفضة ، بثقات يحتاطون عليهما من كل لبس ، ولا يمكنون المتصرفين فيهما من سبب يدخل على المعاملين بهما شيئاً من الوكس ؛ إذ كان بالعين والورق تتناول الرباع والضياع والمتاع ، ويبتاع الرقيق ، وتنعقد المناكح وتتقاضى الحقوق ؛ فدخول الغش والدخل فيما هذه سبيله جرحة للدين ، وضرر على المسلمين ، يتبرأ إلى الله منهما أمير المؤمنين .

وأمره أن يستعين على أعمال الأمصار التى لا يمكنه أن يشاهدها ، بأفضل وأعلم وأرشد وأعمد من تمكنه الاستعانة به على ما طوقه أمير المؤمنين فى

استعماله . قال الله عز وجل : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » .

هذا ما عهد أمير المؤمنين فأوف بعهده ، تهتد بهديه ، وترشد برشده ، وهذا أول إمرة أمرها لك فاعمل بها ، وحاسب نفسك قبل حسابها ؛ ولا تدع من عاجل النظر لها أن تنظر لمآبها : « يوم تأتى كل نفس تجادل عن نفسها وتوفى كل نفس ما عملت وهم لا يظلمون » .

وكتب فى يوم الأحد لسبع ليالى بقين من صفر سنة ٣٨٩ .

* * *

نص خطاب الحاكم بأمر الله الى الحسين بن النعمان قاضى القضاة ، كتبه إليه فى سنة ٣٩١ هـ ، لما كثر النزاع بينه وبين عبد العزيز بن النعمان قاضى القاهرة . منقول عن اتعاظ الحنفاء (المخطوط) لوحة ٥٧ ا .

بعد البسملة : « يا حسين ، أحسن الله عليك . اتصل بنا ما جرى من شناعات العوام ، ومن لا خير فيه وإرهاصهم ، فأنكرنا أن يجرى مثله فيمن يحل محلك من خدمتنا ، إذ أنت قاضينا وداعينا وثقتنا ، ونحن نتقدم بما يزيل ذلك ، ولم نجعل لأحد غيرك نظراً فى شىء من القضايا و الحكم ، ولا فى شىء مما استخدمتك فيه ، ولا مكاتبة أحد من خلفائك بالحضرة وغيرها ، وساير النواحى ، ولا أن نكاتب أحداً منهم غيرك ، ومن يسمى غيرك بالقضاء ، فذلك على المجاز فى اللفظ لا على الحقيقة . وقد منعنا غيرك أن يسجل فى شىء : فنتقدم الى جميع الشهود والعدول بأن لا يشهدوا فى سجل لأحد سواك ، وإن تشاجر خصمان ، فدعى أحدها إليك ، ودعى الآخر إلى غيرك ، كان الداعى الى غيرك عليه الرجوع إليك طايعاً أو مكرهاً . فأجر على ما أنت عليه من تنفيذ القضايا والأحكام ، مستعيناً بالله عز وجل ، ثم بنا ؛ ولك من جميل رأينا ما يسعدك فى الدنيا والآخرة ، وقد أذنا لك فى مكاتبة جميع من يكاتب القاضى بقاضى القضاة كما جعلناك ، وتكاتب من يكاتبه بذلك ، وتكتب به فى سجلاتك ؛ فاعلم ذلك ، وأشهر أمرنا بجميع ما يقتضيه هذا التوقيع ليمتثل ولا يتجاوز . وفقك الله لرضاه ورضانا ، وأيدك على ذلك ، وأعانك عليه إن شاء الله تعالى ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله ؛ وسلم تسليما » .

٤

نص السجل الذى أصدره الحاكم بأمر الله عقب مقتل برجوان

وذلك فى ٢٧ ربيع الثانى سنة ٣٩٠ ﻫ ، منقول عن كتاب « اتعاظ الحنفاء » (مخطوط استانبول) لوحة ٥٤ ب و ٥٥ ا .

« من عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بالله أمير المؤمنين ، الى سائر من شهد الصلاة الجامعة فى مساجد القاهرة المعزية ومصر والجزيرة ، سلام عليكم معاشر المسلمين المصلين فى يومنا هذا فى الجوامع ، وساير الناس كافة أجمعين . فإن أمير المؤمنين يحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله إذ يصلى على جده محمد خاتم النبيين وسيد المرسلين ، وكل أهل البيت الطاهرين . أما بعد فالحمد لله الذى قال ، وقوله الحق المبين « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ، فسبحان الله رب العرش عما يصفون ، لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون » . يحمده أمير المؤمنين على ما أعطاه من خلافته ، وجعل إليه فيها دون بريته من الضبط والقبض ، والإبرام والنقض . معاشر الناس ، إن برجوان كان فيما مضى عبداً ناصحا أرضى أمير المؤمنين حيناً ، فاستخدمه كما يشاء فيما يشاء وفعل به ماشاء ، كما سبق فى العلوم ، وجاز عليه فى المحتوم ، طالباً منه عز وجل ، « ولو بسط الله الرزق لعباده ، لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزله بقدر ما يشاء إنه بعباده خبير بصير » . ولقد كان أمير المؤمنين ملّكه ، فلما أساء ألبسه النقم لقول الله تعالى : « فلما آسفونا انتقمنا منهم » . وقوله عز وجل : « إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى » ، فحظره أمير المومنين واصبا إليه ونزعه ما كان فيه ، وتمت مشيئة الله عز وجل ، ونفذ قضاؤه وتقديره فيه . وكان ذلك فى الكتاب مسطورا . فأقبلوا معاشر التجار والرعية ، على معايشكم ، واشتغلوا بأشغالكم ، فهو أعود لشأنكم ، ولا تطغوا فى أمر أنفسكم ، فلأمير المؤمنين الرأى فيه وفيكم ، فمن كانت له منكم مطالبة أو حاجة ، فليدعى إلى أمير المؤمنين بها ، فإنه مباشر ذلك لكم بنفسه ، وبابه مفتوح بينكم وبينه ، « والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » . وأنتم رعايا أمير المؤمنين المفتحة لها باب عدله ، وإحسانه وفضله ، والله يؤيده فيما يريده

ويعتمده من الخير ، لمن أطاعة من الأنام ، والحماية لحمى الإسلام ، عليه توكلت وإليه أنيب . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته . وكتب يوم الجمعة لثلاث يقين من شهر ربيع الآخر سنة تسعين وثلثمائة وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطيبين الأخيار ، وسلم تسليما » .

٥
وقفية الحاكم بأمر الله على الجامع الأزهر ودار الحكمة

وهو نص سجل الوقف الذى وقف بمقتضاه الحاكم بأمر الله بعض أملاكه بمصر والقاهرة على الجامع الأزهر ودار الحكمة وبعض المساجد الأخرى . منقول عن كتاب الخطط للمقريزى (الطبعة الأهلية) ج ٤ ص ٤٩ — ٥١

هذا كتاب أشهد قاضى القضاة مالك بن سعيد بن مالك الفارقى على جميع ما نسب إليه مما ذكر ووصف فيه من حضر من الشهود ، فى مجلس حكمه وقضائه بفسطاط مصر فى شهر رمضان سنة أربعمائة ، أشهدهم وهو يومئذ قاضى عبد الله ووليه المنصور أبى على الحاكم بأمر الله أمير المؤمنين بن الإمام العزيز بالله صلوات الله عليهما ، على القاهرة المعزية ومصر والإسكندرية والحرمين حرسهما الله وأجناد الشام والرقة والرحبة ونواحى المغرب وسائر أعمالهن وما فتحه الله ويفتحه لأمير المؤمنين ، من بلاد الشرق والغرب ، بمحضر رجل متكلم ، أنه صحت عنده معرفة المواضع الكاملة والحصص الشائعة ؛ التى يذكر جميع ذلك ويحدد هذا الكتاب ، وأنها كانت من أملاك الحاكم إلى أن حبسها على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة ، والجامع براشدة ، والجامع بالمقس ، اللذين أمر بإنشائهما وتأسيس بنائهما ، وعلى دار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، مشاعاً جميع ذلك غير مقسوم ؛ ومنها ما يخص الجامع بالمقس على شرائط يجرى ذكرها ؛ فمن ذلك ما تصدق به على الجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة والجامع براشدة ودار الحكمة بالقاهرة المحروسة ، جميع الدار المعروفة بدار الضرب وجميع القيسارية المعروفة بقيسارية الصوف وجميع الدار المعروفة بدار الخرق الجديدة ، الذى كله بفسطاط مصر ، ومن ذلك ما تصدق به على جامع المقس جميع أربعة الحوانيت والمنازل التى علوها والمخزنين الذى ذلك

كله بفسطاط مصر بالراية ، فى جانب الغرب من الدار المعروفة كانت بدار الحرق . وهاتان الداران المعروفتان بدار الحرق فى الموضع المعروف بحمام الفار ، ومن ذلك جميع الحصص الشائعة من أربعة الحوانيت المتلاصقة التى بفسطاط مصر بالراية أيضاً بالموضع المعروف بحمام الفار ، وتعرف هذه الحوانيت بحصص القيسى ، بحدود ذلك كله وأرضه وبنائه وسفله وعلوه وغرفه ومرتفقاته وحوانيته وساحاته وطرقه وممراته ومجارى مياهه وكل حق هو له داخل فيه وخارج عنه ؛ وجعل ذلك كله صدقة موقوفة محرمة محبسة بتة بتلة لا يجوز بيعها ولا هبتها ولا تمليكها ، باقية على شروطها جارية على سبلها المعروفة فى هذا الكتاب ،لا يوهنها تقادم السنين ولا تغير بحدوث حدث ، ولا يستثنى فيها ولا يتأول ولا يستفتى بتجدد تحبيسها مدى الأوقات ، وتستمر شروطها على اختلاف الحالات ، حتى يرث الله الأرض والسموات ، على أن يؤجر ذلك فى كل عصر من ينتهى إليه ولايتها ويرجع إليه أمرها ، بعد مراقبة الله واجتلاب ما يوفر منفعتها ، من إشهارها عند ذوى الرغبة فى إجارة أمثالها . فيبتدأ من ذلك بعمارة ذلك على حسب المصلحة وبقاء العين ومرمته من غير إجحاف بما حبس ذلك عليه ، وما فضل كان مقسوماً على ستين سهماً : فمن ذلك للجامع الأزهر بالقاهرة المحروسة المذكور فى هذا الإشهاد الخمس والثمن ونصف السدس ونصف التسع ، يصرف ذلك فيما فيه عمارة له ومصلحة وهو من العين المعزى الوازن ألف دينار واحدة وسبعة وستون ديناراً ونصف دينار وثمن دينار ، من ذلك للخطيب بهذا الجامع أربعة وثمانون ديناراً . ومن ذلك لثمن ألف ذراع حصر عبدانية تكون عدة له بحيث لا ينقطع من حصره عند الحاجة إلى ذلك ، ومن ذلك لثمن ثلاثة عشر ألف ذراع حصر مظفورة لكسوة هذا الجامع فى كل سنة عند الحاجة إليها مائة دينار واحدة وثمانية دنانير ، ومن ذلك لثمن ثلاثة قناطير زجاج وفراخها اثنا عشر ديناراً ونصف وربع دينار ، ومن ذلك لثمن عود هندى للبخور فى شهر رمضان وأيام الجمع مع ثمن الكافور والمسك وأجرة الصانع خمسة عشر ديناراً ، ومن ذلك لنصف قنطار شمع بالفلفلى سبعة دنانير ، ومن ذلك لكنس هذا الجامع ونقل التراب وخياطة الحصر وثمن الخيط وأجرة

الحياطة خمسة دنانير ، ومن ذلك لثمن مشاقة لسرج القناديل عن خمسة وعشرين رطلا بالرطل الفلفلى دينار واحد ، ومن ذلك لثمن فحم للبخور عن قنطار واحد بالفلفلى نصف دينار ، ومن ذلك لثمن أردبين ملحاً للقناديل ربع دينار ، ومن ذلك ما قدر لمؤنة الناس والسلاسل والتنانير والقباب التى فوق سطح الجامع أربعة وعشرون ديناراً ، ومن ذلك لثمن سلب ليف وأربعة أحبل وست دلاء أدم نصف دينار ، ومن ذلك لثمن قنطارين خرقاً لمسح القناديل نصف دينار ، ومن ذلك لثمن عشر قفاف للخدمة وعشرة أرطال قنب لتعليق القناديل ولثمن مائتى مكنسة لكنس هذا الجامع دينار واحد وربع دينار ، ومن ذلك لثمن أزيار فخار تنصب على المصنع ويصب فيها الماء مع أجرة حملها ثلاثة دنانير ، ومن ذلك لثمن زيت وقود هذا الجامع راتب السنة ألف رطل ومائتا رطل مع أجرة الحمل سبعة وثلاثون ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأرزاق المصلين يعنى الأئمة وهم ثلاثة وأربعة قومة وخمسة عشرة مؤذناً خمسمائة دينار وستة وخمسون ديناراً ونصف ، منها للمصلين ولكل رجل منهم ديناران وثلثا دينار فى كل شهر من شهور السنة ، والمؤذنون والقومة لكل رجل منهم ديناران فى كل شهر ، ومن ذلك للمشرف على هذا الجامع فى كل ستة أربعة وعشرون ديناراً ، ومن دلك لكنس المصنع بهذا الجامع ونقل ما يخرج منه من الطين والوسخ دينار واحد ، ومن ذلك لمرمة ما يحتاج إليه فى هـــذا الجامع فى سطحه وأترابه وحياطته وغير ذلك مما قدر لكل سنة ستون ديناراً ، ومن ذلك لثمن مائة وثمانين حمل تبن ونصف حمل جارية لعلف رأسى بقر للمصنع الذى لهذا الجامع ثمانية دنانير ونصف وثلث دينار ، ومن ذلك للتبن لمخزن يوضع فيه بالقاهرة أربعة دنانير ، ومن ذلك لثمن فدانين قرط لتربيع رأسى البقر المذكورين فى السنة سبعة دنانير ، ومن ذلك لأجرة متولى العلف وأجرة السقاء والحبال والقواديس وما يجرى مجرى ذلك خمسة عشر ديناراً ونصف ، ومن ذلك لأجرة قيم الميضأة إن عملت بهذا الجامع اثنا عشر ديناراً . وإلى هذا انقضى حديث الجامع الأزهر وأخذ فى ذكر جامع راشدة ودار العلم وجامع المقس ثم ذكر أن تنانير الفضة ثلاثة تنانير وتسعة وثلاثين قنديلا فضة ، فللجامع الأزهر تنوران وسبعة وعشرون

قنديلا ، ومنها لجامع راشدة تنور واثنا عشر قنديلا ، وشرط أن تعلق فى شهر رمضان وتعاد إلى مكان جرت عادتها أن تحفظ به ، وشرط شروطاً كثيرة فى الأوقاف منها أنه إذا فضل شىء اجتمع يشترى به ملك فإن عاز شيئاً واستهدم ولم يف الريع بعمارته بيع وعمر به ، وأشياء كثيرة ؛ وحبس فيه أيضاً عدة آدر وقياسر لا فائدة من ذكرها فإنها مما خربت بمصر .

٦

سجل بإقامة داعى الدعاة والدعوة للدولة والمشايعة لها

وهو نص أحد السجلات (المراسيم) الفاطمية ، التى كانت تصدر بتقليد داعى الدعاة منصبه ، وشرح مهامه ووسائله فى بث الدعوة ، منقول عن كتاب صبح الأعشى ج ١٠ ص ٤٣٤ - ٤٣٩

الحمد لله خالق ما وقع تحت القياس والحواس ، والمتعالى عن أن تدركه البصائر بالاستدلال والأبصار بالإيناس ، الذى اختار الإسلام فأظهره وعظمه ، واستخلص الإيمان فأعزه وأكرمه ؛ وأوجب بهما الحجة على الخلائق ، وهداهم بأنوارهما إلى أقصر الطرائق ، وحاطهما بأوليائه الراشدين شموس الحقائق ؛ الذين نصبهم فى أرضه أعلاماً ، وجعلهم بين عباده حكاماً ؛ فقال تعالى : « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا وأوحينا إليهم فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وكانوا لنا عابدين » .

يحمده أمير المؤمنين أن اصطفاه لخلافته وخصه بلطائف حكمته ، وأقامه دليلا على مناهج هدايته ، وداعياً إلى سبيل رحمته ، ويسأله الصلاة على سيدنا محمد نبيه الذى ابتعثه رحمة للعالمين ، فأوضح معالم الدين ، وشرع ظواهره للمسلمين ؛ وأودع بواطنه لوصيه سيد الوصيين ، على بن أبى طالب أمير المؤمنين ؛ وفوض إليه هداية المستجيبين والتأليف بين قلوب المؤمنين ؛ ففجر ينابيع الرشاد ، وغور ضلالات الإلحاد ، وقاتل على التأويل كما قاتل على الرسل ، حتى أنار وأوضح السبل ، وحسر نقاب البيان ، وأطلع شمس البرهان ، صلى الله عليهما ، وعلى الأئمة من ذريتهما مصابيح الأديان ، وأعلام

الأيمان ، وخلفاء الرحمن ، وسلم عليهم ما تعاقب الملوان وترادف الجديدان .

وإن أمير المؤمنين بما منحه الله تعالى من شرف الحكمة ، وأورثه من منصب الإمامة والأئمة ، وفوض إليه من التوقيف على حدود الدين ، وتبصير من اعتصم بحبله من المؤمنين ، وتنوير بصائر من استمسك بعروته من المستجيبين — يعلن بإقامة الدعوة الهادية بين أوليائه ، وسبوغ ظلها على أشياعه وخلصائه ؛ وتغذية أفهامهم بلبانها ، وإرهاف عقولهم ببيانها ؛ وتهذيب أفكارهم بلطائفها ، وإنقاذهم من حيرة الشكوك بمعارفها ، وتوقيفهم من علومها على ما يلحب لهم سبل الرضوان ، ويفضى بهم إلى روح الجنان وريح الحنان ، والخلود السرمدى فى جوار الجواد المنان — ما يزال نظره مصروفاً إلى نوطها بناشئ فى حجرها ، مغتذ بدرها سار فى نورها ، عالم بسرائرها المدفونة ، وغوامضها المكنونة ؛ موفراً على ذلك اختياره ، وقاصية انتقاده ؛ حتى أداه الاجتهاد إليك ووقفه الارتياد عليك ، فأسندها منك إلى كفئها وكافيها ، ومدرهها المبرز فيها ، ولسانها المترجم عن حقائقها الخفية ، ودقائقها المطوية ؛ ثقة بوثاقة دينك ، وصحة يقينك ، وشهود هديك وهداك ، وفضل سيرتك فى كل ما ولاك ، ومحض إخلاصك ، وقديم اختصاصك ؛ وأجراك على رسم هذه الخدمة فى التشريف والحملان ، والتنويه ومضاعفة الإحسان .

فتقلد ما قلدك أمير المؤمنين مستشعراً للتقوى ، عادلا عن الهوى ، سالكاً سبيل الهدى ؛ فإن التقوى أحصن الجنن ، وأزين الزين ، و « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن » فإن الله تعالى يقول : ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيراً كثيراً » . وحض على ذلك فقال سبحانه : « ومن أحسن قولا ممن دعا الى الله وعمل صالحاً وقال إننى من المسلمين » .

وخذ العهد على كل مستجيب راغب ، وشد العقد على كل منقاد ظاهر ، ممن يظهر لك إخلاصه ويقينه ويصح عندك عفافه ودينه ، وحضهم على الوفاء بما تعاهدهم عليه ، فإن الله تعالى يقول : « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » ويقول جل من قائل : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه » و (كف) كافة أهل الخلاف والعناد ، وجادلهم باللطف والسداد ، واقبل منهم من أقبل إليك بالطوع والانقياد ،

ولا تكره أحداً على متابعتك والدخول فى بيعتك وإن حملتك على ذلك الشفقة والرأفة والحنان والعاطفة ؛ فإن الله تعالى يقول لمن بعثه داعياً إليه بإذنه ، محمد صلى الله عليه وسلم « وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين » .

ولا تلق الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تكدى على الزارع ، وتوخ لغرسك أجل المغارس ، وتوردهم مشارع ماء الحياة المعين ، وتقربهم بقربان المخلصين ؛ وتخرجهم من ظلم الشكوك والشبهات ، إلى نور البراهين والآيات ، واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات ، فى قصور الخلافة الزاهرة والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ؛ وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقل أفهامهم بتقبله ؛ واجمع من التبصر بين أدلة الشرائع والعقول ودل على اتصال المتل بالممنون ، فإن الظواهر أجسام والبواطن أشباحها ، والبواطن أنفس والظواهر أرواحها ، وأنه لا قوام للأشباح إلا بالأرواح ، ولا قوام للأرواح فى هذه الدار إلا بالأشباح ، ولو افترقا لفسد النظام ، وانتسخ الإيجاد بالإعدام ، واقتصر من البيان على ما يحرس فى النفوس صور الإيمان ويصون المستضعفين من الافتتان ؛ وانههم عن الإثم ظاهره وباطنه ، وكامنه وعالنه ، فإن الله تعالى يقول : « وذروا ظاهر الإثم وباطنه » .

واتخذ كتاب الله مصباحاً تقتبس أنواره ، ودليلا تقتفى آثاره ، واتله متبصراً ، وردده متذكراً ، وتأمله متفكراً ، وتدبر غوامض معانيه ، وانشر ما طوى من الحكم فيه ؛ وتصرف مع ما حلله وحرمه ، ونقضه وأبرمه ، فقد فصله الله وأحكمه ، واجعل شرعه القويم الذى خص به ذوى الألباب ، وأودعه جوامع الصلوات ومحاسن الآداب ، سبباً تتبع جادته ، وتبلغ فى الاحتجاج محجته ، وتمسك بظاهره وتأويله ومثله ، ولا تعدل عن منهجه وسبله ؛ واضمم نشر المؤمنين ، واجمع شمل المستجيبين وأرشدهم إلى طاعة أمير المؤمنين ، وسو بينهم فى الوعظ والإرشاد ، والله تعالى يقول فى بيته الحرام : « سواء العاكف فيه والباد » وزد لهم من الفوائد والمواد على حسب قواهم من القبول ، وما يظهر لك من جودة المحصول ؛ ودرجهم بالعلم ،

ووفِّ المؤمن حقه من الاحترام ولا تعدم الجاهل عندك قولا سلاماً كما علم رب السلام ، وتوخ رعاية المؤمنين ، وحماية المعاهدين ، وميزهم من العامة بما ميزهم الله من فضل الإيمان والدين ، وألن لهم جانبك واحن عليهم والطف ، وابسط لهم وجهك وأقبل إليهم واعطف ، فقد سمعت قول الله تعالى لسيد المرسلين « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين » ، ولا تفسح لأحد منهم فى التطاول بالدين ، ولا الإضرار بأحد من المعاهدين والذميين ، وميزهم بالتواضع الذى هو حلية المؤمنين ، وإذا ألبس عليك أمر وأشكل ، وصعب لديك مرام وأعضل ، فأنهه إلى حضرة الإمامة متبعاً قول الله تعالى : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » وقوله : « فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » ؛ ليخرج إليك من بصائر توقيفها ، ومراشد تعريفها ما يقفك على مناهج الحقيقة ، ويذهب (بك) فى لاحب الطريقة ، واقبض ما يحمله المؤمنون لك من الزكاة والجزى والأخماس والقربات وما يجرى هذا المجرى ، وتتقدم إلى كاتب الدعوة بإثبات أسماء أربابه ، واحمله إلى أمير المؤمنين لينتفع مخرجوه بتنقيله له ووصوله إليه ، وتبرأ ذممهم عند الله منه ، واستنب عنك فى أعمال الدعوة من شيوخ علم الحكمة ومن تثق بديانته ، وتسكن فيه إلى وفور صناعته ؛ واعهد إليهم كما عهد إليك ، وخذ عليهم كما أخذ عليك ، واستطلق لهم من فضل أمير المؤمنين ما يعينهم على خدمته ، ويحمل ثقلهم عن أهل دعوته ، واستخدم كاتباً ديناً أميناً مؤمناً بصيراً عارفاً ، حقيقاً بالإطلاع على أسرار الحكمة التى أمر الله بصيانتها وكتمانها عن غير أهلها ، نقياً حصيفاً لطيفاً ، ينزلهم فى مجلسك بحسب مراتبهم من العلم والدين والفضل .

هذا عهد أمير المؤمنين إليك فتدبره متبصراً ، وراجعه متدبراً ، وبه الوصايا تهدى وتسدد ، وتوفق وترشد ، واستعن بالله يمدك بمعونته ، ويدم حظلك من هدايته ، إن شاء الله تعالى .

٧

السـجل المعلق

وهو نص السجل الذى زعم الدعاة الملاحدة أنه وجد معلقاً على المشاهد عقب اختفاء الحاكم بأمر الله وهو أول رسائل حمزة بن على حسبما ذكرنا فيما تقدم ، منقول عن مجموعة خطية قديمة بدار الكتب محفوظة برقم ٣٧ عقائد النحل .

نسخة السجل الذى وجد معلقاً على المشاهد فى غيبة مولانا الإمام الحاكم

بسم الله الرحمن الرحيم

والعاقبة لمن تيقظ من وسن الغافلين ، وانتقل عن جهل الجاهلين ، وأخلص منه اليقين ، فبادر بالتوبة الى الله تعالى ، والى وليه وحجته على العالمين ، وخليفته فى أرضه وأمينه على خلقه أمير المؤمنين ، واغتنم الفوز مع المطهرين والمتقين ، ولم يكذب بيوم الدين ، وكان بالغيب من المسدقين به والموقنين ، وأعتقد أن الساعة آتيـة بغتة لا ريب فيها وأن الله لا يضيع أجر المحسنين ، ولا عدوان إلا على الظالمين المردة الشياطين ، الفسقة المارقين ، وكل حلاف مهين ، الناكثين الباغين المفسدين الطاغين ، أهل الخلاف والمنافقين المكذبين بيوم الدين ، المغضوب عليهم والضالين ، والحمد لله حمد الشاكرين ، حمداً لا نفاد لآخره أبد الآبدين ، وصلى الله على سيد المرسلين محمد المبعوث بالقرآن الى الخلق أجمعين ، ومبشراً ونذيراً بأئمة من ذريته هادين مهديين ، كراماً كاتبين ، شهداء على العالمين ، ليبينوا للناس ما هم فيه مختلفون ، وعنـه يتساءلون ، ويرشدونهم الى النبأ العظيم ، والصراط المستقيم ، سلام الله السنى السامى عليهم الى يوم الدين . أما بعد أيها الناس فقد سبق إليكم من الوعد والوعظ والوعيد ، من ولى أمركم وإمام عصركم ، وخلف أنبيائكم وحجة باريكم ، وخليفته الشاهد عليكم بموبقاتكم ، وجميع ما اقترفتم فيه ، من الاعذار والإنذار ما فيه بلاغ لمن سمع وأطاع ، واهتدى وجاهد نفسه عن الهوى وآثر الآخرة عن الدنيا ؛ وأنتم مع ذلك فى وادى الجهالة تسبحون ، وفى تيه الضلالة تخوضون وتلعبون ، حتى تلاقوا يومكم الذى كنتم به توعدون . كلا سوف

تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ؛ وقد علمتم معشر الكافة ، أن جميع ما ورثه الله تعالى لوليه وخليفته فى أرضه ، أمير المؤمنين سلام الله عليه ، من النعم الظاهرة والباطنة ، قد خول إمام عصركم لشريفكم ومشروفكم من خاصتكم وعامتكم ، من ظاهر ذلك وباطنه ، على الإكثار والإمكان بفضله وكرمه ، حسب ما رأى سلام الله عليـــه ، ولم يبخل بجزيل عطائه ، وهناكم منة منه ، مع ذلك ما أوجبه الله تعالى له عليكم ، فى كتابه من الحق ، فيما ملكته أيمانكم ، ولم يشارككم فى شىء من أحوال هذه الدنيا ، نزاهة عنها ورفضاً منه لها ، على مقداره ومكنته ، لأمر سبق فى حكمته ، وهو سلام الله عليه أعلم به ، فأصبحتم وقد حزتم من فضله وجزيل عطائه ، ما لم ينل مثله بشر من الماضين من أسلافكم ، ولا أدرك قوة أنبأ منه أحد من الأمم الذين خلوا من قبلكم من المهاجرين والأنصار ، فى متقدم الأزمان والأعصار ، ولم تنالوا ذلك من ولى الله باستحقاق ، ولا بعمل عامل منكم من ذكر وأنثى ، بل منة منه عليكم ، ولطفاً بكم ورأفة ورحمة ، واختباراً ليبلوكم أيكم أحسن عملا ، ولتعرفوا قدر ما خصصكم به فى عصره من نعمته وحسن منته وجميل لطفه ، وعظيم فضله وإحسانه ، دون من قد سلف من قبلكم ، فاشكروا الله ووليه كثيراً على ما خولكم من فضله ، ولعلكم تشكرون ، وتعملون عملا يرضى ويضاهى أعمال الأمم السالفين أضعافاً ، حسب ما ضاعفه لكم ولى الله فى عصره ، من نعمه الظاهرة الجليلة ، من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، والخيل المسومة والأنعام الى غير ذلك من الأرزاق والإقطاع والضياع وغيره من أغراض الدنيا ، على اختلاف أصناف إحسانه ، ورقى خاصتكم وعامتكم الى الدرجات العالية ، والرتب السامية ، لتقفوا مسالك أولى الألباب ، وأمركم وشرفكم بأحسن الألقاب ، وجولكم فى الأرض مشرقاً ومغرباً ، وسهلا وجبلا ، وبراً وبحراً ، فأنتم ملوكها وسلاطينها وجباة أموالها تفك لكم بمادة ولى الله الرقاب ، وتنقاد إليكم الوفود والأحزاب ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، فعشتم فى فضل أمير المؤمنين ، سلام الله عليه ، رغداً بغير عمل ؛ وترجون بعد ذلك حسن مآب . ومن نعمه الباطنة عليكم ، تمسككم فى ظاهر أمركم بموالاته ، تعتزون بمعانى دنياتكم وترجون بها نجاتكم والفوز فى آخرتكم ،

فقد تمنون على الله وعلى وليه بإيمانكم ، بل الله يمن عليكم إذ هداكم الى الإيمان ؛ فأنتم متظاهرون بالطاعة متمسكون بالمعصية ، ولو استقمتم على الطريقة الوسطى لا سقيتم ماء غدقاً . ثم من نعمه الباطنة عليكم أحياؤه لسنن الإسلام والإيمان التي هي الدين عند الله ، وبه شرفتم وطهرتم فى عصره على جميع المذاهب والأديان ، وميزتم من عبدة الأوثان ، وأبانهم عنكم بالذلة والحرمان ، وهدم كنائسهم ومعالم أديانهم ، وقد كانت قديمة من قدم الأزمان ، وانقادت الذمة إليكم طوعاً وكرهاً ، فدخلوا فى دين الله أفواجاً ؛ وبنى الجوامع وشيدها ، وعمر المساجد وزخرفها ، وأقام الصلوة فى أوقاتها ، والزكوة فى حقها وواجباتها ، وأقام الحج والجهاد وعمر بيت الله الحرام ، وأقام دعائم الإسلام ، وفتح بيوت أمواله ، وأنفق فى سبيله ، وخفر الحاج بعساكره ، وحفر الآبار وآمن السبيل والأقطار ، وعمر السقايات ، وأخرج على الكافة السدقات وستر العورات ، وترك الظلمات ، ورفع عن خاصتكم وعامتكم الرسوم والواجبات التى جعلها الله تعالى عليكم من المفترضات ، وقسم الأرض على الكافة شبراً شبراً ، وداو لها بين الناس حيناً ودهرا ، وفتح لكم أبواب دعوته وأيدكم بما خصه الله من حكمته ليهديكم بها إلى رحمته ويحثكم على طاعته ، وطاعة رسوله وأوليائه عليهم السلام ، لتبلغوا مبالغ الصالحين ؛ فشينتم العلم والحكمة ، وكفرتم الفضل والنعمة ، ونبذتم ذلك وراء ظهوركم ، وآثرتم عليه الدنيا كما آثروها قبلكم بنو إسرائيل ، فى قصة موسى عليه السلام ، فلم يجبركم ولى الله عليه السلام ، وغلق باب دعوته ، وأظهر لكم الحكمة ، وفتح لكم خارج قصره دار علم ، حوت من جميع علوم الدين وآدابه ، وفقه الكتاب ، فى الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام ، مما هو فى صحف الأولين وصحف إبراهيم وموسى صلى الله عليهم أجمعين ، وأمدكم بالأوراق والأرزاق والحبر والأقلام لتدركوا بذلك ما تخطون به وتستبصرون ، وبه من الجهل تفوزون ، وقد كنتم من قبل ذلك فى طلب بعضه تجهدون ، فرفضتموه وقصرتم ، وعن جميعه أعرضتم إعراض المضلين ، ولم يزيدكم ذلك إلا فرارا ، ومال بكم الهوى إلى الموبقات ، ومكنتم من اكتساب السيئات ، ونقضتم العلم وأظهرتم الجهل ، وكثر بغيكم ومرحكم على الأرض ، حتى كان لها أن تضج إلى الله تعالى فيكم

من كثرة جوركم ومرحكم عليها ، وولى الله سلام الله عليه ، مكافح لها فيكم رجاء أن تتيقظ خاصتكم ، وتستفيق من السكر والجهل عامتكم ، فما ازددتم إلا طغياناً وعصياناً واختلافاً ؛ تتناجون بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، وعدو الله وعدو أمير المؤمنين ، قد قصر عن الفساد يده مخافة من سطوات ولى الله ورضى منه بالمسالمة والمهادنة ، حتى ليس لأمير المؤمنين سلام الله عليه عدواً يجاهده ولا ضداً يعانده ، والكل من هيبته خايف وجل ، وأنتم معشر الخاص والعام بحضرته ، تضمكم دولته ، وتشملكم ولايته وتلزمكم طاعته ، وأنتم مع ما تقدم ذكره من مساوئكم متحادقين متعاندين متزاحفين ، يجاهد بعضكم بعض كالروم والخزر جرأة على الله بغير مخافة منه ولا ترقب ، ولا ينهيكم عن سفك الدماء وهتك الحريم دين من الله ، ولا وقاراً من أمامكم ولا يقيناً ، قد غلب عليكم الجهل فلن ترجوا لله وقاراً ، ولن تقولوا ان إمام عصركم واحد ، وان الإسلام والإيمان قد شملكم ، وجمعكم تحت طاعة الله وطاعة رسوله ، ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه ، فإنا لله وإنا إليه راجعون . فأى نازلة هى أكبر منها وأين شماتة للعدو ، ويلكم أعظم من مثلها . لقد أصبتم أيها الناس فى أنفسكم وأديانكم ، وأصيب فيكم أمير المؤمنين سلام الله عليه ، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؛ أفأمنتم أيها الغافلون أن يصيبكم ما أصاب من كان قبلكم من أصحاب الأيكة وقوم تبع ، ألم تسمعوا قول الله تعالى : ألم تر كيف فعل ربك بعاد ، إرم ذات العماد ، الذين طغوا فى البلاد ، فأكثروا فيها الفساد ، فصب عليهم ربك صوت عذاب ، إن ربك لبالمرصاد ؛ وقوله تعالى : ألم نهلك الأولين ، ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك نفعل بالمجرمين . ومثل هـــذا كثير فى كتاب الله عز وجل ، مما أصاب أهل الفساد والخلاف والمنافقين والمفسدين فى الأرض ، فقد غضب الله تعالى ووليه أمير المؤمنين سلام الله عليه ، من عظم إسراف الكافة أجمعين ، ولذلك خرج من أوساطكم ، قال الله ذو الجلال والإكرام ، وما كان الله يعذبهم وأنت فيهم ؛ وعلامة سخط ولى الله تعالى ، تدل على سخط الرب تبارك وتعالى . فمن دلائل غضب الإمام ، غلق باب دعوته ، ورفع مجالس حكمته ، ونقل جميع دواوين أوليائه وعبيده من قصره ، ومنعه عن الكافة سلامه ، وقد

كان يخرج إليهم من حضرته ، ومنعه لهم عن الجلوس على مصاطب سقائف حرمه ، وامتناعه عن الصلاة بهم فى الأعياد وفى شهر رمضان ، ومنعه المؤذنين أن يسلموا عليه وقت الأذان ، ولا يذكرونه ، ومنعه جميع الناس أن يقولوا مولانا ، ولا يقبلوا له التراب ، وذلك مفترض له على جميع أهل طاعته ، وإنهاؤه جميعهم عن الترجل له من ظهور الدواب ، ثم لباسه الصوف على أصنافه وألوانه ، وركوبه الأتان ، ومنعه أولياءه وعبيده الركوب معه حسب العادة فى موكبه ، وامتناعه عن إقامة الحدود على أهل عصره ، وأشياء كثيرة خفيت عن العالم وهم عن جميع ذلك فى غمرة ساهون ؛ استحوذ عليهم الشيطان ، فانساهم ذكر الله ، أولئك حزب الشيطان ، ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون . فقد ترك ولى الله أمير المؤمنين سلام الله عليه الخلق أجمعين سدى ، يخوضون ويلعبون فى التيه والعمى ، الذى آثروه على الهدى ، كما ترك موسى قومه حتى آن الهلاك أن يهجم عليهم وهم لا يعلمون ، وخرج عنهم وهم فى شك منه مختلفون ، مذبذبون بين ذلك ، لا إلى الحق يطيعون ، ولا إلى ولى الله يرجعون ، قال الله تعالى ، ولو ردوه إلى الله والرسول ، وأولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ؛ أيها الناس كلام الله أوعظ واعظ ، وبين منه وعظكم بهذه الموعظة من الفقر والحاجة إلى عفو الله تعالى ، وعفو وليه أمير المؤمنين سلام الله عليه ، أعظم منكم . فبالنسيان تكون الغفلة ، وبالغفلة تكون الفتنة ، وبالفتنة تكون الهلكة ؛ وقد قال الله تبارك وتعالى ، ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول ، لوجدوا الله غفوراً رحيما . وقال عز من قائل ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً ، إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ؛ وقال تبارك وتعالى ، فإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى . فالبدار البدار معشر الناس أن وقفتم على براح من الأرض يكون أول طريق سلكها أمير المؤمنين سلام الله عليه ، وقت أن استتر نضو أعينكم ، وتجتمعوا فيها بأنفسكم وأولادكم ، وطهروا قلوبكم و أخلصوا نياتكم لله رب العالمين ؛ وتوبوا إليه توبة نصوحا وتوسلوا إليه بأوجه الوسائل بالصفح عنكم والمغفرة لكم ، وأن يرحمكم بعودة وليه إليكم ويعطف بقلبه عليكم ، فهو رحمة عليكم

وعلى جميع خلقه ، كما قال الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وعلى آله ، وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ؛ فالحذار الحذار أن يقفو أحد منكم لأمير المؤمنين سلام الله عليه أثرا ، ولا تكشفوا له خبرا ، ولا تبرحوا فى أول طريق يتوسل جميعكم ، كذلك أمراؤنا ؛ فإذا أطلت عليكم الرحمة ، خرج ولى الله أمامكم باختياره راضياً عنكم ، ظاهراً فى أوساطكم ، فواظبوا على ذلك ليلا ونهاراً قبل أن تحق الحاقة وتقرع القارعة ويغلق باب الرحمة ، وتحل بأهل الخلاف والعناد النقمة ، وقد أعذر من أنذر ، ونصح من قبلكم نفسه وحذر ، والخطاب لأولى الألباب منكم ، والتعيين عليهم والمشيئة لله تبارك وتعالى ، والتوفيق به والسلام على من اتبع الهدى وخشى عواقب الردى وسدق بكلمات ربه الحسنى . وكتب مولى دولة أمير المؤمنين سلام الله عليه فى شهر ذى القعدة سنة إحدى عشر وأربعماية . وصلى الله على محمد سيد المرسلين وخاتم النبيين وسلم على آله الطاهرين وحسبنا الله ونعم الوكيل . تحتفظ أصحاب العمل بهذه الموعظة من المتقين ، ولا يمنع أحد من نسخها وقراءتها ، نفع الله من وفق للعمل بما فيها من طاعة الله وطاعة وليه أمير المؤمنين سلام الله عليه ، حرام حرام على من لا ينسخها ويقرأها على التوابين فى جامع أسفل ، وحرام حرام على من قدر على نسخها وقصر والحمد لله وحده .

٨

ميثاق ولى الزمان

وهو نص العهد الذى وضعه حمزة بن على ليؤخذ على الداخلين فى دعوته ، ولا يزال يؤخذ اليوم على الدروز الذين ينتظمون فى سلك « العقلاء » . منقول عن المجموعة الخطية التى أشرنا إليها

توكلت على مولانا الحاكم الأحد ، الفرد الصمد ، المنزه عن الأزواج والعدد ؛ أقر فلان بن فلان إقراراً أوجبه على نفسه ، وأشهد به على روحه ، فى صحة من عقله وبدنه ، وجواز أمره طائعاً غير مكره ولا مجبر ، أنه قد تبرأ من جميع المذاهب والمقالات والأديان والاعتقادات ، كلها على أصناف اختلافاتها ، وأنه لايعرف شيئاً غير طاعة مولانا الحاكم جل ذكره ، والطاعة هى العبادة ، وأنه لا يشرك فى عبادته أحداً مضى أو حضر أو ينتظر ، وأنه قد سلم روحه وجسمه وماله وولده وجميع ما يملكه لمولانا الحاكم جل ذكره ، ورضى بجميع أحكامه له وعليه ، غير معترض ولا منكر لشىء من أفعاله ساءه ذلك أم سره ، ومتى رجع عن دين مولانا الحاكم جل ذكره الذى كتبه على نفسه ، وأشهد به على روحه ، أو أشار به الى غيره ، أو خالف شيا من أوامره ، كان برياً من البارى المعبود ، واحترم الإفادة من جميع الحدود ، واستحق العقوبة من البار العلى جل ذكره ؛ ومن أقر أن ليس له فى السما إله معبود ، ولا فى الأرض إمام موجود ، إلا مولانا الحاكم جل ذكره كان من الموحدين ، الفايزين . وكتب فى شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا من سنين عبد مولانا جل ذكره ، ومملوكه حمزة ابن على ابن أحمد هادى المستجيبين المنتقم من المشركين والمرتدين ، بسيف مولانا جل ذكره وشدة سلطانه وحده .

ثبت المصـــادر

نورد فيما يلى ، أهم المصادر التى رجعنا إليها أو استشرناها فى البحث والتحقيق من شرقية وغربية :

١ ـ المصادر العربية

كتاب ولاة مصر وقضاتها لأبى عمر الكندى (المطبوع بعناية المستشرق جست) .

خطط المقريزى أو كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار (الطبعة الأهلية) .

اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء للمقريزى (النسخة الخطية الكاملة المحفوظة بمكتبة سراى أحمد الثالث باستانبول . والنسخة المطبوعة بعناية الدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٨)) .

الإشارة الى من نال الوزارة لابن منجب الصيرفى .

عيون المعارف وفنون أخبار الخلائف لأبى عبد الله القضاعى (نسخة دار الكتب الخطية رقم ١٧٧٩ تاريخ) .

أخبار الدول المنقطعة للوزير جمال الدين أبى الحسن بن على بن كمال الدين الخزرجى المصرى ، ويوجد منه بدار الكتب مجلد فتوغرافى محفوظ برقم ٨٩٠ تاريخ .

مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان لشمس الدين أبى المظفر يوسف بن قزأوغلى المعروف بسبط بن الجوزى ، الجزء الحادى عشر : ضمن نسخة دار الكتب المصورة ، ويوجد منها سبعة عشر مجلداً تحفظ برقم ٥٥١ تاريخ .

تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام للذهبى ، نسخة دار الكتب الفتوغرافية المحفوظة برقم ٤٢ تاريخ (مجلدات ٢٢ و ٢٣ و ٢٤) .

تاريخ يحي بن سعيد الأنطاكى ، المذيل به على كتاب نظم الجوهر المعروف بتاريخ سعيد بن بطريق (طبع الآباء اليسوعيين) .

كتاب سير الآباء البطاركة لساويرس بن المقفع أسقف الأشمونين، وملحقه المسمى « سـير البيعة المقدسة » نقلته دار الكتب المصرية عن نسخة مكتبة باريس ويحفظ بها برقم ٦٤٣٤ ح .

كتاب الديارات لأبى الحسن على الشابشتى (طبع بغداد ١٩٥١) .

تاريخ أبى هلال الصابى (القطعة التى نشرت منه ضمن كتاب تجارب الأمم لابن مسكويه) .

تاريخ ابن الراهب (طبع الآباء اليسوعيين) .

مختصر تاريخ الدول لابن العبرى (طبع الآباء اليسوعيين) .

تاريخ المكين ابن العميد المسمى « بتاريخ المسلمين » (طبع ليـدن سنة ١٦٢٥) .

تاريخ الأديار والكنائس المعروف « بتاريخ أبى صالح الأرمنى » (طبعة اكسفورد)[١] .

تاريخ ابن الأثير (الطبعة الأهلية) .

المختصر فى أخبار البشر لأبى الفدا .

كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر لابن خلدون (بولاق) .

مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصفهانى .

وفيات الأعيان لابن خلكان (بولاق) .

تاريخ القفطى المسمى أخبار العلماء بأخبار الحكماء .

نهاية الأرب للنويرى (نسخة دار الكتب الفتوغرافيـة رقم ٥٤٩ معارف عامة) المجلدات ٢٠ الى ٢٦ .

كتاب صبح الأعشى لأبى العباس القلقشندى .

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب) .

حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى .

---

(١) يبدو من بعض البحوث الحديثة أن « تاريخ أبى صالح الأرمنى » هذا ، ليس إلا جزءاً من مؤلف أكبر ، وأن القسم الذى طبع منـه هو الجزء الخاص بالأديار والكنائس فى الوجه القبلى ، وأن المؤلف العام المنسوب لأبى صالح ، هو فى الحقيقة لأبى المكارم جرجس بن مسعود من مؤلفى القرن الثالث عشر الميلادى .

كتاب الفرق بين الفرق لأبى منصور عبد القاهر البغدادى .
الملل والنحل للشهرستانى (على هامش كتاب الفصل لابن حزم) .
رسالة الرد على الباطنية للغزالى المطبوعة بعناية المستشرق جولدسيهر .
كشف أسرار الباطنية وأخبار القرامطة لمحمد بن مالك (القاهرة ١٩٥٥) .
تاريخ جبل لبنان ، لمؤلف مجهول (مخطوط بدار الكتب رقم ١٦ م) .
معجم البلدان لياقوت الحموى .
مصر الإسلامية لمحمد عبد الله عنان .

مصادر إسماعيلية

راحة العقل للداعى حميد الدين الكرمانى المنشور بعناية الدكتورين محمد كامل حسين ومحمد مصطفى حلمى (القاهرة ١٩٥٢) .
دعائم الإسلام وذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام للقاضى أبى حنيفة النعمان بن محمد التميمى (الجزء الأول) المنشور بعناية السفير آصف ابن على أصغر فيضى (القاهرة ١٩٥١) .
شرح الأخبار فى فضايل النبى المختار وآل المصطفى الأخيار للقاضى النعمان المذكور نسخة مصورة بدار الكتب المصرية .
كتاب الهمة فى آداب اتباع الأئمة للقاضى النعمان المذكور ، ونشر بعناية الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة) .
سيرة المؤيد فى الدين داعى الدعاة المنشور بعناية الدكتور محمد كامل حسين (القاهرة ١٩٤٩) .
السجلات المستنصرية المنشور بعناية الدكتور عبد المنعم ماجد (القاهرة ١٩٥٤) .
المجالس المستنصرية للداعى ثقة الإمام علم الإسلام ، المنشور بعناية الدكتور كامل حسين (القاهرة) .
« فى نسب الخلفاء الفاطميين » ، أسماء الأئمة المستورين كما وردت فى كتاب أرسله المهدى عبيد الله الى ناحية اليمن (قطعة مستخرجة من كتاب الفرايض وحدود الدين نسخة خطية) تقديم الأستاذ حسين بن فيض الله الهمدانى .
استتار الإمام ، لأحمد بن محمد النيسابورى ، رسالة نشرت بعناية

المستشرق ف . إيڤانوف بمجلة كلية الآداب (جامعة القاهرة) فى عدد ديسمبر سنة ١٩٣٦ (ص ٨٩ — ١٠٧) .

سيرة الحاجب جعفر بن على وخروج المهدى ، رسالة نشرت بعناية المستشرق المذكور بمجلة الكلية فى نفس العدد (ص ١٠٧ — ١٣٣) .

الرسالة الواعظة ، فى نفى دعوى ألوهية الحاكم ، للداعى حميد الدين الكرمانى ، نشرت بعناية الدكتور محمد كامل حسين فى مجلة كلية الآداب (عدد مايو ١٩٥٢) .

رسائل الدعاة السرية

ومنها بدار الكتب المصرية عدة مجموعات مخطوطة .

(١) مجموعة كاملة من رسائل حمزة بن على وتحمل رقم ٣٧ عقائد النحل .

(٢) نسخة أخرى من رسائل حمزة بن على (ناقصة) وتحفظ برقم ١٣٣ عقائد النحل .

(٣) رسائل المقتنى وآخرين وتحفظ برقم ١٣٨ عقائد النحل .

(٤) الرسالة الدامغـــة فى الرد على النصيرى وغيرها وتحفظ برقم ٥٤ عقائد النحل .

(٥) مجموعة رسائل تحمل رقم ٣٥ عقائد النحل .

(٦) مجموعة أخرى تحمل رقم ٢٠ عقائد النحل .

(٧) مجموعة رسائل أخرى تحمل رقم ٣٩ عقائد النحل :

٢ — المصادر الغربية

Von Mueller : Der Islam.

Wuestenfeld : Geschichte der Fatimiden.

Goldziher : Die Religionen des Orients.

Goldziher : Streitschrift des Gazali gegen die Batinijà-Sekte (Einleitung).

Silvestre de Sacy : Exposé de la Réligion des Druzes.

Dozy : Essài sur l'Histoire de l'Islamisme.

Lane-Poole : History of Egypt in the Middle Ages.

Encyclopédie de l'Islam.

Finlay : Byzantine Empire.

W. Besant & E. H. Palmer : Jerusalem.

كتب اسماعيلية

W. Ivanow : Ismaili Tradition concerning the Rise of the Fatimids (Oxford 1942).

W. Ivanow : The Alleged Founder of Ismailism (Bombay 1946).

W. Ivanow: A Creed of the Fatimids (a Summary of Taj-ul-Aqa'id) (Bombay 1936)

W. Ivanow : Brief Summary of the Evolution of Ismailism (Brill, Leyden, 1952).

فهرست الموضوعات

صفحة

الكتاب الثالث

خواص العصر الفاطمى
السياسية والاجتماعية والعقلية

وثائق وسجلات فاطمية

فهرست البلدان والأماكن

فهرست الأعلام

ب — ت

ج — خ

د — ز

س — ش

ص — ع

ف — ل

م — ى

رقم الإيداع ٥٠٤٠ / ١٩٨٣
ترقيم دولى ٥ - ٦ ٠٠ - ٥٠٥ - ٩٧٧